

# القرآن و الكتاب

\*

٢ - أطوارُ الدَّعوةِ القرآنيّة

(القسم الثاني: الفصل السادس - الفصل العاشر (ص ٥٣٢ - ٨٤٩))

يوسف حرة الحداد

Professor Youssef Durrah al-Haddad

**Book Two : The Stages Of The Qur'anic Mission**

( The second part: 6<sup>th</sup> chapter – The 10<sup>th</sup> chapter ( pp 532- 849)

[www.muhammadanism.org](http://www.muhammadanism.org)

November 4, 2011

## الفصل السادس

### « العهد الإسرائيلي في القرآن »

- تعليق على العهد الثاني بمكة -

« ومن قبله كتاب موسى إماماً ورحمة »  
( هود ١٧ أحقاف ١٢ )

#### الهجرة الشخصية إلى الطائف نهاية عهد، وبداية عهد.

الحادث الثاني الجلل في حياة النبي في مكة هو هجرته الشخصية إلى الطائف، مدينة الجنوب الحجازي. وقد وقعت قبل الهجرة الكبرى إلى المدينة المنورة بسنتين، نحو ٦٢٠م. ولما انتبه دارسو القرآن من مسلمين ومستشرقين إلى آثار هذه الهجرة في الدعوة والداعي. بها تنتقل الدعوة من عهد إلى عهد، في الموضوع والأسلوب، وتتطور العلاقات بين محمد واليهود، وأهل الكتاب عامة.

تأزمت محنة الفتنة والأذى، واستهدفت هذه المرة النبي ذاته. كادوا يستفزون ليخرجوه في مكة (إسراء ٧٦)، ويتآمرون عليه مبرمين أمراً (زخرف ٧٩)، ويرتقبون هلاكه (دخان ٥٩)؛ وفي القطيعة التي استحكمت بين المسلمين والمشركين كادوا له ليقتلوه (غافر ٢٨)، « وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال » (إبراهيم ٤٧).

مع أن النبي منذ سورة (إيلاف قريش) تساهل معهم في التوحيد الخالص وسمح لهم بعبادة رب البيت، قبل الهجرة إلى الحبشة، ثم تنصل منهم في (الكافرون والإخلاص). وفي هذا العهد الثاني لما استحكمت القطيعة عاد فتساهل معهم من جديد بعبادة رب هذه البلدة (نمل ٩١) فتوالت عليه التحذيرات: « فلا تكوننّ ظهيراً للكافرين! ولا تكونن من المشركين! ولا تدع مع الله إلهاً آخر » (القصص ٨٥ - ٨٨) حتى استقام: « قل يا أيها الناس لا أعبد الذين تعبدون من دون الله » (يونس ١٠٤ - ١٠٧) وزال عنه الشك:

« فلا تك في مرية ممّا يعبد هؤلاء ... فاستقم كما أمرت ومن تاب معك » ( هود ١١٩- ١٢٣ ).  
وجاءه الأمر بالأعراض عن المشركين وتركهم « فاصدع بما تؤمر واعرض عن المشركين » ( الحجر ٩٤ ) فامتثل للأمر وأعلن الإخلاص في التوحيد للرحمان رب العالمين « قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين: بذلك أمرت وأنا أول المسلمين » من هذه الأمة ( أنعام ١٦٥ ).

فازدادوا له كيداً ومؤامرات وجدالاً وتعجيزاً وتهديداً: « وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات ترى في وجوه الذين كفروا المنكر: يكادون يسطون بالذين يتلون عليهم آياتنا » ( الحج ٧٤ ). « فكان لذلك كله الأثر الأكبر في ما لقي النبي والمسلمون من شدة وعنت وعنف، وفي بقاء الدعوة في العهد المكي في نطاق ضيق محفوف بالآخطار » .

تلك محنة من خارج خُتمت بمحنة أكبر من داخل. فالعام ٦١٩م يسمى في السيرة النبوية « عام الحزن » توالى فيه على النبي الأحرار: فقد فيه عمه أبا طالب مربيّه وحاميّه من أذى قريش وكيد صنّاديد مكة؛ وفقد فيه السيدة خديجة، تلك الزوج الوفي التي كفته بمالها وحبها، وكان لها مع ابن عمّها ورقة بن نوفل الفقيه المسيحي الأكبر في مكة، ومترجم التوراة والإنجيل إلى العربية، وولي خديجة الذي أزوجه إياها، الأثر الأكبر في توجيه الحنيف محمد إلى التوحيد الكتابي المباشر، وفي تطمين النبي إلى وحي السماء، ومساندته في الدعوة القرآنية، وجلب السكنية إلى نفسه كلما قام فيها شك من أمره ... بفقدتهما انهارت أعصاب النبي.

فكانت الهجرة الشخصية إلى الطائف.

\*

### بحث أول: « العهد الإسرائيلي في القرآن »

ما بين هذه الهجرة إلى الطائف والهجرة إلى الحبشة كانت الدعوة القرآنية في هذا العهد الثاني من مكة « العهد الإسرائيلي في القرآن والسيرة » . يشهد بذلك الروح العامة العارمة التي تسير العهد كله، والتصاريح المتنوعة التي تملأ السور كلها، والتعابير التي اكتسبتها الدعوة القرآنية على مدى الدهر.

### أولاً: الروح العامة التي تسيّر العهد.

في هذا العهد لا يرد ذكر المسيح إلا عابراً ( زخرف ٥٧- ٦٥ ) وبكلام يخفف من إطراء وسناء سورة مريم.

فيه تحولت الدعوة من الإنذار بيوم الدين على طريقة رهبان عيسى إلى تعليم التوحيد الخالص على طريقة علماء بني إسرائيل الذين يهدون بأمر الله ( سجدة ٢٣ ).

فيه تحوّل أسلوب الدعوة، من الأقسام القومية التي تظهر عليها رواسب الشرك العربي الفلكي القديم، إلى الأقسام الكتابية التي تشهد للوحي والتنزيل والكتاب.

يصف باقتضاب أحوال اليوم الآخر، ويتبسط في براهين التوحيد على غرار المزامير والأنبياء وكتب الحكمة المنزلة (( في الأفق وفي أنفسهم )) ( فصلت ٣٩ ): (( إن في السماوات والأرض آيات للمؤمنين )) ( جاثية ٢ )، مع جدل متواصل للمشركين العرب على ظلمهم في شركهم.

يسترسّل خصوصاً بتكرار قصص أنبياء الكتاب، والأقوام الأولين عبرة للقوم الآخرين. ويتخذها ميداناً لوصف حاله من قومه بلسان الغابرين.

ويقدّس بني إسرائيل ويضعهم المحل الأرفع من الحظوة الإلهية؛ فقد فضلهم الله على العالمين ( جاثية ١٦ )، (( ومن آبائهم وذرياتهم وأخوانهم، اجتبيناهم وهديناهم إلى صراط مستقيم )) ( أنعام ٨٧ ). وأورثهم الأرض المقدسة المباركة دون الناس ( أنبياء ٧١ وإسراء ١ ). وجعلهم أهل الكتاب والحكمة والنبوة ( أنعام ٨٨ ) وأهل العلم المنزل ( سبأ ٦ ) وأهل الذكر الذين يعلمون البيئات والزُبر ( نحل ٤٣ ): فهم ورثة الكتاب وأهله دون العالمين ( فاطر ٣١ ).

وهم الذين يهدون بأمر الله والنبي والناس إلى هدى الكتاب: (( ولقد آتينا موسى الكتاب: فلا تكن في مرية من لقائه! وجعلناه هدى لبني إسرائيل: وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا )) ( السجدة ٢٤ ) فلا تشك يا محمد في اتصالك بكتاب موسى بواسطة أئمة بني إسرائيل الذين يهدون بأمر الله إلى هدى الكتاب.

وهم الذين يستشهد النبي بهم كلما قام بينه وبين المشركين جدل: (( أولم يكن لهم آية أن يعلم علماء بني إسرائيل )) ( شعراء ١٩٧ ). ويحيل المشركين من العرب عليهم في

المعضلات الكبرى الطارئة: (( فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون بالبينات والزبر )) ( نحل ٤٣ ).

وهم أخيراً أساتذة النبي في التوحيد والرسالة متى شك من نفسه ومن أمره: (( فإن كنت في شك مما أنزلنا إليك فاسأل الذين يقرؤون الكتاب من قبلك: لقد جاءك الحق من ربك فلا تكونن من الممترين، ولا تكونن من الذين كذبوا بآيات الله فتكون من الخاسرين )) ( يونس ٩٤ ).

في هذا العهد الثاني يذكر دائماً أرض إسرائيل بالبركة: فهي (( الأرض التي بارك الله حولها )) وفيها (( القرى التي باركها الله )) . ولا يذكر بهذا الإجلال مكة أو المدينة فيما بعد؛ وهذا ظاهر في آية الإسراء لفظاً ومعنى: يسري إلى بيت المقدس، الأرض التي بارك الله حولها ليرى فيها آيات الله. وهذا مما يوحى بالنفوذ الإسرائيلي في هذا العهد على الدعوة القرآنية.

\*

### ثانياً: التصاريح الخاصة تشهد بذلك.

ترخّر سور هذا العهد الثاني بالتصاريح على نفوذ بني إسرائيل وكتابهم على الدعوة القرآنية:

فأمة التوحيد واحدة، تجمعها وحدة الدين ووحدة الكتاب، ووحدة الأنبياء: (( إن هذه أمتكم، أمة واحدة، وأنا ربكم فاعبدون )) ( أنبياء ٩٢ ) ويكرّر الشهادة ( مؤمنون ٥١ ).

فالدين الذي شرعه الله للعالم مع جميع المرسلين من نوح إلى موسى إلى عيسى إلى محمد، هو واحد ( شورى ١٣ ): فلا يجوز فيه التفريق.

وهذا الدين الواحد في الأمة الواحدة الموحدة هو إسلام الكتاب للرحمان رب العالمين كما أعلنه الله لموسى في طوى بجانب الوادي من سيناء ( طه ١١-١٤ ): (( يا موسى إني أنا الله رب العالمين )) ( نمل ٧ ). دعا به فرعون وقومه، فأمن سحرة مصر بإله موسى ( شعراء ٤٦-٤٨ ) وأمن به فرعون قبل غرقه وأسلم لرب العالمين. ودعا به من بعده داود وسليمان فأمنت الجن والطير ( سورة ص ) وأسلمت ملكة سبأ لرب العالمين ( سورة سبأ ).

والكتاب واحد، وما القرآن سوى قراءة عربية لآياته: (( تلك آيات الكتاب وقرآن مبين )) ( نمل، حجر ) ويقسم بالكتاب إن القرآن تعريب له: (( والكتاب المبين إنا جعلناه قرآناً عربياً )) ( زخرف، يوسف ). يؤكد هذا التضامن بين الكتاب والقرآن فينكرهما المشركون معاً (( وقال الذين كفروا: لن نؤمن بهذا القرآن ولا بالذي بين يديه )) ( سبأ ٣١ ) لأنهم (( قالوا: سحران تظاهرا ! وقالوا: إنا بكل كافرون! - قل: فأتوا بكتاب من عند الله أهدى منهما أتبعه إن كنتم صادقين )) ( القصص ٤٨ - ٤٩ ). ويؤكد التضامن أيضاً بين الكتابيين والمسلمين ويتحدّى قومه بإيمان أهل الكتاب والعلم به: (( قل آمنوا به أو لا تؤمنوا! إن الذين أوتوا العلم من قبله إذا يتلى عليهم يخرون للأذقان سجداً )) ( إسراء ١٠٧ ).

وكتاب موسى هو إمام القرآن في الهدى: (( ومن قبله كتاب موسى إماما ورحمة: أولئك يؤمنون به، فلا تك في مرية منه )) ( هود ١٧ ) وأهل الكتاب شهود على تلك الإمامة والتبعية.

وما القرآن سوى مصدق، لساناً عربياً، للكتاب الإمام: فليس فيه من جديد سوى اللسان العربي: (( ومن قبله كتاب موسى إماماً ورحمة، وهذا كتاب مصدق لساناً عربياً )) ( أحقاف ١٢ ).

وبما أن كتاب موسى هو الإمام، يأتي محمداً الأمر الصريح بالافتداء به وبهداه، وبهدى أنبياء الكتاب وأهله: (( أولئك الذين آتيناهم الكتاب والحكم والنبوة، أولئك الذين هدى الله، فبهدهم اقتد )) ( أنعام ٩٠ ): يجب أن يقتدي محمد بهدى الكتاب الإمام، وأئمة ( سجدة ٢٤ ).

والقرآن نسخة عن كتاب موسى الإمام لأنه تفصيل له: (( وما كان هذا القرآن ليفتری من دون الله، ولكن تصديق الذي بين يديه، وتفصيل الكتاب، لا ريب فيه، من رب العالمين )) ( يونس ٣٧ ).

القرآن تفصيل الكتاب وتصديقه لا غير: (( أغير الله أبتغي حكماً وهو الذي أنزل إليكم الكتاب مفصلاً، والذين آتيناهم الكتاب يعلمون أنه منزل من ربك بالحق فلا تكونن من الممترين )) ( أنعام ١١٤ ) وأهل الكتاب شهود على صحة التفصيل والتصديق.

وجاء هذا التصديق وهذا التفصيل خصيصاً لعرب الحجاز: (( وهذا كتاب أنزلناه

مبارك، مصدق الذي بين يديه، ولتنذر أمّ القرى وما حولها، والذين يؤمنون بالآخرة يؤمنون به  
« ( أنعام ٩٢ ). وبهذا التصديق والتفصيل يقوم وحبه وصدقه: « والذي أوحينا إليك من الكتاب  
هو الحق مصدقاً لما بين يديه » ( فاطر ٢٩ ).

وذلك لأن القرآن بيان للكتاب، كما يشهد القرآن: « وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما  
نزل إليهم ولعلمهم يتفكرون » ( نحل ٤٤ ) وكما يزكي المشركون الشهادة على طريقتهم : «  
وإذا قيل لهم: ماذا أنزل ربكم؟ - قالوا: أساطير الأولين! » ( نحل ٢٤ ).

وهو منذ البدء يصرّح بأن القرآن في زُبر الأولين، صحف إبراهيم وموسى ( الأعلى  
١٨ ) « أولم ينبأ بما في صحف موسى وإبراهيم » ( النجم ٣٧ ): تنزيل القرآن من زُبر الأولين  
أي كتبهم كالتوراة والإنجيل ( الجلالان ): « وأنه لتنزيل رب العالمين على قلبك لتكون من  
المنذرين، بلسان عربي مبين، وأنه لفي زُبر الأولين » ( الشعراء ١٩٣ ).

وإذا طلبوا منه معجزة على صحة تنزيله يجيب: « أولم تأتهم بيّنة ما في الصحف  
الأولى » ( طه ١٣٣ ).

وإذا طلبوا منه معجزة على صحة رسالته يجيب: « أولم يكن لهم آية أن يعلمه علماء  
بني إسرائيل؟ » ( الشعراء ١٩٧ ) فهم يشهدون له جملة وإفراداً: « وشهد شاهد من بني  
إسرائيل على مثله » ( أحقاف ٩ ).

فهم يعرفون القرآن معرفة الأب لابنه؛ ويخرون للأذقان سجداً عندما يسمعون،  
ويشهدون أنهم مسلمون من قبله ( قصص ٥٣ ).

بواسطتهم يتصل محمد بكتاب موسى « ولقد آتينا موسى الكتاب، فلا تكن في مرية من  
لقائه. وجعلناه هدى لبني إسرائيل، وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا » ( سجدة ٢٣ ).

ما كان محمد يدري ما الكتاب ولا الإيمان، ولكن بواسطتهم اهتدى إلى الإيمان بالكتاب،  
وإلى الصراط المستقيم: « ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان، ولكن جعلناه نوراً نهدي به من  
نشأ من عبادنا، وإنك لَنُهُدَى إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ، صِرَاطِ اللَّهِ » ( شورى ٥١-٥٢ ).

لذلك يصرّح باعتراز : « وقلّ آمنتُ بما أنزل الله من كتاب وأمرت لأعدل بينكم »  
( شورى ١٥ ): آمن بالكتاب فاهتدى إلى الصراط المستقيم ( شورى ٥٢ ).

فيتهمونه عند (( تصريف الآيات )) بأنه درس الكتاب وجاء بقرآنه منه: (( وليقولوا: درست )) ! فلا ينكر ويحيب: (( ولنبينه لقوم يعلمون )) ( أنعام ١٠٥ ) وإنما درس الكتاب لأنهم هم غفلوا عن دراسته: (( وهذا كتاب أنزلناه مبارك فاتبعوه، أن تقولوا: إنما أنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا، وإن كنا عن دراستهم لغافلين )) ( أنعام ١٥٦ ). درس ليدرّسهم حتى لا يكون لهم على الله حجة: (( أو تقولوا: لو أنا أنزل علينا الكتاب لكنا أهدى منهم! فقد جاءكم بينة من ربكم وهدى ورحمة )) ( أنعام ١٥٧ ).

وإذا جادلوه في دعوته ورسالته يصرّح بأنه لا يصح جدال إلا بالكتاب المنير: (( ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير )) ( لقمان ٢٠ الحج ٨ ) وهم ليس لهم سلطان الكتاب ليجادلوا به: (( إن الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان أتاهم إن في صدورهم الأكبر، ما هم بباليغيه )) . ( غافر ٥٦ ).

ويستعلي عليهم بالغيب الذي آمن به ومنه يكتب: (( أم عندهم الغيب فهم يكتبون )) ( القلم ٤٢ ) وبالكتاب الذي درس: (( أم لكم كتاب فيه تدرسون: إن لكم فيه لما تخيرون )) ( القلم ٣٨ ) أما هو فيدعو عن بصيرة بقرآن الكتاب: (( قل هذه سبيلي ادعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني )) ( يوسف ١٠٨ ). لأنه هو له براءة في الزبر من دونهم: (( أم لكم براءة في الزبر )) ؟ ( القمر ٥٠ ) (( أم آتيناهم كتاباً منهم على بينة منه )) ( فاطر ٤٠ ).

فليست معجزة النبي في نظم القرآن وإعجازه البياني كما يظهر في ( الإسراء ٨٨ يونس ٣٨ هود ١٣ ) إنما هي في هدى القرآن الذي هو من هدى الكتاب: (( قل: فأتوا بكتاب من عند الله هو أهدى منهما أتبعه إن كنتم صادقين )) ( قصص ٤٨ ): **فالتحدي إنما هو في هدى الكتابين الواحد** لأن القرآن بينة ما في الكتاب: (( وقالوا: لولا يأتينا بأية من ربه؟ - أولم تأتاهم بينة ما في الصحف الأولى )) ( طه ١٣٣ ). وأيته على وحدة الهدى في الكتابيين، وعلى أن في القرآن بينة ما في الصحف الأولى، هي شهادة علماء بني إسرائيل: (( وإنه لفي زبر الأولين: أولم يكن لهم آية أن يعلمه علماء بني إسرائيل )) ( الشعراء ١٩٧ ) لأن القرآن آيات بينات في صدورهم ( عنكبوت ٤٦ ).

لذلك لم يزل محمد يصرّح طيلة العهد بأنه (( نذير من النذر الأولى )) لا غير ( نجم ٥٦ ) ويكتفي بشهادة أهل الكتاب لا لأنها من شهادة الله: (( قل كفى بالله شهيداً ومن عنده علم الكتاب )) ( رعد ٤٥ ).



ففي كل سورة إشارة أو دليل على أن هذا العهد الثاني بمكة، ما بين الهجرتين، كان بالحقيقة (( العهد الإسرائيلي في القرآن )) .

\*

### ثالثاً : موضوع الدعوة وأسلوبها يشهدان بذلك.

سنرى أن ميزة العهد الثاني، الدعوة إلى التوحيد، الذي يتزعمه موسى: (( الإسلام للرحمان رب العالمين )) كانت توراثية.

ودليل آخر على أن العهد الثاني من مكة هو (( العهد الإسرائيلي في القرآن )) أسلوب القصص القرآني في السور كلها: إنه قصص توراثي محض. و (( ما ورد خصوصاً في القرآن ولم يرد في التوراة من قصص إبراهيم ص. مع أبيه وقومه وأقواله ومواقفه ودعائه، وهي مبنوثة في سور ( الأنعام وإبراهيم ومريم والأنبياء والشعراء والعنكبوت والصافات والزخرف ) وعدم ورودها في التوراة مما يسوغ القول إنها مما كان متداولاً معروفاً في أوساط العرب كمرويات ومنقولات عربية عن الآباء إلى الأبناء )) . والأصح أنها قصص التلمود الذي كان يقصه للعرب علماء اليهود على هامش التوراة في تفسيرها: فهو أيضاً قصص البيئة العربية الكتابية.

فلا ذكر فيه للمسيح وأمه: يذكر أم المسيح بإشارة واحدة لا غير (( والتي أحصنت فرجها )) ( أنبياء ٩١ )؛ ويذكر المسيح مرة واحدة في معرض الرد على اعتراض من المشركين في حقهم بأفضلية عبادة الملائكة على عيسى الذي يعبدونه النصراني، فقال إنه (( عبد أنعمنا عليه، وأنه لعلم للساعة )) كرز وأنذر بها ( الزخرف ٥٧ - ٦٥ )، ويستفيض في قصص موسى وإبراهيم ولوط وبني إسرائيل الذين فضلهم على العالمين، وأورثهم الكتاب، وأعطاهم الأرض المقدسة التي بارك حولها.

ونلاحظ أنه في هذا العهد، كما في كل السور المكية، لا يورد القرآن اسم التوراة أو الإنجيل، بل يكتفيهما باسم (( الكتاب )) ؛ وأهل الكتاب أو أهل العلم أو أهل الذكر هم دون تمييز النصراني واليهود. فقد ورد اسم (( التوراة )) في القرآن ثماني عشرة مرة، في آيات وسور كلها مدنية؛ وورد اسم (( الإنجيل )) اثني عشر مرة في سور كلها مدنية؛ وورد

اسم (( الزبور )) مرة واحدة في مكة ( إسرائ ٥٥ ) ومرة في المدينة ( نساء ١٦٣ ). (( فإنه ليس في القرآن إشارة ما إلى الأسفار العديدة الأخرى التي يضمها هذا العهد القديم إلى اليوم )) . فالقرآن لا يعرف سوى التوراة التي يذكرها باسم الكتاب . فالنقود لبني إسرائيل، والتضامن قائم بين القرآن والكتاب ( أي التوراة ) : فقد أخذ القرآن يبتعد عن النصرانية، وإن لم يزل متأثراً بها حتى النهاية .

\*

### رابعاً : تعابير القرآن في هذا العهد تشهد بذلك .

في هذا العهد الثاني تبلورت التعابير القرآنية التوراتية كما كانت شائعة في بيئة القرآن الكتابية العربية .

يظهر من سور هذا العهد أن كلمة (( اسلام )) ليست من القرآن، بل وجدها القرآن لفظاً ومعنى في بيئته الكتابية العربية: فموسى يدعو إلى الإسلام ( قصص، ٣٠ ) وسحرة مصر، وفرعون نفسه (( يسلمون لله رب العالمين )) ( طه ٧٠ نمل ٧ - ١٤ )؛ وأهل الكتاب يؤمنون بإسلام القرآن ويقولون للنبي: (( إنا كنا من قبله مسلمين )) ( قصص ٥٣ ) .

وسور هذه الفترة تدعو كلها إلى الله (( الرحمن ، رب العالمين )) .

(( فالرحمان<sup>٢</sup> )) هو اسم الجلالة الكتابي الشائع في اليمن والحبشة منذ أجيال قبل القرآن .

---

(١) قابل الأستاذ دروزة : عصر النبي وبيئته ( ٤٦٦ ) حيث يقول أيضاً : (( وآيات كثيرة منها آل عمران ٩٣ والمائدة ٤٣ - ٤٤ ثم ٦٥ - ٦٨ تلهم بصراحة أن القرآن قد عنى بالتوراة ما كان متداولاً في العهد النبوي وقبله بالتبعية ، وبقطع النظر عن تاريخه ... وطبيعي إنه لا يمكن الجزم بما إذا كانت هذه الأسفار التوراتية وغير التوراتية ، المتداولة اليوم ، هي التي كانت متداولة إذ ذاك عدداً وخصوصاً حرفية )) . - يقف الأستاذ موقفاً وسطاً بين المتطرفين ، أنصاف العلماء ، الذين ينكرون صحة الإنجيل والتوراة التي يؤكدونها القرآن ! ولكنه يخضع هو أيضاً لمركب النقص في قوله الثاني من شكوك في (( حرفيتها )) اليوم . وينسى أن النصارى يصيرون أن القرآن يشهد بالصحة للكتاب الذي كان يُتلى في زمانه ، ويتحدّى اليهود بتلاوتها أمام الشعب : (( فاتوا بالتوراة فاتلوا إن كنتم صادقين )) . والكتاب بعهديه القديم والجديد هو كما دُونَ منذ القرن الرابع قبل محمد بثلاث مئة سنة ، على رق من جلد ، محفوظ في المكاتب الكبرى ، وعنه يطبعون النسخ العصرية : فشهادة الآثار تؤيد شهادة القرآن . وكم كنا نربأ بأخيئنا الأستاذ دروزة من التدهور إلى درك أدعياء العلم وهم منه براء .

(٢) جاء في الإتقان ١ : ١٣٩ (( ذهب المبرد وثلعب إلى أنه عبراني وأصله بالخاء المعجمة )) .

ويدخل السور القرآنية بعد هجرة المسلمين إلى الحبشة. وجده القرآن في بيئته الكتابية، ففرضه على عرب مكة والحجاز، وظلوا يقاومونه إلى فتح الحديبية حتى تمكن منهم.

(( **رب العالمين** )) الذي تدعو إليه سور العهد الثاني بمكة، هو أيضاً اسم الجلالة الشائع قبل القرآن بين عرب الشمال، حتى تدمر؛ وقد أشاعه اليهود في مهاجرهم، وفي الجزيرة العربية، حتى أخذ القرآن وجعله لقباً لإله التوحيد بين العرب.

وأضاف القرآن أيضاً إلى أسماء الله الحسنى لقب (( **الرحيم** )) الشائع قبله بين عرب الشمال حتى البتراء. ووحد هذه الألقاب الكتابية في بسملة الشهيرة<sup>١</sup> التي صدروا بها جميع سور القرآن، وفرضها مجموعة في صلاة (( **الفاتحة** )) .

ونظن أن صلاة (( **الفاتحة** )) من هذا العهد الثاني بسبب الالتجاء فيها إلى الرحمان رب العالمين، ميزة قصص هذا العهد الثاني: وهي كتابية محضة متواترة عن الأنبياء، والذبور، والحكمة، في أسماء الجلالة، وفي موضوع الصلاة أي الهداية إلى الصراط المستقيم<sup>٢</sup>. وإلى اليوم يصلي اليهود والنصارى مع صاحب الذبور:

يا الله ، عرفني الصراط الذي أسلك فيه علمني أن أعمل مشيبتك ليهدني روحك الصالح	فاني إليك رفعت نفسي لأنك أنت إلهي ! إلى الصراط المستقيم (( ( المزمور ١٤٢ ) .
الله هو الرحمان الرحيم عرف موسى سبله	الطويل الأناة والكثير الرحمة وبني إسرائيل مشيئاته (( ( المزمور ١٠٢ ) <sup>٣</sup>

(١) كانت البسملة العربية (( باسمك اللهم )) مأخوذة عن اليهود ، ويدل على ذلك ميم الجمع المضافة إلى اسم الجلالة للتفخيم . وكان المجوس يقولون : (( باسم الرحمان العادل )) . والنصارى : (( باسم الأب والابن والروح القدس ، الإله الواحد )) . فاختار القرآن (( للأمة الوسط )) ( بقرة ١٤٣ ) مسلكا وسطا بين الشرق والغرب واليهود والنصارى ، في بسملة (( باسم الله الرحمان الرحيم )) .

(٢) جاء في الإتقان ١ : ١٤٠ (( حكي النقاش وابن الجوزي أن الصراط هو الطريق بلغة الروم )) .

(٣) قابل صلاة الفاتحة بالمزمور ١٠٢ : الاستفتاح بالحمد في الإثنين ، واسم الرحمان الرحيم في الإثنين ، والصراط المستقيم الإثنين ، القرآن يطلبه والمزمور يشكر عليه . القرآن يقول (( رب العالمين )) والمزمور يقول (( عرشه في السماء ، وملكوته يسود على الجميع )) .

وتسود النظم القرآني في هذه الفترة عادة ختم الآي بصفتين معاً من صفات الله، كما ترى في الزبور، لا بصفة واحدة كما جرت العادة في الفترة الأولى.

واسم (( القرآن )) الذي يقسم به في استفتاح سور هذا العهد الثاني، هو كلمة عبرية سريانية كان يطلقها أهل الكتاب على الكتاب المقدس كله ( انظر نبؤة نحيا ٨ : ٥ في النص العبراني )، وعلى كل قراءة منه. يقولون في العبرية (( قراه )) أو (( مقرا )) وفي السريانية (( قُرَيانا )) . وإلى الآن لم يزل النصارى في صلواتهم يستفتحون تلاوة التوراة والأنبياء بهذا الإعلان: (( قراءة من سفر التكوين أو من نبوءة أشعيا، أو من حكمة سليمان )) . فدرج القرآن الكريم على العادة كما وجدها في بيئته الكتابية، فسمى (( قراءة )) الكتاب على العرب (( قرآنا ))، واللفظتان من أصل واحد من العبرية والسريانية والعربية.

وكلمة (( سورة )) هي أيضاً تعريب الكلمة العبرية والسريانية (( شورا )) أي فصل. وقد درج المسلمون على عادة اليهود في تسمية أسفارهم وفصولها بكلمة وردت فيها.

وكلمة (( آية )) هي تعريب (( أوت )) العبرية، ومعناها جملة أو علامة أي معجزة إلهية. وقد وردت بهذين المعنيين في القرآن والتفسير. وقد درج المسلمون على تسمية بعض الآيات بأسماء خاصة كأية الكرسي، وآية السيف، على عادة اليهود أيضاً.

وقد اقتدى المسلمون أيضاً باليهود في قسمة الكتاب إلى ثلاثين جزءاً وإلى ستين حزباً، وكلُّ حزب أو جزء إلى أربعة أرباع متساوية لتسهيل عمل القراء في المساجد والمآتم والمحافل والمقابر.

وسائر ألقاب القرآن مأخوذة أيضاً عن أهل الكتاب اليهود كما أشاعوها: الفرقان، والسبع المثاني، والمصحف، والكتاب.

(( الفرقان )) من (( فرقا )) العبرية، أو (( فرقانا )) السريانية. ويقول ابن ميمون أن الاسم يطلق على (( المشنه )) أي (( سنة )) موسى<sup>١</sup> أو الوحي المنقول فيها، غير المكتوب في التوراة. فأطلقه القرآن على نفسه مرادفاً له. ونحن نظن أنه في مطلع آل عمران ( ١ - ٣ ) حيث يذكر الفرقان بعد القرآن والتوراة والإنجيل متميزاً عنها، إنما ورد تعبير الفرقان بمعناه العبري؛ وكذلك في قوله (( شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن هدى للناس، وبينات من الهدى (الكتاب) والفرقان ( سنة موسى ) )) . ( بقرة ١٨٥ ) .

(١) كذا فسره ابن ميمون أحد مشاهير اليهود في القرون المتوسطة .

لاحظ على الهامش أن كلمة (( سنة )) هي تعريب (( مشنة )) العبرية.

وهناك تعبير غامض لم يهتدوا إلى فهمه الصحيح، وهو (( ولقد آتيناك سبعاً من المثاني، والقرآن العظيم )) ( حجر ١٥ ): إنه يميّز بين السبع المثاني والقرآن العظيم بحرف العطف الذي يعني الإضافة لا البدل. ونحن نرى أن (( المثاني )) تعريب (( مشنة )) العبرية، وقد يقصد (( بالسبع المثاني )) القصص القرآنية التوراتية السبع. فجاء القرآن تفصيل الكتاب العظيم والسبع المثاني.

(( والمصحف )) تعريب كلمة عبرية سريانية حبشية نبطية، وهو الجامع (( لصفح إبراهيم وموسى )) .

(( والكتاب )) أو (( الكتب )) ترجمة اسم (( المصحف )) أو (( الصحف )) من العبرية والسريانية إلى اليونانية، ومنها إلى العربية. والتعريف للعهد.

وهكذا كان تفكير القرآن وتعبيره إسرائيلياً في العهد الثاني بمكة. وقد قال أيضاً الأستاذ دروزة: (( وإذا كنّا رجحنا أن الكتابيين والأجانب كلهم أو جلهم نصارى، فإن هذا لا يعني كذلك أنه لم يكن في مكة إسرائيليون: وآيات الشعراء (١٩٢- ١٩٧) والأحقاف (١٠) تجعل الاستدلال بهما على لقاء النبي بعض الإسرائيليين في مكة صحيحاً وتجعل احتمال وجود بعض الإسرائيليين في مكة مستقرين قائماً ... وكان في المدينة ومناطقها جاليات إسرائيلية كبيرة لا يعقل أن تكون في عزلة عن مكة' ... وعدم انتشار الديانة اليهودية في بيئة النبي ص قبل البعثة بنطاق واسع لا يعني أن العرب كانوا في عزلة عن تأثيرها؛ فنحن نعتقد أنهم تأثروا بها إلى حدّ كبير:

سواء في تطور الفكرة الدينية، وخاصة في فكرة (( الله )) .

وسواء في تقاليد انتساب العرب بالأبوة إلى إسماعيل وإبراهيم ص.، وما تبعها من تقاليد أخرى متنوعة.

وسواء في ما كان عندهم من معارف ومعلومات وأفكار لها صبغة دينية: مثل أنبياء الأنبياء والرسل ص.، وقصصهم مع أممهم.

وأخبار الملائكة وصلّتهم بالله، وقصة آدم وإبليس.

ومثل الوقوف على ما كان لهم من آراء ومذاهب.  
وما كان عندهم من كتب ومناصب دينية، وما كان بينهم من خلاف ونزاع.  
وما كان في كتبهم من صفات وتقاليد من بشارات ببعثة نبي من العرب.  
وسواء في الطقوس والعادات المتنوعة: كالختان، والتطهر من الجنابة، واعتزال النساء في المحيض، وفكرة اجتماعات يوم العروبة - وهو يوم الجمعة.  
وغير ذلك مما أشرنا إلى بعضه في الفصول السابقة في مناسبات متعدّدة.  
هذا بالإضافة إلى ما كان لهم من المركز الديني والثقافي والاجتماعي والاقتصادي، وما كان لهم بسبب ذلك من أثر في حياة العرب<sup>١</sup> .  
ونحن نلمس في سور العهد الثاني بمكة أثر ذلك النفوذ الإسرائيلي في القرآن.

\*

### بحث ثان : بقاء التأثير المسيحي قائماً

العهد الثاني هو لنفوذ بني إسرائيل؛ ولكن لم يزل للنفوذ المسيحي آثار باقية. وستظل هذه التأثيرات والآثار تعمل عملها حتى تأسيس الإسلام (( أمة وسطاً )) ( بقرة ١٤٣ ) بين اليهودية والمسيحية.

نرى أن توحيد القرآن، ميزة هذا العهد، كان توراتياً، ولكن طريقة العبادة كانت ولم تنزل مسيحية رهبانية: فقيام الليل للصلاة، نافلة للنبي، جهله العرب المشركون، ويستنكره اليهود وهو عادة مسيحية رهبانية إلى اليوم؛ والسجود في الصلاة كذلك جهله العرب ويكرهه اليهود وهو عادة رهبانية إلى اليوم.

ولم يزل التأثير المسيحي بارزاً، في أوصاف اليوم الآخر. ويقول القرآن مرة واحدة في هذا العهد أن المسيح (( عِلْمٌ لِلسَّاعَةِ )) يجعله معلّم اليوم الآخر، والداعي للإيمان به.

---

(١) دروزة : عصر النبي ٤٣٩ - ٤٤٠ ويقول في الحاشية : (( في تفسير الخازن ج ١ ص ١٠٣ رواية عن ابن عباس : أن أهل يثرب كانوا يرون اليهود أصحاب كتاب ، ويرون لهم فضلاً عليهم في العلم ، وكانوا يقتدون بكثير من فعالهم )) في تقاليد العبادة والصوم والزواج . وتلك السيطرة اليهودية هي التي دفعت عرب يثرب إلى مبايعة النبي ليستعلوا به على يهود المدينة .

وتجد من مقارنة أقوال القرآن عن يوم الدين في كل عهوده بأوصاف الإنجيل، وبمواظ الرهبان في سورية العربية الباقية إلى اليوم، خصوصاً العالم السوري، والخطيب المتصوّف، أفرام - وأفرام هو راهب سوريا الأكبر الذي طبع الدعوة الرهبانية السورية العربية بطابعه ففاق فيها، خصوصاً في أوصاف يوم الدين، من سبقه ومن لحقه، بمواعيظه وأناشيده؛ وقد اتخذ جميع فئات النصارى إماماً لهم - دلّائل صريحة على وحدة التعليم القرآني والمسيحي عن يوم الدين وأحواله وأوصافه، كما نقلها معهم إلى البلاد العربية اليعاقبة والنساطرة الهاربين من طغيان دين الدولة عليهم عند الروم.

والقرآن في هذا العهد يذكر عادة الرهبان في تلك الأيام بالاندفاع بالبكاء عند ذكر القرآن لأحوال يوم الدين، والسجود لذكر الله: (( قل: آمنوا به أو لا تؤمنوا! إن الذين أوتوا العلم من قبله إذا يُنتلى عليهم يخرون للأذقان سُجّداً، ويقولون: سبحان ربنا، إن كان وعد ربنا لمفعولاً! ويخرون للأذقان يبكون، ويزيدهم خشوعاً )) (الإسراء ١٠٧). وهذا التصديق الخاشع الباكي من أهل الكتاب ورهبان عيسى كان له أطيب الأثر في الدعوة القرآنية، فيعلن النبي الأمي (( إيمانه بالله وكلمته ))، المسيح عيسى ابن مريم، رغم طغيان النفوذ الإسرائيلي عليه، ويصرّح للكتّابيين الذين (( قالوا: آمنا به، إنه الحق من ربنا، إنا كنّا من قبله مسلمين: أولئك يؤتون أجرهم مرتين! )) (القصص ٥٣-٥٤): للعربي الذي يؤمن بالقرآن أجرٌ، أما الكتّابي الذي يؤمن بالله واليوم الآخر، فله أجران.

ولم تزل التعبيرات المسيحية، في هذا العهد الإسرائيلي من القرآن، كما في سائر العهود، تصبغ الدعوة القرآنية بصيغتها، خصوصاً في أوصاف الوحي والتنزيل مثل (( الحي القيوم )) - قال الواسطي: (( هو الذي لا ينام بالسريانية )) - ومثل (( الصراط المستقيم )) التي تطلب صلاة الفاتحة الهداية إليه - حكى النقّاش وابن الجوزي: (( أنه الطريق بلغة الروم )) ومثل سائر التعبيرات السريانية أو الحبشية أو النبطية التي نقلها الإتقان<sup>١</sup>.

وهكذا قد يتداخل النفوذ المسيحي والإسرائيلي في سير الدعوة القرآنية، وقد يسيطر عليها أحدهما: فكان العهد الأوّل من القرآن (( مسيحياً؛ وهذا العهد الثاني (( إسرائيليّاً )) في سائر مظاهره.

\*

---

(١) راجع تفسير البيضاوي على الآية ١٥٧ من الأعراف .  
(٢) الإتقان للسيوطي ( ١ : ١٣٧ - ١٤٠). ونلاحظ أن التعبير المكي (( الصراط المستقيم )) والتعبير المدني (( الدين القيم )) ترجمة (( الأرثوذكسية )) أو (( الإيمان الأرثوذكسي )) الذي كان يتصف به دين الدولة في الولايات الرومية، ومنها سوريا، والعربية الشمالية .

### بحث ثالث : ميزات العهد الثاني بمكة

لهذا العهد ميزات تميّزه عمّا قبله، وعمّا بعده: طريقة الاستفتاح، وقصُر الدعوة القرآنية على التوحيد الخالص للرحمان رب العالمين، بأسلوب القصص القرآني الذي صار محور السورة. ونلاحظ أن براهين التوحيد، وقصص الغابرين، ما هي إلا برهان واحد، من الخليفة ومن تاريخ البشرية على ضرورة التوحيد؛ ثم يعقب عليه بحديث آخرة المكذبين والمؤمنين. وهذا التقسيم الثلاثي للسورة ظاهر على كل سورة.

\*

#### ١- الظاهرة الأولى : الاستفتاح بذكر الكتاب والقرآن

أسلوب استفتاح السور يوحي منذ البدء بتطوّر الدعوة: ينتقل القرآن من أسلوب الاستفتاح بالأقسام القومية التي تنضح برواسب الشرك - وقد أمست طريقة أدبية محضّة في البيئة - إلى الاستفتاح بذكر الكتاب والقرآن.

يبدأ بالقسم بالقرآن، أي قرآن الكتاب، على عادة اليهود: (( والقرآن المجيد (ق) والقرآن ذي الذكر (ص) والقرآن الحكيم )) ( يس ).

ثم يؤكد أن القرآن آيات الكتاب، وقرآن لها أي قراءة وتفصيل: (( تلك آيات الكتاب المبين ( شعراء، قصص )، تلك آيات الكتاب الحكيم ( يونس، لقمان ) تلك آيات الكتاب وقرآن مبين )) ( نمل، الحجر ).

ثم يؤكد كيفية الصلة بين القرآن والكتاب المقدس: ما القرآن سوى تفصيل عربي للكتاب الإمام: (( كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن خبير حكيم ( هود ) تلك آيات الكتاب المبين: إنا أنزلناه قرآناً عربياً )) ( يوسف ).

أخيراً يؤكد منذ المطلع أن الكتاب تنزيل من الله: (( تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم )) ( زمر، المؤمن، الجاثية، الأحقاف ) وان هذا التنزيل فصل قرآناً عربياً: (( تنزيل من الرحمان الرحيم: كتاب فصلت آياته قرآناً عربياً )) ( فصلت ). ويقسم بالكتاب



إن هذا التنزيل في الكتاب الإمام صار قرآناً عربياً: (( والكتاب المبين: إنا جعلناه قرآناً عربياً )) ( زخرف ) والكتاب المبين: إنا أنزلناه في ليلة مباركة! )) ( الدخان ).

ويختتم أن الله يوحي إليه بهذا التفصيل العربي في القرآن للكتاب الإمام كما أوحى إلى الذين من قبله: (( كذلك يوحي إليك - وإلى الذين من قبلك - الله العزيز الحكيم )) ( شورى ).

ومن بعدها، في العهد الثالث، يضطرب الاستفتاح، ويتنوع ولا يطرد. وفي العهد المدني، بعد البقرة، يهمل الاستفتاح بذكر الكتاب وصلة القرآن به لأنه يستقل عن أهل الكتاب بإنشاء (( الأمة الوسط )) .

ففي كل هذه المطالع يؤكد صلة القرآن بالكتاب، وكيفية ونوعها، ويحصرها في (( تعريب )) الكتاب و (( تفصيله )) و (( تصريف آياته )) . ولا يقولن أحد إنه يذكر الكتاب الأزلي في اللوح المحفوظ! لأنه يصرح بأن القرآن تفصيل لكتاب موسى الإمام ( يونس ٣٧، أنعام ٩٢ ) الذي يؤمر صريحاً بأن يقتدي بهداه ( أنعام ٩٠ ). والذي غفلوا هم دراسته ( أنعام ١١٤ ) فليس من مرية في لقائه ( سجدة ٢٣ ). ومن الخطأ المقصود تفسير (( الكتاب )) في كل تلك المطالع بالقرآن: لأنه يميز بين الاثنين، ويقسم بالكتاب على صحة القرآن: فلا يقسم بما ينكرون على ما ينكرون، بل بما يجلتون على ما ينكرون. ويستشهد دائماً بأهل الكتاب على صحة تنزيل القرآن وتفصيله: فكيف يشهدون بذلك إذا عنى الكتاب الذي في السماء في اللوح المحفوظ، ولا يمكن أن يروه؛ أو إذا عنى القرآن في الكتاب الذي يقسم به، والكتاب الذي يقسم عليه، ولا يمكن أن يستشهدهم أو يشهدوا له إلا بما عندهم: إنه في زبر الأولين ( شعراء ١٩٧ ) وإنه بينة ما في الصحف الأولى ( طه ١٣٣ ).

فمنذ استفتاح السور نشعر بنفوذ كتاب موسى على القرآن، وحصر مهمة القرآن في تفصيله للعرب. والانتماء المتواصل إلى كتاب موسى الإمام، والاستشهاد المتواصل بعلماء بني إسرائيل يؤكدان أننا في (( العهد الإسرائيلي من القرآن )) .

\*

## ٢- الظاهرة الثانية : الدعوة للتوحيد الخالص

كان محور الدعوة في العهد الأول (( المسيحي )) الإيمان باليوم الآخر لإصلاح الحياة الاجتماعية والحياة الدينية في مكة. فصار محور الدعوة القرآنية في هذا العهد الثاني (( الإسرائيلي )) التوحيد الخالص في الإيمان بالله، الرحمان الرحيم، رب العالمين:

\*

### أولاً : التوحيد محور الدعوة في العهد الثاني

التوحيد دعوة كل أنبياء الله، في بني إسرائيل، من نوح إلى إبراهيم إلى موسى إلى داود إلى سليمان إلى أيوب إلى يونس، إلى خاتمهم عيسى ابن مريم؛ وبين العرب من هود في عاد، إلى صالح في ثمود، إلى شعيب في مدين؛ وفي أم القرى مع محمد (( نذير من النذر الأولى )) : فالتوحيد هو (( ذكر من معه وذكر من قبله )) ( أنبياء ٢٤ ).

وليس في سور هذا العهد من تعليم أو عقيدة إلا التوحيد: (( إنما أعظكم بواحدة: أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا ما يصاحبكم من جنة، إن هو إلا نذير لكم بين يدي عذاب شديد! )) ( سبأ ٤٦ ). فليس عنده من وحي سوى التوحيد: (( قل إنما يوحى إليّ إلهكم واحد، فهل أنتم مسلمون؟ )) ( الإسراء ١٠٨ ) والتوحيد هو كل وحيه: (( قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إليّ إنما إلهكم واحد، فاستقيموا إليه واستغفروا ! وويل للمشركين! )) ( فصلت ٦ ) وهذا ما عنده من بلاغ: (( هذا بلاغ للناس، ولينذروا به وليعلموا أنما هو إله واحد، وليذكر أولو الألباب )) ( إبراهيم ٥٢ ). بهذا ينذر: (( ولا تجعلوا مع الله إلهاً آخر: إني لكم منه نذير مبين )) ( الذاريات ). هذا ذكر من معه وذكر من قبله: (( أم اتخذوا من دونه آلهة؟ - قل هاتوا برهانكم! - هذا ذكر من معي وذكر من قبلي! بل أكثرهم لا يعلمون الحق فهم معرضون )) ( الأنبياء ٢٤ ). والتوحيد رسالة كل رسول من الله: (( وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون )) ( أنبياء ٢٣ ) لا رسالة سواها: (( ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله، واجتنبوا الطاغوت )) ( نحل ٣٦ ). والفطرة تشهد بذلك: (( قل لو كان معه آلهة، كما تقولون، إذ لا ابتغوا إلى ذي العرش سبيلاً )) ( إسراء ٤٢ ) والعقل يشهد: (( لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا )) ( أنبياء ٢٢ ) وهم بسليقتهم يشهدون: (( ولئن سألتهم: من خلق

السموات والأرض، ليقولنَّ الله! » ( الزمر ٣٨ ). ويخوفونك بالذين من دونه! - أليس الله بكافٍ عبده؟ » ( زمر ٣٦ ) « أم اتخذوا من دون الله شفعاء؟ - قل لله الشفاعة جميعاً: له ملك السموات والأرض ثم إليه ترجعون » ( زمر ٤٣ ) « ألا لله الدين الخالص » ( زمر ٢ ).

والتوحيد القرآني في هذا العهد، توحيد توراتي. فكتاب موسى إمامه: « ومن قبله كتاب موسى إماماً ورحمة » ( هود ١٧ أحقاف ١٢ ) وبه يجب أن يقتدي، على سبيل أنبياء الكتاب وأهل الكتاب: « أولئك الذين آتيناهم الكتاب والحكم والنبوة ... أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتد » ( أنعام ٩٠ ). فهكذا يكون على بينة من ربه كما هم على بينة من ربهم، يدعو مع أهل الذكر بالبينات والزبر « فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون بالبينات والزبر: وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ولعلمهم يتفكرون » ( النحل ٤٣ ) فتنزيل رب العالمين على قلبه هو من زبر الأولين كما يعلم علماء بني إسرائيل ( شعراء ١٩٢-١٩٧ ).

وهذا التوحيد القرآني التوراتي هو في هذا العهد دعوة لله، لا باسمه الحجازي « الله » بل باسمه الكتابي « الرحمن رب العالمين »: هكذا اعلن الله لموسى في سيناء: « يا موسى إني أنا الله رب العالمين » ( القصص ٢٩-٣٥ ). الرحمن هو الله ( كل سور العهد ): « الرحمن على العرش استوى، له ما في السموات وما في الأرض وما بينهما وما تحت الثرى » ( طه ٦ ). ويعرف أن اسم الرحمن بينهم محدث يعرضون عنه: « وما يأتيهم من ذكر عن الرحمن محدث، إلا كانوا عنه معرضين » ( شعراء ٥ ). فيجعلهم يستسيغون اسم « الرحمن » واسم « رب العالمين » بنظرية أسماء الله الحسنى: « فإله، لا إله إلا هو، له الأسماء الحسنى » ( طه ٨ ) لذلك « قل ادعوا الله، أو ادعوا الرحمن: أي ما تدعوا، فله الأسماء الحسنى » ( الإسراء ١١١ ). بهذا الإسلام للرحمان رب العالمين دعا إبراهيم، ودعا موسى فأسلم سحرة مصر، وأسلم فرعون قبل غرقه. بهذا الإسلام دعا داود في زبوره، ودعا سليمان في حكمته، فأمنت ملكة سبأ وأسلمت لرب العالمين. ودعا يونس وأيوب، فأنقذهما الله من البلاء الأعظم.

إنه توحيد توراتي، ولكنه تجريدي أكثر من التوراة. ومع ذلك لم يسلم هو أيضاً من التجسيم والتشبيه لأن ذلك من ضرورات مخاطبة الشعب في الإلهيات. وشهير انقسام القوم إلى مشبهة ومعتزلة في فهم تعابير القرآن على حد ألفاظها من « يد الله ، وجه الله ، مجيء الله الخ » : وقد تجسم الجدل حول قول القرآن « الرحمن على العرش استوى » :

أهو استواء واقعي، أم استواء تمثيلي بمعنى الاستيلاء؟ فاختلّفوا، وشهير موقف الأشاعرة الوسط الذي غلب على أهل السنة من أنه واقعي ولكن (( بلا كيف )) .

بهذا التوحيد الكتابي آمن محمد: (( وقل آمنتم بما أنزل الله من كتاب )) ( شورى ) . وهذا التوحيد الكتابي هو إسلامه: (( وأمرت أن أكون من المسلمين )) ( النمل ٩٢ ) وهذا التوحيد الكتابي هو الصراط المستقيم الذي يُهدى إليه، ويهدي إليه ( شورى ) في أمة واحدة مع أهل الكتاب.

وتدور الدعوة إلى التوحيد، في هذا العهد، على اسم الجلالة (( الرحمن )) : فهو لا يوجد في السور المدنية، ولا يوجد في سور العهد الأول بمكة، ويندر في العهد الثالث، وهو ميزة العهد الثاني (( الإسرائيلي )) بمكة.

\*

### ثانياً : براهين التوحيد

**براهين التوحيد على نوعين:** المشاهد الكونية، وتاريخ البشرية في قصصها مع أنبيائها.

الخليقة تشهد لخالقها؛ هذا دليل البداهة؛ المشاهد الكونية تدل على الكائن الأعظم؛ هذا برهان الفطرة: (( سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق )) (فصلت ٥٣). ثم يفصل هذه الآيات.

ونلاحظ أنّ حوار القرآن كله، ليس لبيان وجود الله، فوجوده مسلمٌ به في مكة، وجميع العرب يؤمنون به قبل القرآن. إنما الحرب القرآنية قائمة على الشِرْك بالله؛ والدعوة القرآنية تدعو من سورة إلى سورة، إلى التوحيد الخالص من الشرك. هتاف القرآن الذي صار دستور الدين والإيمان والحق، هو (( لا إله إلا الله )) . وبراهين التوحيد على هذه الشهادة تتخذ مثلها صيغة سلبية أكثر منها إيجابية.

الله واحد لأنه خالق السماوات والأرض، فلا يقدر على ذلك سواه.

الله واحد لأنه خلق النجوم ( الواقعة ٧٥ ) والجواري الكنّس ( تكوير ١٦ ) خصوصاً الشمس والقمر، وهو رب الشعري!

(١) من هذا الموقف المعتدل سخر الزمخشري ببيتين من الشعر في تفسيره :

(( وجماعة سمّوا هواهم سنّة  
قد شبّهوه بخلقه وتخوّفوا  
لجماعة حمر لعمرى مؤكفة  
شنع الورى ، فتسترا بالبلكفة ))  
- أي (( بلا كيف ))  
( القرآن المجيد ٢٥٤ )

الله واحد لأنه يولج الليل في النهار، والنهار في الليل.  
الله واحد بسبب تصريفه للرياح ( حجر ٢٢ الجاثية ٤ أعراف ٥٥ ) وتحليق الطير (نحل ٨١).  
.

الله واحد لأنه هو الذي يُنزل من السماء ماء يحيي به الأرض الموات. ومنه الرعد والبرق.

الله واحد لأنه خلق الجنس البشري من نفس واحدة، أولاً من حملاً مسنون، ثم من ماء مهين، من نطفة، في ظلمات ثلاث.

الله واحد لأنه فصل الأحياء، وخلق الأنعام لمنفعة الإنسان.  
الله واحد لأنه خلق البحار، وصيدّها، وجعل منها مالحاً ومنها عذباً فراتاً، وتوج آيته بسير الفلك العجيب على المياه. ( نحل ١٤ ).

الله واحد لأنه جعل على الأرض رواسي أن تميد بمن عليها.  
الله واحد لأنه خلق المعادن ( كهف ١٨ ) وخصوصاً الحديد الذي فيه بأس شديد (الحديد ٢٥).  
.

وهذه المشاهد الكونية يسمّى أوصافها أمثالاً يضربها للناس لعلهم يتفكرون (إسراء ٨٩، كهف ٥٤، الزمر ٢٧): (( لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيتنه خاشعاً متصدّعاً من خشية الله: وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون )) ( الحشر ٢١ ).

وتجد مثلاً رائعاً على هذه الأمثال والبراهين وطريقتها في سورة النحل:  
(( ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده أن أنذروا أن لا إله إلا أنا فاتقون. ))

(( خلق السماوات والأرض بالحق، تعالى عما يشركون.  
(( خلق الإنسان من نطفة فإذا هو خصم مبين.  
(( والأنعام خلقها لكم فيها دفءٌ ومنافع ومنها تأكلون.  
ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون.  
وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس: إن ربكم لرؤوف رحيم.  
والخيل والبغال والحمير، لتركبوها، وزينة. ويخلق ما لا تعلمون.  
(( ينبت لكم به الزرع والزيتون. والنخيل والأعناب، ومن كل الثمرات: إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون. ))

(( وسخر لكم الليل والنهار، والشمس والقمر! والنجوم مسخرات بأمره: إن في ذلك  
لآيات لقوم يعقلون.

(( وما ذراً لكم في الأرض مختلفاً ألوانه: إن في ذلك لآية لقوم يذكرون.

(( وهو الذي سخر البحر لتأكلوا منه لحماً طرياً، وتستخرجوا منه حلية تلبسونها. وترى  
الفلك مواخر فيه. ولتبتغوا من فضله. ولعلكم تشكرون.

(( وألقى في الأرض رواسي أن تمتد بكم، وأنهاراً وسبلاً، لعلكم تهتدون:

(( أفمن يخلق كمن لا يخلق؟؟؟ )) .

يتدبر المؤمن هذه البراهين ويسائل نفسه: مشاهد الكون عظيمة، لا أعظم ولا أجمل ولا  
أكمل! ولكن كيف تبرهن هذه المشاهد على أن الله واحد؟ كيف تظهر وحدانية الله من خلق  
الإنسان من نطفة، أو سير الفلك على الماء، أو من نزول الماء من السماء؟ كيف يرمز خلق  
الأنعام، والخيل والبغال والحمير على وجود الخالق وتوحيده؟ كيف تدل أنواع الحيوان،  
وأصناف الأثمار، على وحدانية الخالق؟ كيف يدل تسخير الليل والنهار، والشمس والقمر،  
وسائر النجوم للإنسان، على توحيد الرحمان؟ كيف يظهر تصريف الرياح، وتسخير البحار أن  
لا إله إلا الله؟ كيف تهدي الرواسي التي تمنع الأرض أن تمتد بمن عليها إلى وجود الخالق  
وضرورة توحيده؟؟؟ ...

مشهد رائع! ومنطق حائر محير!

\*

### ثالثاً: المنطق الوجداني في الجدل القرآني

وقد تنبّه علماء الكلام لهذه الظاهرة، وهذه الشبهة. وقام بينهم جدل صاخب. وعقد  
(الإتقان) فصلاً (( في جدل القرآن )) (٢ : ١٣٥) جاء فيه: (( قال ابن أبي الاصبع: زعم الجاحظ  
أن المذهب الكلامي لا يوجد منه شيء في القرآن. وقال العلماء قد اشتمل القرآن العظيم على  
جميع أنواع البراهين والأدلة؛ وما من برهان ودلالة وتقسيم وتحذير تُبنى من كليات المعلومات  
العقلية والسمعية إلا وكتاب الله قد نطق بها؛ لكن أورده على عادة العرب، دون دقائق طرق  
المتكلمين )) . ودام هذا الجدل إلى اليوم حتى خرج عن

(١) و يستخلص السيوطي تسعة أنواع من قياسات الجدل الكلامي التي وجدوها في القرآن .

طوره. قال الأستاذ دروزة: (( إننا نعتقد أن أصحاب المذاهب الكلامية قد تكلفوا وتمحلوا في كثير مما تجاذبوا وتشادوا فيه، على غير طائل ولا ضرورة، وأنهم حملوا العبارات القرآنية ما لا محل لتحميلها إياه، ولا يقتضيه السياق الذي جاء فيه... وإن محاولات أهل المذاهب الكلامية والخلافية تجعل القرآن يناقض بعضه بعضاً، مما يجب تنزيهه عنه )) . أخيراً أهدتوا إلى الحل الصحيح: (( ليست براهين القرآن على وحدانية الله، من باب الجدل وعلم الكلام، ولا من باب المنطق والفلسفة. بل إنما هي من نوع المنطق الوجداني، والجدل التصويري: مادته المشاهد المحسوسة في الخليفة، أو مصائر البشرية المصوّرة؛ وطريقته هي الطريقة الفنية، طريقة التصوير والتشخيص بالتخييل والتجسيم. كان هذا هو المنطق الوجداني الذي جادل به القرآن وناضل وكسب المعركة في النهاية. لأن موطن العقيدة الخالد هو الضمير والوجدان - موطن كل عقيدة، لا العقيدة الدينية وحدها - وأقرب الطرق إلى الضمير هو البدهاة، وأقرب الطرق إلى الوجدان هو الحس. وما الذهن في هذا المجال إلا منفذ واحد من منافذ كثيرة، وليس هو على أية حال أوسع المنافذ ولا أصدقها ولا أقربها طريقاً )) . والمنطق الوجداني أقرب إلى الشعر والأدب منه إلى المنطق.

\*

#### رابعاً: هل براهين التوحيد من متشابه القرآن؟

واستخلص كثيرون من طريقة الجدل القرآنية أن جدل القرآن أو برهنته، من متشابه القرآن لا من محكمه. قال الأستاذ دروزة: (( إن القرآن قسمان متميزان،

---

(١) دروزة: القرآن المجيد ٢٥٣ - ٢٥٧ حيث يورد سرداً لأنواع التعارض التي يختلف فيها المتكلمون في القرآن .

(٢) سيد قطب: التصوير الفني في القرآن: المنطق الوجداني ١٨٤ - ١٩٣ ويستطرد في صفحة ١٨٦ إلى القول: (( منهم من يرفع الذهن إلى آفاقه: فالذهن الإنساني خَلِيق بأن يدع للمجهول حصته، وأن يحسب له حساب. لا يدعو إلى هذا مجرد القداسة الدينية، ولكن يدعو إليه اتساع الأفاق النفسية، وتفتّح منافذ المعرفة: (( فالمعقول )) في علم الذهن، (( والمحسوس )) في تجارب العلم، ليسا هما كل (( المعروف )) في عالم النفس. وما العقل الإنساني - لا الذهن وحده - إلا كوة واحدة من كوى النفس الكثيرة. ولن يغلق إنسان على نفسه هذه المنافذ إلا وفي نفسه ضيق وفي قواه انحسار، لا يصلح بهما للحكم في هذه الشؤون الكبار... وما يعيب العقيدة أن يكون عمل الذهن فيها محدوداً )) . - إن صح ما يقوله السيد قطب في الإسلام، ولا (( سرّ فيه )) بل هو دين الفطرة، يحق للنصارى من باب أولى في توحيدهم المسيحي الغارق في أسرار الله أن يقولوه. وفعلاً هذا ما يقولونه عندما يُتهمون بالشرك في تثليث الصفات الذاتية في الله، وفي عقيدة التجسد وإلهية السيد المسيح كلمة الله الذاتية، وروح منه وفيه .

أدهما محكم أساسي ثابت لا يتحمل تأويلاً ولا تنوعاً ولا وجوهاً افتراضية وتقریبية؛ وثانيهما متشابه، بسبيل التقريب والتمثيل والإلزام والبرهنة، ويحتمل التأويل والتنوع والوجوه الافتراضية. ولسنا منفردين في هذا التحريج فقد سبق إليه كثير من اعلام العلماء والمفسرين (معارض ٣) وقد روي عن ابن عباس أن المحكم هو ناسخ القرآن وحلاله وحرامه وحدوده وفرائضه ( أي أحكامه الثابتة لا غير ) وأن المتشابه ما عداه ... فإن محتويات القرآن نوعان متميزان وهما **الأسس والأهداف**: وإن الجوهرية فيه هو الأسس، لأنها أهداف التنزيل من مبادئ وقواعد وشرائع وأحكام. وما عدا ذلك مما احتواه القرآن من مواضع مثل **القصص** والأمثال والوعد والوعيد، والترهيب والترغيب، والتنديد **والجدل والحجاج**، والتذكير **والبرهنة** والإلزام، و**لفت النظر إلى نواميس الكون** ومشاهد عظمة الله وقدرته ومخلوقاته الخفية والعلنية فهو وسائل تدعيمية إلى تلك الأسس والأهداف، وبسبيلها (( أي بحسب التعبير القديم هي من )) متشابه القرآن )) .

إذن (( لفت النظر إلى نواميس الكون ومشاهد عظمة الله، والبرهنة، والجدل والحجاج )) هي وسائل تدعيمية في القرآن، لا من أسسه وأهدافه، فهي من المتشابه في القرآن.

نقول: التوحيد هو العقيدة الكبرى في القرآن، - أفتكون براهين الخليفة عليه، من حيث هي جدل وحجاج وبرهنة، من متشابه القرآن؟؟

\*

#### خامساً : وهل العلوم الكونية القرآنية من متشابه القرآن؟

وهكذا يرى الأستاذ دروزة، وغيره، أن (( الكونيات )) في القرآن هي من المتشابه فيه من حيث هي أسلوب (( جدل وحجاج وبرهنة )) .

(( **الكونيات** )) في القرآن، بحسب الأستاذ دروزة، هي أيضاً من المتشابه فيه، من حيث هي موضوع (( **لفت النظر إلى نواميس الكون**، ومشاهد عظمة الله وقدرته، ومخلوقاته الخفية والعلنية )) .

في الإتيان للسيوطي ( ٢ : ١٢٥ ) فصل (( في العلوم المستنبطة من القرآن )) : يجعلون القرآن مصدر جميع أنواع العلوم الماضية والحاضرة والمستقبلية، من لغوية وعلمية وفلسفية،

---

(١) الأستاذ دروزة : القرآن المجيد ١٦٠ و ١٦٢ .



لقوله (( ما فرطنا في الكتاب من شيء )) ! ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء )) ! قال السيوطي: (( وقال ابن جرير القرآن يشتمل على ثلاثة أشياء: التوحيد والأخبار والديانات؛ ولهذا كانت سورة الإخلاص ثلثه لأنها تشمل التوحيد كله؛ ولذلك كانت الفاتحة أم القرآن لأن فيها الأقسام الثلاثة. وأنا أقول: قد اشتمل كتاب الله العزيز على كل شيء: أما أنواع العلوم فليس منها باب، ولا مسألة هي أصل، إلا وفي القرآن ما يدل عليها. وفيه عجائب المخلوقات، وملكوت السماوات والأرض، وما في الأفق الأعلى، وتحت الثرى وبدء الخلق ... وقد احتوى على علوم أخرى من علوم الأوائل مثل الطب والجدل والهيئة والهندسة والجبر والمقابلة والنجامة وغير ذلك: أما الطب فلقوله (( وكان بين ذلك قواماً )) وقوله (( شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس )) ؛ وأما الهندسة ففي قوله (( انطلقوا إلى ظل ذي ثلاث شعب )) ؛ وأما الجبر والمقابلة فقد قيل إن أوائل السور فيها ذكر مدد وأعوام وأيام لتواريخ أمم سالفة، وإن فيها تاريخ بقاء هذه الأمة، وتاريخ مدة أيام الدنيا؛ وأما النجامة ففي قوله (( أو أثارة من علم )) . وفيه أصول الصنائع وأسماء الآلات التي تدعو الضرورة إليها كالحياطة في قوله (( وطفقا يخصفان )) والحدادة: (( وأنتا له الحديد )) والبناء، في آيات ؛ والنجارة: (( واصنع الفلك بأعيننا )) ؛ والغزل: (( نقضت غزلها )) ؛ والنسج (( كمثل العنكبوت اتخذت بيتاً )) ؛ والفلاحة: (( أفرأيتم ما تحرثون )) ؛ والصياغة: (( واتخذ قوم موسى من بعده من حليهم عجلًا )) ؛ والزجاجة (( المصباح في زجاجة )) ؛ والفخارة (( فأوقد لي يا هامان على الطين )) ؛ والملاحة (( أما السفينة )) ؛ والكتابة: (( علم بالقلم )) ؛ والخبز والطبخ والغسل والقصارة والجزارة والكيالة والوزن والرمي. وفيه من أسماء الآلات وضروب المأكولات والمشروبات والمنكوحات، وجميع ما وقع ويقع في الكائنات ما يحقق معنى قوله (( ما فرطنا في الكتاب من شيء )) ... حتى لقد قال قائل: إن علوم القرآن خمسون وأربعماية وسبعة آلاف علم؛ أو سبعون ألف علم على عدد كلم القرآن مضروبة بأربعة، إذ لكل كلمة فيه ظهر وبطن وحد ومطلع. وقال قائل: إن لكل آية ستين ألف فهم! حتى قال ابن عباس: لو ضاع لي عقل بغير لوجدته في كتاب الله<sup>١</sup> .

وقد زاد أهل العصر على هذه الخوارق. (( أما بعد فيقول عبد ربه تعالى خادم الكتاب والسنة، محمد العربي العزوزي<sup>٢</sup>: إن أوسع دائرة للمعارف تناولتها البشر القرآن الكريم )) .

(١) السيوطي: الإتيان ٢ : ١٢٧ - ١٣٠.

(٢) دليل مباحث علوم القرآن المجيد ، تأليف محمد العربي العزوزي ، أمين الفتوى في الجمهورية اللبنانية (المقدمة ١٢) .

والسيد عفيف عبد الفتاح طيارة في كتابه ( روح الدين الإسلامي ) يذكر من معجزات القرآن العلمية عظمة النظام الشمسي من الآية: (( فلا ! أقسم بمواقع النجوم، وإنه لقسم لو تعلمون عظيم: إنه لقرآن كريم )) ؛ ويقول: (( أثبت علم الفلك أن للنجوم السيارة مدارات تجري فيها دائماً على نظام ثابت. فهل علم محمد، وهو أمي، بعظمة هذا النظام الشمسي منذ أربعة عشر قرناً ما علمه أكبر فلكي أوربي ( نيوتن ) بالوسائل الحديثة؟ لو علم نيوتن أن استدلاله بنظام الكواكب على مكوناتها قد سبقه إليه القرآن لأعلن إسلامه<sup>١</sup> )) ؛ وحكمة قانون الجاذبية من مثل قوله: (( وهو الذي مدّ الأرض، وجعل فيها رواسي )) ؛ ونظام تكوين الإنسان ضمن ظلمات ثلاث: (( وهو الذي أنشأ لكم السمع والأبصار والأفئدة )) ، وخلق الأنثى بجانب الذكر (( ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها )) ، ويجد سرّ علم الناسلات في قوله: (( قتل الإنسان ما أكفره! من أي شيء خلقه؟ من نطفة خلقه فقدره )) . ويجد قانون التطور في خلق الحيوان والزواحف والطيور في قوله: (( والله خلق كل دابة من ماء. فمنهم من يمشي على بطنه، ومنهم من يمشي على رجلين، ومنهم من يمشي على أربع: يخلق ما يشاء، إن الله على كل شيء قدير )) قال نيوتن: (( هل يعقل أن تُصنع العين الباصرة بدون علم بأصول الأبصار ونواميسه؟ )) . ويجد نظرة السببية في المخلوقات الأرضية في قوله: (( هو الذي أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تُسِيمون، ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب، ومن كل الثمرات: إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون )) ( نحل ٩ - ١٨ ) ويقول: (( إن في الآيات التي تبهر الأبواب في الإسلام أنه سبق العلم في هذه الناحية - التي أثبتتها علماء الأجناس من أن الدين والتوحيد فطرة - بنحو ثلاثة عشر قرناً؛ فقد قرر القرآن هذه الحقيقة بقوله: (( فأقم وجهك للدين حنيفاً، فطرة الله، التي فطر الناس عليها، لا تبديل لخلق الله: ذلك الدين القيم، ولكن أكثر الناس لا يعلمون )) .

والسيد عبد الرزاق نوفل في كتابه ( القرآن والعلم الحديث<sup>٢</sup> ) يرى أسرار علم النفس مثل الإيحاء الذاتي الذي يجلب السعادة في قوله (( وأما بنعمة ربك فحدث )) ( ضحى ١١ ) وسحر الألوان وأفضلية اللون الأخضر في جلب السعادة في قوله (( متكئين على رفرف خضر )) ( رحمان ٧٦ ) عليهم ثياب سندس خضر )) ( الإنسان ٢١ ) وأسرار علم البيولوجيا

(١) طيارة: روح الدين الإسلامي ٤٣ - ٥٠ .

(٢) عبد الرزاق نوفل: القرآن والعلم الحديث، نشر دار المعارف بمصر، مارس ١٩٥٩ .

مثل تفضيل البروتين الحيواني على البروتين النباتي في قوله « وإذ قلتم يا موسى لن نصبر على طعام واحد ( المن والسلوى ) فادع لنا ربك يخرج لنا مما تنبت الأرض من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها؛ قال: أتستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير » ( بقرة ٦١ ). وأسرار علم الفيزياء الطبيعية مثل كشف القرآن عن فترة من حياة الأرض تحوّل فيها النبات الأول إلى ماء الفحم منذ خمسة وثلاثين مليوناً من السنين في قوله: « أخرج المرعى فجعله غثاء أحوى » ( الأعلى )؛ وكشفه عن غلاف الأرض المائي في قوله « والأرض بعد ذلك دحاها، أخرج منه ماءها ومرعاها » ( النازعات ٣٠- ٣١ )، وأسرار نظرية اينشتين في النسبية في قوله: « يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ثم يعرج إليه في يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون ( سجدة ٥ ) في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ( المعارج ٤ ) وأن يوماً واحداً عند ربك كآلف سنة مما تعدون » ( الحج ٤٧ ). وأسرار علم وراثه الصفات، منصفه من الأب والأم بعدد متساوٍ من الكروموزومات « ومن عجب أن القرآن الكريم قد قرّر هذه النظرية قبل العلم بعشرات المئات من السنين إذ يقول في سورة مريم ( يا أخت هارون ما كان أبوك امرأ سوء وما كانت أمك بغياً ) أي أن مريم لا يمكن أن تكون خاطئة أو آثمة إذ لم تورث هذا الخطأ من الأب أو من الأم، أي أن الصفات تورث من الأب والأم . وأسرار علم الحياة الكامنة في الخلية الحية أي النطفة في قوله « فلينظر الإنسان ممّ خلق ... » ( الطارق ٥ ): « لقد اعترف العلم أن الإنسان يتم من الخلية التي تتكون من الغذاء الذي تنبته الأرض ومن خصائص لا نعرفها، وهذا ما جاء به القرآن الكريم: « سبحان الذي خلق الأزواج كلها ممّا تنبت الأرض، من أنفسهم وممّا لا يعلمون » ( يس ٣٦ )؛ ومرض الكتركتا من الحزن وضغط الدم في قوله عن يعقوب « وابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم » ( يوسف ٨٤ - ٩٦ )؛ وأسرار العالم غير المنظور في قوله في ٧٣ آية « رب العالمين » وقوله « فلا أقسم بما تبصرون وما لا تبصرون » ( الحاقة ٣٨ - ٣٩ ). « ولقد سبق القرآن الكريم العلم الفلكي والجيولوجي حينما قرر أن السماوات والأرض إنما كانتا قطعة واحدة وانفصلت وذلك بنص الآية ٣٠ من سورة الأنبياء: أولم ير الذين كفروا أن السماوات والأرض كانا رتقاً ففتقناهما » وقيل ذلك كانت السماوات والأرض كما يقول القرآن دخاناً: « ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض ائتيا » . وقد سبق القرآن أيضاً علم الفلك اللاسلكي والاستماع إلى الإشارات اللاسلكية الكونية في قوله: « لا يستمعون إلا الملائحة الأعلى » ( صافات ٨ ) « أم لهم سلّم يستمعون فيه، فليأت مستمعهم بسطان مبين » ( الطور ١٣٨ ). وقد سبق

القرآن السنة الجيوفيزيقية في القرن العشرين بدعوة الناس أجمعين إلى درس أسرار السماء والأرض بقوله (( إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب ) آل عمران ١٩٠ ) قل انظروا ماذا في السماوات والأرض )) ( يونس ١٠١ ) وقد كرر التعبير ٣١٩ مرة. وقد سبق القرآن علم الذرة وتفجيرها كما قال فيها: (( فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين، يغشى الناس: هذا عذاب أليم ... وأن يروا كسفاً من السماء ساقطاً يقولوا: سحاب مركوم )) . فقد وصفت سورة الدخان، تفجير الذرة ومفعولها قبل ١٤٠٠ سنة ونيف. (( وأهم حدث وقع في القرن العشرين، إن لم يكن في حياة الأرض، هو الأقمار الصناعية لغزو الفضاء. هذه الأقمار التي خرجت من الأرض، ألا يمكن أن تكون هذه هي الدابة التي تنبأ بها القرآن الكريم في سورة النحل (( وإذا وقع القول عليهم، أخرجنا لهم دابةً من الأرض تكلمهم أن الناس كانوا بآياتنا لا يؤمنون )) (٨٢) ...

- ألا رحمة بعقول الناس، يا قوم! فالقرآن الكريم مثل الكتاب المقدس، كتاب دين يهدي إلى الله، وليس بكتاب فلسفات أو علوم: (( قل إنما يوحى إليّ أنما إليكم واحد: فهل أنتم مسلمون؟ )) ( أنبياء ١٠٨ ) ليس من وحى في القرآن سوى التوحيد: (( إنما أعظكم بواحدة: أن تقوموا لله )) ( سبأ ٤٦ ). ويشدد في حصر الوحي القرآني في التوحيد لا غير: (( قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إليّ إنما إليكم واحد فاستقيموا إليه واستغفروه )) ( فصلت ٦ ). وكل ما جاء فيه من (( كونيات )) أو كلمات نستنبط منها علوماً، ليس من محكم التنزيل، بل يعده علماء الإسلام منذ ابن عباس إلى اليوم من متشابه القرآن، الذي لا يعلم تأويله إلا الله.

والأستاذ دروزة في مقدمة تفسيره ( القرآن المجيد ) يرى أن ما في القرآن من ((كونيات)) هي من متشابه القرآن لا من إعجازه، قال: (( لعلّ في تعبير الأوتاد عن الجبال والسقف المبني عن السماء، والمصابيح المضيئة التي زينت بها السماء عن النجوم، وجريان الشمس ومنازل القمر، والسراج الوهاج للأولى، والمصباح المنير للثاني، وفي ذكر إنزال الماء من السماء، وتسيير السحاب وتصريف الرياح، وإرسال البرق والرعد والصواعق، وإنبات مختلف الزرع والأشجار، وتسخير الدواب والأنعام، وتسيير البحار والأنهار والفلك، وجعل الأرض بساطاً، وتصويرها مركزاً للكون، والإنسان قطباً للأرض، حيث سخر له كل ما في السماوات والأرض، وسوّاه الله بيده، ونفخ فيه من روحه ... ما جاء متسقاً مع مشاهد ومدركات مختلف فئات الناس الذين يوجه إليهم الكلام ... وإن ما

ورد في القرآن من مشاهد الكون ونواميسه قد استهدف العظمة والتدعيم دون أن ينطوي على قصد تعزيز ماهية الكون وأطوار الخلق والتكوين ونواميس الوجود من الناحية العلمية والفنية ... وهذه النقطة متصلة بالمبدأ العام الذي ما فتننا نقررّه من أن القرآن خاطب الناس بما يتسق في أذهانهم إجمالاً من صور ومعارف، لما يكون من قوة أثر الخطاب فيهم بمثل هذا الأسلوب. وملاحظة ذلك جوهرية جداً، لأنها تحول دون التكلف والتجوّز والتخمين، ومحاولة استخراج النظريات العلمية والفنية في حقائق الكون ونواميسه وأطواره منها، والتملّ والتوفيق والتطبيق ممّا يخرج بالقرآن عن نطاق قدسيته (( .

\*

سادساً : وهل تفصيل التوحيد في القرآن هو أيضاً من المتشابه فيه؟

(( الكونيات )) أو العلوم الكونية في القرآن هي من المتشابه فيه موضوعاً وأسلوباً.

ويرى الأستاذ دروزة أيضاً أن تفصيل التوحيد فيه، فيما عدا عقيدة التوحيد الكبرى، هو أيضاً من متشابه القرآن الذي لا يعلم تأويله إلا الله: (( إن ما ورد في القرآن مما يتصل بذات الله السامية من تعابير اليد والقبضة واليمين والشمال والوجه والاستواء والنزول والمجيء، وفوق وتحت وأمام، وطى وقبض ونفخ، إنما جاء بالأسلوب والتعابير والتسميات التي جاءت به من قبيل التقريب لأذهان السامعين ...

(( وكل ما ورد في صدد الذات السامية من أسماء وأفعال وصفات أخرى قد توهم مماثلة لأسماء وصفات وأفعال البشر أيضاً، إنما جاء كذلك على سبيل التقريب والتشبيه )) .

(( وما ورد من أخبار الملائكة والجن لم يكن هو الآخر غريباً عن السامعين جزئياً أو كلياً، وأنه من وسائل التدعيم للدعوة وأهدافها، وليس مقصوداً بذاته )) فهو أيضاً من متشابه القرآن الذي يؤمن به ولا يُعمل به.

وهكذا، على حد قول الأستاذ دروزة، إن تفصيل التوحيد من أوصاف ذات الله، إلى أوصاف الملائكة والجن، وبراهين التوحيد وما قد تنطوي عليه من أوصاف كونية،

(١) دروزة : القرآن المجيد ١٩٠ - ١٩٢ .

(٢) دروزة : القرآن المجيد ١٩٧ - ١٩٨ .

(٣) دروزة : القرآن المجيد ١٨٥ .

ومشاهد الحياة الأخروية، والقصاص القرآنية، هي من الوسائل التدعيمية، لا من الأسس والأهداف القرآنية، أي من المتشابه في القرآن لا من محكم التنزيل فيه.

\*

### سابعاً: كيف ينسجم الإعجاز والمتشابه في (( الكونيات )) القرآنية؟

ونظرية الأستاذ دروزة هي النظرية المتواترة عن الصحابة والتابعين لهم بإحسان. جاء في الإتقان للسيوطي: (( وقد اختلف في تعيين المحكم والمتشابه.

(( أخرج ابن أبي حاتم عن طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قال: المحكمات ناسخه وحلاله وحرامه، وحدوده وفرائضه: ما يؤمن به ويعمل به. والمتشابهات منسوخه ومقدمه ومؤخره، وأمثاله، وأقسامه، وما يؤمن به ولا يعمل به.

(( وقيل: المحكم الفرائض والوعد والوعيد. والمتشابه القصص والأمثال.

(( وأخرج الفريابي عن مجاهد قال: المحكمات ما فيه الحلال والحرام، وما سوى ذلك منه متشابه يصدق بعضه بعضاً.

(( وأخرج ابن أبي حاتم عن الربيع قال: المحكمات هي أوامره الزاجرة )) . وأوامره الزاجرة محدودة: (( قال الغزالي: آيات الاحكام خمسمائة آية وقال بعضهم: مائة وخمسون آية ))

- وأضاف ( الإتقان ): (( اختلف هل المتشابه مما يمكن الاطلاع على علمه، أو لا يعلمه إلا الله، على قولين، منشئهما الاختلاف على قراءة قوله (( ولا يعلم تأويله إلا الله، والراسخون في العلم، يقولون )) ( آل عمران ٧ ): هل هو معطوف، أو مستأنف. وعلى الأول طائفة يسيرة. وأما الأكثر من الصحابة والتابعين وأتباعهم ومن بعدهم، خصوصاً أهل السنة، فذهبوا إلى الثاني وهو أصح الروايات عن ابن عباس الذي كان يقرأ: (( وما يعلم تأويله إلا الله! أو يقول الراسخون في العلم: أمنا به )) . فتساءل النووي في شرح مسلم: كيف يخاطب الله عباده بما لا سبيل لأحد من الخلق معرفته؟ فقال ابن الحاجب: إنه الظاهر!!!

(١) الإتقان ٢ : ٢ و ١٣٠.

(٢) الإتقان ٢ : ٣ .

والإعجاز ما يتحدّى به القرآن الإنس والجن بما يفهمون، ولا يستطيعون؛ وإمّا المتشابه فلا يعلم تأويله إلا الله. (( والكونيات )) أو العلوم الكونية في القرآن هي من المتشابه فيه أسلوباً وموضوعاً: فكيف تكون ناحية من نواحي الإعجاز الكبرى في القرآن، كما يدّعي بعضهم؟؟

لذلك كان بيان كل هذا المتشابه من القرآن، لا على الطريقة العلمية وبسبيلها ولا على الطريقة المنطقية والفلسفية وبسبيلها، بل بحسب المنطق الوجداني والمذهب الأدبي. وهذا الأسلوب القرآني في تعليم التوحيد الخالص أقرب إلى الشعر والأدب منه إلى العلم والفلسفة. فالنبي خطيب شعبي في قوم بدائيين جاء بدلائل الفطرة على دين الفطرة للإيمان بالله وتوحيده على مثال الأنبياء والزبور والحكمة المنزلة.

### ٣- الظاهرة الثالثة: القصص القرآني

والقصص القرآني ظاهرة العهد الثاني أسلوباً وموضوعاً: إنه الظاهرة الثالثة في هذا العهد موضوعاً؛ ولكنه الظاهرة الكبرى أسلوباً.

\*

### أولاً: أغراض القصص القرآني<sup>١</sup>

وللقصص القرآني براعتان: العبرة بأحوال الماضين، وتصوير الحاضر المكي في سير الغابرين، بطريقة مستورة، تقلل من استفزازهم.

(١) قال السيد أحمد أمين :

(( كان للعرب قصص ، وهو باب كبير من أبواب أدبهم . وفيه دلالة كبيرة على عقليتهم . وهذا القصص في الجاهلية أنواع . منها أيام العرب وهي تدور حول الوقائع الحربية التي وقعت في الجاهلية بين القبائل ( كيوم داحس والغبراء ، ويوم الفجار ، ويوم كلاب ) أو بين بعض العرب وأمم أخرى ( كيوم ذي قار بين بني شيبان والفرس ) ؛ ومنها أحاديث الهوى ، وهذا كثير في كتب الأدب . وهناك نوع من قصص العرب أخذوه من أمم أخرى وصاغوه في قالب يتفق وذوقهم . وقد عرف العرب في الجاهلية قصصاً كثيرة عن الروم كقصة شريك مع المنذر ( الأغاني ج ١٩ ص ٨٧ ) أو كقصة السبعة من بني ضبة التي تشبه قصة أهل الكهف السبعة ( أمالي القالي ج ١ ص ٦١ ) . وقد عرفت العرب في الجاهلية قصصاً كثيرة عن الفرس وكانوا يروونها ويتسامرون بها . جاء في سيرة ابن هشام ( ج ١ ص ١٩٠ من الروض الأنف ) أن النضر بن الحارث ممن كان يؤذي الرسول قدم الحيرة وتعلم بها أحاديث ملوك فارس ، ورستم واسفنديار ، كان إذا جلس رسول الله ص . مجلساً ( وقصّ القصص القرآني ) خلفه في مجلسه إذا قام ثم قال : أنا والله يا معشر قريش أحسن حديثاً منه فهلم إليّ . قال ابن هشام وهو الذي قال فيما بلغني : (( سأنزل مثل ما أنزل الله )) . ( فجر الإسلام . طبعة سادسة ٦٦ - ٦٨ ) .

ويرد القصة القرآني كبرهان للتوحيد من تاريخ البشرية. فدعوة التوحيد لها في هذا العهد مظهران: مشاهد الخليقة التي تشهد لخالقها؛ ومشاهد تاريخ البشرية التي يصفها كصراع هائل دائم بين الإيمان بالله والكفر.

ويهدف القرآن إلى وصف هذا الصراع، في كل سورة من هذا العهد تقريباً، إلى غايتين: الأولى عامة للجميع، فهو يردّد عليهم تاريخ الأمم الماضية لكي يتّعظوا به: ((فاقصص القصص لعلهم يتفكرون)) ( أعراف ١٧٥ ) (( أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الكافرين )) ( غافر ٢١ و ٨١ ) (( انظر كيف كان عاقبة المنذرين )) ( صافات ١٨٢ ) (( انظر كيف كان عاقبة المكذبين )) ( زخرف ٢٥ ). وأروع مثل على هذا الهدف العام تلك اللازمة التي يكرّرها بعد كل حلقة من سلسلة تاريخ البشرية في سورة الشعراء (( إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين )) .

وأغراض القصة القرآنية، في هذا الهدف العام، هي كما يعدّها سيد قطب<sup>١</sup>: إثبات الوحي والرسالة في مقدمات أو خواتيم القصة؛ بيان أن دين التوحيد كله من عند الله، من نوح إلى محمد ( سورة الأنبياء )؛ بيان أن الدين كله موحد الأساس ( في الأعراف )، بيان أن وسائل الأنبياء في الدعوة موحدة ( هود )؛ بيان اتصال دين محمد بدين إبراهيم مروراً بعيسى وموسى ( في قصصهم المتواتر )؛ بيان نصره الأنبياء في النهاية على أقوامهم الكافرين ( الصافات، العنكبوت ) مع بيان نعم الله على هؤلاء الأنبياء؛ التنبيه إلى العداوة الخالدة منذ الجنة بين بني آدم والشيطان ( سبع قصص إبليس )؛ تصديق التبشير والتحذير ( الحجر )؛ بيان قدرة الله على الخوارق ( قصص آدم، وعيسى )؛ بيان عاقبة الإيمان والكفر ( قصص عاد وثمود ومدين ) .

ولكن الغرض السامي والبعيد في حلقات القصص المكررة هو البيان أن أمة التوحيد أمة واحدة من نوح إلى إبراهيم، إلى موسى، إلى عيسى، إلى محمد. ووحدة أمة التوحيد تظهر من وحدة الإله، ووحدة الدين، ووحدة الرسل، ووحدة طرائق الدعوة ووحدة المصير للأنبياء، ووحدة الخلاص للمؤمنين والهلاك للمكذبين، في كل القصص القرآنية.

(١) قد لا تخلو سورة من إظهار هذا الهدف . ص ١٢ - ١٧ الأعراف ١٠١ و ١٦٣ - ١٦٦ و ١٧٥ - ١٧٧ يس ١٢ - ٣١ الفرقان ٣٥ - ٤٠ مريم ٥٤ - ٦٣ طه ٩٩ - ١٠١ الشعراء ، النمل ٤٥ - ٥٨ القصص ١ - ٦ و ٥٨ - ٥٩ يونس ١٢ - ١٣ و ٧١ - ٩٨ هود ١٠٠ - ١٠٣ يوسف ١١١ .  
(٢) سيد قطب : التصوير الفني في القرآن ١٢٠ - ١٢٨ .



والغاية الثانية التي يتوخاها القرآن في قصصه هي (( تثبيتُ فؤاد النبي )) في المحن الخارجية التي يقاسيها، والأزمات النفسية التي يعانها.

\*

### ثانياً : أسلوب القصص القرآني

أسلوب القرآن في قصصه ناحية من نواحي الإعجاز فيه. له مطالع وخواتيم لفظية وموضوعية خاصة؛ وطريقته في العرض تخضع لأغراض القصة الدينية؛ ولغة الأسلوب تسائر تطور الفن القصصي فيه.

يستهل القرآن القصة بتعابير لفظية خاصة به مثل قوله: (( تلك آيات الكتاب )) ( شعراء ١ ، الحجر ٨ ، النحل ١ ، يوسف ١ ، القصص ١ ، يونس ١ ) ومثل قوله: (( هل أتاك حديث موسى )) أو غيره ( طه ٨ ، إبراهيم ٦ ، الذاريات ٢٤ ، النازعات ١٥ ) ومثل قوله ((واذكر)) ( قصص سورة مريم وغيرها )، ومثل قوله (( وإذ )) ، ومثل قوله: (( ألم ترَ ...

وفي موضوع القصة، له في مطلعها أربع طرائق: منها ما يبدأ بملخص للقصة ( مثل أهل الكهف )؛ ومنها ما يبدأ بذكر عاقبة القصة ومغزاها ( قصة موسى في سورة القصص، وقصة يوسف )؛ ومنها ما يبدأ مفاجأة لذاتها ( كقصص عيسى ) لأنها تأتي لغرابتها في ذاتها؛ ومنها ما يبدأ بإشارة استفتاحية.

وللقرآن أساليب متنوعة لختام القصة: منها (( إن في ذلك لآية للمؤمنين )) ( الحجر ٧٧)؛ ومنها (( تنزيل رب العالمين )) ( شعراء ١٩٢)؛ ومنها (( وإنه لهدى ورحمة للمؤمنين )) ( نمل ٧٩)؛ ومنها (( بصائر للناس لعلهم يتذكرون )) ( القصص ٤٣)؛ ومنها (( ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك )) ( طه ٩٩)؛ ومنها (( ذكر للناس أو للعالمين )) ( إبراهيم ٥٢) .

وللقرآن طريقة خاصة للعرض. فهو كتاب دعوة دينية قبل كل شيء. والقصة إحدى وسائله إلى أغراضه الدينية، وقد خضعت القصة القرآنية في موضوعها وطريقة عرضها وإرادة حوادثها لمقتضى تلك الأغراض. فمرة تعرض القصة من أولها، ومرة من وسطها، ومرة من آخرها. وتارة تعرض كاملة، وتارة يكتفي ببعض حلقاتها، وتارة تتوسط بين هذا وذاك حسب العبرة. وكان من أثر خضوع القصة للغرض الديني أن تمزج التوجيهات الدينية بسياق القصة، قبلها وبعدها وفي ثناياها.

وهذه الطريقة القرآنية في العرض تمتاز بالحوار بين أشخاص القصة، مما يعطيها حيوية نادرة. (( والحوار في القرآن، إنما يمثل أكثر من كل شيء الدعوة الإسلامية ونفسية محمد ص. )) في أشخاص القصة وأحداثها.

وتمتاز الطريقة القرآنية في عرض القصة بتنوع أساليب المفاجأة في أحداثها: مرة يُكتم السرّ عن البطل وعن النظارة ( مثل أهل الكهف )؛ ومرة يُكشف للنظارة دون أبطال القصة ( مثل أصحاب الجنة )؛ ومرة يتراوح الكشف بين الأبطال حيناً والنظارة حيناً آخر. ثم بتلك الفجوات بين المشهد والمشهد من القصة الواحدة، التي تخرج القصة بذلك القالب من الإيجاز المعجز. وميزة الأسلوب في العرض، ذلك (( التصوير الفني )) في تنوع ألوان القصة: لون في قوة العرض والإيحاء، ولون في تخييل العواطف والانفعالات، ولون في رسم الشخصيات ذلك الرسم الخالد مثل موسى نموذج الزعيم المنذع العصبي المزاج، وإبراهيم نموذج الهدوء والتسامح والحلم، ويوسف مثال الرجل الواعي الحصيف، وسليمان الملك والنبى ولكنه رجل، وبلقيس السيدة والملكة ولكنها امرأة<sup>١</sup>.

ويلاحظ السيد خلف الله تطوّر طريقة في القصص القرآني: (( إن هناك ما يشبه أن يكون نظاماً مقررّاً في عرض الحلقات المكرّرة من القصة الواحدة، يتّضح حين تُقرأ بحسب ترتيب نزولها: فمعظم القصص يبدأ بإشارة مقتضبة؛ ثم تطول هذه الإشارة شيئاً فشيئاً؛ ثم تعرض حلقات كبيرة تكوّن في مجموعها جسم القصة؛ وقد تستمر الإشارات المقتضبة فيما بين عرض هذه الحلقات الكبيرة عند المناسبة، حتى إذا استوفت القصة حلقاتها، عادت هذه الإشارات هي كل ما يعرض منها<sup>٢</sup> .

وقد وصف السيد خلف الله هذا النظام في تطور الفن القصصي في القرآن: (( يأتي القصص أولاً خبيراً عادياً يصوّر حالة أو موقفاً أو حادثة، فهو يعني بالأقاصيص التي تبرز فيها الحوادث وأسماء الأقسام ( مثل القمر والذاريات ) . - ويمثل هذا الطور سور فترة الانتقال ما بين عهدين - وبعد قليل حين تشتد الخصومة يدخل عنصر الحوار في القصة، ويكون موضوعه موضوعات الدعوة الإسلامية من بعث ووحداية، كما يكون الدفاع عن النبي والقرآن. وهنا تبرز أسماء الرسل. وأطراف المحاورّة تكون الرسل وأقوامهم،

(١) سيد قطب: التصوير الفني في القرآن ١٥٦ - ١٧٥ .

(٢) سيد قطب: التصوير الفني في القرآن ١٢٦ .

أو المستضعفين والمستكبرين ( مثل شعراء وأعراف ). فالأحداث تنزل الآن بالمستكبرين أو المكذبين لا بالأقوام. وقد أخذ الأسلوب يبتعد عن السجع قليلاً قليلاً: في ( الشعراء ) يشبه أن يكون سجعاً، وهو في غيرها ( كالأعراف ) بدأ يسترسل. والتمهيدات للقصة تظهر بكثرة في هذا التطور ( قصة يوسف، وموسى في القصص ). - وهو يمثل قصص العهد كما ورد في البحث الثاني - بعد ذلك، وفي أثنائه، يألم النبي ص. ويحس بضيق شديد من جراء تلك العداوة التي قد تؤدي إلى التهديد بالنفي والإخراج من الأرض أو الاغتيال والتقتيل. وفي هذا الطور ( الثالث: الحواميم ) يشعر القارئ بأن هناك شخصية مختفية وراء هذه الأسماء المبهمة العامة، وأن موضوعات الحوار هي التي تعنى بها هذه الشخصية . .

وفي أواخر العهد المكي تغلب الصيغة الرمزية على أشخاص وأحداث القصة؛ حتى نصل إلى الطور المدني فنحس أن القصة قد بدأت تكون في الغالب معرض صور وآراء، فلا مقدمات ولا نتائج، بل دليل على الصراع مع اليهود ( قصة موسى في البقرة ) أو مع النصارى ( قصة عيسى في آل عمران والمائدة ).

ويقول أيضاً عن تطور لغة الأسلوب بحسب تطور الفن القصصي في القرآن:

(( إن لغة الأسلوب تختلف باختلاف الموضوعات، والطور الذي نزلت فيه. ومعنى ذلك أنه أسلوب فني يجري في كل قصة من القصص على وتيرة واحدة. ومعنى ذلك أيضاً أن القرآن كان لا يساير نفسية المتحاورين بقدر ما يساير نفسية محمد ص. ونفسية معاصريه. ومن هنا خضع أسلوب القصص لتلك المميزات العامة المعروفة عن أسلوب القرآن في عهده المكي والمدني.

(( يلاحظ أنه في القصص الذي نزل أولاً يعتمد على الرنين الصوتي للألفاظ، يعاونه في ذلك الفقرات القصيرة المسجوعة، وذلك لأن عاطفة النبي ص. كانت في ذلك الطور قوية جياشة مندفعة. ومن هنا كانت الانتقالات الفجائية السريعة التي تظهر في القصة الواحدة، وفي مجموعة القصص الواردة في سورة واحدة. ولذا كان القصص قصيراً جداً في هذه الفترة؛ ويمثل هذه السمات قصص سورة القمر. ( راجع سور فترة الانتقال بين العهدين الأول والثاني ).

(( ويلاحظ في القصص الذي يوضح العقائد الجديدة، ويحاول أن يهدم القديمة أن السخرية بالأفكار والعقائد تدخل فيه كعنصر فني ( مع الحوار ). كما يلاحظ في هذا الجزء شيء من هدوء العاطفة عند الرسول، ونلمس ما تحمل الألفاظ من حنان. ويمثل هذا اللون قصص مريم والشعراء والأعراف ( راجع قصص هذا العهد في البحث الثاني ).

(( وفي القصص الذي يأتي للتنفيس والإفاضة تكون العواطف جياشة قوية وإن تكن أميل إلى الاستسلام. وذلك الأمر الذي تدفع إليه العلاقة القائمة بين الرسل والأقوام. ومن هنا تأتي الألفاظ هينة مسترسلة لتجري مع طبيعة العاطفة وما فيها من يأس واستسلام. ( وذلك الأمر يمثله قصص الحواميم في البحث الثالث ).

(( وفي الجملة أن أسلوب القرآن في التعبير عن أفكار الأنبياء والمرسلين أو الأقوام، لا يشاكل الواقع، وإنما يمشي على وتيرة واحدة ... والحوار فيه إنما يمثل أكثر من كل شيء الدعوة الإسلامية ونفسية محمد ص. )) .

\*

### ثالثاً: التكرار والإعجاز في القصص القرآني

والظاهرة الكبرى في أسلوب القصص القرآني هي التكرار في التفكير والتعبير، مع تقديم وتأخير، لأحداث القصة الواحدة؛ وسَمَّوه في البيان والبدیع (( التفتن والاقْتدار )) وجعلوا منه ناحية الإعجاز في القصص: (( نشأ عن خضوع القصة في القرآن لأغراضه أن يعرض شريط الأنبياء والرسل الداعين إلى الإيمان الواحد، والإنسانية المكذبة بهذا الدين الواحد، مرات متعدّدة بتعدّد هذه الأغراض. وأن ينشئ هذا ظاهرة التكرار في بعض المواضع، ولكن هذا أنشأ جمالاً فنياً من ناحية أخرى. فهذه قصة إبراهيم ترد في حوالي عشرين موضعاً. وقصة موسى ترد أكثر من ذلك؛ وهذه قصة عيسى ابن مريم ترد وروداً أساسياً في ثمانية مواضع. وقصة سليمان ترد في ثلاثة مواضع. ويأتي هذا التكرار بخصائص فنية منها تنوّع طريقة العرض، وتنوّع طريقة المفاجأة وتنوّع التصوير في التعبير )) .

(( وقد أورد القرآن قصة آدم وإبليس سبع مرات: ستاً منها في سور مكية، وهي الأعراف (١٨- ٢٦) والحجر (٢٨- ٤٠) والإسراء (٦١- ٦٥) والكهف (٥٠)

(١) محمد خلف الله: الفن القصصي في القرآن الكريم ٢٣٩ - ٢٤١ .

(٢) سيد قطب: التصوير الفني في القرآن ١٤١ - ١٥٦ .

وطه (١١٦-١٢٣) وصاد (٧١-٨٥) وواحدة في البقرة (٣٤ - ٣٨). والقصة كما يفهم من سياقها في كل مرة قد استهدفت العظة والتمثيل والتنبيه، كما أنها تنوّعت في أسلوبها ومحتوياتها **بعض الشيء**، وهو شأن القصص القرآنية المتكررة بصورة عامة كما لا يخفى<sup>١</sup>. والتكرار في التفكير والتعبير هو في قصص آدم وإبليس أظهر من سواه. وهذا التفنن أو التنوّع هو ما يُسمّى في البيان والبديع (( **بالاقتدار** )) . وقال صاحب الإتيقان: (( الاقتدار هو أن يُبرز المتكلم المعنى الواحد في عدة صور اقتداراً منه على نظم الكلام، وتركيبه على صياغة قوالب المعاني والأغراض. فتارة يأتي في لفظ الاستعارة وتارة في صور الأرداف، وحيناً في مخرج الإيجاز، ومرة في قالب الحقيقة. قال ابن أبي الاصبع: **وعلى هذا أتت جميع قصص القرآن: فإنك ترى القصة التي لا تختلف معانيها تأتي في صور مختلفة، وقوالب من ألفاظ متعدّدة حتى لا تكاد تشبه في موضعين منه، ولا بد أن تجد الفرق بين صورها ظاهراً** )) . فالإعجاز القصصي هو في الاقتدار على تنوّع التعبير في القصة الواحدة (( **وإن كنت ترى القصة الواحدة لا تختلف معانيها** )) : و (( قد بنى أكثر من قصة على عنصر واحد هو شخصية النبي أو الرسول، وجعل لكل قصة غرضها الخاص، ومقصدها الذي تصل حتماً بالقارئ إليه. وكل ذلك من الأمور التي لا يستطيعها إلا من يقول للشيء: **كن فيكون** )) . فالإعجاز البياني في القصص القرآني، هو في هذا التكرار عينه من حيث الاقتدار على التفنن في التعبير في القصة الواحدة.

وننسى أن القرآن الكريم هو كتاب دين، لا كتاب فنّ، وان ما يهّم البشرية هو صلاحها في الدنيا وخلصها في الآخرة، لا الفن الأدبي والقول الجميل.

فالقرآن وحي غايته هداية البشرية إلى الله وخلصها، لا الإعجاز البياني والفني، (( الذي يجعل الجمال الفني أداة مقصودة للتأثير الوجداني، فيخاطب حاسة الوجدان الدينية بلغة الجمال الفنية )) .

وهذا الإعجاز البياني والفني للخاصة من البشرية التي يمكن أن تتدوّقه، لا للعامّة من الناس الذين لم يستطيعوا، ولن يستطيعوا أن يتدوّقوا الإعجاز. وقد يهتدي بالإعجاز

---

(١) دروزة : عصر النبي وبيئته ٢٩٠.

(٢) السيوطي : الإتيقان ٢ : ٨٨ .

(٣) محمد خلف الله : الفن القصصي في القرآن ٢٦٤.

(٤) سيد قطب : التصوير الفني في القرآن ١٤١.

البياني الفني العربي، الخاصة من العرب. ولكن كيف تهتدي به العامة منهم؟ وكيف يمكن أن تهتدي به العامة من سائر الأقوام واللغات وأكثر البشرية منهم؟

فالإعجاز لخاصة العرب، والدين لعامة العرب والعجم.

يقولون: (( قد لاحظنا أن التعبير القرآني يؤلف بين الغرض الديني والغرض الفني فيما يعرضه من الصور والمشاهد. بل لاحظنا أنه يجعل الفني أداة مقصودة للتأثير الوجداني فيخاطب حاسة الوجدان الدينية بلغة الجمال الفنية. والفن والدين صنوان في أعماق النفس وقرارة الحسّ: وإدراك الجمال الفني دليل استعداد لتلقي التأثير الديني حين يرتفع الفن إلى هذا المستوى الرفيع وحين تسمو النفس لتلقي رسالة الجمال<sup>١</sup>)). - قد يكون الفن والدين صنوين في أعماق النفس، وقد لا يكونان، لأن الدين للعامة، والفن للخاصة. وعند الخاصة أنفسهم ليس إدراك الجمال الفني دليل الاستعداد دائماً لتلقي التأثير الديني: وما تاريخ أدباء العالم قديماً وحديثاً سوى الشاهد الدائم على فساد هذه النظرية. وبعد فنحن في مجال تلقي كلمات الله، ووحى السماء، لا في مجالات سحر البيان، وإعجاز الفن: مع القرآن الكريم نحن في الدين قبل الفن! وقد يجتمع الدين والفن كما هو الحال فيه، ولكن لا يغني الفن عن الدين: ففي القصص القرآني الذي يمثل ثلاثة أرباع القرآن (( ترى القصة الواحدة تتكرر ولا تختلف معانيها، وعلى هذا أتت جميع قصص القرآن )) كما يقول السيوطي؛ أو كما يقول الأستاذ دروزة: (( والقصة كما يفهم من سياقها في كل مرة قد استهدفت العظة والتمثيل والتشبيه كما أنها تنوعت في أسلوبها ومحتوياتها بعض الشيء، وهو شأن القصص القرآنية المتكررة بصورة عامة كما لا يخفى )) .

فهل يقتصر الوحي الجديد على عشر روايات مكررات، عشرات المرات، بأساليب متنوعة من إعجاز الفن وسحر البيان: (( نحن نقصّ عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن ))؟ ( يوسف ٢ ) فنحن نجد في القصص القرآني وأساليبه إعجازاً، وغيرنا يجد فيه عجزاً، كلٌ بحسب عقليته وثقافته<sup>٢</sup>؛ ويلاحظون أن العرب لم يقبلوا بإعجاز القصص القرآني وظلوا في كل سانحة يقولون انه (( أساطير الأولين )) : منذ سورة القلم (٥- ١٥) يقول

(١) سيد قطب : التصوير الفني في القرآن ١١٦ .

(٢) قرأت عند أحد الغربيين من هذه الأقوال المغرضة عن القصص : « Mahomet n'était pas spécialement doué la spéculation théologique. Et la monotonie des ses descriptions ne relève pas un génie littéraire » .

زعيم منهم: « إذا تتلى عليه آياتنا قال: أساطير الأولين » ؛ ويصمون بها الوحي كله: « وإذا قيل لهم ماذا أنزل ربكم؟ - قالوا: أساطير الأولين » ( نحل ٢٤ ). لا بل ينسبون قصصه إلى تعليم واستكتاب: « وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلاً » ( فرقان ٥ ) ويختمون كل جدال على صحة الرسالة والرسول « حتى إذا جاؤوك يجادلونك، يقول الذين كفروا: إن هذا إلا أساطير الأولين ». وتستمر هذه الحرب الجدلية سجلاً حتى يحكم السيف في بدر: « وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قالوا: قد سمعنا! لو نشاء لقلنا مثل هذا: إن هذا إلا أساطير الأولين » ( أنفال ٣١ ).

ومماً يقوي الشبهة أنهم ما زالوا منذ ابن عباس إلى اليوم يعتبرون القصص القرآني من متشابه القرآن<sup>١</sup>.

\*

### رابعاً: هل القصص القرآني للتاريخ أم للتمثيل؟

والمشكل الأكبر في القصص القرآني: هل هو تاريخي أم تمثيلي؟

يعتقد أهل السنة والجماعة أن القصص القرآني تاريخي، كما يدل عليه ظاهر التعبير؛ والقول بأنه تمثيلي لا غير يضعف قوة برهان التوحيد من تاريخ البشرية، كما ورد في هذا القصص ذاته.

ولما حاول أحدهم، السيد محمد أحمد خلف الله، في كتابه ( الفن القصصي في القرآن الكريم ) أن يخرج على هذا الإجماع « للوصول إلى قاعدة أو نظرية يمكن تطبيقها من حل المشكلات، ورد الاعتراضات، والخروج بالقصص القرآني من دائرة المتشابهة<sup>٢</sup> » أفنى علماء الإسلام والأزهر الشريف بمصر بتكفير الكتاب وصاحبه<sup>٣</sup>.

مع ذلك، بسبب الواقع القرآني الذي ينقل بين قصصه التاريخي التوراتي بعض الأساطير مثل قصة أهل الكهف، وقصة هاروت وماروت، الملاكين اللذين يعلمان الناس السحر ( بقرة ١٠٢ ) وتسخير الجن لسليمان؛ وبسبب انتصار العلماء قديماً وحديثاً، شرقاً وغرباً للناحية التاريخية في القصص القرآني، ونظرية المتشابهة التي يفسرون بها تلك

(١) الإتقان ٢ : ٢ .

(٢) محمد أحمد خلف الله : الفن القصصي في القرآن الكريم . - القاهرة سنة ١٩٤٧ ص ٢٦٠ .

(٣) تجد قصة التكفير في مجلة الرسالة عدد ٧٤٢ ص ١٠٣٤ و ٧٤٦ ص ١١٦٤ و ٧٤٩ ص ١٢٣٤ .

الشبهات، بدأ القوم منذ مطلع النهضة الحديثة، مع الأستاذ الإمام محمد عبده يميلون إلى تخريج القصص القرآني مخرجاً تمثيلاً. نقل صاحب المنار<sup>١</sup> نظرية الإمام على قصة هاروت وماروت: (( بيناً غير مرة أن القصص جاءت في القرآن لأجل الموعظة والاعتبار، لا لبيان التاريخ، ولا للحمل على الاعتقاد بجزئيات الأخبار عن الغابرين. وأنه ليحكي من عقائدهم الحق والباطل؛ ومن تقاليدهم، الصادق والكاذب؛ ومن عاداتهم، النافع والضار، لأجل الموعظة والاعتبار. فحكاية القرآن لا تعدو موضع العبرة )) .

ولكل من أنصار التاريخ، أو التمثيل في القصص القرآني، سند من القرآن:

يقول القرآن عن قصصه كله: (( إن هذا لهو القصص الحق )) . وعن قصة أهل الكهف بالذات: (( نحن نقص عليك نبأهم بالحق )) : فهو إذن تاريخي!

ويقول أيضاً عن قصصه كله أنه مثل مضروب: (( واضرب لهم مثلاً أصحاب القرية إذ جاءها المرسلون )) ! (( ضرب الله مثلاً للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط )) ؛ (( وضرب الله مثلاً للذين آمنوا امرأة فرعون )) : فهو إذن تمثيلي!

ونحن نميل إلى الاعتقاد بأن القصص القرآني تاريخي نزل للعبرة، وعبرته في حقيقته: فلو كان خيالياً (( من أساطير الأولين )) لما كان من التأثير المعجز ما له. فالقصص القرآني تاريخ وتمثيل معاً؛ فلا هو من التاريخ الصرف، ولا هو من التمثيل الصرف. وقد جمع القرآن الهدفين معاً في قوله: (( وكلاً نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك، وجاءك في هذا الحق وموعظة وذكرى )) . أجل ان القصص القرآني للعبرة والذكرى، ولكن على أساس تاريخي في نظره: (( لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب )) .

وهذا التعارض في معطيات القرآن، وفي فهمها المتعارض. ما حمل الصحابة ومتابعيهم على جعل القرآن من المتشابه.

\*

#### خامساً : صلة القصص القرآني ببيئته العربية والكتابية

لم يكن القصص القرآني بدعة جديدة في بيئته العربية والكتابية، كما لم يكن النبي (( بدعاً من الرسل )) . فالعربي مفطور على حب القصص والأساطير، وعلى حب الغزوات

(١) تفسير المنار ١ : ٣٩٩ .



والرحلات وحديث السمر الدائم عليها. والشعر الجاهلي شاهد على تلك الميل؛ وقد وردت فيه إشارات إلى قصص أحمر عاد، أو أحمر ثمود، وقصص الجن مع سليمان (( بينون تدمر بالصفاح والعمد )) .

ولقد نقلت لنا الروايات كيف كان النضر بن الحارث يجلس إلى الناس في فناء الكعبة، مثل محمد، ويقص عليهم أخبار فارس وقصص رستم واسفنديار، فيستمعون حديثه وينصرفون عن النبي.

وما جدال النبي والمسلمين والكتابين والمشركين في قصة أهل الكهف سوى دليل على ولع أهل مكة بالقصص والأساطير. واستفتاح بعض القصص بقوله: (( ألم تر )) إشارة إلى علم السامعين بالقصة المنقولة.

وقد حمل اليهود معهم قصص توراتهم وتلمودهم إلى جميع مهاجرهم. وقد ردّوا قصص إبراهيم وإسماعيل كثيراً على مسامع العرب، لإثبات وحدة النسب معهم في القومية والدين حتى جعلوا كعبة مكة، وهي أكبر حج للعرب، من بناء إبراهيم، وجعلوا مراسيم الحج إليها من تشريع إبراهيم. والقرآن يستفيض في نقل القصص التوراتي كما كان شائعاً في بيئته. وفي قول القرآن مراراً أنه تفصيل الكتاب دليل على ذلك. تفصيل في الوحي، وتمثيل في السيرة: (( محمد، رسول الله والذين معه، أشداء على الكفار، رحماء بينهم. تراهم ركعاً سجداً يبتغون فضلاً من الله ورضواناً. سيماهم في وجوههم من أثر السجود، ذلك مثلهم في التوراة. ومثلهم في الإنجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع، ليغيظ بهم الكفار )) .

قال الأستاذ دروزة: (( والقصص القرآني، منه ما كان عربياً غير توراتي كقصص هود وعاد، وصالح وثمود ومدين؛ ومنه ما كان توراتياً كقصص نوح ولوط وموسى وفرعون مع بني إسرائيل، وداود وسليمان ويوسف الخ ... وما ورد خصوصاً في القرآن ولم يرد في التوراة من قصص إبراهيم ص. مع أبيه وقومه وأقواله ومواقفه ودعائه، وهي مبثوثة في سور ( الأنعام وإبراهيم والأنبياء والشعراء والصفافات والزخرف والعنكبوت ). وعدم ورودها في التوراة ممّا يسوغ القول إنها كانت متداولاً معروفاً في أوساط العرب كمرويات ومنقولات عربية عن الآباء إلى الأبناء )) .

ونلاحظ تطوراً في القصص القرآني يماشي السيرة النبوية. في مكة يتصدر حديث موسى القصص القرآني، بينما تتصدر قصة إبراهيم القرآن المدني. والقرآن المكي يذكر دائماً إسحاق إلى جنب إبراهيم، لا إسماعيل الذي يرد ذكره عابراً؛ بينما في المدينة يأتي دائماً ذكر إبراهيم وإسماعيل مقروناً معاً. يصف القرآن في مكة هداية إبراهيم إلى التوحيد وإلى الأرض المقدسة، بينما يصف في المدينة دور إبراهيم وإسماعيل في إنشاء التوحيد العربي وكعبته والحج إليها. وهذا كله يدل على أن النبي كان في مكة، وفي هذا العهد الثاني خصيصاً، يدور في دائرة النفوذ الكتابي، وإنه استقل عن الكتابيين في المدينة.

ينتج عن ذلك أن مصادر القصص القرآني هي البيئة العربية والكتابية معاً، وذلك بحسب العقلية العربية التي تحوّل التاريخ إلى أسطورة لكثرة تكراره، وبحسب العقلية الإسرائيلية التي تنقل الكتاب في تفسير التلمود، فلا تصل إلى التوراة إلا عن طريق التلمود. لذلك جاء القصص القرآني، ابن بيئته، أقرب إلى التلمود منه إلى التوراة.

قال دروزة: (( إن ما ورد من قصص وأخبار متصلة بالأمم السابقة وأحداثها:

(( أولاً: لم يكن غريباً عن السامعين إجمالاً، سماعاً أو مشاهدة آثار، أو اقتباساً، أو تناقلاً؛ سواء منه ما هو موجود في الكتب المنزلة المتداولة، مماثلاً أو زائداً أو ناقصاً، أو ميايناً لما جاء في القرآن وما لم يكن موجوداً فيها.

(( وثانياً: لم يورد للقصّة بذاتها، وإنما ورد للعظة والتمثيل والتذكير والإلزام والإقحام والتنديد والوعيد. وهذه الملاحظة مهمة وجوهريّة جداً لأن من شأنها أن تحول دون استغراق الناظر في القرآن في ماهيات ما احتوته القصص التي لم تقصد لذاتها وان تغنيه عن التكلف والتجوّز في التخرّيج والتأويل والتوفيق، أو الحيرة والتساؤل في صدد تلك الماهيات والوقائع... ولا يخرج بالقرآن إلى ساحة البحث العلمي، والأخذ والرد، والنقاش والجدل والتخطئة والتشكيك )) .

فالقصص القرآني من التاريخ الشعبي الذي كان متداولاً في بيئته العربية الكتابية. ونقله القرآن، بحسب العقلية الشعبية والبيئة البدائية التي نزل فيها، بأسلوب أدبي لا بأسلوب تاريخي.

\*

### سادساً : القصص القرآني من متشابه القرآن

قال أيضاً الأستاذ دروزة: (( ولقد يرد سؤال: عما إذا كان النبي يعرف أيضاً القصص القرآنية قبل بعثته أو عن طريق الوحي؛ وعما إذا لم يكن فيما نقرّره تعارض معاً مع نزول الوحي بها. والذي نعتقده أن النبي، **خلافاً لما قاله بعضهم**، كان يعرف كثيراً مما يدور في بيئته من قصص الأمم والأنبياء السابقين، وأخبارهم ومساكنهم وأثارهم، سواءً منها المذكور في أسفار التوراة والإنجيل أو غيره. كما أنه كان يعرف كثيراً من أحوال الأمم والبلاد المجاورة للجزيرة العربية. بالإضافة إلى ما كان يعرفه من أحوال سكان الجزيرة أيضاً وتقاليدهم وأفكارهم وعاداتهم وأخبار أسلافهم. وإن هذا هو المتسق مع طبيعة الأشياء.

(( وإن النبي قد اتصل قبل بعثته بالكتابين الموجودين في مكة وتحدّث معهم حول كثير من الشؤون الدينية، وحول ما ورد في الكتب المنزلة، واستمع إلى كثير مما احتوته. ونرجح أن هذه الصلة قد استمرّت إلى ما بعد بعثته. وحديث بدء الوحي البخاري صريح بأن النبي اجتمع بورقة بن نوفل الذي تنصّر وقرأ العبرانية، وكان يقرأ الإنجيل ويكتبه. وفي روايات السيرة أن ورقة هذا تولّى تزويج النبي، وكان عمره خمساً وعشرين سنة بخديجة ابنة عمه<sup>١</sup> . وعاش محمد وخديجة خمسة عشر عاماً في كنف العالم المسيحي، وهو الذي سند محمد في بدء دعوته؛ وينص حديث البخاري ( ١ : ٤ ) أنه لمّا توفي ورقة فتر الوحي.

فالقصاص القرآني متداول في بيئة النبي العربية والكتابية، وقول **المشركين المتواتر أنه** (( أساطير الأولين )) شاهد على ذلك.

وهذا المصدر الشعبي للقصص القرآني يحمل معه شبهة أخرى: بعد قصة نوح الشهيرة يقول: (( تلك أنباء الغيب نوحها إليها، ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا فاصبر أن العاقبة للمتقين )) ( هود ٤٩ ). وبعد قصة يوسف الشهيرة يقول: (( ذلك من أنباء الغيب نوحه إليك. وما كنت لديهم إذ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون )) ( يوسف ١٠٢ ). وبعد قصة مريم في آل عمران يقول: (( ذلك من أنباء الغيب نوحه إليك. وما كنت

---

(١) دروزة: القرآن المجيد ١٦٦ و١٧٠ .

لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم، وما كنت لديهم إذ يختصمون (( ٤٤)). فكيف يقول إنه من الغيب؟ وكيف يقول (( لقد كان في يوسف وأخوته آيات للسائلين )) : إنه إشكال ضخم كما يقول دروزة: (( إن في الآيات الثلاث إشكالاً يدعو إلى الحيرة ولا يستطيع النفوذ إلى الحكمة الربانية فيه نفوذاً تاماً )) .

لهذه الإشكالات أجمع (( أئمة الدين والتفسير، منذ الصحابة، على اعتبار القصص القرآني من المتشابه فيه )) .

ولا ننسَ أن هذا القصص يمثل أكثر من ثلثي القرآن: وفي اعتباره من المتشابه ما فيه من شبهة، يزيدنا مرارة ما فيه من شبهة التعارض.

\*

سابعاً : هل من تعارض في القصص القرآني؟

أخيراً لحظ أئمة التفسير، قديماً وحديثاً، تعارضاً في القصص القرآني مع الكتاب الذي جاء تفصيلاً له، وتعارضاً ما بين تفاصيل سورة.

(١) في هذا العهد الثاني بمكة جاء القصص القرآني توراتياً، روحاً وموضوعاً وأسلوباً. فدعوة القرآن في هذا العهد هي لإسلام التوحيد الموسوي كما اعتلن الله لموسى أنه (( الرحمان رب العالمين )) ؛ وبهذا الإسلام يدعو القرآن في (( أمة واحدة )) مع أهل الكتاب. لذلك كانت قصة موسى محور قصصه: (( كانت شخصية موسى أكثر دوراناً من أي شخصية أخرى، ذلك لأن موسى كان نبي اليهود. ولقد كان اليهود في ذلك الزمن يسيطرون على البيئة العربية من حيث التفكير الديني، حتى لقد كان العرب يستشيرونهم في أمر محمد عليه السلام. وهذه السيطرة تجعلهم يقصون أخبار موسى وفرعون، وقليلاً أخبار غيره من الأنبياء<sup>٣</sup> )) مع ذلك إذا قارنا قصص القرآن بقصص الكتاب الإمام ( أحقاف ١٢ ) الذي

---

(١) دروزة : القرآن المجيد ١٧٠. قد يزول الإشكال إذا فسّرنا كلمة (( غيب )) بالغيب المنزل في الكتاب الإمام لا بالغيب الذي في اللوح المحفوظ في السماء ، استناداً إلى أن القرآن تفصيل الكتاب الذي به يجب أن يقتدي : إنه من الغيب الذي يعرفه علماء الكتاب وقد يجله العرب الأميون .

(٢) قابل الإتيان ٢ : ٢ ؛ خلف الله : الفن القصصي في القرآن ٨ و ٢٦٢ ؛ دروزة : القرآن المجيد ١٦٦ - ١٨٥ خصوصاً ١٨٢ .

(٣) خلف الله : الفن القصصي في القرآن ٢٦٢ .

عليه أن يقتدي به ( أنعام ٩٠ ) نجد تبايناً واسعاً وتعارضاً. وقد لاحظ ذلك جميع المفسرين وخلق جدلاً وشبهات لم تزُل. وقد وصفت مجلة الأزهر<sup>١</sup> ذلك التعارض في القصص بين القرآن والكتاب، فقسمته إلى ثلاثة أقسام: (( قسم عرض له القرآن في صورة تختلف عن الصورة التي وردت في اسفار العهد القديم والجديد، ونص القرآن صراحة على ما ورد في روايتها من تحريف. وقسم عرض له القرآن في صورة تختلف كذلك عن صورته في تلك الأسفار بدون أن يشير القرآن إلى روايتها له. وقسم لا تكاد تختلف روايتها له عن رواية القرآن. نقول ( لا تكاد ) لأننا لا نكاد نعثر على قصة من قصص الأنبياء والمرسلين تتفق رواية هذه الأسفار لها كل الاتفاق مع ما ورد بشأنها في القرآن الكريم )) .

وصفت التعارض، وفسرته التفسير الرخيص المتهافت (( بتحريف التوراة والإنجيل )) . يقول أهل الكتاب: ها نسخ التوراة والإنجيل باقية هي هي على الرق من قبل القرآن بمئات السنين، كما يستطيع كل باحث أن يتحقق ذلك في متاحف العالم، ولم يكن جميع أهل الكتاب قبل القرآن بمئات السنين أنبياء حتى يشعروا بظهور النبي الأمي في مكة، وتنزيل القرآن عليه معارضاً لما عندهم في التفصيل، حتى يحرفوه سلفاً.

مع ذلك فقد اهتدى بعضهم إلى الحلّ السويّ فوجد أن مصادر القصص القرآني هي البيئة الحجازية، عربية وكتابية، والعقلية العربية التي تداولتها: (( مصادر القصص القرآني في الغالب هي العقلية العربية فالقرآن لم يبعد عنها إلا في القليل النادر، ومن هنا جاءت فكرة الأقدمين القائلة بأن القرآن ليس إلا أساطير الأولين. ومن هنا أيضاً كان كلُّ من الرازي والنيسابوري في غاية اللباقة والدقة في الفهم حين فرقوا بين جسم القصة وهيكل الحكاية، وبين ما جاء فيها من توجيهات دينية؛ وحين قالوا: بأن هذه التوجيهات هي المقصد الأول من القصص القرآني، أما الجسم والهيكل فليست له قيمة كبيرة لأنه ليس المقصد والغرض، وليس هناك ما يمنع من أن يكون الجسم أو الهيكل من أساطير الأولين<sup>٢</sup> )) .

(٢) وعن التعارض الداخلي يقول دروزة<sup>٣</sup>: (( وقد بقيت مسألتان قد تبدوان

(١) مجلة الأزهر، ديسمبر ١٩٥٩ ص ٥٤٩ .

(٢) خلف الله: الفن القصصي ٢٦٣ .

(٣) القرآن المجيد ١٨٤ .

**مشكلتين:** أولاهما ما إذا كان ما احتواه القرآن من قصص صحيحاً في جزئيات وقائعه وحقائق حدوثه؛ وثانيتها ما بين بعض القصص القرآنية، المتصلة بنبي أو أمة، من بعض الخلاف، مثل وصف عصا موسى بالحية في سورة وبالثعبان في سورة أخرى؛ ومثل ذكر وقت ما كان يقع على بني إسرائيل من فرعون، من قتل الأنبياء واستحياء النساء حيث ذكر هذا الوقت في سورة أنه قبل بعثة موسى، وفي سورة أنه بعد بعثة موسى. فنحن كمسلمين نقول إن كل ما احتواه القرآن حق وواجب الإيمان، وإنا آمنة به (( كل من عند ربنا )) . كما أننا نقول بوجوب ملاحظة كون القرآن في قصصه إنما **استهدف العظة والتذكير فحسب** ( لا التاريخ ) وهما لا يتحققان إلا فيما هو معروف ومسلم به إجمالاً من السامع، وإن هذا أيضاً من الحق الذي انطوى فيه حكم التنزيل؛ وبوجوب الوقوف من هذه القصص عند الحد الذي استهدفه القرآن، وعدم الاستغراق في ماهياتها على غير طائل ولا ضرورة، لأنها ليست مما يتصل بالأهداف والأسس (( بل من الوسائل التدعيمية. وبعبارة أخرى قديمة: إنها من المتشابهة في القرآن لا من محكم التنزيل.

\*

ظهر القرآن في (( العهد الأول المسيحي )) حدثاً **اجتماعياً** يدعو إلى الإصلاح الاجتماعي في معرض الدعوة ليوم الدين. ونراه في (( العهد الثاني الإسرائيلي )) الحدث الأدبي والديني الأكبر في نهضة الجاهلية وبعث القومية العربية كياناً وأمة وديناً ودولة؛ لقد شعر النبي بأنه أعطي جوامع الكلم، وملك سحر البيان<sup>١</sup>، فأخذ يدعو إلى توحيد (( الرحمن رب العالمين )) (( وبالقرآن العربي المبين )) وتتوالى التصريحات، إيجاباً، بأنه أحسن القصص: (( نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن )) ( يوسف ٣ ) الذي تقشعر منه جلود المؤمنين: (( الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً، مثاني، تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم )) ( زمر ٢٣ ) حتى (( لو أنزلنا هذا القرآن على جبلٍ لرأيتَه خاشعاً متصدعاً من خشية الله )) ( الحشر ٢١ ). وتتوالى التحديات للمشركين بإعجازه وعجزهم عن حديث مثله (الطور ٣٤) أو عن قرآن مثله (الإسراء ٨٨)، حتى عن عشر سور مثله (هود ١٣)، لا بل عن سورة مثله (يونس ٣٨) أو من مثله (بقرة ٢٣). وما ذلك إلا لأن الرحمن لمّا خلق الإنسان وعلمه القرآن علمه البيان: (( الرحمن: علم القرآن؛ خلق الإنسان: علمه البيان )) (سورة الرحمن).

(١) حديث شريف: (( أعطيتُ جوامع الكلم ))؛ وحديث شريف آخر: (( وإن من البيان لسحراً )) .

## الفصل السابع

### العهد الثالث بمكة

من الهجرة إلى الطائف ٦٢٠م - حتى الهجرة إلى المدينة ٦٢٢م

- « عهد الأمة الواحدة في التوحيد الكتابي »
- الدعوة للتوحيد ويوم الدين معاً بأسلوب الأمثال
- الاستطلاع إلى الاستقلال عن أهل الكتاب

« إن هذه أمتكم أمة واحدة، وأنا ربكم فاعبدون »  
( أنبياء ٩١ المؤمنون ٥١ )

#### تمهيد

خرج النبي العربي من مكة، ومعه زيد بن حارثة الذي تبناه، يقطعان الصحراء إلى الطائف، مدينة الجنوب الحجازي، إلى بني ثقيف ليجيروه من قومه قريش، ويؤمنوه على حرية الدعوة للتوحيد.

وكانت الطائف<sup>١</sup> أقرب من مكة إلى قبول التوحيد. فلم تكن فيها الكعبة، بيت

---

(١) تقع الطائف إلى الجنوب الشرقي من مكة ، على بعد ٧٥ كم ؛ يبلغ علوها ١٦٥٠ متراً ؛ وهي محاطة ببساتين مسورة . وتذكر سيرة ابن هشام أن النبي وزيداً دخلا أحد بساتينها وكان لابني ربيعة ، فاعتنى بهما غلامهما عداس النصراني . وتقرب في مناخها وحنظتها وثمارها من سوريا . وقد اشتهر بين العرب زبيها . وكان لزعماء قريش فيها أملاك للصيفية كما هي العادة حتى اليوم . وكانت أكبر منافسة لمكة في الحجاز . وقد أشار القرآن إلى هذا المركز بقوله : « وقالوا : لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم » ( زخرف ٣٠ ) . وكانت القبيلة العربية الكبرى فيها بني ثقيف . وكانت ، على لغة عصرنا ، حرب الطبقات

الله الحرام عند العرب، يستغلون فيها مواسم الحج ومنافعه من زعامة دينية ومدنية. ولم تكن في الطائف تلك الزعامة على الحجاز العربي، المغلق بوجه كل فاتح، والتي يخشى أصحابها كل دعوة دينية، غير عبادة رب البيت العربي، ويرون وراءها يد الأجنبي من الغرب أم من الشرق تمتد إليهم، فيصيحون: (( إن نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا )) . بل كانت دعوة التوحيد الكتابي قائمة فيها ناجحة بوجود جالية يهودية كبيرة ذات أثر بالغ في العرب. ومن آثارها دعوة التوحيد العربي الحنفي التي كان يقودها في الطائف، نثراً وشعراً، أمية بن أبي السلط الثقفي. وكان أمية نداً منافساً لمحمد بقريته وقومه وشخصيته ودعوته، وقد قال عنه النبي: (( كاد أمية ابن أبي السلط أن يُسلم )) .

أمل محمد أن يجد في الطائف قبولاً واستقبالاً.

فردت الطائف، عربها ويهودها، نبيّ مكة، رداً غير جميل.

(( أغرت سفهاءها وعبيدها يسبون الرسول ويصيحون به حتى اجتمع عليه الناس، وقعدوا له صفين على طريقه. فلما مرّ عليه الصلاة والسلام بين الصفين جعل لا يرفع رجله ولا يضعهما إلا دقّوهما بالحجارة، حتى أدموا رجله: فتخضبت نعلاه بالدماء. وكان إذا أصابته الحجارة قعد على الأرض، فيأخذونه بعضديه فيقيمونه؛ فإذا مشى رجموه وهم يضحكون. كل ذلك وزيد بن حارثة يقيه بنفسه، حتى شجت رأسه شجاً. فلما خلاصا منهم وقدا الرسول يسيلا دماً ... عاد الرسول إلى مكة خائفاً يترقب.

(( قريش لفظته ثم طاردته حتى أخرجته. والطائف ها هي ذي تستقبله بالرجم والحجارة: فأين، أين النجاة؟ ... )) .

\*

مستقرةً فيها بين بني مالك ، والأحلاف ؛ كما كانت بين (( ملأ )) قريش والأحزاب في مكة . وزعماء قريش من بني أمية كان لهم حلفاء الطائف ؛ وامتدّ هذا التحالف حتى العهد الأموي حيث نجد الخلافة في بني أمية ، والقيادة في بني ثقيف ، مثل الحجاج وزبيد بن أبيه، يعملون معاً ضد العلويين والعباسيين . وفي السنة الثامنة للهجرة ، بعد فتح مكة ، ونصر حنين على هوازن ، حاصر النبي الطائف ، ولكن منعها منه أسوارها . ولكن في عام الوفود التالي وفدوا على النبي في المدينة ويابعوه . ( قابل Encyc. de l'Islam : Taif ) .

(١) صحيح مسلم : كتاب الشعر ٤٨/٧ . والآية من سورة القصص ( ٥٧ ) . ويفسرهما بعضهم بإخراج العرب قريشاً من مكة ( قابل سيرة الرسول ١ : ١٩٣ - ١٩٤ ) .

(٢) فتحي رضوان ومحمد صبيح : محمد ، ديسمبر ١٩٥٧ ص ٩٣ ( قابل سيرة ابن هشام ٢ : ٦٠ - ٦٣ ) .



فكيف استقبله أهل مكة بعد انهزامه خلسةً من عندهم، وهزيمته النكراء في الطائف؟ (( لم يستطع أن يدخل مكة بعد عودته من الطائف مخفياً إلا بجوار أحد الزعماء، على ما ذكرته روايات السيرة<sup>١</sup>)).

كان العنف تارة والهدوء أخرى، والشدة حيناً آخر، يتراوحيان في سور العهدين الأولين. وترى طابع الاعتدال والهدوء يضعف في السور المروي نزولها في أواخر العهد المكي. (( في سورة الكهف آخر مشهد من مشاهد الاعتدال مع فريق من الزعماء. وبعدها سبع عشرة سورة، منها ثلاث طويلة نوعاً، وثلاث متوسطة نوعاً، وأنه لم يبد لنا مشهد بارز، طرقة معتدلون، في السور التي بعد الكهف، في ترتيب النزول: طابع الاعتدال والهدوء يضعف فيما تضمنته سور القرآن الأخيرة من مشاهد، في حين أن طابع العنف والشدة يستمر ملحوظاً. فلم تعد السور التي نزلت في الثلث الأخير من العهد المكي تردّد مواقف الاعتدال، وانحصرت مضامين هذه السور في ترديد مشاهد الشدة والعنف<sup>٢</sup>)).

تجدّد التحدي بين المشركين والنبي إلى آخر العهد بمكة. (( فإن الزعماء لما رأوا النبي ص بطبيعة بشرية مثل طبيعتهم، ورأوا في دعوته تحدياً لزعامتهم، وتهديداً لمكانتهم، وضربة على تقاليدهم المتنوعة، ومبعث خوف على إمامة مكة، ومركزها ومنافعها المادية والمعنوية، وقفوا منذ البدء موقف الإنكار والجمود، والصدّ والتعطيل، والتهويز والتضليل. واستمروا في هذا الموقف الشديد العنيد حتى النهاية. واتخذوا نعتهم بالجنون والسحر، والشعر والكذب، والكهانة والاتصال بالشياطين، والتعلم والافتباس الخ ديدناً يكررونه في كل مناسبة. ولم يسكت القرآن على هذا الموقف بطبيعة الحال<sup>٣</sup>)).

وما عتّمت أن تأزمت الحال من جديد بين محمد وقومه في مكة. فكان العهد عهد تأمر على النبي لاغتياله، وعهد فتنة للمسلمين عن دينهم، ضعف فيه بعضهم وارتدّ عن النبي وإسلام التوحيد الكتابي.

وسورة ( الأنفال ) المدنية تصف الضعف والخوف اللذين استحوذوا على جماعة محمد بعد رجوعه شريداً طريداً من الطائف: (( واذكروا إذا أنتم قليل مستضعفون في الأرض، تخافون أن يخطفكم الناس، فأواكم وأيدكم بنصره، ورزقكم من الطيبات )) ممّا لم يروه في مكة.

(١) دروزة: سيرة الرسول ١: ٢٦٤.

(٢) دروزة: سيرة الرسول ١: ١٣٢ و٢٠٣ و٢١٥.

ومنذ مطلع العهد ترينا سورة ( الكهف ) جمود الموقف بين محمد وملاّ قريش، وسبب جحودهم المتواصل لدعوته: « وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى، ويستغفروا ربهم إلاّ أن تأتيهم سنة الأولين، أو يأتيهم العذاب قبلاً » . قال دروزة: « لقد تكرر طلب الآيات من جانب الجاحدين، أو بالأحرى زعمائهم، كثيراً حتى حكى القرآن المكي ذلك عنهم نحو **خمس وعشرين مرة صريحة**، عدا ما حكى عنهم من التحديّ الضمني، ومن التحديّ بالإتيان بالعذاب، واستعجاله، والتساؤل عن مواعده. ولا نعدو الحق إذا قلنا إن المستفاد من الآيات القرآنية المكية أن الموقف تجاه هذا التحديّ المتكرر كان سلبيّاً؛ إذا ما استثنينا الإشارة إلى القرآن كآية كافية، أو إلى احتوائه ما في الكتب السماوية كآية على صحة وحي الله به ... بل هناك ما هو أبعد مدى في الدلالة على **الموقف السلبي المذكور**، أن المسلمين كانوا يتمنون استجابة الله لتحديّ الكفار وإظهاره معجزة تبهتهم براءً بأيمانهم ( أنعام ١٠٩ - ١١١ ). فيها آية تدل على أن النبي نفسه كان يتمنى أن يحدث الله على يده آية تبهت الكفار وتحملهم على الإذعان، تأثراً بموقف الإعراض والصد والتحدّي الذي يقفونه: « وإن كان كبير عليك اعراضهم، فإن استطعت أن تبتغي نفقاً في الأرض، سلماً في السماء، فتأتيهم بأية! » ( أنعام ٣٥ ).

وتدخّل الوحي في تعجيز النبي عن كل معجزة طلبوها منه ضابقيه حتى كاد يترك بعض ما يوحى إليه: « فلعلك تارك بعض ما يوحى إليك وضائق به صدرك أن يقولوا: لولا أنزل عليه كنز أو جاء معه ملاك: إنما أنت نذير، والله على كل شيء وكيل » ( هود ١٢ ). « وقد روى الرواة في صدد هذه الآية ما فيه توضيح أكثر، إذ قالوا: إن الكفار كانوا يطالبون النبي ص. **بالمعجزات فلا يستجيب إليهم**. ثم توحى إليه الآيات القرآنية فيسخرون منه، ويقولون: هلاً استنزلت ملاكاً أو كنزاً بدلاً من هذه الآيات، فكان يخجل ويتهرب منهم أحياناً! ونعتقد أن من السائغ أن يقال: إن هذا **الموقف السلبي** كان من عوامل تكرّر التحديّ من جانب الزعماء المكابرين المستكبرين وانقلاب أسلوبهم فيه إلى التعجيز حيناً ( إسراء ٩٠ - ٩٣ ) وإلى السخرية حيناً ( الحجر ٦ - ٧ ) كما كان دعامة لصدّهم وتعطيلهم وخبث دعايتهم ومكرهم ضد النبي ص. ودعوته أيضاً؛ بل لعله كان من أسباب تمسك المعتدلين بجحودهم أولاً، وانجرافهم مع **المعاندین أخيراً** » .

(١) دروزة: سيرة الرسول ١: ٢١٨ .

(٢) دروزة: سيرة الرسول ١: ٢٢ .

فسبب جحود أهل مكة، وجمودهم على جحودهم ، هو موقف القرآن السلبي من المعجزة التي لا بدّ منها لكل نبي، لتصديقه: (( وما منع الناس أن يؤمنوا، إلا أن تأتيهم سنة الأولين )) . وإذ لم تأتيهم سنة الأولين أي المعجزة الإلهية، قرروا نفي النبي أو اغتياله، اتقاء لفتنة الناس.

وسورة ( النحل ) تذكر كيف أنهم فتنوا عنه بعض جماعته، وتذكر سبب ارتدادهم عن الإسلام في هذا العهد الأخير. قيل أن سبب كفر بعض المسلمين وارتدادهم عن الإسلام كان بسبب أية الإسراء التي استغلها المشركون أيما استغلال: (( ونحن لا نستبعد أن يكون خبر افتتان بعض المسلمين في سياق خبر ذلك الحادث، ونتيجةً لتهويش الزعماء واستغلالهم، صحيحاً؛ بل إن صحة هذا راجحة استلهاماً من قوله عن الإسراء )) وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنةً للناس )) (إسراء ٦٠). غير أننا نرجح أن حادث الارتداد الذي تشير إليه الآيات (٩١ - ٩٧) من سورة النحل، قد كان بسبب آخر، وهو **تبديل آية بأية** )) في القرآن: (( وإذا بدلنا آية مكان آية - والله أعلم بما ينزل - قالوا: إنما أنت مفتّر... ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر! )) ( النحل ٩٧- ١٠٥ ) وما كان من استغلال زعماء الكفار المعاندين للحادث وتهجمهم على النبي ص. بمناسبته، ينسبون إليه الافتراء والتعلم من الأعمى... وروح الآيات ومضمونها في الجملة يلهم أنها نزلت في صدد حادث له صلة بالقرآن، ويلهم أنه أوحى للنبي ص ببعض آيات لتكون مكان بعض آيات أخرى. فلما تلا الجديدة وأهمل الأولى استغل زعماء الكفار ذلك فأخذوا يشنعون عليه ويهاجمون دعواه كون القرآن وحياً إلهياً، وينسبون إليه الافتراء والتعلم من الشخص الأجنبي المعين. ولعلمهم قالوا: إن الشيطان هو الذي يوسوس له ويلقي عليه لا الملك؛ وإن التبديل دليل على ذلك، فالشيطان محل خطأ، والملك لا يصح أن يُخطئ. واستغلوا الحادث في الصد والتأثير في بعض المسلمين<sup>٢</sup> .

وتوسلوا بالإغراء بالمال إلى جانب الاستغلال والتهويش؛ وكان من نتيجة ذلك أن ارتدّ بعضهم استجابة لهذه الدعاية، واستحبوا لمنافع الدنيا معاً، فاستحبوا الحياة الدنيا

(١) وهو بمناسبة التبديل يقول : (( فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم )) (نحل ٩٨) وذلك لأن الشيطان له سلطان على تبديل التنزيل بحسب شهادة القرآن : (( وما أرسلنا قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته )) (الحج ٥٢) .  
(٢) دروزة : سيرة الرسول ١ : ٢٤٢ - ٢٤٤ .

على الآخرة<sup>١</sup>. هؤلاء يحمل عليهم القرآن حملات عنيفة، منها: « من كفر بالله من بعد إيمانه... فعليه غضب من الله، ولهم عذاب عظيم: ذلك بأنهم استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة. وإن الله لا يهدي القوم الكافرين. أولئك الذي طبع الله على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم، وأولئك هم الغافلون! لا جرم إنهم في الآخرة هم الخاسرون » (نحل ١٠٦ - ١٠٩).

ومنها في سورة الحج المدنية آيات مكية تصف فتنة الارتداد هذه: « ومن الناس من يعبد الله على حرف فإن أصابه خير اطمأن به، وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه: خسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين: يدعو من دون الله ما لا يضره، وما لا ينفعه ذلك هو الضلال البعيد! يدعو لمن ضره أقرب من نفعه لبئس المولى ولبئس العشير » (١١ - ١٣).

وتصف سورة العنكبوت إخراج الوالدين أولادهم في هذه الفتنة التي كادت تقضي على الإسلام في مهده: « ووصينا الإنسان بوالديه حسناً ( في إسرائ ٢٣ أنعام ١٥١ لقمان ١٤ ). وإن جاهدك لتشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما » (٨).

واشدت الفتنة حتى كان يقول عنها في المدينة: « والفتنة أشد من القتل » (بقرة ٩١)، « والفتنة أكبر من القتل » (بقرة ٢١٦). وإذ لم يكن بوسع النبي في مكة أن يشرع قتل المرتد، كما سيفعل في المدينة (بقرة ٢١٧)؛ فقد شرع إباحة إظهار الكفر مع إضمار الإيمان في القلب: « إلا من إكراه وقلبه مطمئن بالإيمان » (نحل ١٠٦) وحرّض على الهجرة منذ أول هذا العهد الثالث في سورة النحل (١١٠) إلى آخره في سورة العنكبوت: « يا عبادي الذين آمنوا إن أرضي واسعة: فإياي فاعبدون: كل نفس ذائقة الموت ثم إلينا ترجعون » (٥٦). فالفتنة ضريبة الإيمان التي لا بدّ منها: « أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمناً وهم لا يفتنون! ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا، وليعلمن الكاذبين » (عنكبوت ١).

هل وقع على النبي أذى شخصي من جراء المؤامرات؟ لقد ذكرت الروايات بعض الحوادث مثل إلقاء روث أو تراب عليه في فناء الكعبة، أو شدّه من مخنقه. غير أن الروايات متعارضة، والقرآن لا يذكر شيئاً من ذلك<sup>٢</sup>. ولا تذكر سور العهد سوى أقوال

(١) دروزة: سيرة الرسول ١: ٢٤٣ - ٢٤٤.

(٢) دروزة: سيرة الرسول ١: ٢٦٦.

الاستهزاء ومواقف السخرية، في العهد الثاني: (( وإذا رأوك إن يتخذوك إلا هزواً: أهذا الذي بعث الله رسولاً )) ! ( فرقان ٤١ ) وفي العهد الثالث: (( وإذا رأك الذين كفروا إن يتخذوك إلا هزواً: أهذا الذي يذكر آلهتكم )) ( أنبياء ٣٦ ) مع الأوصاف المتنوعة من كاذب وساحر ومجنون ومفتر!

ولم يبذ من المسلمين رد فعل في مكة، لأن تحريض النبي للمستضعفين كان على غرار الإنجيل: (( من ضربك على خدك الأيمن فحوّل له الآخر )) مثل قوله: (( وادراً بالحسنة السيئة )) . وتحريضه للأقوياء منهم مثل عمه حمزة، وعمر بن الخطاب: (( وجزاء سيئة سيئة مثلها: فمن عفا وأصلح فأجره عند الله، انه لا يحب الظالمين )) ( شورى ٣٦ - ٤٣ )؛ وتكرر الدعوات المماثلة في ( الأعراف ٣١ - ٣٣ والإسراء ٢٣ - ٤٠ والأنعام ١٥٠ - ١٥٣ والرعد ١٩ - ٢٦ ). وكان ينصحهم: (( ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله لئلا يسبوا الله )) !

أما هو فكانت سياسته في مكة: (( ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن )) ( نحل ١٢٥ ): سياسة اللأعف في الفتنة، وسياسة الموقف السلبي في الجدل وطلب المعجزات.

\*

وفي زحمة هذه الفتن، والأزمات النفسية التي ترافقها، كان النبي يتربص بالفرج في قلق واضطراب وتردد تظهر آثاره في أسلوب سور العهد، الذي يتردد بين أسلوب العهد الأول في التعبير والتفكير، وأسلوب العهد الثاني نظماً ودعوةً. فتنعّد الأساليب في هذه الفترة الحرجة في أنواع الاستفتاح، وأنواع النظم، وأنواع الجدل، وأنواع القصص التي ترد تارة يهودية، وتارة نصرانية ( كما في سورة الكهف ). وترى سوراً لا ضابط لها، ولا أسلوب خاص يميّزها. وبعض السور تمثل مجموعات من العهد الأول سقطت سورها، فجمعت بواقبها في وحدات متنافرة نظماً، متألّفة موضوعاً، مع آيات من هذا العهد الثالث، كانت سبباً لعدّها منه، أمثال ( الذاريات، العاشية، الطور، الحاقة، النازعات، الانفطار، الانشقاق ). ويحاول أحياناً في قصص هذه الفترة أن يتخطى أهل الكتاب إلى ما بعد موسى ( سور نوح وإبراهيم ) أو على هامش الدعوة الكتابية ( قصة ذي القرنين ). فليس في سور هذا العهد ذلك الانسجام والتكامل الفني اللذين تعودناهما في العهد الثاني، وإن كان في سور العهد ما تفوق روعته ما سبق، فإن فيها ما يخفّ سحر بيانه.

ويميل الأسلوب في هذا العهد، تدرجاً من العهد الثاني، إلى الابتعاد شيئاً فشيئاً عن الوزن والتسجيع: إن السور المكية غير المسجعة وغير الموزونة ست وعشرون - كما نقلنا سابقاً - وهي الأعراف والنمل والقصص ويونس وهود ويوسف والأنعام ولقمان وسبأ والزمر، والحواميم السبع من العهد الثاني؛ والنحل وإبراهيم والأنبياء والمؤمنون، وآل السجدة والروم والعنكبوت والرعد، والآي المكي في سورة الحج، من هذا العهد الثالث. (( ومع أنها غير مسجعة وغير موزونة الآيات، فإن خواتيم آياتها مركزة. والذي يمعن فيها يجد تلاحقاً في السياق وترابطاً في الفصول، ويجد أكثرها ذا وحدة موضوعية أيضاً ...

(( ومن مميزات الأسلوب المكي اللهجة الخطابية القوية النافذة إلى الأعماق والقارعة للأسماع والقلوب؛ واللهجة المحببة الاستشهادية التي يُذكر بها الكتابيون وأولو العلم كأنما هم حزب المسلمين والدعوة النبوية. والأسلوب يغلب فيه وصايا الصبر والتطمين والتسكين وعدم المبالاة بمواقف الكفار، كما إنه خلا من الحض على الجهاد، وذكر وقائع الجهاد، وخلا كذلك من ذكر المنافقين ومواقفهم وفسائسهم والحملات القاصمة عليهم! ))

فالعهد عهد تردد واضطراب، كما يظهر ذلك في الأسلوب والنظم، وفي مظاهر الدعوة في هذه الفترة، من وحدة أمة التوحيد الكتابي، مع الاستطلاع للاستقلال عن أهل الكتاب.

\*

وهذا الاستطلاع إلى الاستقلال وصل في السنتين الأخيرتين إلى عقد معاهدة العقبة العسكرية مع الانصار من يثرب استعداداً للهجرة الكبرى.

لم يحمه النصاري، ولم يحمه اليهود، ولم يحمه قومه عرب الطائف، من أذى قريش، ففكر في الانفصال عن الكتابيين، واتجه بفكره إلى يثرب مدينة النخيل في الشمال الحجازي، وإلى قومه العرب اليمانيين من الأوس والخزرج الذين استوطنوها بعد خراب سد مأرب، تلك الكارثة الاقتصادية الشهيرة في تاريخ عرب الجنوب التي فرقتهم (( أيدي سباً )) . وأقام القبيلتان ما بين ثلاث قبائل يهودية مستعربة: بني قينقاع وبني النضير وبني قريظة.

كانت محاولات أهل مكة في العهد الثاني تقتصر على إخراج النبي كما روته سورة الإسراء: (( وإن كادوا ليستفزونك من الأرض ليخرجوك منها: وإذا لا يلبثون خلافاً إلا قليلاً )) (٧٦) يهدّونه بالإخراج، فيجيب بتهديد خفي، لكن أخطر، بإخراجهم هم أيضاً بواسطة أنصار دينه من الشمال والجنوب. وطمانهم بأن الهجرة لا تفزعه (( فأرض الله واسعة )) (زمر ١٠).

ولكن في العهد الأخير بمكة بلغ التحدي المتبادل ذروته (( وقد مكروا مكروهم، وعند الله مكروهم، وإن كان مكروهم لتزول منه الجبال )) ( إبراهيم ٤٦ ): فكروا بحبسه أو اغتياله، إن لم يخرج كما تصفه فيما بعد سورة الأنفال: (( وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك (بالحبس) أو يقتلوك أو يخرجوك، ويمكرون، ويمكر الله والله خير الماكرين )) (٣٠). وكانوا يتربصون موته ما بين يوم ويوم: (( أم يقولون: شاعر نتربص به ريب المنون! - قل ترتبصوا، فإنني معكم من المتربصين )) ( الطور ٣٠ ). ويحاول الفرار، كما فعل من قبل إلى الطائف، فيردعه الوحي: (( فاصبر إن وعد الله حق ولا يستخفئك الذين لا يؤمنون )) ( روم ٦٠ ) فيعدل. ويعودون إلى مكروهم حتى كادت دسائسهم تقضي على المسلمين ( أنفال ٢٦ )، وكادت تقضي على النبي ( أنفال ٣٠ ) بعد صدّهم إياهم عن المسجد الحرام، ذاك الجرح البالغ الذي لم تنتسه السور المدنية ( أنفال ٣٤ حج ٢٥ فتح ٢٥ ) ولم يندمل بفتح مكة، وظل ينزف دماً حتى النهاية (( وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين، ويذهب غيظ قلوبهم )) ( توبة ١٣ - ١٥ )؛ وزاد الجرح إيلاًماً إخراج الرسول والمؤمنين من مكة ( ممتحنة ٧٥، آل عمران ١٩٤، حج ٣٨ ) بعد فتنّة عمياء (( تعرف في وجوه الذين كفروا المنكر، يكادون يسطون بالذين يتلون عليهم آياتنا )) ( الحج ٧٢ ) ويكادون يتخطفونهم إذ هم قليل في الأرض مستضعفون! ( أنفال ٢٦ ).

(( ولقد فكروا في ثلاث وسائل للقضاء على النبي ( أنفال ٣٠ ) وهي حبسه أو اغتياله أو نفيه. وروايات السيرة تذكر أن قرارهم قرّاً على الاغتيال، شريطة اشتراك شبان من مختلف بيوتات قريش فيه حتى يتوزع ثأره ولا يبقى إيمان لآله أن يطالبوا به. والروايات تذكر أن هذا وقع في أخريات العهد المكي وإن هجرة النبي ص. شخصياً قد وقعت على أثر وصول خبر قرار الاغتيال إليه.

(( ولقد ذكرت الروايات أن النبي ص. اتصل في السنة الحادية عشرة من البعثة ببعض أهل يثرب فأمنوا به. وأنه جاء في السنة التالية وفد منهم وبايعوه، وأن الإسلام بعد

ذلك أخذ يفشو في يثرب؛ وان فداً كبيراً آخر جاء من يثرب فجددوا البيعة ورحبوا بهجرة النبي والمسلمين إليهم، وعاهدوا النبي ص. على نصرته والدفاع عنه. وإن الهجرة إلى يثرب بدأت بعد ذلك<sup>١</sup> . ولما انتهت المفاوضات بالنجاح صدر الأمر السماوي بالهجرة في سورة العنكبوت: « يا عبادي الذين آمنوا: إن أرضي واسعة فإياي فاعبدون: كل نفس ذائقة الموت، ثم إلينا ترجعون » (٥٦). فتسلل المسلمون سراً. وأبي عمر إلا أن يهاجر جهراً متحدياً كل الزعماء المشركين<sup>٢</sup>.

حينئذ فظن أهل مكة إلى خطر هجرة الرسول إلى المدينة، وعواقب بيعة العقبة الوخيمة عليهم، واستحكام العداء القديم مع أهل يثرب، وهي على طريق قوافلهم إلى الشمال الشرقي والغربي. فمن الطبيعي والحالة هذه أن يهتمهم أمر اتصاله بأهل يثرب وتفاهمه معهم وهجرته إليهم، وأن يحسبوا لذلك أعظم الحساب، بعد أن رأوا أن الغلبة قد تمت لهم أو كادت، وأن دعوته قد أخفقت أو كادت، وأن أمره لن يلبث أن يذهب بدياً<sup>٣</sup> . ورأوا أن يقضوا عليه سريعاً، ومكروا به ومكر الله بهم والله خير الماكرين: « إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين إذ هما في الغار، إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا: فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها. وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هي العليا. والله عزيز حكيم » (توبة ٤٠).



- 
- (١) دروزة: سيرة الرسول ١: ٢٦٣ قابل سيرة ابن هشام ٢: ٧٠ - ١١١ .  
 (٢) محمد صبيح: ١٠٢ .  
 (٣) سيرة الرسول ١: ٢٦٤ .  
 (٤) صحيح البخاري ٢: ٢١٤ - ٢١٥ .



## البحث الأول :

### فترة الفتنة والارتداد عن الإسلام بمكة ( من الذاريات - إلى السجدة )

السابعة والستون : الذاريات ( ٥١ ) « ولا تجعلوا مع الله إلهاً آخر » .

فذلكة : عدّ بعض المستشرقين هذه السورة من العهد الأول بسبب مطلعها . وفاتهم أن السورة لها ثلاثة مطلع ، والأول ( ١ - ٦ ) والثاني ( ٧ - ٩ ) ليسا من السورة ، لاختلاف الفاصلة فيهما عن سائر السورة . والمطلع الثالث هو مطلع السورة الحقيقي ، موضوعاً وأسلوباً وروياً . ثم إن براهين التوحيد ( ٢٠ - ٢٣ ثم ٤٧ - ٥١ ) يفصل ما بينهما القصص ، من اعتباط الجامعين . والدعوة ليوم الدين تتساوى مع الدعوة للتوحيد ، وتتقدم عليها .

قيل فيها من الناسخ موضع ، ومن المنسوخ أربعة ، صحّ منها موضع .

- قسم دخيل من العهد الأول: والرياح الذاريات<sup>١</sup>، إن الدين لواقع (١-٦).

- والسماء ذات الحُبُك إنكم لفي قول مختلف (٧-٩).

- مطلع (١٠-١١): قُتِلَ الخراصون الذين هم في غمرة ساهون.

١- حديث الآخرة (١٢-١٩): يسألون أيّان يوم الدين! - يوم هم على النار (١٢-١٤).

- إن المتقين في جنات وعيون<sup>٢</sup> (١٥-١٩).

---

(١) الآية ١ يقسم الله بالرياح الذاريات إن يوم الدين لواقع . وهي عادة أدبية قومية من رواسب الوثنية . كذلك في ( ٧ ) .

(٢) الآية ١٠ « قتل الخراصون » يستفتح النبي العهد بالتهديد والوعيد .

(٣) الآية ( ١٧ ) « قليلاً من الليل ما يهجعون » عادة رهبانية جرى عليها محمد وجماعته في أول عهدهم ( المدثر ) ثم صارت « نافلة » للنبي ، إلى أن نسختها الصلوات الخمس النهارية .

والآية ١٩ « وفي أموالهم حق للسائل والمحروم » الذي لا يسأل لتعففه . تشريع شائع عند العباد النساطرة ، من المسيحيين . قال النحاس : نسخت فريضة الزكاة كل صدقة في القرآن .

- ٢- **براهين التوحيد** ( ٣٠ - ٢٣ ثم ٤٧ - ٥١ ) فروا إلى الله ولا تجعلوا مع الله آخر .  
في الأرض وفي أنفسهم آيات للموقنين ( ٢٠ - ٢١ ).  
في السماء رزق الدنيا ومآب الآخرة ( ٢٢ - ٢٣ ).  
والسماء بنيناها بأيدٍ والأرض فرشناها فنعم الماهدون<sup>١</sup> ( ٤٧ - ٤٨ ).  
ومن كل شيء خلقنا زوجين<sup>٢</sup> ( ٤٩ ): ففرّوا إلى الله وحده ( ٥٠ - ٥١ ).
- ٣- **قصص التوحيد** ( ٢٤ - ٤٦ ) - حديث ضيف إبراهيم الذين أمطروا قوم لوط بحجارة من طين<sup>٣</sup> ( ٢٤ - ٣٧ ).
- الآية ٣٧ تدخل حديث موسى وعاد وشمود ونوح ( ٣٧ - ٤٦ ).
- خاتمة** ( ٥٢ - ٦٠ ) - سنة المكذبين اتهام الرسل بالسحر والجنة<sup>٤</sup> ( ٥٢ - ٥٥ ).
- الله هو الرزاق لا الإنس ولا الجن ( ٥٦ - ٥٨ ).
- فويل للكافرين من يوم الدين ( ٥٩ - ٦٠ ).

\*  
\* \*

(١) الآية ٤٧ « والسماء بنيناها بأيدٍ » : هل لله أيدٍ بها ؟ - قيل : إنما ذلك مجاز عن القوة . وفي التعبير إشعار بأن السماء ببيان لا يتحرّك ، فيه « حُبُّك » ( ٧ ) أي طرق كما في ببيان المخلوق .  
والآية ٤٨ « والأرض فرشناها ، فنعم الماهدون » فهي البسيطة المبسوطة ، كما جاء في الغاشية « وإلى الأرض كيف سطحت » : قال الجلالان : « وقوله ظاهر في أن الأرض سطح ، وعليه علماء الشرع ، لا كرة كما قال أهل الهيئة ! »  
(٢) الآية ٤٩ « ومن كل شيء خلقنا زوجين » يصح ذلك في الإنسان والحيوان والنبات : فهل يصح في الجماد وهو أكثر من كل شيء ؟  
(٣) الآية ٢٣ « لنرسل عليهم حجارة من طين » : مطر سدوم وعمورة « حجارة من طين أو سجيل كما (في هود ٨٢ والحجر ٧٤) . وسورة الأعراف ٨٤ والنمل ٥٨ والشعراء ١٧٣ تقول « وأمطرنا عليهم مطراً » .  
فصار « رجزاً من السماء » في العنكبوت ( ٣٤ ) ، يتيه بين الحجارة والمطر . والتوراة تقول صراحة : « وأمطر الله على سدوم وعمورة كبريتاً وناراً من السماء » ( تكوين ١٩ : ٢٤ ).  
والآية ٣٥ « وأخرجنا من كان فيها من المؤمنين » كيف تنسجم مع قوله للحال « فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين » ( ٣٦ ) ؟ وهذا التعبير عن بيت لوط « بيت من المسلمين » يعني أن الإسلام في القرآن المكي هو إسلام التوراة .  
(٤) والآية ٥٤ « فتولّ عنهم » كيف تنسجم مع قوله للحال « فذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين » ( ٥٥ ) . تولّ وتذكير معاً ؟  
(٥) الآية ٥٦ « وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون » : كيف تنسجم مع قوله : « ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس » ؟

الثامنة والستون : الغاشية ( ٨٨ ) الوجوه الخاشعة والناعمة في القيامة.

فذلكة : السورة مجموعة متفرقات يدل عليها اختلاف الفاصلة . براهين التوحيد فيها مبتورة .

قيل فيها من المنسوخ موضع ، ولا ناسخ فيها .

**١- وصف الموقف المختلف يوم الدين ( ١- ١٧ ) .**

- وجوه الكافرين خاشعة ذليلة ( ١- ٥ ) - الآيات ( ٦- ٧ ) مقحمتان ، لاختلاف الروي .

- وجوه المؤمنين ناعمة<sup>١</sup> ( ٨- ١١ ) - الآيات ( ١٢- ١٦ ) مقحمة لاختلاف الروي .

**٢- من براهين التوحيد ( ١٧- ٢٠ ) :** خلق الإبل<sup>٢</sup> ، ورفع السماء ، ونصب الجبال ، وسطح الأرض<sup>٣</sup> .

**٣- رسالة محمد ( ٢١- ٢٦ )** إنه مذكّر<sup>٤</sup> ، لا مسيطر! إلى الله الإياب وعليه الحساب .

\*

\* \*

التاسعة والستون : الكهف ( ١٨ ) (( إنما إلهكم إله واحد )) .

فذلكة : الزهري يعدها من السور المتبعضة ، فقال : (( أولها ( أصحاب الكهف ) مكّي ، وآخرها ( الخضر وذو القرنين ) مدني )) ؛ وكلاهما من مكة ، واختلاف الروي يدل على ازدواج السورة . وتقطع السورتين سورة بأسلوب جديد : الأمثال ، ظاهرة العهد الثالث . في هذه السورة يمتزج القصص الإسرائيلي بالمسيحي ، مما يدل أيضاً على تساوي النفوذتين .

وقيل في السورة من المنسوخ موضع ، ولا ناسخ فيها .

\*

(١) الآية ٨ (( وجوه ناعمة )) يسطع عليها نور الله : صورة إنجيلية (( حينئذ يضيء الصديقون كالنيرات في ملكوت أبيهم )) .

(٢) الآية ١٧ خلق الإبل برهان على توحيد الله ، يتقدم على خلق السماء .

(٣) الآية ٢٠ (( وإلى الأرض كيف سطحت )) قال الجلالان : (( وقوله ظاهر في أن الأرض سطح ، وعليه علماء الشرع ، لا كرة كما قال أهل الهيئة ، وإن لم ينقض ركناً من أركان الشرع )) : هل هذا من إعجاز القرآن في العلوم الحديثة ، كما يقولون ؟ ( قابل كتاب (( القرآن والعلم الحديث )) للسيد عبد الرزاق نوفل - دار المعارف بمصر ، مارس ١٩٥٩ ) .

(٤) الآية ٢١ (( إنما أنت مذكّر )) : تصف محمداً ، كما في كل العهد المكّي ، بأنه (( مذكّر )) لا غير .

الآية ٢٢ (( لست عليهم بمسيطر )) سوف تفسره السورة التالية ( كهف ٢٨ - ٣٠ ) .

السورة الأولى منها: (١- ٣١) التوحيد وأهل الكهف.

مطلع (١- ٣) الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب<sup>١</sup>.

١- توحيد (٤- ٨) - إنذار للذين قالوا اتخذ الله ولداً: كبرت كلمة تخرج من أفواههم (٤-٥).

- استطراد: يأس النبي لتوليهم عنه<sup>٢</sup> (٦) زينة الأرض بلاء للناس<sup>٣</sup> (٧).

٢- قصص أهل الكهف<sup>٤</sup> (٩- ٢٦) - استفتاح (٩) مطلع: تساؤل على مدة إقامتهم في الكهف (١٠- ١١).

(١) الآية ١ - ٢ « ولم يجعل له عوجاً قيماً » : كيف يصح بحسب سياق الظاهر أن ينفي عنه أن يكون قيماً كما نفي عنه العوج ؟ أو كيف يصح أن يبذل المنفي بالمؤكد ، بحسب سياق المعنى المقصود ؟ - قيل فيه تقديم وتأخير « الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب قيماً ولم يجعل له عوجاً » . فما حكمة الإعجاز اللغوي والبياني والمنطقي في ظاهر النص الوارد ؟  
(٢) الآية ٦ « فلعلك باخع نفسك » أي مهلك نفسك لتوليهم عنك : تظهر يأس النبي منذ مطلع العهد من إيمان قومه برسالته . ويسمى القرآن « حديثاً » .

(٣) الآية (٧) ما على أرض زينة لها ، وهذه الزينة بلاء للناس .  
(٤) قصص أهل الكهف ، قصة نصرانية أسطورية نقلها كتبة النصرانية لتمجيد الشهداء وانتصار المسيحية على الوثنية بمثل هذه الخوارق كما تشير الآية (٩) . وقد نقلها يعقوب السروجي في عظة من عظاته ( قابل المخطوطات الفاتيكانية ١١٥ و ١١٧ ) . و غريغوريوس البرجي في كتابه ( مجد الشهداء ٩٥ ) يذكر أنها وقعت في اضطهاد القيصر داشيوس ( ٢٤٩ - ٢٥١ ) ، وكانوا سبعة استفاقوا بعد ١٩٦ سنة في زمن القيصر ثاوضوسيوس الثاني عام ٤٤٧ . وقد استغلت جميع الطوائف المسيحية القصة دليلاً على القيامة كما نجدها عند المتكلم النسطوري باباي الكبير ( قابل مجموعة الآباء الشرقيين ٧ : ١٩١ ) وكما تشير الآية ٢١ « إن وعد الله حق ، وأن الساعة لا ريب فيها » . ويظهر من القرآن والحديث تردد النبي في رواية القصة وفي مدة نومهم المعجز ، وفي عددهم الصحيح : « أخرج ابن إسحاق عن ابن عباس أن قريشاً لما سألوا النبي ص . عن أصحاب الكهف ، مكث خمس عشرة ليلة لا يحدث الله له في ذلك وحياً ؛ فلما نزل جبريل قال له : « أبطأت ! فذكر : « وما تنتزل إلا بأمر ربك » ( أسباب نزول سورة الكهف ) . وفي الآية ٢٤ من سورة الكهف صدى لذلك الحديث : سأله أهل مكة عن خبر أهل الكهف فقال أخبركم به غداً ولم يقل إن شاء الله فنزل « ( الجلالان ) . وقصص القرآن مزيج من قصتين : الأولى جواب على سؤال عن مدة نومهم والجواب متعارض ( ١٩ و ٢٥ - ٢٦ ) : قالوا : ربكم أعلم بما لبثتم ( ١٩ ) ولبثوا في كهفهم ثلاث مائة سنين وازدادوا تسعاً ( ٢٥ ) قل الله أعلم بما لبثوا ( ٢٦ ) ؛ والقصة الثانية جواب على سؤال عن عددهم ( ٢١ - ٢٣ ) والجواب أيضاً متعارض : « قل ربي أعلم بعدتهم - ما يعلمهم إلا قليل » . وفي نهاية القصة الأولى الله يبعثهم « وكذلك بعثناهم » ( ١٩ )

- القصة (١٢ - ١٨) ختام أول: ربكم أعلم بما لبثتم (١٩ - ٢٠) وهو جواب على سؤال المطلع.

- استطراد دخيل (٢١ - ٢٣) تساؤل آخر على عددهم: يختم بجوابين.

- ختام ثانٍ للقصة (٢٤ - ٢٦) الآية ٢٥ تحدّد المدة والآية ٢٦ تتجاهلها.

٣- حديث الآخرة (٢٧ - ٣١): مطلع: (( اتلُّ ما أوحى إليك من كتاب ربك<sup>١</sup>. واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم<sup>٢</sup> )) (٢٧ - ٢٨). آخرة الظالمين (٢٩) والمؤمنين (٣٠ - ٣١).

\*

السورة الثانية منها: (٣٢ - ٦٠) تعليم التوحيد بالأمثال<sup>٣</sup>.

١- أمثال التوحيد (٣٢ - ٤٧).

- مثل صاحب الجنتين (٣٢ - ٤٥) كافر له جنتان ذهب بهما كفره<sup>٤</sup>.

وفي مطلع الثانية يهتدي الناس إليهم (( وكذلك أعرنا عليهم )) ( ٢١ ) . وأما قوله : (( فلا تستفت فيهم منهم أحداً )) ( ٢٣ ) أي (( لا تطلب الفتيا من أهل الكتاب )) ( الجالان ) : هذه الآية دليل صريح على لجوء النبي إلى أهل الكتاب في استفتاءات العرب ، وأثار التردد ظاهرة في الآي لذلك حسمه بهذا المنع . والآية ٢٤ ((ولا تقولن لشيء إني فاعل ذلك غداً )) مستقلة ؛ قابل التعليم ذاته في العهد الجديد ( رسالة القديس يعقوب ٤ : ١٣ - ١٧ ) . والآية ٢٥ (( ثلاث مائة سنين )) جمع حيث يجب الأفراد (( ثلاث مائة سنة )) كما قرأ أبي وابن مسعود . (١) الآية ٢٧ (( واتل ما أوحى إليك من الكتاب )) هل تقصد حديث أهل الكهف وتجعله من الكتاب المنزّل ؟ وكيف يصح ذلك وهو يقول (( ولا تستفت فيهم منهم أحداً )) ( ٢٣ ) ؟ أو تقصد القرآن كله ؟ وفي هذه الحالة ، (( من )) تبعية وتعني أن القرآن بعض من الكتاب لا الكتاب كله . (٢) الآية ٢٨ (( واصبر نفسك ... ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا )) : تأديب للنبي يرد في كل العهود المكية، في الأول ( عيسى ١ - ١٢ ) والثاني ( أنعام ٥٢ - ٥٣ ) وفي العهد الثالث ( كهف ٢٨ - ٣٠ ) . وعليه علق دروزة : (( وتكرار الإشارة إلى هذا في القرآن يدل كما هو متبادر على تكرّر المشهد بين حين وآخر ... والآيات تأمر النبي بالصبر على صحبة المسلمين مهما كان أمرهم ، وبعدم الانصراف عنهم للاهتمام لأصحاب المال والجاه الذين يطلبون منه إقصاءهم عنه إذا جلسوا إليه ؛ وأن النبي خطر لباله الاستجابة إلى طلبهم أملاً بإسلامهم وإنه أخذ فعلاً يتشاغل عن تلك الطبقة أحياناً )) ( سيرة الرسول ١٧ : ٢٠١ ) (٣) في هذا العهد الثالث تبدأ ظاهرة جديدة ، وهي تعليم التوحيد بالأمثال على مثال الإنجيل . (٤) في مثل الجنتين قابل إنجيل لوقا ( ١٢ : ١٦ - ٢١ ) .

- مثل الحياة الدنيا كمطر<sup>١</sup> أو كهشيم تذروه الريح (٤٦- ٤٧).  
 ٢- حديث الآخرة (٤٨- ٥٠) كتاب الدينونة لا يغادر صغيرة ولا كبيرة!  
 ٣- جَدَل (٥١- ٦٨). الشركاء ذرية إبليس<sup>٢</sup> (٥١- ٥٤).  
 - سبب كفر العرب بالقرآن (( إلا أن تأتيهم سنة الأولين ))<sup>٣</sup> (٥٥- ٥٨).  
 ختام (٥٩- ٦٠) لأهل مكة موعد كما كان للقرى الضالة موعد.

\*

السورة الثالثة منها: (٦١- ١١١) قصة موسى والخضر<sup>٤</sup>.

١- قصص التوحيد (٦١- ١٠٠) - موسى وفتاه يطلبان مجمع البحرين (٦١- ٦٦).

- موسى والعبد الصالح<sup>٥</sup> (الخضر): سياسة الله السامية في خلقه: حوادث السفينة، والحائط، والغلام؛ تفسير الحوادث<sup>٦</sup> (٦١- ٨٣).

(١) الآية ٤٧ (( المال والبنون زينة الحياة الدنيا )) قابل إنجيل متى ( ١٩ : ٢٩ ) .  
 (٢) الآية ٥١ (( إلا إبليس كان من الجن )) : هذه الآية تجعل إبليس من الجن ، وسائر القصص تجعله من الملائكة الهالكين .  
 (٣) الآية ٥٦ (( وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى ، إلا أن تأتيهم سنة الأولين أو يأتيهم العذاب قبلاً )) : فيها التصريح الأخير في مكة عن سبب كفرهم بالرسول والرسالة : لم تأتيهم سنة الأولين أي المعجزة التي تشهد لكل رسول ، وما يرحوا يطلبونها منه ، فكان موقفه سلبياً من كل معجزة ؛ ولم يأتيهم العذاب الذي يهددهم به في الآخرة . وفي الآية أيضاً إعلان فشل الدعوة القرآنية (( بالحكمة والموعظة الحسنة )) وذلك بسبب عجز النبي عن المعجزة بحسب سنة الأولين : على قلوبهم أكنة، وفي آذانهم وقر فلن يهتدوا إذا بدأ (٥٨) .  
 والآية ٥٥ (( ولقد صرفنا في هذا القرآن للناس من كل مثل )) : كيف يصح ذلك ولم يذكر فيه سوى بعض الأمثال ؛ وفي سورة الكهف نحن في مطلع عهد الأمثال ؟ - المبالغة مذهب من مذاهب العرب البيانية.  
 (٤) قصص موسى ( ٦١ - ٨٣ ) قصتان تختلفان موضوعاً وأسلوباً : موسى وفتاه يطلبان مجمع البحرين ( ٦١ - ٦٦ ) وموسى والعبد الصالح الذي يكشف له أسرار الله ( ٦٦ - ٨٣ ) بفاصلة مختلفة ، مما يجعل القصة الثانية مقامة على السياق .

(٥) وقصة موسى والعبد الصالح ، الذي يسمونه الخضر، قصص يجله الكتاب كله من التوراة إلى الزبور إلى النبيين ، إلى الحكمة ، إلى الإنجيل : ففي الجميع موسى سيد النبوة والشريعة . إنما هو قصص مسيحي يظهر فضل العبد الصالح المسيحي على موسى في الكشف عن أسرار الله في خلقه . وقصة الخضر مثل أصحاب الكهف تظهران عودة النبي إلى النفوذ المسيحي بعد الهجرة إلى الطائف ، وتعادل النفوذيين في أمة واحدة .  
 (٦) الآية ٦٢ تنسب النسيان إلى موسى وفتاه ، والآية ٦٤ تنسبه إلى الفتى وحده .

- قصة ذي القرنين<sup>١</sup>: في مغرب الشمس<sup>٢</sup>، وفي مطلع الشمس، وبين السدين مع ياجوج ومأجوج<sup>٣</sup> (٨٤- ١٠٠).

٢- حديث الآخرة (١٠٠- ١٠٩). آخرة الكافرين، الذين يتخذون من دون الله أولياء، والذين يكفرون بلقاء ربهم (١٠٠- ١٠٧).

- آخرة المؤمنين (١٠٨- ١٠٩).

ختم السورة (١١٠- ١١١) كلمات الوحي لا حدَّ لها (١١٠) ووحى القرآن يقتصر على التوحيد، ورجاء لقاء الرب<sup>٤</sup> (١١١).

---

(١) الآية ٣٨ : أجمعوا على أن ذا القرنين هو الاسكندر المكدوني . وقال البيضاوي : « ويسألونك عن ذي القرنين ، يعني اسكندر الرومي ؛ ملك فارس والروم ، وقيل المشرق والمغرب ولذل سمي ذا القرنين ، أو لأنه طاف قرني الدنيا شرقها وغربها . واختلف في نبوته ، مع الاتفاق على إيمانه وصلاحه » . والقرآن ينص على توحيدده وعلى إقامته التوحيد والعدل ( ٨٩ ) . فهل يذكر تاريخ الإغريق شيئاً من ذلك ؟ بل يذكر تاريخ الاسكندر أنه جعل ذاته رباً يعبد .

(٢) الآية ٨٦ « حتى إذا بلغ مغرب الشمس وجدها تغرب في عين حمئة ( وفي قراءة : حامية ) : أي « ذات حمأة وهي الطين الأسود » ( الجلالان ) ؛ « ذات حمأة من حمات البئر إذا صارت ذات حمأة . وقيل إن ابن عباس سمع معاوية يقرأ ( حامية ) فقال ( حمئة ) فبعث معاوية إلى كعب الأحبار : كيف تجد الشمس تغرب؟ قال في ماء وطنين ، كذلك نجده في التوراة » ( البيضاوي ) - كيف ينسجم هذا التفسير المتواتر أن الشمس تغرب في عين من ماء وطنين ، مع العلم البدائي ؟ قال الجلالان : « وغروبها في العين ، في رأي العين وإلا فهي أعظم من الدنيا » .

(٣) الآية ٩٥ قصة ياجوج وماجوج ، في سورة الكهف من تاريخ ذي القرنين الماضي ؛ وفي سورة الأنبياء ( ٩٦ ) فقصتهم من علامات الساعة ويوم القيامة ، والآية ( ١٠٠ ) من الكهف تشعر أيضاً بذلك . وفي الكتاب المقدس ياجوج وماجوج لا صلة لهم بالاسكندر ذي القرنين بل هما من أقوام الساعة ( قابل أشعياء النبي وسفر الرؤيا ٢٠ : ٨ ) .

الآية ٩٤ و ٩٧ هما سدان من جبال جعل الاسكندر بينهما سداً من زبر الحديد والنحاس : اختلفوا في تعيين المقصود : فهل هو سد الصين الشهير عند الأقدمين ؟ وقد بُني بعد الاسكندر بمئة سنة . وتاريخ الاسكندر ذي القرنين لا يذكر له إقامة سدّ من هذا النوع ؛ وقوله بلغ مغرب الشمس ومطلع الشمس ، فيه مبالغة من أساليب العرب .

(٤) الآية ١١١ « قل إنما يوحى إلي أنما إليكم به أحد ... ولا يُشرك بعبادة ربه أحداً » : وحي القرآن في تعليم التوحيد السلبي كما في الشهادة « لا إله إلا الله » : لا شيء سوى ذلك في مكة .

السورة السبعون: النحل - (( النعم )) : (( **أنذروا إنه لا إله إلا أنا** )) .

فذلكة : جاء في الإتيقان ( ١ : ١٦ ) عن جابر أنه نزل منها بمكة أربعون آية وباقيها بالمدينة ، وعن ابن عباس أنه استثنى آخرها . والظاهر أنها كلها مكية سوى آيات ( ١١٥ و ١١٨ و ١٢٠ ) . والسورة متقاربة في النظم والروي مما يوحي بوحدتها ؛ ولكن تكرار الموضوع من توحيد وقصص وحديث الآخرة يوحي بأنها مجموعة من ثلاث سور ، تلوح عليها ظاهرة العهد الثالث : الأمثال .

قبل فيها من الناسخ موضعان ومن المنسوخ خمسة .

\*

السورة الأولى منها: ( ١ - ٤٧ ): (( **أنذروا أن لا إله إلا أنا فاتقون** ))

مطلع ( ١ - ٢ ) كل الوحي في التوحيد .

١- براهين التوحيد من الخليقة ( ٣ - ٢١ ): خلق السماوات والأرض ( ٣ ) والإنسان من نطفة ( ٤ ) والأنعام ( ٥ - ٨ ) - الآية ٩ تقطع السياق - والمطر ( ١٠ - ١١ ) والليل والنهار، والشمس والقمر، والنجوم ( ١٢ ) والحيوان، وألوان النبات ( ١٣ ) والفلك المواخر في البحر ( ١٤ ) ورواسي الأرض ( ١٥ ) وعلامات النجوم ( ١٦ ) . ويختم بقوله: (( وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها: أفمن يخلق كمن لا يخلق؟! )) ( ١٧ - ٢١ ) .

٢- حديث الآخرة ( ٢٢ - ٣٢ ) .

- توطئة ( ٢٢ - ٢٣ ) من ينكر الآخرة ينكر التوحيد .

- يقول الكافرون عن القرآن: (( أساطير الأولين )) : لهم الخزي في القيامة<sup>٢</sup> ( ٢٤ - ٢٩ ) .

- يقول المتقون عن القرآن: (( خير )) : لهم جنات عدن<sup>٣</sup> ( ٣٠ - ٣٢ ) .

(١) سورة النحل : قابل براهين التوحيد فيها مع المزمور ١٠٤ (( باركي يا نفسي الرب )) والإعجاز البياني والشعري في كليهما .

- الآية ١٥ (( وألقى في الأرض رواسي أن تُميد بكم )) يظهر أن الجبال تمنع الأرض أن تتقلب بمن عليها .

(٢) الآية ٢٦ بنيان الكافرين الأولين : ما هو ؟ قال الجلالان : (( هو صرح نمرود ، بناه طويلاً ليصعد إلى السماء ليقاتل أهلها ؛ وقيل هذا تمثيل )) . وفيه إشارة إلى برج بابل ، وإن صحَّ ذلك فالتوراة لا تذكر زلزلة بنيان بل ببلبة الألسن ( تكوين ١١ : ١ - ١٠ ) . والقصص القرآني عن برج بابل له تمثيل في القصص التلمودي ( فصحيح ١٠٩ ) .

(٣) الآية ٢٧ أجمل شهادة لأهل الكتاب: (( ثم يوم القيامة ... قال الذين أوتوا العلم : إن الخزي اليوم والسوء على الكافرين )) : فهم الذين يفوزون بالجنة وهم الشهود على الكافرين !



٣- جَدَل على الرسالة والرسول (٣٣- ٤٧).

شبهة أولى: ينتظرون ظهور الملائكة أو عذاب الله (٣٢٥- ٣٤) -الجواب<sup>١</sup> عليها في (٤٧- ٤٢).

شبهة ثانية: لو شاء ما عبدنا من دونه وما حرمننا! - لقد بعثنا في كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله<sup>٢</sup> (٣٧- ٣٥).

شبهة ثالثة: واقسموا بالله، لا يبعث الله من يموت - بل وعداً عليه حقاً (٣٨- ٤٠).

- الآية ٤١- ٤٢ دخيلة على السياق: فيها إشارة إلى الهجرة للحبشة وما نالوا فيها من حسنة.

\*

السورة الثانية منها: (٤٨- ٩٠): (( لا تتخذوا إلهين إثنين إنما هو إله واحد )) .

مطلع رائع (٤٨) ظل الأشياء يسجد لله!

١- توحيد (٤٩- ٨٣) يتخلل براهين التوحيد، ردود على مقالات لهم.

- الله يسجد خلانق السماء والأرض، والملائكة (٤٩- ٥٠)!

رد على مقالة أولى: وقال الله لا تتخذوا إلهين اثنين<sup>٣</sup> (٥١).

- له ما في السماوات والأرض! وما بكم من نعمة فمن الله<sup>٤</sup> (٥٢- ٥٥).

(١) يظهر أنهم في جمع القرآن فصلوا بين الشبهة: تحدي النبي بظهور الملائكة، أو عذاب الله (٣٣- ٣٤) والجواب عليها بأن الله يرسل إلى البشر بشراً، ويستشهد بأهل الذكر أي الكتاب (٤٣- ٤٧). والآية ٤٤ بعد الاستشهاد بأهل الكتاب تحصر مهمة القرآن في بيان ما نزل الله للناس من قبل: (( وأنزلنا إليك الذكر - لتبين للناس وما نزل إليهم )) .

(٢) الآية ٣٦ (( ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً: أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت )) الطاغوت كلمة حبشية أي الوثن: رسالة الرسل أجمعين التحذير من الشرك والوثنية. وهذه الآية، إذ تجعل لكل أمة رسولاً، تجعل كل رسالة قومية، فرسالة محمد أيضاً قومية بحسب مبدئ القرآن هذا.

(٣) الآية ٥١ رد على المزدكية الفارسية التي وصلت إلى الحجاز مع التغلغل الفارسي: لاحظ أنه في مكة يكفر مزدكية فارس، ولا ذكر لتثليث النصارى كما سيكون الحال في المدينة، مما يوحي بأن سيطرة فارس لم تبلغ مكة، وانها لم تزل في دائرة النفوذ الغربي المسيحي.

(٤) الآية ٥٤ (( إذا فريق بربهم يشركون )): هذه شهادة قيّمة على مدى التوحيد والشرك في مكة قبل الإسلام: فيها فريق، وهو الأكبر، مشرك؛ وفيها فريق موحد، لا أفراد فقط: قابل الآية ٨٤ (( وأكثرهم الكافرون )) .

- رد على مقالة ثانية: ويجعلون لِمَا لا يعلمون نصيباً مما رزقناهم (٥٦).
- رد على مقالة ثالثة: ويجعلون لله البنات: سبحانه! له المثل الأعلى (٥٧-٦٤).
- والله أنزل من السماء ماء فأحيا به الأرض بعد موتها! (٦٥).
- وإن لكم في الأنعام لعبرة: نسقيكم من بين فرث ودم لبناً خالصاً (٦٦).
- ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكرًا ورزقًا حسنًا (٦٧).
- سيرة النحل العجيبة: يخرج من بطونها شراب فيه شفاء للناس (٦٨-٦٩).
- والله يحيي ويميت، ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكي لا يعلم بعد علم شيئاً (٧٠).
- والله فضل بعضكم على بعض في الرزق<sup>١</sup> (٧١).
- والله جعل لكم من أنفسكم أزواجاً (٧٢-٧٣).
- يعترض: مثل العبد والحرّ (٧٤-٧٥) ومثل الأبكم والفصيح (٧٦).
- لله غيب السماوات والأرض، وأمر الساعة (٧٧).
- تطور الإنسان من جنين إلى رجل (٧٨).
- ألم يروا إلى الطير مسخرات في جو السماء ما يمسكهنّ إلا الله (٧٩).
- أنواع السكن واللباس من الله (٨٠-٨١).
- ختم البراهين (٨٢-٨٣) يعرفون نعمة الله ثم ينكرونها: عليك البلاغ!
- ٢- حديث الآخرة (٨٤-٨٨) في البعث يتبادل المشركون والشركاء التهم<sup>٢</sup>.

(١) ينقل القرآن اللفظ العبري ذاته (( سَكَرًا )) - (( شَكَرًا )) كما ورد في الكتاب المقدس ( أشعيا ٢٨ : ٧ ميخا ٢ : ١١ ) وهو يعني المسكر من العنب والتمر . لاحظ أن القرآن في مكة يجعل الخمرة من آيات الله .  
 (٢) الآية ٧١ (( والله فضل بعضكم على بعض في الرزق )) ؛ والفكرة مكرّرة في القرآن : التفاوت الاجتماعي من الله فالقرآن بعيد عن تشريع المساواة الاجتماعية، لا عن العدالة الاجتماعية التي طالب بها في العهد الأول.  
 (٣) الآية ٨٤ (( لا يؤذن للذين كفروا )) في الاعتذار ؛ والآية ٨٦ تقول : (( وإذا رأى الذين أشركوا شركاءهم قالوا : ربنا هؤلاء شركاؤنا ! )) : فهل يتكلمون أم لا ؟ وهل يعتذرون أم لا ؟ - أخيراً يقول : (( يوم تأتي كل نفس تجادل عن نفسها )) ( ١١١ ) .

**ختام:** الآية ٨٩ (( جننا بك شهيداً على هؤلاء، ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء<sup>١</sup> )) .

\*

### قسم ثالث: ملاحق من المدينة (٩٠- ١٢٤). الارتداد عن الإسلام في مكة

(١) تشريع مدني: الأمر بالعدل والإحسان، والوفاء بالعهد والإيمان (٩٠- ٩٧).

(٢) الارتداد عن الإسلام في مكة بمناسبة التبديل في آي القرآن (٩٨- ١٠٩).

أ - رد على تهمة الافتراء بمناسبة تبديل آية بأية:

ليس التبديل من الشيطان بل من الروح القدس<sup>٢</sup> (٩٨- ١٠٢).

ليس التبديل من بشر أعجمي<sup>٣</sup>؛ الكافر يفتري الوحي لا المؤمن (١٠٣- ١٠٥).

(١) الآية ٨٩ ((ويوم تبعث في كل أمة شهيداً عليهم من أنفسهم، وحننا بك شهيداً على هؤلاء)) : النبي شاهد من نفس الأمة، وعليها: هذه الآية تحدد أن لكل أمة نبياً، وأن النبوة قومية في مصدرها وهدفها. فالإشارة صريحة بأن نبوة محمد قومية بنتيجة المبادئ التي يضعها القرآن .

(٢) الآية ١٠١ ما يسميه في مكة، بتعبير شعبي، تبديلاً؛ يسميه في المدينة نسخاً، بلغة قانونية. هنا يقرر القرآن واقع التبديل في القرآن، وفي غير سورة يقول: ((لا مبدل لكلمات الله. لا تبديل لكلمات الله)). وفي هذه الآيات (٩٨ - ١٠٥) يقرر القرآن حقيقتين: الأولى واقع التبديل في القرآن؛ والثانية الأمر بالاستعاذة من الشيطان الرجيم قبل قراءة القرآن: فهل من صلة بين الشيطان والتنزيل؟ أي هل للشيطان من سبيل على التنزيل حتى يفرض القرآن الاستعاذة منه في قراءة القرآن؟ - يجيب في سورة الحج (٥٢) أن الشيطان ألقى في قراءة محمد كما ألقى في قراءة كل رسول: ((وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي، إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته... ليجعل ما يلقي الشيطان فتنة)). (راجع تفسير الجلالين على آية الحج).

(٣) الآية ١٠٣ ((ولقد نعلم أنهم يقولون: إنما يعلمه بشر! - لسان الذي يلحدون إليه أعجمي!)) : - من هو هذا الأعجمي؟ جاء في أسباب النزول للسيوطي: ((أخرج ابن جرير (الطبري) بسند ضعيف عن ابن عباس قال: كان رسول الله ص. يعلم قيناً بمكة اسمه بلعام وكان أعجمي اللسان، وكان المشركون يرون رسول الله ص. يدخل عليه ويخرج من عنده فقالوا: إنما يعلمه بلعام فنزلت. وأخرج ابن أبي حاتم عن عبد الله بن مسلم الحضرمي قال: كان لنا عبدان أحدهما يسار والآخر خير، وكانا صقليين. فكانا يقرآن كتابهما ويُعلمان علمهما. وكان رسول الله ص. يمر بهما فيستمع قراءتهما فقالوا: إنما يتعلم منهما، فنزلت)) - إذا كان النبي لا يفهم هذه القراءة الأجنبية فكيف يجلس ويستمع لها؟؟ قابل دروزة: سيرة الرسول ١: ٣٦.

- ب - الارتداد عن الإسلام في مكة (١٠٦).  
 تحديده: مَنْ شَرَحَ بالكفر صدرًا لا مَنْ أكره وقلبه مطمئنٌ .  
 حدّه : عليهم غضب الله ولهم عذاب عظيم.  
 ج - أسباب الارتداد (١٠٧- ١٠٩): استحباوا الحياة الدنيا على الآخرة .  
 د - ملحق من المدينة: الهجرة والجهاد يغرران الفتنة والكفر (١١٠- ١١١).  
 هـ - ملحق ثانٍ: مثل مكة المترفة التي كفرت بالنبي فأذاقها الله لباس الجوع والخوف (١١٢- ١١٤).  
 (٣) تشريع آخر من المدينة (١١٥- ١١٩): تحريم المسلمين (١١٥) والمشركين (١١٦) واليهود (١١٨).  
 (٤) حنيفة إبراهيم يجب أن يتبعها النبي ص. ٣ (١٢٠- ١٢٣).

(١) الآية ١٠٦ تعطي هذا المبدأ : مَنْ أكره على الكفر فتظاهر به ، وقلبه مطمئن بالإيمان ، ليس كافرًا - وتذكر أسباب النزول للسيوطي أمثلة منها عمار بن ياسر : « فلما رجع إلى رسول الله ص. وحدثه فقال: كيف كان قلبك حين قلت : أكان منشرحاً بالذي قلت ؟ قال : لا فأنزل الله « إلا من أكره » . فجعل محمد يمسح عينيه وقال : إن عادوا فعد لهم بما قلت » . - وهذا يعني أنه يجوز الكفر باللسان ، والقلب مطمئنٌ بالإيمان . والإنجيل يحرم الكفر بالقلب واللسان معاً : « مَنْ ينكرني قدام الناس أنكره أنا أيضاً قدام أبي الذي في السماوات » ( متى ١٠ : ٣٣ ) .

(٢) الآية ١٠٧ تذكر سبب الارتداد عن الإسلام في مكة ! الإغراء بالمال ، كما ذكرت الآية ( ١٠١ ) التبديل في أي القرآن . قال دروزة : « روح الآيات ٩٨ - ١٠٥ ومضمونها يُلهم أنه أوحى للنبي ص. بعض الآيات لتكون مكان بعض آيات أخرى ، فلما تلا الجديدة وأهمل الأولى استغلّ زعماء الكفار ذلك فأخذوا يشنعون عليه ويهاجمون دعواه كون القرآن وحياً إلهياً ، وينسبون إليه الافتراء والتعلم من الشخص الأجنبي ، ولعلمهم قالوا أن الشيطان هو الذي يلقي عليه لا الملك. وتوسلوا بالإغراء إلى جانب الاستغلال والتهويش . وكان من نتيجة ذلك أن ارتدّ بعضهم استجابة لهذه الدعاية واستحباباً لمنافع الدنيا معاً » ( سيرة الرسول ١ : ٢٤٣ - ٢٤٤ ) .  
 (٣) الآيات ( ١٢٠ - ١٢٣ ) - في حنيفة إبراهيم التي يجب أن يتبعها النبي - تقع بين تشريعين من المدينة (١١٥ - ١١٩ ثم ١٢٤ ) وهي تتعارض مع شعار هذا العهد « الأمة والواحدة » : لذلك نفضّل أن نرى أن دعوة النبي إلى الحنيفة هي من العهد المدني كما أن تحريم الميتة والدم ولحم الخنزير ( ١١٥ ) وورد نصاً في سورة البقرة . وإن صح أن الآيات ( ١١٠ - ١٢٣ ) مكية فهي دليل على الاستطلاع إلى الاستقلال عن أهل الكتاب .

- آية السبت (١٢٤) مستقلة وهي من المدينة.  
**ختم السورة (١١٥ - ١٢٨) - خطة الدعوة في مكة (( بالحكمة والموعظة الحسنة ))**  
 (١٢٥).  
 - واصبر ولا تك في ضيق مما يمكرون (١٢٧).

\*

\* \*

### الحادية والسبعون: نوح (٧١) رسالة نوح: (( اعبدوا الله واتقوه )) .

فذلكة : في هذه السورة يلتقي رقم المصحف برقم التنزيل . والسورة مجموعة ثلاثة مقاطع من سور سقطت ، كما يدل عليها اختلاف الفاصلة ، والمقطع الثالث يقطع المقطع الثاني . ودعاء نوح على قومه هو لسان حال محمد مع قومه المتصلبين . - والسورة محكمة .

#### المقطع الأول (١ - ٤) اعبدوا الله واتقوه وأطيعون<sup>٢</sup> .

#### المقطع الثاني (٥ - ١٤ ثم ٣١ - ٢٨) طرائق دعوته (٥ - ١٥) طرائق مكرهم<sup>٣</sup>

( ٢١ - ٢٥ ) دعاء نوح عليهم، وله ( ٢٦ - ٢٨ ) .

#### المقطع الثالث مقم (١٥ - ٢٠) براهين توحيد بروي مختلف<sup>٤</sup> .

(١) الآية ١٢٦ المعاقبة بالمثل : تشريع مدني مقم على السياق : قيل نزل بمكة ثم بأحد ثم يوم فتح مكة ( أسباب النزول للسيوطي ) .

(٢) نوح الآية ٤ (( يؤخركم إلى أجل مسمى: إن أجل الله إذا جاء لا يؤخر )) : هل ينسجم القولان معاً ؟ أم الثانية ناسخة للأولى ، ولا ناسخ في الخبر . وما معنى قوله (( يغفر لكم من ذنوبكم )) ؟ والإيمان بالله والعمل الصالح يغفران كل الذنوب .

(٣) نوح الآية ٣٣ (( وداً ولا سواعاً ولا يغوث ويعوق ونسراً )) : آلهة العرب وردت على لسان نوح ، مما يدل على أن قصة نوح تمثيل لحال محمد ، لا تحقيق لحال نوح . قال جواد علي في ( تاريخ العرب قبل الإسلام ج ٥ ) : كان له معبد في دومة الجندل بوادي القرى وورد اسمه في شعر للنابغة وفي النصوص المعينية والثمودية ( ١١٣ ) سواع : صنم هذيل برهاط ، وقيل هو من أصنام همدان وموضعه قرب مكة أو قرب المدينة . يغوث : كان في جرش يختلف عليه بنو أنعم من طي ، وبنو مراد ، وعبادته كانت منتشرة في قبائل مذحج وهوازن وقريش ووصلت إلى تغلب في أقصى الشمال ( ٨٥ - ٨٨ ) يعوق : عُبد عند بني همدان في خيوان قرب صنعاء . وأما نسر : فكان من نصيب حمير ، وانتقلت عبادته إلى اللحيانيين ، وانتشرت في بني إرم حتى ورد ذكره في التلمود (( نَسْرًا )) ( ٨٧ - ٨٨ ) . للإله (( نسر )) معبد في مغارة من جبال بلدة معلولا الأرامية في الإقليم السوري ، وفي صدر المعبد وفي سقفه نقوش للإله نسر .

(٤) الآية ١٦ (( وجعل القمر فيهنّ ( سبع سموات طباقاً ) نوراً ، وجعل الشمس سراجاً )) : بقوله (( فيهنّ )) أنزل السماوات منزلة العاقل . وهل يصح جعل القمر نوراً للسماوات السبع . وهو ذرة فيها وفي أقصاها ؟ وكيف يكون القمر نوراً للسماوات السبع ، بينما الشمس سراج لها فقط ؟

والآية ١٩ (( والله جعل لكم الأرض بساطاً : هل الأرض مبسوطه بساطاً أم كروية ؟

**الثانية والسبعون: إبراهيم (١٤) هذا بلاغ للناس: إنما هو إله واحد.**

فذلكة : بدأت صورة إبراهيم تتصوّر في تفكير النبي ، إن لم يكن المقطع من المدينة بعد فتح مكة ، وهذا هو الأصح . والسورة فيها ظاهرة العهد الثالث : الأمثال . وهي من سورتين يدل عليهما اختلاف الروي .

قيل لا ناسخ فيها ، وفيها من المنسوخ موضع .

\*

السورة الأولى منها : (١-٢٣): (( نكّرهم بأيام الله )) .

**مطلع: (١) كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور<sup>١</sup>.**

١- توحيد (٢-٤) لله ما في السماوات وما في الأرض. ويل للكافرين. ردّ شبهة على لغة القرآن<sup>٢</sup>.

٢- قصص (٥-٢٠) - رسالة موسى ليذكّرهم بأيام الله (٥-٨).

- (( نبأ الذين من قبلكم قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم )) : (٩ ثم ١٤).  
يقطع السياق حوار الرسل وأقوامهم على ضرورة المعجزة<sup>٣</sup>، وهو مقم بروي مختلف (١٠-١٣).

ويختم (١٥-٢٠) واستفتحوا بخيبة كل جبار عنيد لأن مثل الكفر كرماد في يوم عاصف.

٣- حديث الآخرة (٢١-٢٣): - حوار الضعفاء والمستكبرين والشيطان يوم الدين (٢١-٢٢).

- عذاب الظالمين (٢٢) وسلام المؤمنين (٢٣).

\*

(١) الآية ١ والآية ٥ تظهران أن رسالة محمد مثل رسالة موسى : إخراج قومها من الظلمات إلى النور .  
(٢) إبراهيم الآية ٤ (( وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبيّن لهم )) : فيه رد على شبهة لهم على القرآن: كأنهم قالوا ليست العربية لغة الوحي ! فأجاب : لغة الرسالة من لغة قومها ، وهذا دليل جديد على أن كل رسالة قومية ؛ وبما أن رسالة محمد لقومه العرب نزل القرآن بلغتهم ، فلغة النبي التي تحدد مدى رسالته .  
(٣) حوار الرسل وأقوامهم مقم على السياق يدل عليه اختلاف الروي ، ومحوره ضرورة المعجزة للإيمان: (( فأتونا بسلطان مبین ( المعجزة ) - ما كان لنا أن نأتیکم بسلطان إلا بإذن الله )) - وهذه حال محمد، لا حال الأنبياء قبله وهو يذكر لكل واحد معجزته : ويشد التمثيل في قوله : (( لنخرجنكم من أرضنا، أو لتعودن في ملتنا )) .

السورة الثانية منها: (٢٤- ٥٢) (( وهذا بلاغ للناس )) .

**مطلع:** (٢٤- ٢٧) مثلان: كلمة الإيمان كشجرة طيبة، وكلمة الكفر كشجرة خبيثة.

- الآيات ٢٨- ٣١ مقحمة من المدينة<sup>١</sup>.

١- توحيد (٣٢- ٣٤) الخلق، المطر، الثمر، الفلك، الأنهار، الشمس والقمر، والليل والنهار: (( وان تعدّوا نعمة الله لا تحصوها<sup>٢</sup> )) .

٢- قصص (٣٥- ٤١) دعاؤه للبلد الحرام والبيت الحرام: (( مَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي<sup>٣</sup> )) .

٣- حديث الآخرة (٤٢- ٥١) - عذاب الكافرين ليوم الحساب: فلا يخلف الله وعده لرسله<sup>٤</sup> ( ٤٢- ٤٣ ثم ٤٧- ٥١ ) .

- الآيات ٤٤- ٤٥ تقطع السياق في أوصاف الظالمين يوم الحساب، وهي بروي مختلف. والآية ٤٦ استطراد: (( وقد مكروا ... وانْ كان مكروهم لتزول منه الجبال<sup>٥</sup> )) .

**ختام:** (٥٢) (( هذا بلاغ للناس ولينذروا به وليعلموا: إنما هو إله واحد )) : هذا هو كل القرآن في مكة.

\*

\* \*

---

(١) الآية ٢٨ تروي ( أسباب النزول ) للسيوطي أنها نزلت في الذين قُتلوا يوم بدر .  
(٢) الآية ٣٤ (( وان تعدّوا نعمة الله لا تحصوها )) : براهين التوحيد في القرآن هي تعداد نعم الله للبيان لا للبرهنة .

(٣) هذا القصص مقحم على السورة يدل عليه اختلاف الفاصلة . ثم هل هو من مكة أم من المدينة ؟ - الدعاء الذي فيه (( فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم )) يتعارض مع السورة كلها : (( لنخرجنكم من أرضنا )) (١٣) (( مكروهم تزول منه الجبال )) ( ٤٦ ) ومع العهد كله ؛ لذلك نرى أنه من المدينة ومن بعد فتح مكة يؤيده تقديم إسماعيل على إسحاق ( ٣٩ ) ما لم يكن يفعله في مكة . وقد يكون في دعاء إبراهيم قسمان : قسم من مكة ، وهو الآيات التي بيدؤها بقوله (( رب )) وقسم من المدينة في الآيات التي بيدؤها بقوله (( ربنا )) .  
وقوله (( إني أسكنت من ذريتي عند بيت المحرم )) يشعر بأن الكعبة من قبل إبراهيم ، بينما يقول في

سورة البقرة (( وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل )) .

(٤) الآية ٤٨ (( يوم تبدل الأرض غير الأرض والسماوات )) تعبير كتابي إنجيلي ( سفر الرؤيا ٢١ : ١ ) .

(٥) الآية ٤٦ تشير إلى شدة الفتنة وارتداد بعض المسلمين ( راجع سورة النحل ) .

الثالثة والسبعون: الأنبياء (٢١) (( إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً )) .

فذلکة : سورة الأنبياء وحدثها ظاهرة بأقسامها المعتادة من توحيد وقصص وحديث الآخرة ، ومن رويها . قيل فيها من المنسوخ ثلاثة مواضع ، ومن الناسخ ثلاثة أخرى تليها .

**مطلع:** (١٥- ١) - تحدي النبي (( بأية كما أرسل الأولون<sup>١</sup> )) أو هو بشر كغيره (١- ٥).

- جواب مزدوج: إن رسول البشر بشر فاسألوا أهل الذكر (٦- ٩).

هذا ذكركم<sup>٢</sup> ، عاقبة الكفر به الهلاك: سلوا التاريخ (١٠- ١٥).

١- **توحيد** (١٦- ٤٧): (( هذا ذكر من قبلي )) .

أ - وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما لاعين (١٦ - ١٨).

رد على مقالة أولى: من عنده ( الملائكة ) لا يستكبرون عن عبادته (١٩- ٢٠).

رد على مقالة ثانية (٢١- ٢٥): أم اتخذوا آلهة من الأرض - جواب من العقل (٢٢- ٢٣) ومن النقل: (( هذا ذكر من معي وذكر من قبلي: وما أرسلنا من رسول إلا نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون<sup>٣</sup> )) (٢٤- ٢٥).

رد على مقالة ثالثة: (( وقالوا ( ليس الملائكة آلهة إنما ) اتخذ الرحمان ولداً - بل عباد مكرمون، ولا يشفعون إلا لمن ارتضى )) (٢٦ - ٢٩).

(١) الآية ٥ (( فليأتنا بأية كما أرسل الأولون )) لا يزال تحديهم النبي بمعجزة مثل معجزات الأنبياء الأولين قائماً ، بالرغم من جوابه العابر ( في إسراء وهود ويونس ) بإعجاز القرآن ؛ ولا يزال موقف النبي سلبياً بالنسبة للمعجزة ؛ وما يتهمونه بالبشرية والسحر والأحلام والافتراء والشعر إلا لعدم حدوث معجزة عن يده كما أرسل الأولون .

وقوله (( وأسروا النجوى الذين ظلموا )) على لغة (( أكلوني البراغيث )) .

(٢) الآية ١٠ (( ولقد أنزلنا إليكم كتاباً فيه ذكركم )) صريحة بأن رسالة محمد قومية ، فالقرآن للعرب ((إليكم)) وهو (( ذكرهم )) .

(٣) الآية ٢٤ (( هذا ذكر من معي وذكر من قبلي )) : بدأ النبي يميّز جماعته عن سائر الموحدين الكتابيين ، وإن ظلّ معهم واحداً في التوحيد .

والآية ٢٥ (( وما أرسلنا من رسول )) : كل رسالة سماوية بحسب القرآن ليس فيها سوى التوحيد السلبى ، أو التحذير من الشرك . وليس في القرآن حتى الآن سوى هذا الذكر .



ب - تفصيل الخلق: فَتَقَ رَتَقَ السماوات والأرض وجعلنا من الماء كل شيء حيّ، وجعلنا في الأرض رواسي أن تميد بكم، وجعلنا السماء سقفاً محفوظاً، والليل والنهار والشمس والقمر كل في فلك يسبحون<sup>١</sup> (٣٠- ٣٣).

ردّ على تهديد النبي بالموت (٣٤- ٤٥).

رد على استهزائهم بالنبي وبالوعيد الذي يتوعدهم به<sup>٢</sup> (٣٦- ٤٧): عذاب الآخرة يأتي بغتة (٣٩- ٤٠) وقد استهزئ برسلك من قبلك (٤١) عذاب الدنيا قائم بنقص أرضهم من أطرافها بذهاب استقلالها (٤٢- ٤٤) وعذاب الآخرة وعيد منزل وهو آت لا ريب فيه<sup>٣</sup> (٤٥- ٤٧).

\*

## ٢- قصص التوحيد: (٤٨- ٩٢) تمثيل حال محمد من قومه بالأنبياء الأولين.

- قصة موسى (٤٨- ٥٠): (( ولقد آتينا موسى الفرقان وضياء وذكراً للمتقين . والقرآن ذكر منه.

(١) الآية ٣٠ (( إن السماوات والأرض كانتا رتقاً ( شيئاً واحداً ملتحمًا ليس به صدع ) ففتقناهما )) : جمع الاسم وتنتى الخبر ؛ والمقصود التنوع فيها والتمييز ، أو كانت السماء لا تمطر فأمرت ، والأرض لا تنبت فأنبتت ( البيضاوي والجلالان ) . (( وجعلنا من الماء كل شيء حيّ )) : خلقنا من الماء كل حيوان كقوله (( خلق كل دابة من ماء )) - هل ينطبق هذا الوصف على كل أنواع الجراثيم ؟ (( وجعلنا في الأرض رواسي أن تميد بهم )) : كراهة أن تميل بهم وتضطرب ( البيضاوي ) - هل تمنع الجبال ميلان الأرض كما يكرر ذلك مراراً ؟ (( وجعلنا السماء سقفاً )) : هل السماء سقف أو فضاء لا نهائي ؟ (( كل في فلك يسبحون )) أنزل الليل والنهار والشمس والقمر منزلة العاقل لضرورة الفاصلة ؛ وظاهر الآية أن للنهار والليل كما للقمر والشمس فلماً فيه يسبحان . (٢) الآية ٣٦ (( وهم بذكر الرحمان هم كافرون )) لا يكفرون بالله ، بل باسم الجلالة الكتابي ، الغريب عن الحجاز : الرحمان .

والآية ٣٧ تعطي الجواب قبل التحدي بالوعيد في الآية ٣٨ ، لذلك يجب عكسهما في النسق .

(٣) الآية ٤٧ (( وإن كان مثقال حبة من خردل )) : مثل إنجيلي ( متى ١٣ : ٣١ ) .

(٤) الآية ٤٨ يجعلون الفرقان والضياء والذكر أوصافاً متردفة للتوراة ؛ وهي في الأصل مختلفة عند اليهود: فالذكر هو التوراة ، والفرقان هو المشنة أي سنة موسى ، والضياء تفسير المشنة ؛ وقد نقل القرآن الألفاظ على علاقتها .

- قصة إبراهيم (٥١- ٧٣): يحطم الأصنام، (( قالوا: حرّقه وانصروا آلهتكم )) : تمثيل لحال النبي.
- قصة لوط (٧٤- ٧٥): (( نجينا من القرية التي كانت تعمل الخبائث )) : تمثيل أيضاً لحال النبي.
- قصة نوح (٧٦- ٧٧): (( نجينا وأهله من الكرب العظيم )) : تمثيل أيضاً لحال النبي.
- قصة داود وسليمان (٨٨- ٨٢) (( وكلاً آتينا حكماً وعلماً ... وكنا لهم حافظين )) كما سيحفظ النبي.
- قصة أيوب (٨٣- ٨٤) (( فكشفنا ما به من ضررٍ وآتيناه وأهله ومثلهم معهم )) تمثيل لحال النبي.
- قصة إسماعيل وإدريس وذو الكفل (٨٥- ٨٦): (( وأدخلناهم في رحمتنا )) مثل النبي.
- قصة ذي النون (٨٥- ٨٧) (( ونجينا من الغم، وكذلك نجى المؤمنين )) .
- قصة زكريا (٨٨- ٩٠) (( ربّ لا تذرني فرداً وأنت خير الوارثين )) : تمثيل لحال النبي.
- قصة مريم أم المسيح (٩١) (( وجعلناها وابنها آية للعالمين )) .

**ختام القصص (٩٢- ٩٣):** (( إن هذه أمتكم أمة واحدة )) : لا يمنع تقطيع أمرهم وحدة إيمانهم<sup>٣</sup>.

(١) هذا القصص الإبراهيمي من تحطيم الأصنام ومحاولة إحراق إبراهيم في النار ، تجهله التوراة وقد ورد في تلمود اليهود ومدارشهم ؛ جاء في التلمود (فصحيم ١١٨) : (( لما ألقى نمرود الجبار إبراهيم في النار، طلب جبريل من الله أن يسمح له بأن يبزدها لخلّاص الصديق . فقال الله : أنا الواحد في العالمين ، وهو الوحيد في عالمه ، يليق أن ينزل الأحد إلى الوحيد )) . لاحظ أن قصة إبراهيم بدأت تطول أكثر من قصة موسى ! بدأ يذكر إلى جانب الذكر غيره كالزبور (١٠٦) . وقوله : (( إن الأرض يرثها عبدي الصالحون )) هو قول المزمور (٣٧ : ١١) والإنجيل (( طوبى للودعاء فإنهم يرثون الأرض )) (متى ٥ : ٤) .

والآية ٧٨ تمزج قصة مثل ناتان النبي لداود في الغنم والنعجة ، وقضاء سليمان الأول الذي أظهر حكمته (١ ملوك ٣ : ١٦ - ٤٧) .

(٢) الآية ٩١ بدأ يجعل القرآن من ذكر المسيح وأمه ختام القصص النبوي كله ، ويفضّل المسيح وأمه على العالمين .

(٣) الآية ٩٢ مفتاح تفكير محمد في العهد الأخير بمكة : أمة التوحيد واحدة ، ولا يمنع تقطيع أمرهم شيعاً وأحزاباً وحدة إيمانهم ، ووحدة البلاغ الذي في التوراة والزبور والإنجيل والقرآن (١٠٦) .

### ٣- حديث الآخرة (٩٤- ١٠٥).

علامته ظهور ياجوج وماجوج<sup>١</sup> (٩٥- ٩٦).

حال الكافرين (٩٧- ١٠٠) والمؤمنين (١٠٣- ١٠١).

ختام (١٠٤) (( يوم نطوي السماء كطيّ السجل<sup>٢</sup>: كما بدأنا أول خلق نعيده )) .

خاتمة السورة (١٠٦- ١١٢). وحدة البلاغ عن الجنة والتوحيد في الذكر والزيور والقرآن.

- تأخير الوعيد فتنة: (( رب احكم بالحق<sup>٣</sup> )) .

\*

\* \*

الرابعة والسبعون: المؤمنون (٢٣) (( إنَّ هذه أمتكم أمة واحدة )) .

فذلكة: يلاحظ في السورة وحدة النظم والروي . ولكن تكرار المواضيع من توحيد وقصص وحديث الآخرة يجعلانها سورتين .

قبل فيها من الناسخ موضع ومن المنسوخ ثمانية ؛ وقيل لم يصح من المنسوخ شيء .

السورة الأولى منها: (١- ٧٨): (( إن هذه أمتكم أمة واحدة )) .

مطلع: (١- ١١) أوصاف المؤمنين المفلحين<sup>٤</sup> الذين يرثون الفردوس<sup>٥</sup>: سبعة.

١- توحيد (١٢- ٢٢): تفصيل الخليفة.

---

(١) الآية ٩٦ هنا حديث ياجوج وماجوج من علامات الساعة كما في سفر الرؤيا ( ٢٠ : ٨ ) بينما هما في سورة الكهف ( ٩٥ ) من قصة الاسكندر ذي القرنين . قابل حزقيال النبي ( ٣٨ : ٢ و ٣٩ : ١ ) .  
(٢) الآية ١٠٤ (( يوم نطوي السماء كطيّ السجل للكتب )) تعبير نبوي ( أشعيا ٣٤ : ٤ ) وإنجيلي في سفر الرؤيا (( وطويت السماء كطيّ السجل )) ( ٦ : ١٤ ) .  
(٣) الآية ١١٢ (( قال : ربّ احكم بالحق )) أي (( اقض بيننا وبين أهل مكة بالعدل ، المقتضي لاستعجال العذاب )) ( البيضاوي ) : هل يصح هذا القول لله ، والله يحكم دائماً بالحق والعدل ؟ فما بال زيادة (( بالحق )) المثيرة للشبهة والإشكال ؟ ربما أراد (( بما هو حق عليهم ، وحق لنا )) : فهل كثرة الإيجاز من الإعجاز ؟  
(٤) الآية ٢ (( الذين هم في صلاتهم خاشعون )) جاء في ( أسباب النزول ) للسيوطي : كان الرسول إذا صلّى رفع بصره ، أو كان يلتفت في الصلاة ، أو كان يقَلب بصره في الصلاة فنزلت .  
(٥) الآية ١١ (( الذين يرثون الفردوس )) تعبير إنجيلي : (( تعالوا يا مباركي أبي رثوا الملك المعدّ لكم منذ إنشاء العالم )) ( متى ٢٥ : ٣٤ ) . وفردوس كلمة يونانية إنجيلية وردت بلفظها ومعناها .

- خلق الإنسان من سلالة من طين ثم من نطفة في قرار مكين<sup>١</sup> (١٤ - ١٦).

- خلق السماء سبع طرائق، منها ينزل الماء المحيي لجنات النخيل والأعاب، والزيتون في سيناء (١٧ - ٢٠).

- عبرة الأنعام (( عليها وعلى الفلك تُحملون )) (٢١ - ٢٢).

٢- قصص (٢٣ - ٥٣) تمثيل آخر لحال محمد عن قومه.

- قصة نوح (٢٣ - ٣٠) قال قومه: (( بشر مثلكم يريد أن يتفضّل عليكم، وهو رجل به جنة<sup>٢</sup> .

- قصة هود في عاد (٣١ - ٤١) قال قومه: (( إن هذا إلا بشر مثلكم يعدكم بالبعث )).

- (( ثم أنشأنا من بعدهم قروناً آخرين جعلناهم لكفرهم أحاديث )) (٤٢ - ٤٤).

- قصة موسى وهارون (٤٥ - ٥٠) فقال قوم فرعون: (( أنؤمن لبشرين مثلنا وقومهما لنا عابدون؟! ))

- (( وجعلنا ابن مريم وأمه آية وآويناها إلى ربوة ذات قرار معين<sup>٣</sup> )) (٥١ - ٥٢).

**ختام:** (( إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون<sup>٤</sup> )) (٥٣).

٣- حديث الآخرة (٥٤ - ٦٨) بأسلوب الوعيد:

وصف حال الكافرين المسارعين إلى الهلاك ( ٥٤ - ٥٧ ثم ٦٤ - ٦٨ ) يقطعه<sup>٥</sup> وصف حال المؤمنين (٥٨ - ٦٣).

(١) الآية ١٤ (( فتبارك الله أحسن الخالقين )) : جاء في ( أسباب النزول ) أنها نزلت كما نطق بها عمر ؛ أو غيره من كتبة الوحي الذي لما نطق بها قال له النبي : اكتبها فهكذا نزلت ؛ فترك النبي ومضى كافراً يقول لقد أوحى إليّ كما أوحى إليه . - وهل يصح أن يجمع لفظ الخالق لضرورة الفاصلة ؟  
(٢) الآية ٢٧ (( وفار التنور )) في طوفان نوح : تعبير تلمودي لا توراني ( قابل التكوين ٧ : ١٠ ) .  
(٣) الآية ٥١ (( وجعلنا ابن مريم وأمه آية )) : أي دلالة ومعجزة فإنه تعالى نقض العادات فيها وفي ابنها . ولم يصف القرآن شخصية أحد من المرسلين والعالمين بأنها آية في ذاتها . وقد سبق الوصف في سورة الأنبياء ممّا يوحي بعودة النفوذ المسيحي إلى الدعوة القرآنية بعد الهجرة الشخصية إلى الطائف .  
(٤) الآية ٥٣ (( ان هذه أمتكم أمة واحدة )) تكرر الآية في سورتي الأنبياء (٩٢) والمؤمنين (٥٣) دليل على اتجاه العهد في الوحي، في أن أمة التوحيد واحدة.  
(٥) الآية ٥٧ متصلة بالآية ٦٤ لأن هذه تقول : (( بل قلوبهم في غمرة من هذا ، ولهم أعمال من دون ذلك هم لها عاملون )) إشارتان تحكيان ، لا حال المؤمنين ( ٥٨ - ٦٣ ) بل حال الكافرين ( ٥٤ - ٥٧ ) : فكيف كان هذا الجمع والتقطيع ؟

**ختام السورة الأولى (٦٩- ٧٨) لِمَ يَسْتَنكِرُونَ الرِّسُولَ وَالرِّسَالَهَ؟ لَقَدْ أَتَيْنَاهُمْ بِذِكْرِهِمْ<sup>١</sup> يَدْعُو إِلَى الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ.**

\*

السورة الثانية منها: (٧٩- ١١٨): (( مَن يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ )) .

**١- توحيد (٧٩- ٩٩):**

الله هو الخالق، وهو الذي يحيي ويميت، وله اختلاف الليل والنهار (٧٩- ٨١).

يقطع السياق اعتراض لهم على البعث (٨٣- ٨٤) ولا جواب معه!

- استجواب رائع على تفصيل الخليفة (٨٥- ٩٠).

- تكذيب الولد والشريك: لو كان مع الله إله آخر إذًا لذهب كلُّه بما خلق، ولعلِّي بعضهم (٩١- ٩٣).

- دعاء النبي: (( رَبِّ إِمَّا تَرِينِي مَا يُوْعِدُونَ! - ادْفَعْ بِالنَّبِيِّ هِيَ أَحْسَنُ السَّبِيئَةِ، وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ، وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ<sup>٢</sup> )) (٩٤- ٩٩).

**٢- حديث الآخرة (١٠٠- ١١٦).**

**مطلع: (١٠٠- ١٠١) أسف الكافر عند الموت: (( رب ارجعوني أعمل صالحاً ))<sup>٣</sup>!**

---

(١) الآية ٧٢ (( بل أتيناهم بذكرهم ، وهم عن ذكرهم معرضون )) : القرآن ذكر خاص بالعرب ، يكرر القرآن هذا المعنى ( قابل أنبياء ١٠ و ٢٤ ) حتى يرسخ في الذهن أن رسالة محمد قومية ، لأن كل رسالة هي في نظره قومية .

(٢) الآية ٩٨ (( رب أعوذ بك من همزات الشياطين ، وأعوذ بك رب أن يحضرون )) : نص صريح يؤكد أن النبي مثل سائر البشر معرض لحضور الشياطين حوله ، ولهمزاته ؛ كما توجي الاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم قبل قراءة القرآن ( نحل ١٠٢ ) إن للشيطان سبيلاً إلى التنزيل : له سلطان على الرسول والرسالة، كل رسول وكل رسالة ( حج ٥٢ ) .

(٣) الآية ١٠٠ (( قال: رب ارجعون ، لعلِّي أعمل صالحاً )) : جمع فعل الإله ( أرجعون ) كما جمع اسمه ( أحسن الخالقين ) لضرورة الفاصلة .

- حالهم في القيامة: المفلح من ثقلت موازينه، والخاسر من خفت موازينه (١٠٢-١٠٥).

- حوار الله والهاكين: اتخذتم فريقاً من عبادي سُخْرِيًّا! (١٠٦-١١٥).  
 ختام حديث (١١٦): «أفحسبتم أننا خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون؟!»  
 خاتمة السورة (١١٧-١١٩): «مَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ» .

\*  
\* \*

الخامسة والسبعون: السجدة (٣٢) «فلا تكن في مرية من لقاء الكتاب» .

فذلكة: وحدة السورة ظاهرة، ولكن فيها إقحام حديث المؤمن والفاسق (١٨-٢٢) ولعله من المدينة؛ وإقحام من مكة عن «فتح» القيامة (٢٧-٢٨)، لعله في غير موضعه من السورة، أو لعله من غيرها. والسورة محكمة.

**مطلع:** (١-٣) القرآن تنزيل الكتاب<sup>٢</sup>.

رُدُّ على شبهة الافتراء: بل هو الحق من ربك!

١- **توحيد** (٤-٩) تفصيل الخلق.

- الله خلق السماوات والأرض في ستة أيام؛ كل يوم منها مقداره ألف سنة<sup>٣</sup> (٤-٥).

- تفصيل خلق الإنسان من طين ثم من ماء مهين، «ونفخ فيه من روحه» (٧-٩).

٢- **حديث الآخرة** (١٠-٢٢): لا ولي ولا شفيع من دون الله.

(١) الآية ١٠٣ «فإذا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ»: وفي الصافات: «وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون» (٢٧).

(٢) سجدة الآية ٢-٣ ليس القرآن افتراءً على الله بل هو الحق لأن القرآن هو تنزيل الكتاب: لا يزال يؤكد صلة القرآن بالكتاب (قابل ٢٣).

(٣) سجدة الآية ٥ «ثم يعرج إليه في يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون»، وفي سورة سأل أو المعارج «كان مقداره خمسين ألف سنة» (٤). وهذا اليوم الإلهي هل هو يوم الخليفة أم يوم القيامة، أم ما بينهما؟ (قابل البيضاوي) - سياق الخطاب في سورة السجدة يقتضي أن يكون من أيام تدبير أمر الخليفة وتفصيلها.

يبدأ برد شبهة (١٠- ١١) المجرمون في عذاب الخلد<sup>١</sup> (١٢- ١٤) المؤمنون لهم قرّة عين في جنات المأوى<sup>٢</sup> (١٥- ١٧).

حديث مقم<sup>٣</sup> (١٨- ٢٢) نصيب المؤمن جنات المأوى، ونصيب الفاسق العذاب الأكبر في النار.

**٣- قصص التوحيد** (٢٣- ٢٦) - لا تشك من لقاء كتاب موسى بواسطة أئمة بني إسرائيل (٢٢- ٢٤).

- المشركون في خلاف : أولم يهد لهم كم أهلكتنا من قبلهم من القرون ! (٢٥- ٢٦٩) .

حديث آخر مقم<sup>٤</sup> : متى هذا الفتح؟ أنبعث كالنبات (٢٧- ٢٨).

**ختام (٣٠):** فأعرض عنهم وانتظر.

\*

\* \*

(١) سجدة الآية ١٣- ١٤ « ولكن حقّ القول مني : لأملأنّ جهنم من الجنة والناس أجمعين » : هل قوله « أجمعين » يشمل جنس الثقلين من الجن والإنس ، أم يشمل جميع الإنس والجن ؟ ثم الآية ١٣ « لو شئنا لأتينا كل نفس هداها » تجعل الهدى والخلاص قدراً مقدوراً مثل الهلاك ، بينما الآية ( ١٤ ) تجعلهما نتيجة الأعمال : « ذوقوا عذاب الخلد بما كنتم تعملون » .

(٢) سجدة الآية ١٦ « تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفاً وطمعاً » : تشير بأن الصلاة في الليل لم تزل هي المفضّلة ؛ كانت من عادة مسيحية ، فأمست « عن خوف وطمع » ، مما يدل على شدّة محنة المسلمين في آخر العهد بمكة .

(٣) الآية ١٨ تذكر ( أسباب النزول ) للسيوطي أنها نزلت في سبب وتفاخر في البطش في الحرب كان بين علي بن أبي طالب ( المؤمن ) والوليد بن عقبة بن أبي معيط ( الفاسق ) مما يجعل نزول الآيات (١٨- ٢٢) في المدينة ؛ يؤيد ذلك قوله « الفاسق » وهو تعبير مدني .

(٤) الآية ٢٣ « ولقد أتينا موسى الكتاب فلا تكن في مريبة ( شك ) من لقائه » : توحى بأن الشك أخذ يراود النبي في حقيقة اتصاله بكتاب موسى ؛ أو هي محاولة من أئمة بني إسرائيل لاسترجاع النبي إلى صفوفهم وقد أخذوا يشعرون بابتعاده عنهم . والآية تؤكد أن اتصال محمد بالكتاب الإمام كان بواسطة أئمة بني إسرائيل الذين يهدون بأمر الله إلى هدى كتابهم .

(٥) الآية ٢٧- ٢٨ نظرة أخرى عن القيامة يسميها الفتح « ويقولون متى هذا الفتح ؟ » ؛ بينما في الآية (١٠) يسميها « الخلق الجديد » : ممّا يسوّغ القول بأنهما موقفان متميّزان ، أحقّم الثاني على الأول في هذه السورة .

## البحث الثاني :

### سور الإنذار للمكذبين ( من الطور إلى العنكبوت )

السادسة والسبعون: الطور (٥٢) « ويل للمكذبين » .

فذلكة : السورة من هذا العهد ، ويستفتحها بالويل للمكذبين ، ولكنهم صدّروها بمقطع سقط من العهد الأول ، كما يدل عليه أسلوب الأقسام ، واختلاف الروي عن سائر السورة .

**مقطع من العهد الأول ( ١ - ١٠ )** يقسم بأقسامٍ كتابية وقومية « إن عذاب ربك لواقع !!  
السورة الأصلية ( ١١ - ٤٩ ) ويل للمكذبين!

١- حديث الآخرة ( ١١ - ٢٨ ) - نار جهنم ليست بسحرا! ( ١١ - ١٦ ) .

- إن المتقين في جنات وعيون: كلوا واشربوا هنيئاً مع الحور العين، أنتم وذريتكم، فاكهة ولحمأ وكأساً يطوف بها غلمان كاللؤلؤ ( ١٧ - ٢٨ ) .

٢- جدال على الرسالة والرسول ( ٢٩ - ٣٤ ):

- ما أنت بكاهن ولا مجنون! ( ٢٩ ) .

- ولا شاعر يتربصون به ريب المنون ( ٣٠ - ٣١ ) : يتمنون موت النبي!

- أم يقولون تقوله! - فليأتوا بحديث مثله! ( ٣٣ - ٣٤ ) .

٣- توحيد ( ٣٥ - ٤٤ ) - هل خلقوا أنفسهم أم السماء والأرض ( ٣٥ - ٣٧ ) ؟

- أم عندهم خزائن الله من الرزق والنبوة، أم لهم سلم يستمعون فيه إلى وحي السماء ( ٣٧ - ٣٨ ) .

---

(١) الآية ٣٤ « فليأتوا بحديث مثله » : هذه هي المرة الوحيدة في العهد الثالث يتحداهم فيها بالقرآن ، وبسميه « حديثاً » .



- أم له البنات ولكن البنون؟ أم عندهم الغيب فهم يكتبون<sup>١</sup>؟ (٣٩- ٤٠).

- أم يكيّدون لك<sup>٢</sup>؟ أم لهم إله غير الله<sup>٣</sup>؟ (٤٢- ٤٤).

**ختام** (٤٩- ٤٥) فذرهم حتى يلاقوا عذاب الدنيا والآخرة واصبر لحكم الله وسبحه صباح مساء.

\*

\* \*

السابعة والسبعون: الملك (٦٧) تبارك الذي بيده ملك الدنيا والآخرة.

فذلّكة: فيها سورتان بروي مختلف . والسورة محكمة.

السورة الأولى منها: (١- ٢١) من ينصركم من دون الرحمن؟

**مطلع** (١- ٢) له الملك! وهو التقدير الذي خلق الموت والحياة.

**١- توحيد** (٣- ٥) كمال الخلق: لا تفاوت ولا تصدّع!

**٢- حديث الآخرة** (٦- ١٢) تكذيب النذير ضلال كبير يقود إلى السعير، وتصديق الغيب له اجر كبير.

**٣- حملة على مؤامراتهم** (١٣- ٢١): إن الله عليم بذات الصدور (١٣- ١٥). قادر أن يخسف بكم الأرض، أو أن يرسل عليكم حاصباً (١٦- ١٨). ويقبض الطير فوقكم صافات (١٩).

**ختام** (٢٠- ٢١) مَنْ ينصركم من دون الرحمن أم من يرزقكم من دونه؟

\*

---

(١) الآية ٤١ (( أم عندهم الغيب فهم يكتبون ))؟ توحى بأن النبي عنده الغيب يكتب منه : إشارة واضحة إلى صلة القرآن بالكتاب ، فهل يكتب القرآن عن الكتاب ؟

(٢) الآية ٤٢ (( أم يكيّدون )) : يشعر النبي أنهم يكيّدون له ليقتلوه ، أو يترىصون به ريب المنون .

(٣) هذه الآيات ( ٣٠ - ٤٣ ) يستفتحها بالاستفهام الإنكاري (( أم )) للتقبيح والتوبيخ .

(٤) الملك الآية ٥ (( ولقد زينا السماء بمصابيح وجعلناها رجوماً للشياطين )) : النجوم مصابيح للناس ورجوم للشياطين .

السورة الثانية منها: (٢٢- ٣٠) قل هو الرحمان آمانا به وعليه توكلنا!

**مطلع: (٢٢)** (( أفمن يمشي مكياً على وجهه أهدى أمن يمشي سوياً؟ - مثل الكافر والمؤمن )) .

١- **توحيد (٢٣- ٢٤)** هو الذي كَوّن الإنسان وذراكم في الأرض.

٢- **حديث الآخرة (٢٥- ٢٦)** - متى هذا الوعد؟ - العلم عند الله. فيه تسوء وجوه الكفرة.

٣- **حملة على مؤامراتهم (٢٨ و ٣٠):** إن أهلكني الله ومن معي، فمن يجير الكافرين؟

**ختام: (٢٩)** (( قل هو الرحمان آمانا به وعليه توكلنا، ستعلمون من هو ضلال مبين ))؟

\*

\* \*

الثامنة والسبعون: الحاقة (٦٩) (( هلك عني سلطانياً )) .

فذلكة: سورة وحدتها ظاهرة ، ولكن أقحموا فيها ثلاثة ملاحق من العهد الأول تختلف أسلوباً وروياً. قيل السورة محكمة .

**مطلع: (١- ٣):** ما أدراك ما الحاقة؟ ( مطلع مبتور، بروي مختلف، من العهد الأول).

١- **قصص التوحيد (٤- ١٢)** تذكرة تعيها إذن واعية:

- كذبت ثمود وعاد بالقارعة: فأهلكوا بالصيحة والريح الصرصر (٤- ٨).

- وجاء فرعون، ومن قبله والمؤتفكات بالخاطئة (٩- ١٠).

- إنا لمّا طفا الماء حملناكم في الجارية، تذكرة لكم (١١- ١٢).

٢- **حديث الآخرة (١٣- ١٩):** يؤمّنذ وقعت الواقعة!

(١) الآية ٢٩ (( قل هو الرحمان )) يُستحب أن تكون الآية ( ٢٩ ) بعد الآية ٣٠ خاتمة للسورة ؛ ذلك أفضل من اقتراح الجلالين على الآية ( ٣٠ ) (( يستحب أن يقول القارئ عقب ( ماء معين ) : الله رب العالمين )) : هذه زيادة على التنزيل ، واقتراحنا تقويم لترتيب الجامعين الذي يترك الحديث مبتوراً.  
(٢) الآيات ١ ( الحاقة ) و ٤ ( القارعة ) و ١٥ ( الواقعة ) أسماء ثلاثة للقيامة .

- إذا نُفِخَ في الصور دُكَّتْ الأرض ذكّة واحدة، وانشقت السماء، وحمل العرش فوقهم (١٣- ١٧).

- العرُض: مَنْ كتاب - بيمينه في عيشة راضية، وَمَنْ كتابه بشماله كانت عليه القاضية<sup>١</sup> (١٨- ٢٩).

**ملحق أول** بروي مختلف (٣٠- ٣٢): سلسلة الهالك سبعون ذراعاً.

**ملحق ثانٍ** بروي مختلف (٣٣- ٣٧) طعام الهالك من غسلين<sup>٢</sup>.

**ملحق ثالث** بروي مختلف، وبأسلوب الأقسام (٣٨- ٥٢).

- القرآن قول رسول كريم<sup>٣</sup> لا قول شاعر أو كاهن (٣٨- ٤١) - ردُّ أول.

- القرآن تنزيل رب العالمين، لا تقوّل عليه (٤٢- ٤٧) - ردُّ ثانٍ.

- وإنه لتذكرة للمتقين وحسرة على الكافرين: فسبح باسم ربك العظيم (٤٨- ٥٢).

- جاء الملحق الثالث كختم للسورة.

\*

\* \*

### التاسعة والسبعون: المعارج (٧٠) المصلون الكافرون في يوم الله.

فذلّكة : سورة عن يوم الدين في سورتين تختلفان نظماً وروياً . والسورة الأولى منها مجموعة مقاطع مختلفة الروي ، من أزمنة مختلفة يفصل بينهما مقطع مستقل ( ١٩ - ٢١ ) .

وقيل : فيها من المنسوخ موضع ، ولا ناسخ فيها .

(١) الكلمات : كتابية ( ١٩ ) حسابية ( ٢٠ ) كتابية ( ٢٥ ) حسابية ( ٢٦ ) مالية ( ٢٨ ) سلطانية ( ٢٩ ) أشبعت فيها ياء الضمير فتحة ، والفتحة أشبعت ألفاً ، وقلبت الألف هاء السكت، لضرورة الفاصلة ، مع تكرار الألفاظ فيها .

(٢) الآية ٣٦ (( ولا طعام للكافر الهالك ) إلا من غسلين )) قال البيضاوي : هو على وزن (( فعلين من الغسل : غسله أهل النار وصديدهم )) . وفي سورة (( ليس لهم طعام إلا من ضريع )) وهو شجر ينبت في النار ؛ وفي غيرها (( شجرة الزقوم طعام الأثيم )) : قد يكون الزقوم نوعاً من شجر الضريع من الجحيم ولكن كيف يصير الشجر فيها ماء الغسلين يؤكل ؟

(٣) في الآية ( ٤٠ ) القرآن قول رسول كريم ، وفي الآية ( ٤٢ ) تنزيل من رب العالمين .

السورة الأولى منها: (١- ٢٢) العذاب الواقع.

(١) سأل سائل بعذاب واقع! - إنه في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة<sup>١</sup> (١- ٥).

(٢) إنهم يرونه بعيداً ونراه قريباً (٦- ٧).

(٣) يوم تكون السماء كالمهل وتكون الجبال كالعهن! (٨- ١٠).

(٤) يوم المجرم لو يفتدى ببنيه وأخيه، وأهليه ثم ينجيهِ (١١- ١٤).

(٥) لظى تدعو من تولى وجمع فأوعى (١٥- ١٨).

**مقطع مستقل** (١٩- ٢١): الإنسان هلوع، في الشر جزوع، وفي الخير منوع.

\*

السورة الثانية منها: (٢٢- ٤٤) المصلون والكافرون.

(١) المصلون: أوصافهم سبعة<sup>٢</sup> (( أولئك في جنات مكرمون )) (٢٢- ٣٥).

(٢) ما بال الكفرة يحلقون حولك محمقين؟ - لا جنة لهم! وهم خلق ضعفاء! أقسم برب المشارق والمغرب<sup>٣</sup> إننا قادرون أن نستبدلهم بخير منهم: فذرهم يخوضوا ويلعبوا إلى يوم الله الموعود (٣٦- ٤٤).

\*

\* \*

(١) الآية ٤ من المعارج (( في يوم مقداره خمسين ألف سنة )) جاءت تعديلاً لقوله (( في يوم مقداره ألف سنة مما تعدون )) (سجدة ٥٨) . وهذا التعديل لا ينسجم نظماً ولا رويماً مع نصه مما يشعر بأنه تفسير مقحم . ويزول التعارض إذا لحظنا أن يوم المعارج هو يوم القيامة ، ويوم السجدة هو يوم الخليفة (الإتقان ٢ : ٢٨).

(٢) قابل أوصاف المصلين هنا بأوصاف المؤمنين في سورة (( د أفلح المؤمنون )) : تراها مكررة أحياناً لفظاً ومعنى .

(٣) الآية ٤٠ (( فلا أقسم برب المشارق والمغرب )) : قوله (( فلا )) ظاهرة النفي ، وهو بالواقع قسم ؛ قيل إنها زائدة ، لا بل هي للاستفتاح - هنا يقسم (( برب المشارق والمغرب )) ؛ وفي غيرها (( رب المشرقين والمغربين )) ؛ وفي غيرها (( رب المشرق والمغرب )) والقسم في هذا العهد (( برب المشارق والمغرب )) يوحي بحيرة النبي بين اليهود العرب أهل القبلة إلى المغرب ، والنصارى أهل القبلة إلى المشارق ، وتصاريح النفوذيين فيه . - وهذا المقطع (٣٦ - ٤٤) حملة فيها أجوبة ثلاثة على تأليبهم حول النبي ليكيدوا له .

السورة الثمانون: النبأ (٧٨) النبأ العظيم هو يوم الفصل.

فذلكة : سورة وحدتها ظاهرة نظماً وروياً . ولكن أقحموا عليها مطلعاً بروي مختلف . وهي محكمة .  
**مطلع مقحم ( ١ - ٥ )** كأنه سورة مستقلة يرويها: يختلفون في النبأ العظيم وسيعلمونه.  
 ١ - **براهين التوحيد ( ٦ - ١٧ )** من تفصيل خلق السماء والأرض والإنسان.  
 ٢ - **يوم الفصل ( ١٧ - ٣٨ ):** للطاغين شر مآب، وللمتقين خير مغاز .  
 - يوم الفصل يوم ينفخ في الصور ( ١٧ - ٢٠ ) ويوم لا يملك الخلق فيه خطاباً، والروح والملائكة لا يتكلمون إلا بإذن الله ' ( ٣٧ - ٣٨ ) .

- إن جهنم كانت للطاغين مآباً ( ٢١ - ٣٠ ) .

- وإن للمتقين مغزاً: حدائق وأعناباً، وكواعب أتراباً، وكأساً دهاقاً ( ٣١ - ٣٦ ) .

**ختام: ( ٣٩ - ٤٠ )** ذلك اليوم الحق: إنا أنذركم عذاباً قريباً!

\*

\* \*

الحادية والثمانون: النازعات (٧٩) الحاضرة والطامة الكبرى هي الساعة الآخرة.

فذلكة : سورة من ثلاث سور متداخلة ، يدل عليها روئها المختلف ، صدروها بسلسلة أقسام من العهد الأول جعل الناس يختلفون في زمن نزولها ؛ وقد تكون من العهد الثالث ، سوى المطلع . والسورة محكمة :

**المطلع: ( ١ - ٥ )** سلسلة أقسام مبتورة اختلفوا في معناها (( وجواب هذه الأقسام

(١) الآيات ( ٣٧ - ٣٨ ) موقف الخلق ، والملائكة والروح في الحساب ، لا تتسجم في السياق مع ما قبلها ( ٣١ - ٣٦ ) من وصف نعيم المتقين الذين يملكون في يوم الفصل من الرحمان برحمته خطاباً ؛ وموضعها في وصف الموقف يوم الحشر والفصل ( ١٧ - ٢٠ ) .

والآية ٣٧ « رب ... الرحمان » : اختلفوا على قراءتها بالرفع أم بالجر . ثم في الآية ( ٣٧ ) أهل السماء لا يملكون من الله في الحساب خطاباً ، وفي الآية ( ٣٨ ) الروح والملائكة وهم أهل السماء يتكلمون بإذن الله : قال البيضاوي إن الآية ( ٣٨ ) تقرير وتوكيد للآية ( ٣٧ ) « فإن هؤلاء الذين هم أفضل الخلائق وأقربهم من الله إذا لم يقدرُوا أن يتكلموا إلا بإذنه فكيف يملكه غيرهم ؟ وقوله « لا يملكون منه خطاباً : لا يُنافي الشفاعة بإذنه . والروح : ملاك موكل على الأرواح أو جنسها ، أو جبرائيل أو خلق أعظم من الملائكة » .

محذوف، أي: لتبعثنَّ يا كفار مكة (( الجلالان ). وهي مقطع مستقل عن السورة.

\*

السورة الأولى منها: (٦- ١٤) ليست (( الحافرة بالساهرة )) ، كرة خاسرة، وهي مقطع مستقل نظماً وروياً.

السورة الثانية منها: ( ١٥- ٢٦ ثم ٣٤- ٤١ ): (( الطامة الكبرى )) .

١ - حديث موسى (١٥- ٢٦) رسالة موسى إلى فرعون الذي طغى وهلك.

٢ - حديث الآخرة (٣٤- ٤١) (( فإذا جاءت الطامة الكبرى:

فأما من طغى فإن الجحيم هي المأوى، وأما من خاف مقام ربه فإن الجنة هي المأوى)).

\*

السورة الثالثة منها:<sup>٢</sup> ( ٢٧- ٣٣ ثم ٤٢- ٤٦ ): يسألونك عن الساعة!

١ - توحيد (٢٧- ٣٣): أنتم أشد خلقاً من باني السماء وداحي الأرض ومرسي الجبال؟

٢ - حديث الساعة (٤٢- ٤٦): يسألونك عن الساعة أيان مرساها؟ - إلى ربك منتهاها ((

!

\*

\* \*

(١) السورة الثانية ( قصص وحديث بعث ) من مقطعين مفصولين في النسق ، وتجمعهما وحد النظم ووحدة الفاصلة ، فيجب جمعهما . قابل حديث موسى في هذه السورة لما جاء في التوراة ( سفر الخروج ٣ : ١ - ٥ )

(٢) السورة الثالثة ( توحيد وحديث الآخرة ) هي أيضاً من مقطعين مفصولين في النسق ، وتجمعهما وحدة النظم ووحدة الفاصلة فيجب جمعهما ؛ ولا ندري كيف فات الجامعين للقرآن هذا الجمع الواضح ، وأثروا تداخل السور المكتشف .

- وما معنى قوله عن السماء (( وأغطش ليلها وأخرج ضحاها )) ؟ هل للسماء ونجومها الملتهبة ليل

ونهار ؟

- وقوله (( والأرض بعد ذلك ( بعد تنظيم السماء ) دحاها )) كيف ينسجم مع قوله : (( خلق الأرض بعد

يومين ثم استوى إلى السماء وهي دخان )) فنظمها ؟ هل كان تنظيم الأرض قبل تنظيم السماء وأفلاكها ؟ أم بعد كما تقول سورة النازعات ؟

- وقوله (( والجبال أرساها )) : هل الجبال مثل سفن جبارة أرسى على الأرض من بعيد ؟

### الثانية والثمانون: الانفطار (٨٢) ما أدراك ما يوم الدين!

فذلكة : سورة تهديد المكذبين بيوم الدين والرسول وهي من هذا العهد الثالث ، صدّروها بمقطعين كلاهما بروي مختلف من العهد الأول . قيل : السورة محكمة . هنا يلتقي أيضاً رقم المصحف برقم التنزيل التاريخي .

**مقطع أول مستقل برويه (١- ٥) في انفطار الكون ((علمت نفس ما قدّمت وأخرت))!**

**مقطع ثانٍ مستقل برويه (٦- ٨) أيها الإنسان ما غرّك بربك الذي خلقك وركّبك؟**

**السورة (٩- ١٩) كيف تكذبوا بالدين، وحولكم حفظة كاتبون؟!!**

\*

\* \*

### الثالثة والثمانون: الانشقاق (٨٤) إنذار المكذبين بعذاب أليم.

فذلكة : سورة لتهديد المكذبين بيوم الدين والرسول من سورتين كتاهما بروي مختلف ، من هذا العهد، ولكن صدّروا كلّ واحدة بمقطع مستقل ، وبروي مختلف ، سقطا من العهد الأول .

**مقطع أول مستقل برويه (١- ٥) أشرط للساعة، مبتورة، لا جواب لها.**

**السورة الأولى منها: (٦- ١٥) كل إنسان يكدر إلى ربه، فصاحب اليمين حسابه يسير، وصاحب الشمال عسير.**

**مقطع ثانٍ مستقل برويه (١٦- ١٩) يقسم بالكائنات: (( لتركبُ طبقاً عن طبق )) .**

**السورة الثانية منها: (٢٠- ٢٥) إنذار المكذبين بعذاب أليم.**

\*

\* \*

### الرابعة والثمانون: الروم (٣٠) آثار رحمة الله في خلقه وآياتها.

فذلكة : وحدة النظم والفاصلة ظاهرة على السورة ؛ ولكن تكرار الموضوع من توحيد وبعث

---

(١) الآية ١٤ من الانفطار (( وإنّ الفجر لفي جحيم يصلونها يوم الدين ، وما هم عنها بغائبين )) علّق عليه أحد المسلمين الإعلام بقوله : (( يدل ذلك على أن الفاجر من أهل الصلاة مخلّد في النار لأنها إذا لم يرغب عن النار ولم يمت فهو كائن فيها ؛ ويدل على أن الشفاعة لا تكون منه ص. لهم ، وإلا لم يكن ليعمّ كل فاجر بهذا الحكم )) .

بعضها ثلاث سور، يتخلطها أي مدني . وظاهرة العهد الثالث ، الأمثال ، بادية عليها .  
 قيل فيها من المنسوخ موضعان ولا ناسخ فيها . وقيل لم يصح من المنسوخ شيء .

**مقطع مستقل (١- ٥) غَلَبَتِ الروم ( غَلَبَتِ الروم )<sup>١</sup>.**

\*

السورة الأولى منها : (٦- ١٦): الله يبدأ الخلق ثم يعيده (١١).

**مطلع: (٦- ٧) وعد الله حق، ولو خفي عن أكثر الناس.**

١- **حديث التوحيد (٨ و ١١) خلق السماء والأرض بالحق (٨) وهو يبدأ الخلق ثم يعيده<sup>٢</sup>**  
 (١١).

٢- **العبرة بمثل الأقدمين الأشداء الذين عمروا الأرض وكذبوا بآيات الله (٩- ١٠).**

٣- **حديث الآخرة (١٢- ١٦) يوم تقوم الساعة يبلس المجرمون ويتفرقون ولا شفيع من شريك.**

- **يفصل بين السورتين تشريع أوقات الصلاة وهو من المدينة (١٧- ١٨).**

\*

السورة الثانية منها : (١٩- ٣٩) الله يبدأ الخلق ثم يعيد (٣٧).

١- **توحيد (١٩- ٢٧) تفصيل رائع لآيات الله في خلقه، وله المثل الأعلى فيها.**

(١) آية الروم : مستقلة عن السورة لا تمت لها بصلة ، ولها قراءتان على المجهول وعلى المعلوم ، ولذلك لا يُعلم زمن نزولها . جاء في أسباب النزول للسيوطي على القراءة للمجهول : « بلغنا أن المشركين كانوا يجادلون المسلمين وهم بمكة قبل أن يخرج منها رسول الله ص. فيقولون : الروم يشهدون أنهم أهل الكتاب وقد غلبتهم المجوس ، وأنتم تزعمون أنكم تغلبوننا بالكتاب الذي أنزل على نبيكم : فكيف غلب المجوس الروم وهم أهل كتاب فسنعليكم كما غلب فارس الروم فنزلت » . وهذه القراءة تشير إلى نصر الفرس ٦١٣ ثم إلى نصر الروم ٦٢٤ في زمن نصر بدر الذي فرح به المؤمنون المسلمون ، فرحاً على فرح . وفرح المسلمين بنصر الروم يدل على الوحدة الدينية بينهم . وعلى القراءة للمعلوم تشير إلى نصر الروم في غزوة مؤتة (٦٣٠) تشجيعاً على غزوة تبوك ، والفتوحات الإسلامية . وفي كلا الحالين فالظاهر أن الآية مدنية . وقد تكون على القراءة للمجهول مكة ، نزلت في آخر العهد بمكة ، في موضعها من ترتيب النزول ، وقد بدأت جيوش هرقل تخترق أقاليم إمبراطورية فارس ، فلا يستبعد أن يتنبأ عظيم كمحمد عن نتيجة التجهيزات الرومية وزحفها .  
 (٢) الآية ١١ ضائعة في مكانها، وأصلها بعد الآية ٨ .



٢ - مثل المماليك والشركاء (٢٨- ٢٩).

٣ - استشهد بالواقع (٣٣ - ٣٦) وبالتنزيل الأول (( أم أنزلنا عليهم سلطاناً فهو يتكلم ))

- يقطع السياق: الدعوة إلى الحنيفية دين الفطرة والدين القيم، ضدّ الشرك (٣٠- ٣٢).  
- ويفصل بين السورتين تشريع الزكاة والربا من المدينة (٣٨- ٣٩).

السورة الثالثة منها: (٤٠- ٥٧) آثار رحمة الله في خلقه.

١- توحيد (٤٠- ٥٤) انظر إلى آثار رحمة الله.

- يقطع السياق دعوة للدين القيم، الحنيفية (٤٣- ٤٥).

٢- والعبرة بمثل الأقدمين: آيتان غارقتان في تفصيل آيات الله في خلقه (٤٢ و ٤٧).

٣- حديث الآخرة يوم تقوم الساعة (٥٥- ٥٧) مقالة الذين أوتوا العلم والإيمان ومقالة

المشركين الذين لا يعلمون<sup>١</sup>.

ختام السورة كلها (٥٨- ٦٠) - (( لقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل )) .

- (( فاصبر إن وعد الله حق )) .

\*

\* \*

الخامسة والثمانون: العنكبوت (٢٩).

فذلكة: في هذه السورة دستور الدعوة القرآنية في آخر العهد بمكة ، لأنها مع ( المطففين ) آخر ما نزل فيها . وفيها صورة عن فتنة المسلمين عن دينهم في آخر العهد ، وعن حملة القرآن على المرتدين . وفيها الدعوة الصريحة إلى الهجرة ( ٥٦ - ٦٠ ) ممّا يشعر بأنّ المفاوضات مع أهل يثرب قد نجحت وأثمرت : فبدأ المسلمون بالهجرة إلى يثرب . وفيها صورة عن مؤامراتهم لاغتيال النبي قبل هجرته .

(١) الآيات ( ٥٥ - ٦٠ ) يقسم العالم العربي إلى فئتين : أهل العلم والإيمان ، وهو في القرآن اسم خاص بأهل الكتاب ، مثل لقب أهل الذكر ، والذين لا يعلمون أي المشركين الذين كفروا : وهذا يدل على أن محمداً في هذه الفترة أمة واحدة مع أهل التوحيد الكتابي .

وحدة السورة ظاهرة نظماً وروياً وموضوعاً. ولكن يبدو من فرق التعبير في مطلع القصص بين قصص نوح وإبراهيم ولوط وشعيب وبين قصص عاد (٣٨) وفرعون (٣٩) أن الأولى أصيلة، والثانية دخيلة عليها.

قيل لا ناسخ فيها، وفيها من المنسوخ موضعان.  
\*

**مطلع:** (١- ١٣) فتنة المشركين للمسلمين عن دينهم في آخر العهد بمكة<sup>١</sup>.

- يقطعه وصف فتنة المنافقين للمسلمين في المدينة<sup>٢</sup> (١٠- ١١).

١- **قصص الأنبياء الأولين**، تسليية للمؤمنين (١٤- ٤٤): «إني مهاجر إلى ربي!»

- قصة نوح (١٤- ١٥) أنجاه الله من الطوفان.

- قصة إبراهيم (١٦- ٢٧) إذ قال قومه: اقتلوه أو حرّقوه! فأنجاه من النار<sup>٣</sup>.

**يقطعها مقطع دخيل**، بروي مختلف (١٩- ٢٣) في براهين التوحيد.

- قصة لوط (٢٨- ٣٥): «لا تخف إنا منجّوك وأهلك».

- قصة شعيب في مدين (٣٦- ٣٧) كذبوه فأصبحوا في دارهم جاثمين.

**مقطع مقحم** يختلف في استفتاحه: قصة عاد وثمود (٣٨) وقارون وفرعون وهامان (٣٩).

**ختام القصص:** عبرة الأجيال (٣٠): مثل الكفر كبيت العنكبوت<sup>٤</sup> (٤١- ٤٣).

(١) الآيات (١- ٧) بعض الروايات تذكر أن الآيات مدنيات؛ والطبري يجعل الآيات (١- ١٣) كلها مدنية (إتقان ١: ١٦) فالآية (٦) تذكر الجهاد «ومن جاهد فإنما يجاهد لنفسه» فسرّها الطبري بالجهاد العسكري فتكون الآية وحالة الفتنة من المدنية؛ ولكن الكثرة تفهمها بالجهاد الروحي كما في قوله عن الوالدين المشركين من ابنهم المؤمن: «وإن جاهدك لتشرك بي» (٨).

(٢) الآية (١٠- ١١) تذكر فتنة أخرى في المدينة لذكر النصر (١٠) والمنافقين (١١) الذين ظهروا بمكة حيث الشرك حاكم.

(٣) الآية ٢٧ «ووهبنا له إسحق ويعقوب وجعلنا في ذريته النبوة والكتاب»: لا يذكر القرآن في هذا الحكم العام إسماعيل. ويحصر النبوة في ذرية إبراهيم من إسحاق ويعقوب. وهذا يدل على أن النبي لم يزل إلى آخر العهد بمكة في ظل الدعوة الكتابية، ولم يتحرر بعد من سيطرتها. وإن كنا نلمس من حين إلى آخر اتجاهها إلى التحرر، واستطلاعاً إلى الاستقلال عنهم.

(٤) الآية (٤٤) مقحمة على السياق تقطعه.

## ٢- جدل في الرسالة والرسول (٤٥- ٦٠).

- صحة الرسالة والرسول بشهادة أهل العلم والكتاب، وبشهادة واقع حال النبي<sup>١</sup> (٤٥-٤٩).
- (( وقالوا: لولا أنزل عليه آية من ربه! - أو لم يكفهم أننا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم )) (٥٠-٥٢).
- (( يستعجلونك بالعذاب! - إن جهنم محيطه للكافرين )) (٥٣-٦٥).

- ويختم بالدعوة إلى الهجرة (٥٦- ٦٠): أرض الله واسعة؛ لا خوف من الموت في الهجرة فكل نفس ذائقة الموت! ولا خوف من الجوع: وكأين من دابة لا تحمل رزقها، الله يرزقها وإياكم!

## ٣- توحيد (٦١- ٦٧) برهانه من الفطرة، والخبرة الشخصية والعامية:

- برهانه من الفطرة (٦١- ٦٤) استجواب رائع للمشركين الذين يوحدون الله بالفطرة.

(١) بين الآية (٤٦) : (( ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن - إلا الذين ظلموا منهم )) - وبين الآية (٤٧) (( فالذين آتيناهم الكتاب يؤمنون به )) أي بالقرآن : تعارض إذ كيف يجادلون وهم مؤمنون ؟ وقد يكون وقع جدال بالحسنى في آخر العهد ، ولكن لم يقع جدال بالقوة مع (( الذين ظلموا )) منهم إذ لم يظلم أحد منهم كما تصرح الآية التالية بإيمان الجميع بالقرآن . لذلك نرى أن الآية ٤٦ مدنية من عهد سورة البقرة . ويجوز أن يكون الاستثناء وحده (( إلا الذين ظلموا )) هو المقحم من المدنية ، وخالف التعارض : لأن الجدال بالحسنى هو التسليم بوحدة الإله ووحدة التنزيل مما يتسق مع المقطع كله ، ومع الموقف العام كله في آخر العهد بمكة .

وفي نسخ الآية ٤٦ من منع الجدال مع الكتابيين خلاف . قال النحاس ( ٦٠٥ - ٦٠٦ ) (( فيه ثلاثة أقوال : من العلماء من قال هو منسوخ بآية قتال الكتابيين في براءة ( ٣٠ ) . ومنهم من قال هو محكم يراؤ به ذوو العهد منهم . ومنهم من قال هو محكم على العموم . وقوله (( إلا الذين ظلموا منهم )) أي من قاتل ولم يعط الجزية . وهذا قول مجاهد وهو أحسن لأن أحكام الله لا ينبغي أن يقال فيها إنها منسوخة إلا بدليل يقطع العذر ، أو بحجة من معقول )) . فالأمر بعدم جدال أهل الكتاب قائم ثابت يجب العمل به ، والتسليم معهم ولهم بوحدة الإله ووحدة التنزيل .

والآية ٤٨ (( وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك )) تصرّح بعدم تلاوة النبي للكتاب مباشرة وعدم كتابته بيده ، ولكن لا تنفي الاتصال بواسطة أنمة الكتاب كما شهدت بذلك السور المكية مراراً ، وخاصة هنا في الآية ( ٤٩ ) التي تجعل القرآن آيات بينات في صدور أهل العلم المنزل أي أهل الكتاب ، فالآيتان يفسر بعضهما بعضاً .

- برهان من الخبرة (٦٥- ٦٦) في ضيقهم يخلصون الدين، وفي بطرهم يشركون.

- برهان من عناية الله الخاصة بمكة (٦٧): « جعلنا لهم حراماً آمناً ويتخطف الناس من حولهم » .

**ختم السورة (٦٨- ٦٩) في جهنم مثوى للكافرين، والله مع المحسنين يهديهم سبله.**

\*

\* \*

**السادسة والثمانون : المطففين (٨٣) « ويل للمكذابين » .**

فذلكة : هناك شبه إجماع على جعل ( المطففين ) آخر سورة نزلت بمكة ( الجلالان ) . وقد تكون آية « التطفيف » في مطلعها من المدينة ، مما حمل بعضهم على اعتبار السورة كلها مدنية . بدأ سور هذه الفترة في إنذار المشركين والمرتدين عذاب الله « بالويل للمكذابين » ( الطور ) وختمها بهذا المطلع « الويل للمكذابين » ( المطففين ) .

\*

١ - **مقطع مدني (١- ٦) ويل للمطففين الكيل والوزن!**

٢ - **مقطع مكّي (٧- ٢٦): عليون وسجّين.**

- **كلاً إن كتاب الفجار لفي سجّين<sup>٢</sup>: ويل يومئذ للمكذابين! (٧- ١٧).**

(١) جاء في أسباب نزول الآية للسيوطي : « أخرج النسائي وابن ماجه بسند صحيح عن ابن عباس قال : لما قدم النبي ص. المدينة كانوا من أنجس الناس كيلاً فأنزل الله ( ويل للمطففين ) فأحسنوا الكيل بعد ذلك » .  
- وهذا « الويل للمطففين » صدى لأقوال الكتاب ( سفر الأحبار ١٩ : ٣٥ - ٣٦ ) والأنبياء (مخا ٦-١١) والأمثال (١١ : ١ ؛ ١٦ : ١١) .

(٢) « كلا » في الآية ( ٧ و ١٧ ) : عن الكسائي بمعنى : حقاً ! وعن أبي حاتم بمعنى: ألا الاستفتاحية ! وعن النضر بن شميل أنها جواب بمعنى : أي ، ونعم ! وعن الزمخشري قد ترد : ردعاً ! وعندنا أنها أسلوب قرآني متواتر للاستفتاح ( قابل الإتقان ١ : ١٧٢ ) .

- والكلمات ( عليون ، سجّين ، مرقوم ، أرائك ، تسنيم ) مأخوذة عن العبرية ( إتقان ١ : ١٤١ و ١٧١ ) . قال الجلالان: « سجّين : قيل هو كتاب جامع لأعمال الشياطين والكفرة ، وقيل هو مكان أسفل الأرض السابعة . عليين : قيل هو كتاب جامع لأعمال الخير من الملائكة ومؤمني الثقلين ، وقيل هو مكان في السماء السابعة تحت العرش » وهذا غير وارد ، فسياق النص يعني أنهما مكانان ، وسياق التعبير « إن كتاب الفجار لفي سجّين ... إن كتاب الأبرار لفي عليين » إن الكتاب المذكور في مكان سجّين أو مكان عليين ؛ والتشويش

- كلاً إن كتاب الأبرار لفي عليين: يشهده المقربون! (١٨- ٢٨).

- تبدل الحال: في الدنيا يضحك الكفار من المؤمنين، وفي الآخرة يضحك المؤمنون من الكفار (٢٩- ٣٦).



---

من الآية التفسيرية المقحمة على النص : «كتاب مرقوم» ( ٩ و ٢٠ ) والإحكام ظاهر يرد بعد قوله : «وما أدراك ما سجين ؛ وما أدراك ما عليون» وهو أسلوب قرآني متواتر للتعجب ، والاستغراب والتعظيم والتهويل ، ولا يقتضي جواباً تفسيرياً حتى يرد أو يُقحم . ومما يزيد الإحكام وضوحاً قوله «كتاب مرقوم يشهده المقربون» ( ٢٠ - ٢١ ) : فهل يحرم سائر الأبرار من مشاهدته وكل منهم يؤتى كتابه بيمينه ، فينقلب إلى أهله مسروراً ؟ وكلمة ( عليين وسجين ) من أصل سامي ، موجود في العبرية والآرامية والعربية : علو، وسجن . واسم « عليين » لا هو للمكان ولا للكتاب في الأصل ، بل هو اسم الله «العلي» الدارج في شمال الجزيرة وجنوبها حيث ( النون ) في الحميرية والآرامية للتعريف مثل اسم «رحمن» أي الرحمان .

## البحث الثالث

### ملحق: أربع سور مختلف فيها

**نلاحظ** أن سور الإنسان ( أو الدهر ) والرحمان والزلزلة والرعد، مختلف في مكيّتها ومدنيّتها فيما بين المسلمين. ويميل أكثرهم إلى جعلها مدنية، وبعضهم إلى اعتبارها مكية. ونحن نميل مع البيضاوي والزمخشري إلى أنها مكية، بخلاف السيوطي الذي تتبعه عادة. وهي مكية موضوعاً وأسلوباً ونظماً؛ إنها دعوة لا تشريع فيها؛ وجدال مع المشركين لا مع الكتابيين، وهو عادة مكية لا مدنية؛ ونظمها الموزون المسجوع أسلوب مكي لا مدني؛ واسم الجلالة فيها (( الرحمان )) ، تعبير مكي وقد لا يرد في المدينة.

\*

\* \*

السابعة والثمانون : الإنسان - أو الدهر - (٧٦) (( جزاهم بما صبروا جنةً وحريراً )) .

فذلكة : جاء في الإتقان ( ١ : ١٣ ) (( قيل مدنية، وقيل مكية إلا آية واحدة )) . والزهري في ترتيبه يعطيها الرقم ( ٣٧ ) مما يجعلها من العهد الأول ، وهو الصحيح ؛ بينما في مجمع البيان لها رقم ( ٦٤ ) فهي عنده من العهد الثاني . والسورة من بقايا سورتين يدل عليهما اختلاف الروي ، وتكرار الأوصاف ( ٥ - ٦ مع ١٧ - ١٨ ) وموضوع الهداية ( ٣ مع ٣٠ ) . قيل : لا ناسخ فيها ومن المنسوخ فيها موضعان ؛ وقيل صح منهما واحد ( ٢٦ ) .

\*

السورة الأولى منها : (١ - ٢٤): جزاهم ربهم بما صبروا جنةً وحريراً! (١٢).

**مطلع: (١) هل<sup>١</sup> أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً؟**

**١- توحيد (٢ - ٣) (( إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج )) : وهده إلى الإيمان أو إلى الكفر<sup>٢</sup>!**

---

(١) الآية ١ (( هل )) قالوا إنها بمعنى (( قد )) الجلالان .  
(٢) الآية ٣ من السورة الأولى ، والآية ٢٩ من السورة الثانية ، والمقطع المستقل المقحم ، كلها بمعنى واحد: الهدى والكفر مقدران من الله ؛ وفي الآيتان ( ٣٠ - ٣١ ) يظهر التعليم واضحاً متعارضاً : (( إن هذه تذكره: فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلاً ، وما تشاؤون إلا أن يشاء الله )) : كيف يمكن أن يشاؤوا الهدى ولا يستطيعون إلا أن يشاء الله ؟

٢- حديث الآخرة (٤- ٢٢) - آية واحدة لوصف عذاب الكافرين (٤)

- والباقي سقط<sup>١</sup>.

- والسورة كلها لوصف نعيم الأبرار (٥- ٢٢).

**ختام :** (٢٤) - آية متداخلة في السورة الثانية - (( فاصبر لحكم ربك ولا تطع منهم أثماً أو كفوراً )) .

\*

السورة الثانية منها: ( ١٧ - ١٨ ثم ٢٣ - ٢٩ ) (( إن هذه تذكرة )) .

**مطلع:** (٢٢- ٢٦) (( إنا نحن نزلنا عليك القرآن تنزيلاً فاذكر اسم ربك وسبحه ليلاً طويلاً<sup>٢</sup> )) .

١- حديث الآخرة: - آخرة الكافرين: آية واحدة (٢٧).

- آخرة المؤمنين: سقط الوصف وبقي منه<sup>٣</sup> (١٧- ١٨).

٢- توحيد (٢٨) - سقط وبقي منه آية واحدة: خلقناهم وإذا شئنا بدلنا أمثالهم!

**ختام (٢٧):** (( إن هذه تذكرة فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلاً )) .

**مقطع مقحم (٣٠- ٣١)** جعله ختاماً للسورة كلها: الهدى قضاء من الله.

\*

\* \*

الثامنة والثمانون: الرحمان (٥٥) نشيد النعيم السماوي.

فذلكت: جاء في الإتقان ( ١ : ١٣ ) (( الجمهور على أنها مكية وهو الصواب )) . والزهرى في ترتيبه

(١) الآية ٤ : آية واحدة لوصف آخرة الكافرين ، بينما السورة كلها في وصف نعيم الأبرار ، ليس هذا من عادة القرآن ، مما يدل على أن وصف آخرة الكافرين سقط .

(٢) الآية ٢٥ - ٢٦ (( ومن الليل فاسجد له ، وسبحه ليلاً طويلاً )) مثل وصية سورة المزمل ( ١ - ٣ ) : مما يدل على أن هذه السورة الثانية من زمن المزمل ، لأن صلاة الليل في العهد الثاني أمست نافلة للنبي ، ونسخت الأمر : (( ومن الليل فتهجد به نافلة لك )) .

(٣) الآيتان ( ١٧ - ١٨ ) من السورة الثانية ، وقد أقموهما في السورة الأولى كما يدل عليه اختلاف الروي . والوصف فيهما متشابه مع وصف السورة الأولى ( ٥ - ٦ ) : مزاج خمر الجنة كافور ( ٥ ) - لأن (( الكأس )) اسم لإناء شرب الخمر ( الجلالان ) - ثم يصير (( زنجبيل )) ( ١٧ ) والكافور عرّف ، والزنجبيل شراب . وفي الآيتين ( ٥ و ١٧ ) الشارب يصير عيناً على البدلية ( الجلالان ) .

يعطيها الرقم ( ٣٦ ) مما يجعلها من العهد الأول ، وهذا يعيد الاحتمال ، لأن جميع القرائن تدل على أن اسم الجلالة « الرحمان » دخل القرآن بعد الهجرة إلى الحبشة وهو من دلالات العهد الثاني .

وسورة الرحمان من سورتين متداخلتين ، من نظم واحد وروي واحد، يدل عليهما تقطيع السياق : بأي شيء تتعلق الآية ( ٢٦ ) « كل من عليها فان » ؛ والآية ( ٣٧ ) « فإذا انشقت السماء » ؛ والآية ( ٥٤ و ٧٦ ) « متكئين » . ويدل عليهما تكرار ذكر الجان ( ١٤ و ٣١ ) وتكرار أوصاف الجنين ( ٤٦ و ٦٢ الخ ) وتكرار وصف الحور العين ( ٥٦ و ٧٤ ) وتكرار الخاتمة ( ٢٧ و ٧٨ ) . وهكذا فإننا نجد في سورة الرحمان مثلاً فريداً على حرفين من الحروف السبعة التي أسقطت لجان عثمان منها سنة ( ١ ) .

والروح الشعرية ، والتوقيع الموزون ، واللازمة المكررة ، بأسلوب مخاطبة الشعر « فبأي آلاء ربكما تكذبان » مثل قول الشاعر « قفما نبك » تجعل هذه السورة من معجز الشعر . والسورة محكمة .

\*

السورة الأولى منها: ( ١ - ٢٥ ثم ٣٧ - ٦١ ) .

**مطلع ( ١ - ٤ ):** الرحمان علم القرآن؛ خلق الإنسان علمه البيان.

١- توحيد ( ٥ - ٢٥ ) - خلق الشمس والقمر والنجم والشجر والسماء<sup>٢</sup> ( ٥ - ٩ ) .

- خلق الأرض والفاكهة والنخل والريحان ( ١٠ - ١٣ ) .

(١) نظراً أن وصف الجنين في الآيات ( ٦٢ - ٧٧ ) إعادة لوصف الجنين في الآيات ( ٤٦ - ٦٠ ) أو صورة أخرى للنص ذاته : قابل هذا الاستعراض الذي نرى فيه مثلاً عن حرفين من أحرف القرآن السبعة أفلت من الإتيان العثماني :

٤٦ ولمن خاف مقام ربه جنتان .	٦٢ ومن دونهما جنتان .
٤٧ ذواتا أفنان .	٦٤ مدهامتان ( شديدي الخصرة ) .
٥٠ فيهما عينان تجريان .	٦٦ فيهما عينان نضاختان ( لا ينقطع ماؤهما ) .
٥٢ فيهما من كل فاكهة زوجان .	٦٨ فيهما فاكهة ونخل ورمان .
٥٦ فيهن قاصرات الطرف .	٧٢ حور مقصورات في الخيام .
لم يطمئنهن إنس قبلهم ولا جان .	لم يطمئنهن إنس قبلهم ولا جان .
٥٤ متكئين على فرش بطائنها من استبرق	٧٦ متكئين على رفرف خضر وعيقرى حسان .
وجنى الجنين دان .	
٢٧ ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام .	٧٨ ويبقى اسم ربك ذي الجلال والإكرام .

(٢) الآيات ( ٨ - ٩ ) تشريعتان مزيدتان من المدينة ، وتقطعان السياق .



- خلق الإنسان والجان<sup>١</sup> (١٤- ١٦).

- رب المشرقين والمغربيين. ومرج البحرين بينهما برزخ لا يبغيان (١٧- ٢٥).

٢- حديث الآخرة (٣٧- ٦١) - آخرة المجرمين<sup>٢</sup> (٣٧- ٤٠) وآخرة المؤمنين: جنتان<sup>٣</sup> فيهما عينان وحرور عين (٤٦- ٦١).

**ختام (٢٦- ٢٧):** (( كل من عليها فان، ويبقى وجه ربك ذي الجلال والإكرام )) .

\*

السورة الثانية منها: (٢٨- ٣٦ ثم ٦٢- ٧٧):

١- توحيد: تدبير أمر الثقلين (٢٨- ٣٦) (( سنفرغ لكم أيها الثقلان )) !

٢- حديث الآخرة: - آخرة المؤمنين، جنتان وعيان (٦٢- ٧٧)

- آخرة الكافرين جحيم وحميم (٤١- ٤٤).

**ختام (٧٨):** (( تبارك اسم ربك ذي الجلال والإكرام )) .

\*

\* \*

### التاسعة والثمانون: الزلزلة (٩٩) الأرض تشهد يوم الدين.

فذلكت: جاء في الإتيان ( ١ : ١٤ ) (( فيها قولان )) أي مكية أو مدنية : ومكيتها ظاهرة موضوعاً وأسلوباً . وهذه السورة الصغيرة ( ٨ آيات ) من ثلاث مقاطع تختلف نظاماً وروياً .

(١) الآية ١٤ (( خلق الإنسان من صلصال كالفخار )) : ومن تراب ( فاطر ١٢ ) ومن حملاً مسنون ( الحجر ) ومن طين لازب ( صافات ) .

والآية ١٥ (( وخلق الجان من مارج من نار )) يقولها المزمور ( ١٠٤ ) عن الملائكة (( الصانع ملائكته أرواحاً ، وخدامه لهيب نار )) .

(٢) الآية ٣٧ (( فإذا انشقت السماء ... )) : سقط الجواب . والآية ٣٩ (( فيومئذ لا يُسأل عن ذنبه إنس ولا جان )) قال الجلالان (( ويُسألون في وقتٍ آخر : فوربك لنسألنهم أجمعين )) .

(٣) الآية ٤٦ (( ولمن خاف مقام ربه جنتان )) والآية ٦٢ (( ومن دونهم جنتان )) : فهل الجنة واحدة ، أم اثنتان ، أم أربعة ، أم جنات بلا عدّ ولا حصر (( الجنات تجري من تحتها الأنهار )) ( بقرة ٢٥ محمد ١٢ فتح ٥ ) ؟ وهل العيون الأربعة المذكورة هنا ( ٥٠ و ٦٦ ) هي أنهر الماء واللبن والعسل والخمر التي تذكرها سورة ( محمد ١٥ ) ؟ وهذه العيون أو الأنهر الأربعة في جنة السماء بحسب القرآن ، هل هي أنهر جنة عدن الأربعة التي تذكرها التوراة ( تكوين ١ - ٢ ) ؟

**مقطع أول رائع جداً (١- ٥)** يوم الدين وزلزال الأرض تحدّث أخبارها بأن ربك أوحى لها<sup>١</sup>.

**مقطع ثانٍ (٦)** يومئذ يصدر الناس أشتاتاً ليروا أعمالهم.

**مقطع ثالث (٧- ٨)** فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره!

\*

السورة التسعون: الرعد (١٣) « وما كان لرسول أن يأتي بأية إلا بإذن الله » .

فذلكة: جاء في الإتيان ( ١ : ١٣ ) تقدم من طريق مجاهد عن ابن عباس وعن علي بن أبي طلحة أنها مكية ، وفي بقية الآثار أنها مدنية ؛ إنها مكية إلا آيات منها « . ومكيتها ظاهرة ( ٢ ) من جدال المشركين ، والاستشهاد بأهل الكتاب واستعمال اسم « الرحمان » . فيها ظاهرة العهد الثاني ، الاستفتاح بذكر الكتاب وفيها ظاهرة العهد الثالث المكي : الأمثال ( ١٩ ) . وهي ثلاث سور ، مكررة الموضوع بروي مختلف من أزمنة مختلفة .

ومحور السور الثلاث محاورة الرسول على ضرورة المعجزة لكل نبي .

قال النحاس (١٧٨): ليس فيها ناسخ ولا منسوخ .

\*

السورة الأولى منها: (١- ٨): « لولا أنزل عليه آية من ربه! » (٨).

**مطلع (١):** القرآن حق لأنه آيات الله.

١- توحيد (٢- ٤): تفصيل خلق السماء والأرض مع ما فيها من الجنات والثمرات<sup>٣</sup>.

(١) الزلزلة ٤- ٥ « يومئذ تحدث أخبارها بأن ربك أوحى لها » : جاء في الحديث أنها تشهد على كل عبد أو أمة بكل ما عمل على ظهرها . وهو تعبير مجازي رائع أخذوه على ظاهر حرفه فجعلوا من الأرض شاهداً في يوم الدين على أهلها . وقوله : « بأن ربك أوحى لها » : ظاهر القول إنها نالت الوحي والتنزيل وأنها تشهد يوم الدين ؛ ولكن هو تعبير مجازي أي ( أوحى لمن عليها ) . وصورة الزلزلة الرائعة إنجيلية ؛ جاء في سفر الرؤيا : بعد البوق الأخير « حدثت أصوات وعود وبروق وكانت زلزلة شديدة لم يكن في شدتها زلزلة على الأرض منذ كَوّن الإنسان » ( ١٦ : ١٨ ) .

(٢) قابل دروزة قرآن مجيد ( ١٠١ في الحاشية ) .

(٣) الآية ٢ « الله الذي رفع السماوات بغير عمد ترونها » : ظاهر القول إن لها عمداً غير مرئية ، ونظرية القرآن أن السماء سقف ربما تؤيد ذلك ؛ والآية المقصودة من آيات الله أن السماوات سقف بغير عمد !

٢- حديث البعث (٥- ٦): ردّ على ردّهم على القرآن: (( إذا كنّا تراباً أينّا لفي خلق جديد؟ )) .

**ختم مقحم ( لاختلاف الروي ): العذاب أم المعجزة (٧- ٨) .**

- (( ويستعجلونك بالسيئة قبل الحسنة! - قد خلق من قبلهم المثلاث! )) .

- (( ويقول الذين كفروا: لولا أنزل عليه آية من ربه! - إنما أنت منذر ولكل قوم هاد! )) .

**وفصل ما بين السورتين ما نزل في عامر بن الطفيل<sup>٢</sup> (٩- ١٢).**

\*

**السورة الثانية منها: (١٣- ٣١) (( لولا أنزل عليه آية من ربه )) (٢٩).**

**مطلع (١٣- ١٤): يسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته<sup>٣</sup>.**

١- جدل على التوحيد (١٤- ١٩): (( وهم يجادلون في الله وهو شديد المحال<sup>٤</sup> )) .

(١) الآية ٨ (( إنك أنت منذر ولكلّ قوم هاد )) : لم يزل موقف النبي حتى النهاية سلبياً بالنسبة لكل معجزة مقترحة . ولم يزل حتى آخر العهد بمكة يعتبر رسالته قومية مثل رسالة كل نبي ؛ وان الله لذلك يرسل لكل قوم هادياً .

(٢) الآيات (٩ - ١٢) جاء في ( أسباب النزول ) للسيوطي عن ابن عباس: (( أن اريد بن قيس وعامر بن الطفيل قدما المدينة على رسول الله ص. فقال عامر : يا محمد ما تجعل إليّ إن أسلمتُ : لك ما للمسلمين وعليك ما عليهم . قال : أتجعل لي الأمر من بعدك ؟ قال : ليس ذلك لك ولا لقومك )) . فأنزل الله (٩- ١١) .  
- وقوله (( له معقبات )) ملائكة تتعقبه ( الجلالان ) : ظاهر التعبير أن الملائكة إناث ، وهذا ما يتحكم منه القرآن دائماً ؛ ولذلك قرأ بعضهم (( معاقيب )) استدراكاً للشبهة ، وفسرها بعضهم بالجماعات ( البيضاوي ) والقرآن يجعل حفظة الإنسان ملاكين .

والآية ١٢ تقول (( إن الله لا يغيّر ما بقوم حتى يغيّروا ما بأنفسهم )) ، تجعل تغيير الله بعد تغيير المخلوق : وبعدها تقول : (( وإذا أراد الله بقوم سوءاً فلا مردّ له )) تجعل قضاء الله يسبق عمل المخلوق (( وفيه دليل على أن خلاف مراده تعالى محال )) ( البيضاوي ) .

(٣) الآية ١٤ (( يسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته )) قال البيضاوي : (( وعن ابن عباس: سئل رسول الله ص. عن الرعد فقال : ملاك موكل بالسحاب ، معه مخاريق من نار يسوق بها السحاب ... وقوله ( من خيفته ) من خوف الله تعالى وإجلاله ، وقيل الضمير للرعد )) كأن الملائكة تخاف الرعد وتسبح الله عند سماعه !

(٤) الآية ١٤ (( ويجادلون في الله وهو شديد المحال )) أي (( المماحلة والمكايده لأعدائه )) ( البيضاوي ) مثل قوله (( خير الماكرين )) .

- لله دعوة الحق، وما دعاء الكافرين لمن دونه إلا في ضلال (١٥).
- لله يسجد من في السماوات والأرض وظلالهم لأنه ربهم: والأولياء لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضرراً (١٦- ١٧).
- (( أم جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه! - الله خالق كل شيء، والمطر (١٨- ١٩).
- ٢- حديث الآخرة (٢٠- ٢٨): ميثاق الإيمان عهد مع الله<sup>١</sup>.
- للذين استجابوا لربهم الحسنى، والذين لم يستجيبوا مأواهم جهنم (٢٠- ٢١).
- الذين يؤمنون بعهد الله لهم عقبى الدار جنات عدن؛ والذين ينقضونه لهم اللعنة وسوء الدار (٢٢- ٢٨).
- ختام (٢٩- ٣١):** (( ويقول الذين كفروا: لولا أنزل عليه آية من ربه! الله يهدي من يشاء<sup>٢</sup>)).

\*

- السورة الثالثة منها: (٣٢- ٤٤) (( وما كان لرسول أن يأتي بآية إلا بإذن الله )) (٤٠).
- مطلع (٣٢):** (( أرسلناك لتتلو عليهم الذي أوحينا إليك )) .
- ١- توحيد (٣٢- ٣٨) (( وهم يكفرون بالرحمان! - قل هو ربي لا إله إلا هو )) .
- جدال أول على الرسالة والرسول: المعجزة أم العذاب:

(١) في الآيات (٢٠- ٢٨) وصف لعاقبة المؤمنين والكافرين على العموم (٢٠- ٢١) ثم مدح للصابرين على ميثاق الإيمان يليه حملة على المرتدين الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه؛ وهذا دليل على أن هذه السورة الثانية من العهد الثالث .

- وقوله (( والذين لم يستجيبوا له : لو أن لهم ما في الأرض جميعاً ومثله معه، لافتدوا به )) صدى لقول الإنجيل (( ماذا ينفع الإنسان لو ربح العالم كله وخسر نفسه ، أو ماذا يعطي الإنسان فداءً عن نفسه )) ؟

(٢) الآية ٢٩ (( لولا أنزل عليه آية من ربه )) : تمنى لا جواب له ! بل الله يهدي من يشاء بدون معجزة .

الآية ٣٠ (( الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله )) وقال في ( المؤمنون ) : (( إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم )) ( قابل أيضاً أنفال ٢ ) .

يتحدونه بقرآن فيه معجزة كقرآن موسى أو كقرآن عيسى! - بل الله الأمر جميعاً!  
(٣٣).

ويجيب: (( ولا يزال الذين كفروا نصيبهم بما صنعوا قارعة أو تحل قريباً من دارهم...  
وقد استهزئ برسلي من قبلك )) (٣٣- ٣٤).

- رد مقالة ثانية : (( وجعلوا الله شركاء! - قل سمّوهم! (٣٥) )) .

٢- حديث الآخرة (٣٦- ٣٧٩) للمشركين عذاب الدنيا والآخرة؛ وللمتقين جنة أكلها دائم وظلها!

**ختام:** (٣٨- ٤٤) فيه رد على تحديهم بالمعجزة أم بالعذاب.

- استشهاد بفرح أهل الكتاب بتنزيل القرآن حكماً عربياً<sup>٢</sup> (٣٨- ٣٩)

يليه ردود ثلاثة على موقفهم - لقد أرسلنا رسلاً من قبلك وجعلنا لهم أزواجاً وذرية (٤٠).  
- وما كان لرسول أن يأتي بأية إلا بإذن الله<sup>٣</sup> (٤٠).  
- لكل أجل كتاب: يمحو الله ما يشاء ويثبت<sup>٤</sup> (٤٠- ٤١).

(١) الآية ٣٣ طيلة العهد بمكة يتحدونه بمعجزة : فكان الجواب سلباً : (( بل الله الأمر جميعاً )) ! حتى يؤس المسلمون أنفسهم وارتد بعضهم : (( أفلم ييأس الذين آمنوا )) ؟

(٢) الآية ٣٨ تصف الموقف العقائدي الآخر بمكة : أهل الكتاب يفرحون بالقرآن ، (( ومن الأحزاب من ينكر بعضه )) أي ومن المشركين من ينكر بعض القرآن لا كله، كذكر الرحمان ( ٣٢ ) فالخلاف في التوحيد مع المشركين ليس على الإيمان بالله ، بل على الاسم الجديد : الرحمان ، وعلى إشراك الأولياء والملائكة بعبادة الله

(٣) الآية ٤٠ (( وما كان لرسول أن يأتي بأية إلا بإذن الله )) والقرآن يشهد بأن الله لم يأذن لمحمد بمعجزة : (( وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون )) (إسراء ٥٩) . وجاء في (أسباب النزول) السيوطي : (( أخرج ابن أبي حاتم عن مجاهد ، قالت قريش حين نزلت : ما تراك يا محمد تملك من شيء ! لقد فرغ من الأمر ! )) .

(٤) الآية ٤١ (( يمحو الله ما يشاء ويثبت )) : هذه مرة ثانية يؤكد التبديل في أي القرآن ( النحل ) ويذكر ارتداد بعض المسلمين عنه بسبب ذلك ناقضين (( ميثاق الله )) ( ٢٧ ) .

- استشهاد بالعذاب القومي لعدم وحدتهم الدينية: (( أو لم يروا أنا نأتي الأرض ننقصها من أطرافها: والله يحكم ولا معقب لحكمه )) (٤٢- ٤٤).

**ختم السورة كلها (٤٥)**، (( ويقول الذين كفروا: لست مرسلًا: قل كفى بالله شهيداً بين وبينكم ومن عنده علم الكتاب )) .



---

(١) ردّ على استعجالهم عذاب الله ، بالعذاب الخاص في الآية ٣٣ ، وبالعذاب القومي في الآية ٤٣ : الله ينقص أرض العرب من أطرافها بضياع استقلالها بين الفرس والروم : وهذه الآية تظهر تطاحن الشرق والغرب أي الفرس والروم على السيطرة على العرب ؛ وشعور النبي القوي بضرورة المقاومة ، والوحدة الدينية في سبيل الاستقلال .

(٢) الآية ٤٥ (( ومن عنده علم الكتاب )) : الاستشهاد الأكبر الدائم في مكة على رسالة محمد هو شهادة أهل الكتاب له .

## الفصل الثامن

### تعليق على العهد الثالث بمكة

- عهد الأمة الواحدة في التوحيد الكتابي -

- عهد الأمثال القرآنية وأسلوبها -

« إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربك فاتقون » ( المؤمنون )  
« وقولوا : آمنا بالذي أنزل إلينا وأنزل إليكم  
والهنا وإلهكم واحد : ونحن له مسلمون » ( عنكبوت ٤٦ )  
« ولقد صرفنا في هذا القرآن للناس من كل مثل »  
( كهف ٥٥ روم ٥٨ عنكبوت ٤٢ )

كان العهد الثالث والأخير بمكة، ما بين الهجرة الشخصية إلى الطائف، والهجرة الكبرى والأخيرة إلى المدينة، عهد تردد واضطراب في السيرة النبوية، وعهد اضطهاد وارتداد في الجماعة الإسلامية، ظهرت آثارهما في القرآن الكريم.

تأثر النبي بالنفوذ المسيحي ثم بالنفوذ الإسرائيلي، ولكن لم يجد أخيراً في أتباعهما منعة له وسنداً على قومه وهدايتهم. فتعادل النفوذان عنده في العهد الأخير، وصارت أمم التوحيد عنده أمة واحدة كتابية ( أنبياء ٩١ مؤمنون ٥١ ). ولكنه في هذا العهد بدأ يتطلع إلى الاستقلال عن أهل الكتاب، ويتجه في تفكيره وتعبيره اتجاهاً قومياً. فالعهد أيضاً عهد الاستطلاع إلى الاستقلال عن أهل الكتاب.

فأخذ يغزو عكاظ، سوق العرب للتجارة والأدب، يدعو بالقرآن إلى التوحيد الكتابي. وجعل يتصل بغير عشيرته من القبائل الواردة على مكة وعكاظ. وتذكر لنا السيرة أنه اتصل بقوم من المدينة نقلوا خبر دعوتهم إلى قومهم. وكانت نتيجة الاتصالات بيعة العقبة الأولى ( ٦٢١ م ) فالثانية ( ٦٢٢ م ) التي أعقبتها الهجرة النهائية.

وذلك الاضطراب والاستطلاع تظهر آثارهما في الدعوة والأسلوب.

يظهر الاضطراب في الأسلوب أولاً. أكثر سور هذه الفترة مجموعة متفرقات تنقلنا من أقسام العهد الأول القومية ونظمها الموزون المقتضب، إلى النظم الطويل المتهدل، حيث لا النظم موزون دائماً ولا الفاصلة مقفاة دائماً. وكانت أقسام السورة في العهد الوسيط رتيبة منظمة على وتيرة واحدة في السور، فإذا بها في هذا العهد تتفاوت وتتبدل، وقد يظهر فيها القصص، وقد يكتفي بإشارات، وقد لا يظهر. وتبدو في هذا العهد ظاهرة الأمثال القرآنية رديفةً للقصص أو بديلاً عنها.

ويظهر التردد بين النفوذ المسيحي والنفوذ الإسرائيلي. وخير مثال على ذلك قصص سورة الكهف حيث يعود القصص المسيحي في قصة أصحاب الكهف، وحيث يظهر شخص أعلم من موسى في قصة الخضر، وكان كتاب موسى إماماً للقرآن ( أحقاف ١٧ ) وحيث يتطلع إلى قصص عند غير الكتابيين كقصة ذي القرنين، - وهي دليل على نزعة جديدة عند النبي في الاستقلال عن أهل الكتاب والتقرب من بني قومه في تفكيره وتعبيره - ففي العهد الثالث بمكة يتلمس النبي طريقه بين أهل الكتاب وبين قومه.

\*

### مميزات العهد الثالث في مكة تبدو في ثلاث ظواهر:

**الظاهرة الأولى هي للتوحيد ويوم الدين معاً في أمة واحدة موحدّة كتابية.**

كانت الدعوة في العهد الأول (( المسيحي )) ليوم الدين بأسلوب الأقسام القومية. وكانت في العهد الثاني (( الإسرائيلي )) للتوحيد الخالص في أسلوب القصص القرآني. وهذا العهد الثالث، بعد الهجرة الشخصية إلى الطائف، يجمع الدعوتين للتوحيد ويوم الدين معاً، في أمة واحدة موحدّة كتابية بأسلوب الأمثال.

رسخ في وجدان النبي منذ سورة الشورى أن الدين المنزل مع جميع الأنبياء واحد. (( شرع لكم من الدين ما وصّى به نوحاً - والذي أوحينا إليك - وما وصينا به إبراهيم



وموسى وعيسى: أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه. كبر على المشركين ما تدعوهم إليه (( (١٣). والهدى عند الجميع من إبراهيم إلى موسى إلى عيسى واحد، لذلك يجب على محمد أن يقتدي به: (( أولئك الذين هدى الله، فبهدهم اقتد )) ( أنعام ٩٠ ). لذلك يجعل الكتاب إمامه في دعوته: (( ومن قبله كتاب موسى إماماً )) ( أحقاف ١٧ ). فقد احتوت الآيات (( تنويهاً بأنبياء الكتابيين وما كانوا عليه من هدى وحق، وأمرًا للنبي ص. بجعلهم له قدوة والاهتداء بهديهم )).

وفي هذا العهد الثالث تعادلت وانصهرت في وجدانه دعوة إبراهيم ( كما عاشها قبل القرآن ) ودعوة موسى ودعوة عيسى. فمنذ سورة الأنبياء يصرح بطريقة دعوته للتوحيد ويوم الدين معاً بقوله: (( إن هذه أمتكم، أمة واحدة، وأنا ربكم فاعبدون )) (٩١). جاء الإعلان الجديد عقب سلسلة قصص الأنبياء، وجميعهم من أهل الكتاب، لا ذكر بينهم لأنبياء العرب، أن أمة التوحيد واحدة. فقد تعادل عنده النفوذ المسيحي والإسرائيلي والإبراهيمي في أمة واحدة. وقد تكرر هذا المعنى في سورة ( المؤمنون ) التي نزلت بعدها، مما يؤكد هدف هذا العهد الثالث ومعنى وحدة التوحيد فيه: (( إن هذه أمتكم أمة واحدة، وأنا ربكم فاتقون )) (٥١)، (( مما يتضمن معنى التساوق والاتحاد والتطابق بين القرآن والكتب السماوية، وبالتالي بين الإسلام وأهل الكتاب ... وقد وقف النبي موقف المسالم المتحجب من الكتابيين في مكة، المتحد معهم في الأهداف والمبادئ، والمحترم لأنبيائهم وكتبهم، والمعترف بها والمؤيد لها ... هذا إلى ما احتواه القرآن من تصديق وتأييد وتنويه بكتبهم وأنبيائهم، واستشهاد بهم واعتماد عليهم، وتلقين بالوحدة التامة بينهم )) . فهذه الوحدة التامة بين الإبراهيمية والموسوية والمسيحية تبلورت في هذا العهد الثالث في (( أمة التوحيد الكتابية الواحدة )) : وهذه هي ظاهرة العهد الأولى، من الأنبياء (٩١) إلى (المؤمنين ٥١) إلى الرعد (٣٦) إلى العنكبوت (٤٧) وهي من آخر ما نزل بمكة.

ووحدة الأمة الموحدّة الكتابية تظهر في وحدة الدعوة ووحدة الكتاب ووحدة النبوة.

الدعوة القرآنية في العهد الأخير دعوة واحدة عند أمم التوحيد الثلاثة. يبدأ بقوله عن القرآن والكتاب: (( هذا ذكر من معي وذكر من قبلي )) ( أنبياء ٢٤ و ٩٢ ). ويختتم بقوله: (( وقولوا ( لأهل الكتاب ): آمنا بالذي أنزل إلينا وأنزل إليكم وإلهنا وإلهكم

واحد: ونحن له مسلمون (( عنكبوت ٤٦ )). وإسلام القرآن (( آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم )) ( عنكبوت ٤٧ ) ولكنها وحدة مع بداية تمييز.

وإلى آخر العهد لا يميّز بين التوراة والإنجيل والقرآن: فجمعها الكتاب، والقرآن، والذكر: (( ولقد آتينا موسى الكتاب فلا تكن في مرية من لقائه ... وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا )) ( سجدة ٢٣ ). لا يأتي التمييز إلا في المدينة.

ولا يزال حتى آخر العهد في مكة يحصر النبوة في ذرية إبراهيم من إسحاق ويعقوب: (( ووهبنا له إسحاق ويعقوب، وجعلنا في ذريته النبوة والكتاب )) ( عنكبوت ٢٧ ). فالنبوة واحدة والكتاب واحد من إبراهيم إلى موسى إلى عيسى إلى محمد: فالتنزيل واحد، والإسلام واحد، والإله واحد ( عنكبوت ٤٦ ).

وحدة مبدئية، قد تعذّلها ضرورة عملية. ففي آخر العهد آيات عظيمة الدلالة على ذلك، جمع فيها موقف المشركين والكتابيين من القرآن وموقف القرآن الأخير منهم: (( والذين آتيناهم الكتاب يفرحون بما أنزل إليك، ومن الأحزاب من ينكر بعضه ... وكذلك أنزلناه حكماً عربياً... لكل أجل كتاب: يمحو الله ما يشاء ويثبت! وعنده أم الكتاب )) ( رعد ٣٨- ٤١ ). يرسل الله لكل أجل كتاباً، والقرآن كتاب هذا الأجل؛ وفيه يمحو الله ما يشاء من الكتاب الأول، ويثبت ما يشاء؛ وفي القرآن أيضاً يمحو الله ما يشاء، ويثبت ما يشاء، ( التبديل في سورة النحل ). وستظهر آثار هذا التبديل في القرآن المدني بالنسبة للكتاب.

فالعهد عهد الاستطلاع للاستقلال عن أهل الكتاب.

\*

وهذه هي الظاهرة الثانية في العهد الثالث بمكة.

بدأ يتحرّر من أساليب أهل الكتاب في التفكير والتعبير. يترك شيئاً فشيئاً اسم الجلالة الرحمان، ليعود إلى الاسم القومي (( الله )) . تجد ذلك في الاستجابات الرائعة التي يتحدّى بها كفار مكة: وإذا سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن: الله! ( المؤمنون ٨٥ - ٩١ ) ويتخذ في افتتاح الخطاب: (( أيها الناس )) . والذكر الواحد ذكران: (( ذكر من معي وذكر من قبلي )) . والتنزيل الواحد اثنان (( الذي أنزل إلينا وأنزل إليكم )) ( عنكبوت ٤٦ ). لأنه (( لكل قوم هاد )) ، و (( لكل أجل كتاب )) . والقرآن كان (( تفصيل الكتاب )) للعرب، فصار (( بلاغاً للناس )) .

ثم أخذ النبي في آخر العهد يفتش عن صيغة جديدة يجمع عليها أمم التوحيد الثلاثة وتكون مقبولة من قومه العرب: فوجدها في الحنيفية الكتابية. ليس في حنيفيته الأولى قبل بعثته، بل في الحنيفية الكتابية التي اهتدى إليها (سورة الضحى) والمصبوغة بالتوحيد الكتابي الذي كان يؤمر بالافتداء به (أنعام ٩٠) والذي دعا إليه طلبة العهد بمكة.

لا إشارة إلى الحنيفية في العهد الأول.

وفي العهد الثاني إشارة عابرة - إن لم تكن دخيلة على السورة - توحى بأن الحنيفية هي الإيمان بالتوحيد الكتابي: (( قل يا أيها الناس إن كنتم في شك في ديني فلا أعبد الذين تعبدون من دون الله، ولكن أعبد الذي يتوفاكم. وأمرت أن أكون من المؤمنين. وأن أقم وجهك للدين حنيفاً، ولا تكونن من المشركين )) (يونس ١٠٥). فهو ينضم إلى المؤمنين حنيفاً بعيداً عن المشركين - وإذا شك في ذلك فيجب عليه أن يرجع إلى أهل الكتاب ليطمئنوه (يونس ٩٤).

وفي العهد الثاني إشارة أخرى - إن لم تكن دخيلة على السورة - تعرّف الحنيفية بأنها توجيه الوجه لله فاطر السماوات والأرض (أنعام ٧٩). وهذا التوجه في التوحيد الخالص هو الصراط المستقيم الذي عند اليهود، والدين القيم الذي عند النصارى، وملة إبراهيم التي عرفها عند الحنفاء (أنعام ١٦١) لأن صلاته ونسكه ومحياه ومماته لله رب العالمين (١٦٣) كما اعتلن لموسى، ودعا الأنبياء به إلى عيسى ومحمد، الذي يقتدى بهدى الكتاب (٩٠) ويصير أول المسلمين العرب في مكة (١٦٣): فالحنيفية إلى آخر العهد بمكة هي الإسلام لرب العالمين كما في الكتاب الإمام (أحقاف ١٩).

ولكن في هذا العهد الثالث والأخير بمكة، بدأت الحنيفية منذ سورة النحل تصير ملة إبراهيم الخاصة، المتميزة عن أهل الكتاب: (( إن إبراهيم كان أمّة (إماماً) قانتاً لله، ولم يك من المشركين، شاكراً لأنعمه، اجتباه وهداه إلى صراط مستقيم... ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين )) (نحل ١٢٠- ١١٢): فأبراهيم رئيس ملة قائمة بذاتها مندمجة مع أهل الكتاب الذين يستشهد بهم محمد، ويحيل معارضيه إليهم؛ وهذه الإحالة تعني وحدة الإيمان الحنفي الكتابي الذي هو هدى للمؤمنين وبشرى للمسلمين (١٠٢).

وفي سورة إبراهيم أول إشارة إلى التوحيد القومي الإبراهيمي: هو دعا إليه في مكة<sup>١</sup>. لذلك يدعو النبي أهل مكة إلى حنيفية إبراهيم الكتابية حتى يكونوا جديرين بجدهم خليل الله، في الدين والقومية، لأن من تبعه فهو منه، ومن لا يتبعه فليس منه (٣٥ - ٤١).

وفي آخر العهد بمكة، في سورة الروم، يتبلور الاتجاه الأخير في حنيفية إبراهيم، فقد بدأ يرى فيها (( الدين القيم )) الذي هو دين الفطرة، بعد أن جدها بدمجها في التوحيد الكتابي: (( فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التي فطر الناس عليها - لا تبدل لخلق الله - ذلك الدين القيم؛ لكن أكثر الناس لا يعلمون )) (٣٠).

وهكذا تتجه الدعوة القرآنية في آخر العهد بمكة، بتفكيرها وتعبيرها اتجاهاً قومياً - ضمن وحدة أمة التوحيد الواحدة الكتابية - وتطور هذا الاتجاه حتى تجمّد حالاً بعد الهجرة إلى المدينة في تأسيس (( الأمة الوسط )) ( بقرة ١٤٣ ).

فالتطور سريع في آخر العهد بمكة من (( الأمة الواحدة )) في التوحيد إلى (( الأمة الوسط

)).

ولا تنزل سورة العنكبوت، وهي تكاد تكون الأخيرة بمكة، حتى نبدأ نرى الجدل ينشب بين المسلمين وأهل الكتاب، فيحسمه القرآن بآية: (( ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن - إلا الذين ظلموا منهم - وقولوا: أمانا بالذي أنزل إلينا وأنزل إليكم وإلهنا وإلهكم واحد، ونحن له مسلمون )) ( عنكبوت ٤٦ ): وحدة عامة أساسية في التنزيل والدين والإيمان، وتمييز قومي (( طائفي )) بدأ يتضح في جدل وضع له النبي حداً في مكة ريثما يُفتح الباب على مصراعيه في المدينة. وفي مظاهر الأمة الواحدة في التوحيد تظهر الدعوة القرآنية كأنها على مفترق الطرق بين الموسوية المسيحية والإبراهيمية الحنيفية التي بدأ يفكر بالرجوع إليها لجمع كلمة العرب وكلمة أهل الكتاب.

\*

### والظاهرة الثالثة في العهد الثالث بمكة هي في الأسلوب: الأمثال القرآنية.

أسلوب الدعوة في هذا العهد امتداد للعهد الثاني بقصصه. كان توراتياً ومسيحياً: نلاحظ في سورة الكهف بروز القصص المسيحي في قصة أصحاب الكهف، وقصة الخضر،

---

(١) في سورة إبراهيم ( ٣٥ - ٤١ ) دعاء إبراهيم الذي يبدأ (( برب )) أصيل في السورة ، والذي يبدأ (( بربنا )) دخيل عليها من المدينة .

وقصة ذي القرنين. وتوارد القصاص الإسرائيلى والمسيحي معاً في هذا العهد من دلائل وحدة أمة التوحيد.

وربما يرجع إلى أسلوب العهد الأول في بعض السور بأقسامه القومية (( والذاريات ذرواً! والنازعات نزعاً! )) وأقسامه الكتابية: (( والطور وكتاب مسطور! )) وأسلوب العهد الأول الذي امتد إلى الثاني والثالث في طريقة الاستهلال في قوله: (( وإذا السماء انفطرت! إذا السماء انشقت! إذا زلزلت الأرض زلزالها! )) . أو في قوله: (( هل أتاك حديث موسى؟ هل أتاك حديث الغاشية؟ هل أتى على الإنسان حين من الدهر )) ؟ أو في قوله: (( الحاقة؟ ما الحاقة؟ سأل سائل؟ عم يتساءلون؟ )) . وتستمر أيضاً طريقة العهد الثاني في مثل هذا الاستفتاح: (( الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب )) ( الكهف ) أو (( كتاب أنزلناه لتخرج الناس من الظلمات إلى النور )) ( إبراهيم ) أو (( تنزيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين )) ( السجدة ) أو (( تبارك الذي بيده الملك )) ( الملك ) أو (( تلك آيات الكتاب )) ( الرعد ) .

ولكن ظاهرة العهد الثالث الكبرى في الأسلوب هي الأمثال.

لقد امتاز أسلوب العهد الأول بالأقسام القومية، وامتاز أسلوب العهد الثاني بالقصاص التوراتي القرآني. ويمتاز العهد الثالث بأسلوب الأمثال القرآنية. كان يقص القصاص التوراتي، فأخذ يضرب الأمثال على الطريقة الإنجيلية ( الكهف النحل إبراهيم الرعد العنكبوت ) . وتوارد القصاص والأمثال معاً دليل آخر على تعادل النفوذ الإسرائيلى والمسيحي في (( أمة واحدة )) ، مع التطع إلى التحرر والاستقلال.

قال أحمد أمين<sup>١</sup> في تعريف الأمثال: (( يقول علماء اللغة العربية: إن كلمة المثل مأخوذة من قولك هذا مَثَلُ الشيء، ومثله؛ كما تقول: شَبَّهُهُ وشَبَّهَهُ لأن الأصل فيه التشبيه. ثم جعلت كل حكمة سائرة مثلاً. ويرى غيرهم أن الكلمة مأخوذة من العبرية، ففيها كلمة (( مَثَل )) تدل على هذا المعنى، وعلى أوسع منه فهم يطلقونها على الحكمة السائرة وعلى الحكاية القصيرة ذات المغزى وعلى الأساطير. ورأى الباحثون في الأمثال أن هناك نوعاً يكاد يكون شائعاً بين الشعوب كلها، ونوعاً آخر تختلف فيه الأمة عن الأخرى وفي بعض الأمثال العربية مشابهة قريبة لأمثال سليمان ... والعرب حقاً أجادوا في هذا النوع

(١) أحمد أمين: فجر الإسلام . طبعة سادسة ص ٦٠ - ٦٤ .

من الأدب. وسبب ذلك أنه يوافق مزاجهم العقلي وهو النظر الجزئي الموضوعي لا الكلي الشامل لأن المثل لا يستدعي إحاطة بالعالم وشؤونه ولا يتطلب خيالاً واسعاً ولا بحثاً عميقاً؛ إنما يتطلب تجربة محلية في شأن من شؤون الحياة .

والقرآن اتخذ التعبير، بمعناه الاصطلاحي الكتابي أكثر منه بمعناه اللغوي العربي كما يقول عن ذاته: (( ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل لعلمهم يتذكرون )) (زمر ٢٧)، فقصده بذلك أمثاله وقصصه وأوصاف الطبيعة واليوم الآخر، وإن اتخذ من الأمثال أسلوباً خاصاً في العهد الثالث. والقرآن في ذلك جاري بينته العربية والكتابية والمسيحية، كما سيظهر ذلك جلياً من قصص سورة الكهف وأمثالها. وهذا التحدي المتبادل بالقصص والأمثال بين النبي والمعارضة يوحى به قوله: (( ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيراً )) (فرقان ٣٣).

قال السيوطي في ( إتقانه ): (( أمثال القرآن قسمان: ظاهر مصرح به وكامن لا ذكر للمثل فيه )) .

في القرآن نزعة عامة لإخراج الحكمة مخرج الأمثال، مثل زهير بن أبي سلمى قبله، والمتنبئ بعده، وللقرآن المثل الأعلى: يخرج الحكمة السائرة مخرج المثل، فتجري مجرى المثل. (( عقد جعفر بن شمس الخلافة في كتاب ( الآداب ) باباً في ألفاظ من القرآن جارية مجرى المثل؛ وهذا من النوع البديعي المسمى (( بإرسال المثل )) ، وأورد من ذلك قوله تعالى: ليس لها من دون الله كاشفة ... لن تتألوا البرّ حتى تنفقوا مما تحبون ... الآن حصحص الحق ... وضرب لنا مثلاً ونسي خلقه ... أليس الصبح بقريب ... لكل نبياً مستقر ... ولا يحيق المكر السيئ إلا بأهله ... قل كلّ يعمل على شاكلته ... وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم ... كل نفس بما كسبت رهينة ... ما على الرسول إلا البلاغ ... هل جزاء الإحسان إلا الإحسان ... كم من فئة قليلة غلبت فئة كبيرة ... تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى ... ولا ينبئك مثل خبير ... كل حزب بما لديهم فرحون ... وقليل من عبادي الشكور ... لا يكلف الله نفساً إلا وسعها ... لا يستوي الخبيث والطيب ... ظهر الفساد في البر والبحر ... ضعف الطالب والمطلوب ... لمثل هذا فليعمل العاملون وقليل ما هم. فاعتبروا يا أولي الأبصار ))

ولكن هذه الأقوال الرائعة أقرب في أسلوبها إلى الحكمة السائرة منها إلى المثل بمعناه الحصري، ولو رأوا فيها، كالسيوطي، أمثالاً كامنة.

ولنا في سورة الكهف مثالان على المثل القرآني الصريح المطول والمقتضب.

مثل المؤمن والكافر، كرجلين لأحدهما جنتين: (( واضرب لهم مثلاً رجلين لأحدهما جنتين من أعناب، وحففناهما بنخل وجعلنا بينهما زرعاً. كلتا الجنتين أتت أكلها ولم تظلم منه شيئاً. وفجرنا خلالهما نهراً. وكان له ثمر. ))

(( فقال لصاحبه وهو يحاوره: أنا أكثر منك مالاً وأعزّ نفراً. ودخل جنته وهو ظالم لنفسه؛ قال: ما أظن أن تبدي هذه أبداً! وما أظن الساعة قائمة! ولئن رددتُ إلى ربي لأجدنَّ خيراً منها منقلباً. قال له صاحبه وهو يحاوره أكفرت بالذي خلقك من تراب ثم من نطفة ثم سوّاك رجلاً؟ لكننا ( لكن أنا أقول: ) هو الله ربي ولا أشرك بربي أحداً. ولولا إذ دخلت جنتك قلت: ما شاء الله! لا قوة إلا بالله! إن ترن أنا أقل منك مالاً وولداً، فعسى ربي أن يوتيّن خيراً من جنتك، ويرسل عليها حسباناً من السماء فتصبح صعيداً زلقاً أو يصبح ماؤها غوراً فلن تستطيع له طلباً. ))

(( وأحيط بثمره، فأصبح يقلب كفيه على ما انفق فيها وهي خاوية على عروشها ويقول: يا ليتني لم أشرك بربي أحداً. ولم تكن له فئة ينصرونه من دون الله وما كان منتصراً. هنالك الولاية لله الحق، هو خير ثواباً وخير عقاباً )) ( كهف ٣٢- ٤٥ ).

بدأ بالمثل، وانتقل إلى الحوار الواقعي بين الكافر والمؤمن، وانتهى إلى القصة. فالمثل القرآني المطول أقرب إلى القصة منه إلى المثل؛ وتمتزوج فيه عناصر التمثيل بعناصر الواقع مما يحدّ من روعته التمثيلية<sup>١</sup>.

(١) قابل مثل الجنتين في القرآن بمثل الكرم في اشعيا ( ٥ : ١ - ٧ ) .

(( اني أنشد لحبيبي نشيد محبوبه في كرمه :

(( كان لحبيبي كرم على رابية ذات خصب . وقد حوّطه وحصّاه وغرس فيه أفضل كرمة ، وبنى برجاً في وسطه ، وحفر فيه معصرة . وانتظر أن يثمر عنباً فأتمر حصراً برياً .

(( والان يا سكان أورشليم ، ويا رجال يهوذا ، احكموا بيني وبين كرمي : أي شيء يصنع للكرم ولم أصنعه لكرمي ؟ فما بالي انتظرتُ أن يثمر عنباً فأتمر حصراً برياً ؟

(( فالآن أعلمكم ما أصنع بكرمي : أزيل سياجه فيكون مباحاً ! وأهدم جداره فيكون مدوساً ، واجعله بواراً لا يُقضب ولا يُفلح ، فيطلع فيه القتاد والشوك وأوصي السحاب أن لا تمطر عليه مطراً !

وفي سورة الكهف أيضاً مثال للمثل المقتضب: الحياة الدنيا كهشيم تذروه الرياح. (( واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيماً تذروه الرياح وكان الله على كل شيء مقتدراً )) (٤٦). قال الجلالان: (( المعنى: شبه الدنيا بنبات حسن فيبس فتكسر ففرّفته الرياح )) . فالمشبه به هو الهشيم لا ماء السماء كما هو ظاهر التعبير وهو كقوله: (( مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كرمادٍ اشّتدت به الريح في يوم عاصف، لا يقدرّون مما كسبوا على شيء. ذلك هو الضلال البعيد )) ( إبراهيم ١٨ ). وأكثر أمثال القرآن أقرب إلى التشبيه منها إلى التمثيل.

خذ على ذلك مثل العنكبوت:

(( مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا، وَإِنْ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبِيتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ يَعْلَمُونَ. إِنْ اللَّهُ يَعْلَمُ: مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ، وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ. وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ )) ( عنكبوت ٤١ - ٤٣ ). - هذا تشبيه أكثر منه مثل. كذلك في سورة إبراهيم (٢٤ - ٢٦): (( ألم تر كيف ضرب الله مثلاً: كلمة طيبة كشجرة طيبة، أصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها، ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون. ومثل كلمة خبيثة كشجرة

(( إن كرم رب الجنود هو آل إسرائيل ، وأناس يهودا هم غرس نعيمه : وقد انتظر الأَنْصَافُ فإذا سفك الدماء، والعدل فإذا الصراخ ! )) .

وقابل مثل القرآن وأشعياء بمثل الإنجيل حيث يتخذ من الشمول ما يجعله يشمل تاريخ الوحي وتاريخ إسرائيل منه : (( اسمعوا مثلاً آخر :

(( كان إنسان رب بيت ، غرس كرمًا وحَوَّطَهُ بسياج وحفر معصرة وبنى برجاً وسلَّمه إلى كرامين وسافر . ولما حان أوان الثمر أرسل غلمانه إلى الكرامين ليأخذ الثمار . غير أن الكرامين قبضوا على الغلمان فجلدوا بعضاً وقتلوا بعضاً ورجموا بعضاً . فأرسل أيضاً غلماناً آخرين أكثر من الأولين ففعلوا بهم كذلك . وفي الآخر أرسل إليهم ابنه قائلاً : سيهابون ابني . فلما رأى الكرامون الابن ، قالوا فيما بينهم : هذا هو الوارث، هلموا نقتله ونستولي على ميراثه ! فقبضوا عليه وطرحوه خارج الكرم وقتلوه .

(( فإذا جاء رب الكرم فماذا يفعل بأولئك الكرامين ؟ - قالوا له : إنه يهلك أولئك الأردباء شرَّ هلاك ، ويدفع الكرم إلى كرامين آخرين يؤدّون إليه الثمر في أوانه .

(( حينئذ قال لهم يسوع : من أجل ذلك أقول لكم : إن ملكوت الله يُنزع منكم ويُدفع إلى أمة

تؤدي ثماره )) ( متى : ٢١ : ٣٣ - ٤٣ ) .

ففي مثل الإنجيل اقتباس للمثل النبوي وتحقيق له وتوسيع يشمل تاريخ الوحي كله .



خبیثة اجْتُثَّت من فوق الأرض ما لها من قرار )) . وهذان المثالان هما أيضاً أقرب إلى التشبيه منهما إلى التمثيل.

وقد يضيع وجه الشبه فيشتبه علينا كما ورد في سورة النحل (٧٥- ٧٧): (( فلا تضربوا لله الأمثال: إن الله يعلم وأنتم لا تعلمون. ضرب الله مثلاً: عبداً مملوكاً لا يقدر على شيء؛ ومَنْ رزقناه منا رزقاً فهو ينفق منه سرّاً وجهراً: هل يستونون<sup>١</sup>؟ الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون. وضرب الله مثلاً: رجلين أحدهما أبكم لا يقدر على شيء وهو كلٌّ على مولاه أينما يوجهه لا يأتى بخير. هل يستوي هو ومَنْ يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم؟ )) . قال الجلالان: (( الأول مثل الأصنام العبيد العجزة مع الحر المتصرّف مثله تعالى. والثاني مثل الكافر الأبكم والمؤمن الذي هو ناطق نافع للناس حيث يأمر بالعدل ويحث عليه. وقيل هذا مثل الله، والأبكم للأصنام، والذي قبله مثل الكافر والمؤمن )) .

وفي القرآن قد تتداخل الأمثال لتداخل التشابيه. خذ مثلاً من سورة الرعد (١٩): (( أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها فاحتمل السيل زبداً رابياً، ومما يوقدون عليه النار ابتغاء حلية أو متاع زَبْدٌ مثله. كذلك يضرب الله الحق والباطل: فأما الزبد فيذهب جفاءً، وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض. كذلك يضرب الله الأمثال )) . نقل السيوطي: (( أخرج ابن أبي حاتم عن عطاء قال: هذا مثل ضربه الله للمؤمن والكافر. وأخرج عن قتادة قال: هذه ثلاثة أمثلة ضربها الله في مثل واحد، يقول: كما اضمحلّ هذا الزبد فصار جفاءً لا ينتفع به ولا ترتجى بركته كذلك يضمحلّ الباطل عن أهله؛ وكما مكث هذا الماء في الأرض فأمرعت وربت بركته وأخرجت نباتها، وكذلك الذهب والفضة حين أدخل النار، فأذهب خبثه كذلك يبقى الحق لأهله؛ وكما اضمحلّ خبث هذا الذهب والفضة حين أدخل النار يضمحلّ الباطل عن أهله )) ؟. وهذا التداخل في التشابيه يحدّ من روعة التمثيل.

ويظهر أن القرآن تمثّل بالإنجيل في ضرب الأمثال، ومن قوله: (( مثلهم في الإنجيل كزرع أخرج شطأه )) . فقابل هذا المثل بأصله في الإنجيل ( متى ١٣ : ١ - ٢٣ ) ترّ الفارق

(١) قال الزمخشري في تصويب ظاهر القول : (( فإن قلت ( مَنْ ) في قوله ( ومَنْ رزقناه ) ما هي ؟ قلتُ الظاهر أنها موصوفة كأنه قيل : (( وحراً رزقناه )) ، ليطابق عبداً . ولا يمتنع أن تكون موصولة . فإن قلت : لمّ قيل ( يستونون ) على الجمع ؟ قلت : معناه هل يستوي الأحرار والعبيد )) ؟

بين القرآن والإنجيل في ضرب الأمثال. قال الأصبهاني: (( ضرب الأمثال يؤثر في القلوب ما لا يؤثر وصف الشيء في نفسه. ولذلك أكثر الله تعالى في كتابه وفي سائر كتبه الأمثال. ومن سور الإنجيل سورة تسمى سورة الأمثال. وفشت في كلام النبي وكلام الأنبياء والحكماء<sup>١</sup> . في الإنجيل عدا عن الأمثال الكثيرة في فصوله، سورتان في الأمثال، لا سورة واحدة؛ الأولى عندما أراد السيد المسيح أن يصف ملكوت الله الذي يدعو إليه ضرب لهم أمثالاً سبعة تقربه إلى إفهامهم، فلا تستثيرهم ولا تنفرهم<sup>٢</sup>. والثانية في آخر عهده لما أراد أن يفصح لهم عن سر شخصيته الفريدة بين الأنبياء وأنه ختام النبوة والوحي<sup>٣</sup>. في هذه الأمثال يتخذ الإعجاز مداه، في البيان والتبيين.

فالمثل في الإنجيل على نوعين: مثل على أساس التشبيه المتواصل، وهذا موجود في الكتاب والإنجيل والقرآن؛ ومثل على أساس الاستعارة المتواصلة المفصلة ويسمى باللغات الأجنبية (( allégoire )) وهذا قد لا يوجد في القرآن، وهو إحدى نواحي الإعجاز الذي انفرد به الإنجيل<sup>٤</sup>.

وكلمة الفصل في هذا الفصل عن أمثال القرآن أنها هي أيضاً من متشابه القرآن. جاء في الإتيقان ( ٢ : ٢ ): (( قيل المحكم الفرائض والوعد والوعيد؛ والمتشابه القصص والأمثال. وأخرج ابن أبي حاتم من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قال: المحكمات ناسخه وحلاله وحرامه وحدوده وفرائضه، ما يؤمن به ويعمل به؛ والمتشابهات منسوخة، ومقدمه ومؤخره، وأمثاله وأقسامه، ما يؤمن به ولا يعمل به. وأخرج الفريابي عن مجاهد

(١) في الإتيقان ٢ : ١٣٢ .

(٢) ( متى : ١٣ كله ) الأمثال السبعة هي : مثل الزرع ( ١ - ٩ و ١٨ - ٢٣ ) والزوان ( ٢٤ - ٣٠ و ٣٦ - ٤٣ ) وحب الخردل ( ٣١ - ٣٢ ) والخميرة ( ٣٣ ) والكنز ( ٤٤ ) واللؤلؤة ( ٤٥ - ٤٦ ) والشبكة ( ٤٧ - ٥٠ ) .  
(٣) انجيل متى ( ٢١ و ٢٢ ) وفيهما إنذار أخير للشعب اليهودي بأمتلة ثلاثة : مثل الابنين المطيع والعاصي، ومثل الكرامين القتلة ، ومثل وليمة العرس .

(٤) من استعارات الإنجيل التمثيلية قوله : (( أنا نور العالم )) ( يوحنا ٨ : ١٢ - ٢٠ ) (( الحق الحق أقول لكم أنا باب الخراف )) ( يوحنا ١٠ : ١ - ١٠ ) (( أنا الراعي الصالح ، الراعي الصالح يبذل نفسه في خرافه )) ( ١٠ : ١١ - ١٦ ) أنا الكرامة الحققة وأنتم الأغصان وأبي الكرام ( ١٥ : ١ - ١٠ ) .

قال: المحكمات ما فيه الحلال والحرام، وما سوى ذلك منه متشابه يصدق بعضه بعضاً (( . فأمثال القرآن، مثل قصصه ومثل أقسامه، من المتشابه الذي لا يعلم تأويله إلا الله، والراسخون في العلم يقولون أمنا به. (( وهذا مذهب الأكثرين من الصحابة والتابعين وأتباعهم من بعدهم، خصوصاً أهل السنة (( . فأمثال الكتاب والإنجيل نزلت لتقريب الحقائق الدينية من الأفهام، وأمثال القرآن من آياته المتشابهات التي قد يعلمها الراسخون في العلم وحدهم، وقد لا يعلمونها. وكيف تكون الأمثال والقصص والأقسام، وهي أساليب القرآن الثلاثة في عهوده الثلاثة بمكة، من معجز التنزيل الذي يُفحم العبد ويُخضعه للإيمان، وهي من المتشابه الذي لا يعلم تأويله إلا الله؟ وكيف يوحى الرحمان الرحيم إلى عباده هذه المتشابهات من الأقسام والقصص والأمثال، وهو الذي أراد لهم في الوحي والتنزيل الرحمة والهدى؟ إنه ابتلاء للعباد امتاز به القرآن على الكتاب.



## الفصل التاسع

### نظرات عامة في القرآن المكي

(( أولئك الذين هدى الله، فبهدهم اقتد )) (أنعام)

الظاهرة العامة في القرآن المكي أنه تعريب التوحي الكتابي للعرب. وفي هذه الدعوة القرآنية الكتابية في مكة ظواهر أخرى نعرض لها في الأبحاث التالية.

\*

#### بحث أول : الدعوة القرآنية في مكة كتابية

كانت الدعوة القرآنية في العهد الأول بمكة (( مسيحية )) ، فصارت في العهد الثاني (( إسرائيلية )) ، وتعادلت النزعتان في العهد الثالث في (( أمة واحدة )) . لذلك فالظاهرة العامة في الدعوة القرآنية أنها كتابية من كل وجوها: في مصادرها، وفي موضوعها، وفي طريقتها، وفي أسلوبها، وفي جدلها وبرهناتها.

#### أولاً : إنها كتابية في مصادرها

تصاريح القرآن المكي العامة في ذلك لا تعدُّ ولا تحصى تكاد تجدها في كل سورة، من الأولى حتى الأخيرة. يقول منذ سورة الأعلى. (( وإن هذا ( القرآن ) لفي الصحف الأولى، صحف إبراهيم وموسى )) ( ١٨- ١٩ ). ومحمد (( نذير من النذر الأولى )) ( نجم ٤١ ). وقرآنه نبأ مما (( في صحف موسى، وإبراهيم الذي وقى )) ( نجم ٣٧ ). ويستعلي على قومه بانتسابه إلى أهل الكتاب والزبر: (( أكفاركم خير من أولئكم؟ أم لكم براءة في الزبر )) ؛ ويدرسه الكتاب: (( أم لكم كتاب فيه تدرسون؟ إن لكم فيه لَمَّا تَخَيَّرُونَ )) ( القلم ٣٧- ٣٨ )؛ وبالكتابة عنه: (( أم عندهم الغيب فهم يكتبون )) ( القلم ٤٢ ).

ويستقي معارفه من زبر الكتاب: « ولقد أهلكنا أشياعكم فهل من مذكّر؟ وكل شيء فعلوه في الزّبر » ( القمر ٥١ ). ومهمة محمد أن ينقل للعرب « تنزيل رب العالمين، بلسان عربي مبين، وإنه لفي زبر الأولين » كالتوراة والإنجيل ( الجلالان: شعراء ١٩٢-١٩٦ ). ويدعو قومه إلى « دراسة » الكتاب الذي نزل على طائفتين من قبلهم، وإذ غفلوا عن هذه الدراسة، قام بها هو ووفّرها عليهم بقرآنه: « أن تقولوا: إنما أنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا، وإن كنا عن دراستهم لغافلين » ( أنعام ١٧٦ ).

ويستشهد في كل سائحة بأهل الكتاب على صحة مطابقة القرآن للكتاب: « ويرى الذين أوتوا العلم الذي أنزل من ربك هو الحق، ويهدي إلى صراط العزيز الحميد » ( سبأ ٦ ). وآيته على صحة قرآنه أن يعلمه علماء بني إسرائيل: « أولم تكن لهم آية أن يعلمه علماء بني إسرائيل »؟ ( شعراء ١٩٧ ). ويعتزُّ بهذه الشهادة ويستعلي على قومه: « قل آمنوا به، أو لا تؤمنوا! إن الذين أوتوا العلم من قبله، إذا يُتلى عليهم يخرون للأذقان سجداً » ( شعراء ١٠٥ ). وكلما قام جدل في مكة بين محمد والمشركين العرب يحيلهم على أهل الكتاب، يستشهدونهم ويستيقنون منهم على صحة تعليم القرآن: « فاسألوا أهل الذكر، إن كنتم لا تعلمون بالبينات والزّبر » ( أنبياء ٧ )، « وأهل الذكر هم العلماء بالإنجيل والتوراة، فإنهم يعلمونه، وأنتم إلى تصديقهم أقرب من تصديق محمد، فاسألوهم » ( الجلالان ).

وجوابه الدائم على تعجيز العرب الدائم له يطلبون منه معجزة بسبب « سُنّة الأنبياء الأولين » إنه نقل الكتاب إليهم في القرآن: « وقالوا: لولا يأتينا بآية من ربه؟ - أولم تأتهم بيّنة ما في الصحف الأولى! » ( طه ١٣٣ ). وكيفيه شهادة معجزة تعريب الكتاب لهم في القرآن: « وقالوا: لولا أنزل عليه آية من ربه؟ - قل إنما الآيات عند الله: أولم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يُتلى عليهم! » ( عنكبوت ٥٠ ): هذه شهادة آخر سورة نزلت في مكة. فالقرآن تعريب الكتاب: « وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم، ولعلهم يتفكرون » ( نحل ٤٤ ) كما يشهد بذلك أهل الكتاب في كل أدوار التنزيل المكي: « فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون بالبينات والزّبر » ( نحل ٤٣ )؛ وشهادة أهل الكتاب في ذلك شهادة خبير لأن القرآن « آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم » ( عنكبوت ٤٩ ).

وهذه النظرية العامة في القرآن عن مصدره تؤيدها النظريات الخاصة:

**نظرية أولى:** الكتاب إمام القرآن في الهدى والبيان: « أومن كان على بينة من ربه، ويتلوه شاهد منه، ومن قبله كتاب موسى إماماً ورحمة! أولئك يؤمنون به، ومن يكفر به من الأحزاب فالنار موعده. فلا تك في مرية منه: إنه الحق من ربك، فلا تكوننّ من الممترين » (هود ١٧). فمحمد على بينة من ربه في مطابقة النسخة القرآنية للكتاب الإمام لأنه يتلوه عليه شاهد منه كما يؤمن بذلك أهل الكتاب وإن كفر به أحزاب مكة. وهذا الشاهد الأمين الذي يتلو القرآن من الكتاب على النبي هو من أهل الكتاب: « قل أرأيتم إن كان من عند الله، وكفرتم به، وشهد شاهد من بني إسرائيل على مثله، فأمن واستكبرتم ... وإذا لم يهتدوا به، فسيقولون: هذا إفك قديم! ومن قبله كتاب موسى إماماً ورحمة؛ وهذا كتاب مصدق لساناً عربياً » (أحقاف ٩ - ١٢). لا يمكن أن يكون القرآن إفكاً، بل هو كتاب يصدق الإمام، ولا يفرقه عنه سوى اللسان العربي، كما يشهد بذلك أهل الكتاب. لذلك تنزل الأوامر إلى محمد تترى بالإهداء بالكتاب الإمام: « أولئك الذين آتيناهم الكتاب والحكم والنبوة ... أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتد » (أنعام ٩١). فالكتاب إمام القرآن في الهدى: وحسب النسخة أن تكون كالإمام الأصل.

**نظرية ثانية:** القرآن بيان ما في الكتاب بلسان عربي مبين. لقد وضع المبدأ في قوله: « وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم » (نحل ٤٤). وهذا المبدأ تطبيق للنظرية الأولى بأن الكتاب إمام القرآن. وعلى ضوء هذين المبدئين يجب أن نفهم مطالع السور التي تذكر صلة القرآن بالكتاب: « تلك آيات الكتاب وقرآن مبين » (النمل، الحجر). فهو يقسم مؤكداً صحة انتساب القرآن للكتاب: « والكتاب المبين: إنا جعلناه قرآناً عربياً »! (الزخرف، يوسف). ويؤكد كيفية الانتساب والبيان: « تنزيل من الرحمان الرحيم: كتاب فصلت آياته قرآناً عربياً » (فصلت، هود). ويخلص إلى التأكيد المتواتر بأن القرآن آيات الكتاب: « تلك آيات الكتاب المبين » (شعراء، قصص، يونس، لقمان). فالقرآن « تنزيل الكتاب من العزيز الحكيم العليم » (زمر، جاثية، أحقاف، سجدة). « كذلك يوحي إليك وإلى الذين من قبلك الله العزيز الحكيم » (شورى) « فالحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب » (كهف).

**نظرية ثالثة:** القرآن تصديق الكتاب، فهو في معناه نسخة طبق الأصل: « والذي

أوحينا إليك من الكتاب هو الحق، مصدقاً لما بين يديه) - قبله (فاطر ٣١). وأهل الكتاب شهود عدل على صحة هذا التفصيل: (( وهو الذي أنزل إليكم الكتاب مفصلاً. والذين آتيناهم الكتاب، يعلمون أنه منزل من ربك بالحق، فلا تكونن من الممترين )) (أنعام ١١٤). وأهل الكتاب أكفاء لهذه الشهادة لأن القرآن آيات بينات في صدورهم: (( وكذلك أنزلنا إليك الكتاب، فالذين آتيناهم الكتاب يؤمنون به، ومن هؤلاء (عرب مكة) من يؤمن به، وما يجحد بآياتنا إلا الكافرون. بل هو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم )) (عنكبوت ٥٠): فالقرآن آيات بينات في صدور علماء التوراة والإنجيل قبل أن ينزل على لسان محمد بلسان عربي مبين، فهو ليس سوى تصديق للكتاب بلغته الجديدة، اللسان العربي المبين.

**نظرية رابعة: القرآن تفصيل الكتاب.** فقد درس محمد آياته وصرّفها بلسانه ليبين الكتاب ويفصله للعرب: (( وكذلك نصرّف الآيات! - وليقولوا: درست! - ولنبيّنه لقوم يعلمون )) (أنعام ١٠٥). وأهل الكتاب شهود مع الله على صحة تفصيل الكتاب في القرآن: (( أغير الله أبتغي حكماً وهو الذي أنزل إليكم الكتاب مفصلاً؛ والذين آتيناهم الكتاب يعلمون أنه منزل من ربك بالحق: فلا تكونن من الممترين )) (أنعام ١١٤). قرآن يفصل الكتاب ويصدّقه لا يمكن أن يكون مفترى: (( وما كان هذا القرآن أن يفترى من دون الله، ولكن تصديق الذي بين يديه (قبله) وتفصيل الكتاب، لا ريب فيه من رب العالمين )) (يونس ٣٧).

**نظرية خامسة: وحدة الوحي والدين في الكتاب والقرآن:** (( شرع لكم من الدين ما وصّى به نوحاً - والذي أوحينا إليك - وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرّقوا فيه! كبر على المشركين ما تدعوهم إليه: الله يجتبي إليه من يشاء، ويهدي إليه من ينيب ... فلذلك فادع، واستقم كما أمرت، ولا تتبع أهواءهم، وقل أمنت بما أنزل الله من كتاب، وأمرت لأعدل بينكم )) (شورى ١٣- ١٥). آمن محمد بدين الكتاب وأمر ليعدل به بينهم.

**نظرية سادسة: وحدة الإله والكتاب والإسلام بين محمد وأهل الكتاب:** فعلى جماعة محمد لا يجادلوا في ذلك أهل الكتاب، بل يسلموا به لهم: (( ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن ... وقولوا: أمانا بالذي أنزل إليكم، وإلهنا وإلهكم واحد، ونحن له مسلمون )) (عنكبوت ٤٥).

**نظرية سابعة: وحدة أمة التوحيد الكتابي.** في سورة الأنبياء (٩١) يفصل قصصهم ويختتم بهذا الإعلان: (( وإن هذه أمتكم أمة واحدة، وأنا ربكم فاعبدون )) . وهذه الوحدة في أمة التوحيد الكتابي تتبلور شيئاً فشيئاً حتى تبلغ ذروتها في سور العهد الثالث بمكة: (( وإن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا أبعثكم فاتقون )) ( مؤمنون ٥١ ).

وهكذا يظهر أن محمداً اهتدى إلى الكتاب المقدس: (( ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان، ولكن جعلناه نوراً نهدي به من نشاء من عبادنا، وإنك لَنَهْدَى إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ )) (شورى ٥١-٥٢). فاهتدى وأمن بالكتاب (( وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ )) (شورى ١٥). وأخذ بيته ويفصله ويصدق للعرب في القرآن. وكانت تحدث له أزمات نفسية وإيمانية في صحة هذا التبیین والتفصيل والتصديق فيحيله الوحي إلى أهل الكتاب الذين يهدون بأمر الله إلى هدى الكتاب: (( ولقد آتينا موسى الكتاب، فلا تك في مربة من لقائه. وجعلناه هدى لبني إسرائيل، وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا )) (سجدة ٢٣-٢٤). وفي إحالة محمد على أهل الكتاب في حالات الشك من صحة وحي الكتاب له، القول الفصل على وحدة القرآن والكتاب في مكة: (( وإن كنت في شك مما أوحينا إليك، فاسأل الذين يقرؤون الكتاب من قبلك: لقد جاءك الحق من ربك فلا تكونن من الممترين، ولا تكونن من الذين كذبوا بآيات الله، فتكونن من الخاسرين )) (يونس ٩٤). وهذه الوحدة بين القرآن والكتاب، وبين محمد وأهل الكتاب تظهر من الاستشهاد الدائم بهم حتى النهاية في مكة: (( وقال الذين كفروا: لست مرسلأ! - قل كفى بالله شهيداً بيني وبينكم، ومن عنده علم الكتاب )) (رعد ٤٥): فشهادة أهل الكتاب له من شهادة الله.

فالدعوة القرآنية في مكة كتابية في مصادرها، وهي تقوم بتعريب التوحيد الكتابي للعرب بلسان عربي مبين.

\*

### ثانياً: الدعوة القرآنية في مكة كتابية في موضوعها

دعا محمد في مكة إلى الإصلاح الاجتماعي فالديني؛ دعا إلى الإيمان بيوم الدين ثم إلى التوحيد الخالص، أخيراً جمع الدعوتين في واحدة على السواء.

ولم يقم بدعوة جديدة، ولم يدع إلى توحيد شخصي، أو إلى التوحيد العربي المستقل



أو إلى التوحيد الحنفي الذي كان عليه قبل مبعثه: إنما يدعو طيلة العهد بمكة إلى التوحيد الكتابي، كما توحى كل السور المكية، والاستشهادات التي ننقل بعضها. فالأمر صريح لا ريب فيه: « أولئك الذين آتيناهم الكتاب والحكم والنبوة - فإن يكفر بها هؤلاء ( أهل مكة ) فقد وكلنا بها قوماً ليسوا بها بكافرين - أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتد » ( أنعام ٩٠ ) من هم أولئك الذين يجب أن يقتدي النبي دائماً بهداهم؟ فسره البيضاوي: « هم أنبياء الكتاب المذكورون ومتابعوهم » . فالقرآن يأمر النبي أن يقتدي بهدى الكتاب، ودين أنبيائه، وتوحيد اتباعهم من اليهود والنصارى - فهل بعد هذا التصريح من شك في أن محمداً اهتدى إلى الكتاب في مكة « وقل آمنتم بما أنزل الله من كتاب » ( شورى ١٥ ) وكان يدعو إلى التوحيد الكتابي مفضلاً ومصداقاً للكتاب الإمام ( هود ١٧، أحقاف ١٢ ) مسترشداً دائماً « بمن عنده علم الكتاب » ( رعد ٤٥ ) لأنهم هم ورثته دون العالمين ( شورى ١٤ ) اصطفاهم الله على العالمين لورثة كتابه وتوحيده: « إن الذين يتلون كتاب الله يرجون تجارة لن تبور. والذي أوحينا إليك من الكتاب هو الحق، مصداقاً لما بين يديه ... ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا » ( فاطر ٢٩- ٣٢ ). يجب أن يتبعهم النبي لا أن ينحرف إلى أهواء المشركين الذين لا يعلمون التنزيل: « ولقد آتينا بني إسرائيل الكتاب والحكم والنبوة، ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على العالمين وآتيناهم بينات من الأمر ... ثم جعلناك على شريعة من الأمر (نفسه) فاتبعها ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون » ( جاثية ١٥- ١٧ ). فالتوحيد في الكتاب الإمام، ولا إثارة من علم في الشرك: « قل رأيتم ما تدعون من دون الله؟ أروني ماذا خلقوا من الأرض، أم لهم شرك السماوات؟ انتوني بكتاب من قبل هذا، أو إثارة من علم، إن كنتم صادقين » ( أحقاف ٤ ) فالنبي معه العلم والكتاب كما يشهد له بذلك أهل الكتاب: « وشهد شاهد من بني إسرائيل على مثله فآمن واستكبرتم ... ومن قبله كتاب موسى إماماً ورحمة، وهذا كتاب مصدق لساناً عربياً » ( أحقاف ١٠- ١٢ ) فليس في القرآن من جديد سوى اللسان العربي المبين: فالدعوة القرآنية بمكة، هي في موضوعها، دعوة الكتاب الإمام؛ وهذا ما يفخر به القرآن: « أولم تأتهم بينة ما في الصحف الأولى » ( طه ١٣٣ ). ويظل انتسابه إلى الكتاب معجزته الوحيدة تجاه معارضيته حتى نهاية العهد بمكة: « وقالوا: لولا أنزل عليه آية من ربه؟ - قل إنما الآيات عند الله، أولم يكفهم أنا

أنزلنا عليك الكتاب يُتلى عليهم)) ( عنكبوت ٥٠ ) يكفيه شهادة معجزة تعريب التوحيد الكتابي في القرآن المكي؛ وفيه (( نزل من القرآن معظمه )) .

\*

### ثالثاً : الدعوة القرآنية بمكة كتابية في طريقتها

بدأ القرآن دعوته إلى الإصلاح الاجتماعي في سبيل الإصلاح الديني: (( ويل لكل همزة لمزة، الذي جمع مالاً وعدّده )) ( همزة ١- ٢ ). فالإصلاح الاجتماعي هو نقطة الانطلاق: (( فأما اليتيم فلا تقهر! وأما السائل فلا تنهر )) ( الضحى ٩- ١٠ ). وهو السبيل إلى الإصلاح الديني: (( أرأيت الذي يكذب بالدين؟ فذلك الذي يدعُ اليتيم، ولا يحضُّ على طعام المسكين )) ( ماعون ١- ٢ ).

اقتفى بذلك آثار الإنجيل الذي بدأ دعوته بتطويب المحرومين والدعاء بالويل على ظالمهم: (( طوبى لكم أيها المساكين! طوبى لكم أيها الجياع! طوبى لكم أيها الباكون! ولكن الويل لكم أيها الأغنياء! الويل لكم أيها المشبعون! الويل لكم أيها الضاحكون )) ! ( لوقا ٨ : ٢٠- ٢٦ ).

(( وروايات السيرة تذكر بدون خلاف أسماء كثيرة من أرقاء وفقراء وغير ذوي عصبية. بل تذكر أن هذه الطبقة كان أكثرية المسلمين الأولين، أو بالأحرى أكثرية مسلمي العهد المكي ... ولعل هذه الطبقة كانت مضطهدة من الزعماء والأغنياء فكان هذا من دوافع الإقبال على الدعوة الجديدة التي جاءت تبشّر المنضوين إليها بالأمن والطمأنينة والحرية والخير والبركات في الدنيا والآخرة ... ولقد احتوت سور عبس والأنعام والكهف آيات فيها تأييد لهذا الوصف وشموله )) .

والدعوة إلى الإصلاح الاجتماعي والديني تركز في القرآن على الإيمان باليوم الآخر: (( بل تؤثرن الحياة الدنيا، والآخرة خير وأبقى )) ( أعلى ١٦ ). فلا ينس أحد (( إن إلى ربك الرجعى )) ( علق ٨ ). وهذه كانت طريقة الإنجيل قبله: (( بدأ يسوع يطوف القرى كلها، ويبشّر قائلاً: توبوا! فقد اقترب ملكوت السموات )) ( متى ٤ : ١٧ ). وهذه

(١) نور اليقين ص ٨٤ .

(٢) دروزة : سيرة الرسول ١ : ١٥٧ .

كانت خطة رهبان عيسى في سوريا والعربية، من الذهبي الفم في انطاكية، إلى ناسك العرب سمعان العامودي الذي كانت تقصده قبائل العرب الضاربة إلى الشمال، زرافات ووحداناً، إلى راهب سوريا الأكبر، أفرام السوري. ومواعظ أفرام عن يوم الدين كانت تجري مجرى الأمثال، ويتناقلها الرهبان من كل الفئات من شمال الجزيرة إلى جنوبها. وقد قارن بعضهم مما بين الراهب السوري، والنبى الأمي، فوجد أوجه شبه كثيرة في التفكير والتعبير، في الدعوة ليوم الدين<sup>١</sup>.

وظلت طريقة محمد في الصلاة طريقة الرهبان حتى الهجرة إلى المدينة. يدعو دائماً إلى الصلاة في الغداة والعشي (أنعام ٥١ كهف ٢٨)؛ وتمتاز الدعوة المكية بصلاة الليل، تُفرض أولاً على الاتباع (المزمل)، ثم تصير نافلاً للنبى. ويحمل على الذين يسهون عن صلاتهم، أو يراؤون بها: (( فويل للمصلين، الذين هم عن صلاتهم ساهون، الذين هم يراؤون ويمنعون الماعون )) (ماعون ٥-٧).

طريقة القرآن المكي الدائمة في دعوته هي الترغيب بأوصاف النعيم في كل سوره، والترهيب بأوصاف الجحيم في كل سوره. وهذه طريقة رهبان عيسى حتى اليوم.

وفي دعوة التوحيد يقتدي بالكتاب وأهله في البرهنة عليها من عجائب المخلوقات، ومن قصص الأولين، كما اختط رسل عيسى في رسالاتهم وأعمالهم: (( نبشركم أن ترجعوا عن هذه الأباطيل إلى الله الحي، الذي صنع السماء والأرض والبحر وجميع ما فيها، الذي ترك جميع الأمم في الأجيال السالفة يسلكون في سبلهم. مع أنه لم يدع نفسه بغير شهود، مفيضاً خيراته من السماء، رازقاً إياكم أمطاراً وأزمنة مثمرة، مفعماً قلوبكم طعاماً وسروراً )) ( أعمال الرسل ١٤ : ١٥-١٧).

وهكذا ارتقى القرآن من الدعوة إلى الإصلاح الاجتماعي إلى الدعوة إلى الإصلاح الديني؛ ومن الدعوة ليوم الدين، إلى الدعوة إلى التوحيد الخالص. وفي كل ذلك كان يقتدي بهدى الكتاب وأهله، ويتبع طريقهم في الدعوة.

\*

(١) وُضعت مقالات وكتب في المقارنة بين الدعوة ليوم الدين في السور المكية، ومواعظ وأناشيد أفرام السوري عن الدينونة. قابل مثلاً

Tor Andrae: Les Origines de l'Islam et Christianisme, p. 145 sq.

## رابعاً : الدعوة القرآنية في مكة كتابية في أساليبها

اتبع محمد في أول أمره طريقة قومه في أقسامهم القومية التي تمتّ إلى الشرك والكهانة أكثر منها إلى التوحيد الخالص. فاتهموه بالسحر، وظلوا يقولون « سحر مستمر » (القمر) حتى أفلح عنها، واتبع الطريقة الكتابية، فصار يقسم بالكتاب وقرآنه إلى آخر العهد المكي: « والطور، وكتاب مسطور! ( الطور ) والكتاب المبين! ( زخرف، دخان ) والقرآن المجيد! ( ق ) والقرآن ذي الذكر ( ص ) والقرآن الحكيم » ( يس ).

وفي العهد الثاني يمتاز الأسلوب القرآني بقصصه التوراتي: « لأخبار القرآن التاريخية أمثلة تقابلها في التوراة، خلا بعض الأنبياء التي هي عربية محضة كذكر عاد وثمود ولقمان وأصحاب الفيل، وخلا قصتين ترمزان إلى الاسكندر وأصحاب الكهف ... والتوازي ظاهر بين أسفار موسى الخمسة أكثر من سواها بين أسفار العهد القديم ... والاختلافات اليسيرة في القصص، عن المعروف في التوراة، لها نظائرها التي تقابلها في المشنة والتلمود، وسواهما في كتب اليهود القانونية<sup>١</sup> ». ولا ريب في أن القصص القرآني كتابي في جملته، وطريقة روايته توحى بأن القوم كانوا يعرفونه من أهله، وسوالاتهم عنه تدل على ذلك، ووصف المشركين له بأنه « أساطير الأولين » يشهد بذلك أيضاً.

وهناك فارق جوهري بين القصص القرآني والتوراتي: في الكتاب القصص تاريخ مقصود لذاته، وفي القرآن أسلوب أدبي مقصود للعبارة والبيان: « لم يورد للقصة بذاتها إنما ورد للعبارة والتمثيل ... ولا يخرج به إلى ساحة البحث العلمي، وما يكون من طبيعته من الأخذ والرد والنقاش والجدل، والتخطئة والتشكيك، على غير طائل ولا ضرورة<sup>٢</sup> ».

وامتاز الأسلوب القرآني في العهد الثالث بمكة بضرب الأمثال إلى جانب القصص أو بديلاً عنها. وهذا الأسلوب القرآني التمثيلي نهج كتابي أيضاً؛ والقرآن فيه أقرب إلى

(١) فيليب حتى : تاريخ العرب ج ١ .  
 (٢) قال أحدهم « تتألف السور المكية من ١٩٤٥ آية، وأكثر من الثلث أي سبعماية آية تقريباً فهو مقتبس من كتاب العهد القديم خصوصاً التوراة . ونقدر أن نقول إن الآيات الأخرى مشبعة من تعليم التوراة والتلمود » .  
 (٣) دروزة : القرآن المجيد ( ١٦٦ - ١٦٨ ) .

أمثال سليمان منه إلى أمثال الإنجيل، وإن قصد القرآن التمثّل بالإثنين معاً (( ذاك مثلهم في التوراة ومثلهم في الإنجيل )) .

فأساليب القرآن من أقسام كتابية، وقصص توحيدية، وأمثال إنجيلية، كلّها أساليب اتبع فيها القرآن الكتاب (( إمامه )) وطرائق أهله كما وجدها في بيئته.

\*

### خامساً وأخيراً : الدعوة القرآنية في مكة كتابية في جدلها

فالقرآن المكي، خصوصاً منذ العهد الثاني، جدل متواصل مع مشركي مكة على صحة رسالته وعلى صحة قرآنه.

والجدل على صحة القرآن يشمل الدعوة ليوم الدين والدعوة للتوحيد الخالص.

وقد رأينا التطابق الشامل في أوصاف اليوم الآخر، ما بين القرآن والإنجيل، إلى تعليم الرسل الحواريين<sup>١</sup>.

وجدل القرآن للبرهنة على صحة التوحيد وضرورته مأخوذ من عجائب الخالق في مخلوقاته. وهذه طريقة نبوية ( قابل أشعيا، الجزء الثاني )، زبورية، حكمية، إنجيلية، متوارثة عند أهل الكتاب. فكتب الزبور، التي ينتسب إليها القرآن مراراً، نصّاً أو اقتباساً، هي نشيد متواصل لآيات الله في خلقه. وهذه الأناشيد كانت تتلى ليلاً ونهاراً، في كل مكان، من كنائس اليهود و (( صلوات )) النصارى، ومناسك الرهبان خصوصاً، حتى في الحجاز أيام محمد. وكما يعرفها الشعب الأمّي في أيامنا، كان يعرفها الشعب البسيط الكتابي في مكة والطائف والمدينة، كما في الحيرة ونجران، زمن النبي العربي.

وهذه الطريقة في البرهنة كانت خطة آل عيسى، مع الرهبان، والحواريين، في البيئات العلمية والشعبية. كتب الرسول بولس إلى أهل رومة: (( إن غضب الله يعتلن من السماء على كل كفر وظلم للناس، الذين يعوقون الحق بالظلم. لأن ما قد يعرف عن الله واضح لهم، إذ إن الله قد أوضحه لهم: فإن صفاته الغير المنظورة ولا سيما قدرته الأزلية، وألوهته تُبصر منذ خلق العامل، مدركة بمخلوقاته. فهم إذن بلا عذر إذ أنهم، مع معرفتهم لله، لم يمجدوه كإله؛ بل سفهوا في أفكارهم، وأظلمت قلوبهم الغيبية. زعموا أنهم حكماء، فصاروا

(١) راجع هذا الكتاب ص ٤٢١ - ٤٢٩ .

حمقى. واستبدلوا مجد الله الذي لا يدركه البلى، يشبه صورة إنسان يبلى، وطيور ودبابات وزحافات. فلذلك أسلمهم الله في شهوات قلوبهم إلى النجاسة لفضيحة أجسادهم في ذواتهم، هم الذين استبدلوا حقيقة الله بالباطل، واتقوا المخلوق<sup>١</sup> وعبدوه دون الخالق، وهو المبارك إلى الدهور أمين)) (١ : ١٨- ٢٥). وفي البيئات الشعبية كانوا يجمعون إلى البراهين العقلية من الخلقية، البراهين التاريخية من قصص الأولين ( أعمال الرسل ١٤- ١٥ ) كما فعل القرآن. فقد اقتفى محمد آثار عيسى في التكفير والتعبير كما كان يأمره وحيه ( أنعام ٩١ ).

ولكن الجدل العنيف، الذي يستأثر بالاهتمام البالغ، هو الجدل القائم على أحرّ من الجمر، من سورة إلى سورة، منذ البداية حتى آخر العهد بمكة، على صحة رسالة محمد.

يقول منذ البدء إنه (( نذير من النذر الأولى )) . فيتحدّونه بمعجزة مثل معجزات الأنبياء الأولين: (( فليأتينا بآية كما أرسل الأولون )) ! وإن لم يفعل، (( هل هذا إلا بشر مثلكم؟.. بل قالوا: أضغاث أحلام! بل افتراه! بل هو شاعر! )) ( أنبياء ٣- ٩ ). يقولون للنبي: إن الخوارق (( سنة الأنبياء الأولين )) وبرهان الله على صحة رسالتهم، من لم يجترحها لا تصحّ نبوءته.

فكان موقف القرآن من المعجزات سلبياً، طيلة العهد بمكة، كما سنرى بعد حين. وفي فترة من العهد الثاني تحدّاهم بإعجاز القرآن (إسراء ٨٨ هود ١٣ يونس ٣٨). ولكن جوابه الدائم على تحدّي المشركين كان استشهاده المتواصل، قبل الإعجاز وبعد الإعجاز، بأهل الكتاب، على صحة رسالته وقرآنه. فهو يقول دائماً للمشركين (( اسألوا أهل الذكر )) أي أهل الكتاب. وانتهى به الأمر أن قرن شهادتهم له، بشهادة الله، وحسبه: (( ويقول الذين كفروا: لست مرسلًا - قل كفى بالله شهيداً بيني وبينكم ومن عنده علم الكتاب )) ( رعد ٤٥ ) فالقرآن (( آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم )) ( عنكبوت ٤٨ ).

وهكذا كانت الدعوة القرآنية في مكة كتابية من كل وجوها: في مصادرها وفي مواضيعها، وفي طرائقها، وفي أساليبها، وفي براهينها وجدلها مع المشركين طيلة العهد بمكة. لذلك يصح أن نقول أن القرآن المكي تعريب التوحيد الكتابي<sup>٢</sup>.

(١) قابل قولهم في القرآن: (( ما نعبدكم إلا ليقربون إلى الله زلفى )) .

(٢) الأستاذ دروزة: سيرة الرسول ١ : ٣٠٤ - ٣٠٥ .

قال دروزة مجملًا: « وهكذا فإن القرآن منذ الوقت المبكر من العهد أكد وظل يؤكد طيلة العهد وفي مختلف أدوار التنزيل: وحدة المصدر الذي صدر عنه القرآن والكتب السماوية ووحدة الأهداف والمبادئ التي تضمنها القرآن وتلك الكتب، وتأييد القرآن والنبي ص. للأنبياء السابقين والكتب السابقة والتنويه بهم، وإنه استشهد وظل يستشهد بأهل الكتاب على صحة الرسالة النبوية والتنزيل القرآني بأسلوب يلهم استعدادهم للشهادة الإيجابية والثقة بهم والاعتماد عليهم فيها ... ونعتقد أن النبي ص. قد ألهم هذا الموقف قبل نبوته أيضاً إذ كان بينه وبين بعض الكتابيين في مكة صلة « ومبادلة عطف وتصديق، وإن هذا من أسباب هذا الموقف الودي المتبادل. هذا إلى ما احتواه القرآن من تصديق وتأييد وتنويه بكتبهم وأنبيائهم واستشهاد بهم واعتماد عليهم وتلقين بالوحدة التامة بينهم » ( سيرة الرسول ١ : ٣٠٤ - ٣٠٥ ).

\*

ولكنه كان تعريباً على قدر ما تستسيغه البيئة الحجازية البدائية، فالقرآن يصرّح: « وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً » (إسراء ٥٨).

#### ١- فالدعوة القرآنية بمكة بدائية، لا لاهوتية، لأن البيئة القرآنية بدائية يكفيها

(١) يسلك القرآن ما بين التوراة والإنجيل مسلكاً وسطاً، كما سيبيّن ذلك في المدينة بتأسيس الإسلام « أمة وسطاً » ( بقرة ١٤٣ ) وسطاً في العقيدة والشريعة ما بين الموسوية والمسيحية . ونلمح آثار ذلك منذ العهد المكي . لا يعرف القرآن من الكتب سوى التوراة ، ولا أثر فيه لتطور التعبير عن التوحيد في الأنبياء والمزامير وأسفار الحكمة المنزلة . وهو يذكر مراراً أقسام الكتاب كما كانت متداولة بين اليهود : الكتاب والنبیین والحكمة ، والزبور ( أنعام ٩٠ و جاثية ١٦ ) لا ذكر للأنبياء إلا جملة ، ولا ذكر للزبور إلا جملة ، ولا ذكر للحكمة إلا اسماً ( بلفظها العبراني : الحُكم ) لذلك لم يقتبس إلا من التوراة وقد وجد بعضهم أن السور المكية تتألف من ١٩٤٥ آية ، وأكثر من ثلثها أي سبعماية آية مقتبسة من العهد القديم ، خصوصاً التوراة ، وما بقي فهو مشبع بآثار التوراة والتلمود . وأحياناً يأخذ أوصاف معجزات الخليفة من الزبور . وبقي « الكتاب » عنده اسماً عاماً لاسفار الوحي من موسى إلى عيسى ، دون تمييز في مكة بين التوراة والإنجيل اللذين لا يرد اسمهما صريحاً إلا في المدينة . والبيئة المكية أقرب إلى البيئة التوراتية وقبائلها في صحراء سيناء . لذلك نجد أن تعليم القرآن عن يوم الدين أرقى من التوراة ، ودون صوفية الإنجيل ؛ والتوحيد في القرآن أوغل في التجريد والتنزيه من التوراة ، والبرهنة عن التوحيد أشد أسراً وبياناً في القرآن منها في التوراة . ( قابل Bible et Coran, par Jacques Jomier p. 88 ) وهذا التطور في القرآن على التوراة تعود أصوله إلى نشأة النبي الحنيفية ، ثم ثقافته المسيحية في جوار نسيبه العالم المسيحي ورقة بن نوفل ، مترجم التوراة والإنجيل إلى العربية ( بخاري ١ : ٢ ) مدة خمسة عشر عاماً ، من سن الخامسة والعشرين إلى الأربعين ، قبل مبعثه .

القليل من العلم المنزل. لذل كلاً سألو النبي عن الروح أجب القرآن: (( ويسألونك عن الروح؟ - قل الروح من أمر ربي: وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً )) . وهذا إعلان قرآني أن لا نطلب من القرآن أكثر مما تستوعبه بيئته البدئية البدوية.

وهذا القليل من العلم المنزل في القرآن يقوم على التوحيد السلبي: (( لا إله إلا الله )) . ففي السور التسعين التي نزلت بمكة لا تجد سواه: (( قل إنما يوحى إليّ إنما إلهكم واحد، فهل أنتم مسلمون؟ )) ( أنبياء ١٠٨ ) . فهو لا يدعو طيلة العهد إلا التوحيد: (( قل إنما أعظكم بواحدة أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا ما بصاحبكم من جنة! إن هو إلا نذير لكم بين يدي عذاب شديد )) ( سبأ ٤٩ ) . وهذا التوحيد السلبي حملة متواصلة على الشرك: (( هذا بلاغ للناس، ولينذروا به، وليعلموا أنما هو إله واحد، وليذكر أولو الألباب )) ( إبراهيم ٥٢ ) . وفي تصاريحه الإيجابية إنما هو إعلان عن وحدانية الله أكثر ممّا هو كشف عن حياة الحي القيوم في ذاته السرمديّة: (( قل إنما يوحى إليّ إنما إلهكم واحد، فاستقيموا إليه واستغفروا! وويل للمشركين الذين لا يؤتون الزكاة وهم بالأخرة هم كافرون )) ( فصلت ٦-٧ ) . ما في القرآن المكي سوى إعلان التوحيد للعرب: (( قل إنما أنا منذر وما من إله إلا الله الواحد القهار )) ( ص ٦٤ )؛ وما يتبع التوحيد من الإيمان بيوم الدين: (( رفيع الدرجات، ذو العرش، يلقي الروح من أمره على من يشاء من عباده لينذر يوم التلاق )) ( مؤمن ١٥ ) . وفي اعتقاده أن دعوته هي دعوة كل الرسل: (( وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون... هذا ذكر من معي وذكر من قبلي )) ( أنبياء ٢٤ ) حتى سورة ( العنكبوت والرعد ) لا تقوم دعوته إلا على التوحيد السلبي: (( قل إنما أمرت أن أعبد الله، ولا أشرك به، إليه أدعو وإليه مآب )) ( رعد ٣٨ ) . توحيد سلبي، في دعوة بدائية ضدّ الشرك.

\*

٢- وهذه الدعوة القرآنية بمكة هي عملية أكثر مما هي فلسفية. إنها كما قلنا حملة متواصلة على الشرك. وفي السورة التي يدعو فيها صريحاً إلى التوحيد الخالص، تبدو الدعوة عملية بنبذ كل أنواع الشرك من ولي وولد وإله مع الله، ولا تكشف عن حقيقة جوهر الله من وجود وحياة ونور: (( إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق: فاعبد الله مخلصاً له الدين! ألا الله الدين الخالص! والذين اتخذوا من دونه أولياء - ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى - أن الله يحكم بينهم في ما هم فيه يختلفون ... لو أراد الله أن يتخذ ولداً لاصطفى



مما يخلق ما يشاء... ذلكم الله ربكم، له الملك، لا إله إلا هو، فأني تُصرفون» (زمر ١-٧). وهذه الدعوة العملية لا تتطرق بعد في مكة إلى أركان الإسلام، ولا إلى شرائعه: هذا محفوظ إلى القرآن المدني.

وبراهين التوحيد من عجائب المخلوقات، وقصص الأولين، بدائية تناسب البيئة، ولا ترقى إلى النظرات الفلسفية. فدليله على استحالة الولد لله أنه ليس له صاحبة: «بديع السماوات والأرض: أتى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة، وخلق كل شيء وهو بكل شيء عليم» (أنعام ١٠١). ودليله على وحدانية الله مثل قوله: «والله جعل لكم مما خلق ظلالاً، وجعل لكم من الجبال أكناناً وجعل لكم سراويل تقيكم الحر، وسراويل تقيكم بأسكم، كذلك يُمِّت نعمته عليكم لعلكم تسلمون» (نحل ٨١). ومثل قوله: «أمن خلق السماوات والأرض، وأنزل لكم من السماء ماء فأنبئتنا به حدائق ذات بهجة ما كان لكم أن تنبتوا شجرها: أإله مع الله؟ بل هم قوم يعدلون. أمن جعل الأرض قراراً، وجعل خلالها أنهاراً، وجعل لها رواسي، وجعل بين البحرين حاجزاً؛ أإله مع الله؟ بل أكثرهم لا يعلمون» (نمل ٦٠-٦١). وجل ما هنالك إشارات أقرب إلى منطق البديهية منها إلى المنطق الفلسفي: «قل لو كان معه آلهة، كما تقولون، إذاً لابتغوا إلى ذي العرش سبيلاً» (إسراء ٤٢). ما اتخذ الله من ولد، وما كان معه من إله: إذاً لذهب كل إله بما خلق، ولعلا بعضهم على بعض! سبحان الله عما يصفون» (مؤمنون ٩١) «لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا! فسبحان الله رب العرش عما يصفون» (أنبياء ٢٢). ودليله الأكبر شهادة الكتاب: «أم اتخذوا من دونه آلهة: قل هاتوا برهانكم! هذا ذكر من معي وذكر من قبلي! بل أكثرهم لا يعلمون الحق فهم معرضون. وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون» (أنبياء ٢٤-٢٥).

وقد شعر بذلك المسلمون والمستشرقون. قال أحد المسلمين<sup>١</sup>: «لا يوجد في الدعوة المكية سوى الإيمان بالله لا شريك له، والإيمان باليوم الآخر، وقد نزل بمكة من القرآن معظمه. وقال جولدتسيهر<sup>٢</sup>: «يمكننا أن نلقي نظرة عامة شاملة في الأثر التاريخي الذي قامت به الدعوة إلى الإسلام، خاصة أثرها في الدائرة القريبة التي كان تبشير محمد موجهاً إليها بطريق

(١) كتاب نور اليقين ص ٨٤ .

(٢) العقيدة و الشريعة في الإسلام - ترجمة علماء الأزهر - ص ٥ - ٦ .

مباشر قبل غيرها: حقاً لا جدة ولا طرافة في هذه الدعوة. ولكن قد استعيض عنها بأن محمداً قد بشر بمذهبه للمرة الأولى بحماس لم يفتر ولم تعوزه المثابرة، وبعقيدة ثابتة بأن هذا المذهب يحقق صالح الجماعة الخاصة. وقد كان في ذلك كله مظهراً إنكار الذات برغم سخرية الجمهور... الحق إذاً أن محمداً كان بلا شك أول مصلح حقيقي في الشعب العربي من الوجهة التاريخية. تلك كانت طرافته برغم قلة طرافة المادة التي كان يبشر بها (( .

\*

### ٣- وكانت الدعوة القرآنية بمكة إصلاحية محلية لا إنشائية.

فهي تقوم على محاربة الشرك، وعلى محاربة الطغيان الاجتماعي. قال أيضاً جولدتسيهر<sup>١</sup>: (( فالوحي الذي نشره محمد في أرض مكة لم يكن ليشير إلى دين جديد. فقد كان تعاليم واستعدادات دينية نماها في جماعة صغيرة ( لم تبلغ المئة عند الهجرة إلى المدينة ). لقد كان يطلب من المسلمين أن يكونوا من المتقين. لكن هذه التقوى كانت تبدو في شكل شعائر عملية زهدية كما كان الحال كذلك لدى اليهود والمسيحيين ( العرب )، وفي شكل صلوات ذات ركوع وسجود، وفي شكل امتناع اختياري عن الطعام والشراب، وفي أعمال خيرية لم تُحدّد كفيّاتها وأوقاتها وعددها تحديداً يقوم على قواعد دقيقة )) .

بل كان كل هذا محفوظاً للمدينة، عهد الاستقلال الذاتي في التوحيد الكتابي، وإنشاء (( الأمة الوسط )) .

\*

### ٤- وكانت الدعوة القرآنية بمكة أخلاقية لا تشريعية.

قال السيوطي في إتقانه ( ١ : ١٨ ): (( لم يكن بمكة حدٌ ولا نحوه )) ونقل حديثاً عن عائشة: (( في أول القرآن يذكر الجنة والنار، ولما دخل الناس في الإسلام جاء ذكر الحلال والحرام )) : ونقل عن الجعبري: (( كل سورة فيها فريضة أو حدٌ فهي مدنية )) . فلم يكن في مكة تشريع بل دعوة أخلاقية: (( أصحاب اليمين في جنات يتساءلون: ما سلككم في سقر؟ قالوا: لم نكن من المصلين، ولم نكن نطعم المسكين، وكنا نخوض مع الخائضين، وكنا نكذب بيوم الدين، حتى أتانا اليقين )) ( المدثر ٣٩- ٤٧ ). وهذه الدعوة الأخلاقية

(١) العقيدة والشريعة ص ١٠ .

من الصحف الأولى: « وقد أفلح مَنْ تزكَّى وذكر اسم ربه فصلَّى! بل تؤثر الحياة الدنيا، والآخرة خير وأبقى، ان هذا في الصحف الأولى، صحف إبراهيم وموسى » ( الأعلى ١٤ - ١٩ ).

\*

إنها دعوة أخلاقية لا عقائدية: « كلاً بل لا تكرمون اليتيم، ولا تحاضون على طعام المسكين، وتأكلون التراث أكلاً لماً، وتحبون المال حباً جماً كلاً، إذا دكَّت الأرض دكاً و جاء ربك والملائكة صفاً صفاً، وجيء يؤمّننّ بجهنم: يومئذ يتذكر الإنسان وأنى له الذكرى » ( الفجر ١٧ - ٢٣ ). وفي قصصه يقول: « تلك أنباء القرى نقص عليك من أنبائها: ولقد جاءتهم رسلهم بالبينات فما كانوا ليؤمنوا... ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض فأخذناهم بما كانوا يكسبون » ( أعراف ٩٥ - ١٠٠ ).

لذلك كان أسلوب القرآن الترغيب في نعيم الدنيا والآخرة، والترهيب بجحيم الدنيا والآخرة: « وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث في أمها رسولاً يتلو عليهم آياتنا. وما كنا مهلكي القرى إلا وأهلها ظالمون. وما أوتيتم من شيء فمتاع الحياة الدنيا وزينتها وما عند الله خير وأبقى أفلا تعقلون؟ » ( قصص ٥٩ - ٦٠ ). وهذا الترهب المتواصل كان حسب مبدأ الكتاب: « رأس الحكمة مخافة الله » .

فلم تكن دعوة القرآن بمكة تشريعية إنشائية فلسفية لاهوتية. بل كانت دعوة بدائية عملية إصلاحية أخلاقية. وذلك في « أمة واحدة » مع أهل الكتاب، وفي دين واحد، وتوحيد كتابي واحد، يفصله القرآن للعرب: « ومن قبله كتاب موسى إماماً ورحمة، وهذا كتاب مصدق لساناً عربياً » ( أحقاف ١٢ ) اقتداءً بالكتاب « إمامه » ( هود ١٧٠ أحقاف ١٢ ) في الهدى والبيان: « أولئك الذين هدى الله، فبهدهم اقتد » ( أنعام ٩٠ ).

\*

نستنتج من هذا البحث، ونستطرد إلى السؤال: « هل درس محمد الكتاب أي التوراة والإنجيل؟ »

١- رأينا أن ورقة بن نوفل، ابن عم السيدة خديجة، هو الذي تولّى تزويجها من محمد. وعاش محمد في كنف ورقة خمس عشرة سنة قبل مبعثه.

وصحيح البخاري ( ١ : ٢ - ٣ ) ينقل لنا أن ورقة كان يترجم التوراة والإنجيل إلى العربية. ويروي لنا أن خديجة ومحمداً فرعا إليه بالفطرة والعادة في حادث غار حراء. فلا

يعقل أن لا يكون ورقة قد أطلع محمداً على الكتاب الذي يترجمه، ومحمد أحد الحنفاء الكبار الذين كانوا يفتشون في خلواتهم وأسفارهم ومجالسهم عن دين الله . والتوراة والإنجيل يترجمان في جوار محمد، وفي بيته، أمن المعقول أن لا يطلع عليهما؟

٢- ورأينا أن الدعوة القرآنية في مكة كانت كتابية من كل نواحيها لأن أهل التوحيد من يهود ونصارى ومسلمين (( أمة واحدة )) أي دين واحد ( أنبياء ٩١ مؤمنون ٥١ ): فهل يعقل أن يكون هذا الانتساب الدائم، إلى الكتاب، وهذا النسب القائم في القرآن بين القرآن والكتاب، ومحمد يجهل الكتاب ولا يتطلع عليه؟

٣- وفي القرآن تصاريح لا تفهم إذا لم يكن محمد قد اطلع على الكتاب:

فالكتاب (( إمام )) القرآن ( هود ١٧ أحقاف ١٢ ).

بالكتاب وأنبيائه يجب أن يقتدي محمد ( أنعام ٩٠ ).

وإذا شك محمد من وحيه يجب أن يسأل الذين يقرؤون الكتاب من قبله ( نحل ٩٤ ).

وهو يردّد بأن القرآن في (( زبُر الأولين )) وأنه (( آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم )) أي أهل الكتاب ( عنكبوت ٤٩ ).

والقول المكرر بأن القرآن تفصيل الكتاب وتصديقه: فهل يفصل النبي كتاباً ويصدّقه وهو لا يعرفه؟

٤- أخيراً يوجه أهل مكة للنبي بكل صراحة تهمة (( درس الكتاب )) : (( وكذلك نصرّف الآيات! - وليقولوا: درست! - ولنبيّته لقوم يعلمون )) ( أنعام ١٠٥ ) التهمة صريحة، ولا جواب لها. بل بالعكس، جوابه يؤكد التهمة: إنه درس (( لنبيّته لقوم يعلمون )) ، واللام للعاقبة ( البيضاوي ). وينقل البيضاوي قراءات عشر للكلمة تشعر منها محاولة لصرف الكلمة عن معناها المتبادر، وهو كما فهمه الجلالان: (( درست كتب الماضين وجئت بهذا منها )) . فالجواب في الآية ١٠٥ يؤيد التهمة صريحاً ويجعل درس محمد للكتاب سبباً في بيانه للعرب. والآية ١٥٦ من السورة ذاتها (( أن تقولوا: إنما أنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا، وإن كنا عن دراستهم لغافلين ... فقد جاءكم بينة من ربكم وهدى )) تؤيد أيضاً مضمون الآية ١٠٥: غفلوا عن دراسة التوراة والإنجيل فدرسهما هو لبيّنتهما

(١) راجع ص ٢٦٤ ما قلناه في الحاشية عن وجود ترجمة عربية للتوراة والإنجيل .

لهم. والتصريح المكرر « كتاب فصلت آياته قرآناً عربياً » ، « والقرآن المبين: إنا جعلناه القرآن عربياً » يجعل القرآن ترجمة للكتاب أو كما يقول « تفصيلاً » له.

وهناك تلميحات تؤيد الواقع في درس محمد الكتاب: منذ سورة القلم يجادل المشركين بتخصُّصه بدرس الكتاب في قوله: « أم لكم كتاب فيه تدرسون » (٣٨) وهذا يفيد بأنه هو عنده كتاب فيه يُدرّس أو يُدرّس. ويعود بعد مدة إلى الجدل ذاته: « وما أتيناهم من كتب يدرسونها » (سبأ ٤٤) مما يوحي بأنه هو كان له كتباً يدرس فيها.

لا يقتصر الأمر على الدرس، بل يتعداه إلى الكتابة والنقل: منذ سورة القلم أيضاً يقول: « أم عندهم الغيب فهم يكتبون » (٤٢) ليس عند مشركي مكة غيباً منه يكتبون، أمّا هو فعنده الغيب الذي منه يكتب. ولا يُفهم « بالغيب » ذلك المكتوب في اللوح المحفوظ، بل المنزل في زُبر الأولين، كما يظهر من التحدي ذاته. ويعود إلى الصريح نفسه في آخر العهد: « أم يقولون: تقوله! بل لا يؤمنون: فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين ... أم عندهم الغيب فهم يكتبون؟ » (٣٣ و ٤١).

فالقرآن يؤكد تلميحاتاً وتصريحاً بأن محمداً درس الكتاب أي التوراة والإنجيل.

وقوله في آية العنكبوت: « وما كنت تتلو من قبله من كتاب، ولا تخطه بيمينك » (٤٨) لا تنقض واقع الدرس، بل توضح **كيفية**: لم يدرس محمد الكتاب مباشرة، وهذا معنى آية العنكبوت (٤٨)، بل بواسطة علماء الكتاب الذين يستشهد بهم دائماً، كما توضحه آية العنكبوت: « بل هو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم » (٤٩): كيف يكون القرآن آيات بينات في صدور أهل الكتاب إذا لم يكن لهم به علم؟ فالآيتان (٤٨ و ٤٩) يفسّر بعضهما بعضاً: لم يتلّ محمد الكتاب ولم يخطه بيمينه، إنما درّسه إياه أهل الكتاب، حتى جاء تفصيله في القرآن « آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم » ، ونسخة مفصلة للكتاب « الإمام »: لم يكن درساً مباشراً، بل بالواسطة والسماع، كما كان حال القوم في مكة. والواقع القرآني يؤيد ما نذهب إليه: ليس في القرآن اقتباسات حرفية عديدة؛ إنما القرآن المكي كله في موضوع دعوته للإيمان بالله الرحمان واليوم الآخر، وفي أساليب هذه الدعوة، انتساب للكتاب ونسب، كما يصحّ هو ذاته بذلك بشتى الأنواع.

وقد بيّن الأستاذ دروزة<sup>١</sup> « ان اكتساب النبي معارف كثيرة مما كانت تحويه الكتب

(١) راجع ص ١٤٩ شهادة الأستاذ دروزة كما وردت في كتابه (سيرة الرسول) .

الدينية وغيرها متساوق مع طبيعة الأمور )) ، ومنسجم مع شهادة القرآن، ولا يطعن ذلك في نبوة محمد وصحة القرآن. بل درس الكتاب الإمام على يد العلماء به يُظهر سبب انتساب القرآن للكتاب، وكيفية هذا النسب. وظاهرة القرآن المكي العامة الدائمة أن بين القرآن والكتاب انتساباً ونسباً: فالقرآن (( تفصيل الكتاب )) وإسلامه وتعريبه التوحيد الكتابي.

\*

### بحث ثان: (( موقف القرآن السلبي )) من المعجزة

كانت الدعوة القرآنية في مكة كتابية من كل نواحيها، من دون ناحية واحدة: المعجزة.

عوّد الله البشرية منذ التوراة على معرفة وتقدير صحة النبوة السماوية من المعجزة أو المعجزات الإلهية التي تؤيدها. وقد أعطى الله في التوراة مبدأ سياسته الإلهية وحكمته الربانية في كل نبوة أو رسالة يبعث بها إلى البشر، وجعل المعجزة دليل النبوة الأول.

فالتوراة تعطي المعجزة دليلاً على نبوة موسى: لما تجلّى الله لموسى في سيناء ليرسله إلى فرعون وملأه ثبوت له رسالته بمعجزة العصا ومعجزة اليد ( سفر الخروج ٣ - ٤ : ٢ ) وسلمه العصا التي بها سيجترح جميع المعجزات: (( خذ بيدك هذه العصا تصنع بها المعجزات ... فأخذ عصا الله بيده. فقال الله لموسى: متى رجعت إلى مصر، فانظر: جميع المعجزات التي أودعها في يدك، تصنعها بين يدي فرعون ... فمضى موسى وهارون وجمعا جميع شيوخ بني إسرائيل وخاطبهم هارون بجميع الكلام الذي كلم الله به موسى. وصنع موسى المعجزات على عيون الشعب، فأمن الشعب )) . ( خروج ٤ : ١٨ و ٢٠ و ٢١ و ٢٩ - ٣١ ) .

والقرآن يشهد أيضاً بأن المعجزة كانت عند موسى دليل النبوة الأكبر: (( ولقد أعطينا موسى تسع آيات بينات )) ( إسرائاء قصص ٣٠ - ٣٢ و ٣٦ طه ١٧ - ٢٣ شعراء ٣٠ ) وجعل موسى، كما أمره الله، المعجزة دليل رسالته: (( وقال موسى، يا فرعون إني رسول من رب العالمين، حقيق عليّ أن لا أقول على الله إلا الحق. قد جئتكم ببينة من ربكم فأرسل معي بني إسرائيل. قال: إن كنت جئت بأية فأنت بها إن كنت من الصادقين ... )) فصنع موسى المعجزات العظام المعروفة! ( الأعراف ١٠٤ - ١٢٢ ) . فأمن سحرة مصر عند رؤية معجزات موسى ( طه ٧٠ شعراء ٤٦ أعراف ١٢٠ ) واستكبر فرعون وملؤه: (( فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات فاستكبروا وكانوا قوماً مجرمين ... فانقمنا منهم فأغرقناهم في اليم بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها

غافلين)) ( أعراف ١٣٣- ١٣٦ )؛ وحتى فرعون آمن عند غرقه: (( حتى إذا أدركه الغرق قال: آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل، وأنا من المسلمين )) ( يونس ٩٠ ).

والإنجيل يعطي المعجزة أيضاً دليلاً على رسالة السيد المسيح: في التحديات المتواصلة بين المسيح واليهود، يجعل المسيح المعجزة دليل النبوة الأكبر: (( إن كنت لا أعمل أعمال أبي فلا تصدقوني؛ ولكن إن كنتُ أعملها، ولا تريدون أن تصدقوني، فصدقوا هذه الأعمال! )) ( يوحنا ١٠ : ٣٧ ). وقد ميّز المسيح بين معجزاته قدرته على الخلق وإحياء الموتى: (( إن الأب ( الله ) يحب الابن ( المسيح ) ويريه جميع ما يفعل، وسيريه أعمالاً أعظم من هذه ( شفاء مخلّع مزمن ) فتأخذكم الدهشة: فكما أن الأب ينهض الأموات ويحييهم كذلك الابن أيضاً يحيي من يشاء )) ( يوحنا ٥ : ٢٠ ) تنبأ عن هذه الميزة التي خصه بها الله دون الأنبياء والمرسلين، وحققتها في إحياء ابن الأرملة في قرية نايين ( لوقا ٧ : ١١ ) وإقامة ابنة يائيرس، شيخ الجامع في كفر ناحوم ( متى ٩ : ١٨ مرقس ٥ : ٢١ لوقا ٨ : ٤٠ ) وخصوصاً في إحياء لعازر من بيت عنيا ( يوحنا ١١ ). وكان المسيح يستشهد دائماً بمعجزاته على صحة رسالته: (( بيد أن لي شهادة أعظم من شهادة يوحنا: إن الأعمال التي خولني الأب أن اجترحها، هذه الأعمال بعينها التي أنا أعملها هي تشهد لي بأن الأب ( الله ) قد أرسلني )) ( يوحنا ٥ : ٣٦ ).

والقرآن الكريم أيضاً يشهد بأن المعجزة كانت دليل النبوة الأكبر في الإنجيل ويصف رسالة المسيح المؤيدة بالمعجزات كما وصفها الإنجيل: (( وأتينا عيسى ابن مريم البنات وأيدناه بروح القدس )) ( بقرة ٨٧ ) (( ورسولاً إلى بني إسرائيل أنني قد جئتكم بأية من ربكم: إني أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله، وأبرئ الأكمة والأبرص، وأحيي الموتى بإذن الله، وأنبئكم بما تأكلون وما تدخرون في بيوتكم: إن في ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين )) ( آل عمران ٤٩ ). فالقرآن يشهد بأن المسيح قد جعل معجزاته برهان رسالته: (( ... وإذ كففت بني إسرائيل عنك إذ جنتهم بالبينات )) ( مائدة ١١٠ ). وختمها بمعجزة رفعه حياً إلى السماء، تلك المعجزة الخالدة التي لم ينلها نبي ولا رسول (نساء ١٥٨).

فبشهادة التوراة والإنجيل والقرآن، قد جعل الله نفسه المعجزة دليل النبوة والرسالة: إنه مبدأ إلهي مقرّر، لا مندوحة عنه؛ وقد جرى الله عليه مع جميع أنبياء الكتاب من إبراهيم إلى موسى إلى عيسى. ولم يجعل الله صدق التعليم وروعة الدعوة برهان ألوهيتهما لأن صحة التعليم، ومطابقة حقيقته للعقل مشتركة بين الكتب المنزلة وغير المنزلة: فالحقيقة هي الحقيقة أجاأت من الله أم من البشر؛ والدليل الوحيد على مصدرها الإلهي، ليس فيها

بقدر ما هو في المعجزة التي تؤيدها وتشهد لها. وبحسب هذه الشهادة الإلهية المتواترة مبدئياً وعملياً في التوراة والإنجيل والقرآن لا تصلح رسالة إلهية بدون معجزة إلهية تؤيدها وتفرضها، فقد اقتضت حكمة الله أن تكون الخوارق دعامة النبوة والرسالة.

والواقع القرآني يشهد بأن المعجزة دليل النبوة؛ وكذلك الواقع الإسلامي الذي خلق المعجزات للنبي في السيرة والحديث، خلافاً للقرآن، ثم محاولتهم جعل الإعجاز معجزة القرآن، دليل على أن المسلمين أنفسهم يرون ضرورة المعجزة دليلاً على النبوة.

فما هي شهادة القرآن للرسالة المحمدية والمعجزة؟

- كان موقف محمد، في القرآن، من المعجزة الإلهية (( سلبياً )) .

قال الأستاذ دروزة ( ١ ) - وهو من أنفذ مفسري القرآن في هذا العصر - (( من أهم مشاهد التشاؤم والجدل التي كانت تقع بين النبي ص. وزعماء العرب في مكة ، نتيجة للموقف السلبي والعدائي الذي وقفوه منذ البدء ، مشاهد التحدي المتقابلة .

(( فإن الزعماء لما رأوا النبي ص. بطبيعة بشرية مثل طبيعتهم ، ورأوا في دعوته تحدياً لزعامتهم وتهديداً لمكانتهم وضربة على تقاليدهم المتنوعة ، ومبعث خوف على إمامة مكة ومركزها ومنافعها المادية والمعنوية ، وقفوا منذ البدء موقف الإنكار والجحود والصد والتعطيل والتهويز والتضليل ، واستمروا في هذا الموقف الشديد العنيد ، واتخذوا نعتة بالجنون والسحر والشعر ، والكذب والكهانة والاتصال بالشياطين ، والتعلم والافتباس الخ ( ٢ ) ديدنا يكررونه في كل مناسبة ، تدعيماً لذلك الموقف . ولم يسكت القرآن لهم على هذا الموقف بطبيعة الحال ... ولقد كان من جملة ردود القرآن تقرير كون الأنبياء السابقين هم من البشر مثل النبي ص. سواء بسواء ، وكون النبي ليس بدعاً في رسالته ودعوته وبشريته ( فرقان ٢٠ ويوسف ١٠٩ وأحقاف ٩ وأنبياء ٧ - ٨ ) .

(( فوقف الزعماء إزاء هذا الموقف القرآني من تحديهم ، وأخذوا يطالبون النبي ص. بالمعجزات والآيات برهاناً على صدق دعواه أولاً ، ثم أخذوا يدعمون مطالبهم بتحذير آخر وهو سنة الأنبياء السابقين الذين جاؤوا بالآيات والمعجزات ( إسرائ ٩٠ - ٩٣ والحجر ٧٠٦ والفرقان ٨٠٧ والقصص ٤٨ والأنبياء ٥ ) . ولقد تكرر طلب الآيات من جانب الجاحدين ، أو بالأحرى زعمائهم ، كثيراً حتى حكى القرآن المكي ذلك عنهم نحو خمس وعشرين مرة صريحة ، عدا ما حكى عنهم من التحدي الضمني ، ومن التحدي بالإتيان بالعذاب واستعجاله والسؤال عن مواعده . ولا نعدو الحق إذا قلنا إن الاستفادة من الآيات القرآنية المكية أن الموقف تجاه هذا التحدي المنكر كان سلبياً ، إذا ما استثنينا الإشارة إلى القرآن كآية كافية ، أو إلى احتوائه ما في الكتب السماوية كآية على صحة وحي الله به ( أنعام ٣٧ يونس ٢٠ رعد ٧ طه ١٣٣ شعراء ١٩٧ عنكبوت ٥٠ - ٥٤ الملك ٢٥ - ٢٦ ) .

(١) سيرة الرسول ١ : ٢١٥ - ٢٢٦ .

(٢) لاحظ أنواع تهمهم الثلاثة واضطرابها في القرآن : سحر وشعر من الجنة ، كذب وكهانة وعرافة من الشيطان ، وتعلم واقتباس من أهل الكتاب .



بل هناك ما هو أبعد مدى في الدلالة على الموقف السلبي المذكور : إن المسلمين كانوا يتمنون استجابة الله لتحدي الكفار وإظهاره معجزات تبهتهم فيؤمنون بزراً بأيمانهم ( أنعام ٧ و ١٩٩ - ١١١ والحجر ١٤ - ١٥ ) . وفي ( الأنعام ) آية ( ٣٥ ) وجه فيها الخطاب إلى النبي ص. تدل على أنه هو نفسه كان يتمنى أن يحدث الله على يده آية تبهت الكفار وتحملهم على الإذعان . وفي سورة هود آية ( ١٢ ) عظيمة المغزى من ناحية شعور النبي ص. هذا ، إذا تكشف عما كان يخالج نفس النبي ص. من حيرة بسبب تحدي الكفار إياه بالمعجزات حتى لقد كان أحياناً يهجم بتفادي تلاوة بعض ما يوحي إليه عليهم ، أو يكاد صدره يضيق به لتوقعه منهم التحدي . وقد روى الرواة في صدد الآية ما فيه توضيح أكثر إذ قالوا : إن الكفار كانوا يطالبون النبي ص. بالمعجزات فلا يستجيب إليهم ؛ ثم تُوحي إليه الآيات القرآنية فيسخرون منه ، ويقولون : هلا استنزلت ملكاً أو كنزاً بدلاً من هذه الآيات ؟ فكان يخجل ويتهرب منهم أحياناً !

(( ونعتقد أن من السائغ أن يقال : إن هذا الموقف السلبي كان من عوامل تكرّر التحدي من جانب الزعماء المكابرين المستكبرين ، وانقلاب أسلوبهم فيه إلى التعجيز حيناً (إسراء ٩٠ - ٩٣) وإلى السخرية حيناً (حجر ٦ - ٧) والالتجاء إلى الله (أنفال ٣٢) . كما كان دعامة لصددهم وتعطيلهم وخبث دعايتهم ومكرهم ضد النبي ص. ودعوته أيضاً . بل لعله كان من أسباب تمسك المعتدلين بجمودهم أولاً وانجرافهم مع المعاندین أخيراً .

(( ومن الجدير بالذكر والتنبيه أن حجة كفاية القرآن كآية كانت سبباً لتحديات أخرى متصلة بالقرآن نفسه حُكيت عن الكفار بطلب الإتيان بقرآن غيره أو بتبديله ، أو إنزال القرآن جملة واحدة، ثم بنعته إنه من أساطير الأولين ، وإنه قول بشر ، وإنه مفترى، ويقولهم إنهم لو شأوا لقالوا مثله (أنفال ٣١ يونس ١٥ فرقان ٤ - ٥ و ٣٢) . فكان ذلك التحدي القرآني لهم بالمقابلة بالإتيان بكتاب من عند الله ، أو بعشر سور مفتريات ، أو بسورة مثله ، أو بحديث منه (يونس ٣٨ هود ١٣ - ١٤ يونس ٣٨ بقرة ٢٣ - ٢٤ مع هود ١٤ قصص ٥٠) . والظاهر أن المشركين قالوا فيما قالوه في مواقف التكذيب والتحدي : إن الكتب السماوية هي بغير اللغة العربية ورأوا في عربية القرآن شذوذاً عن ذلك ، فاعتبروا هذه ثغرة يمكن مهاجمة النبي ص. منها فنزلت الآيات تنذد بهم لمكابرتهم وتحملهم ( فصلت ٤١ - ٤٤ شعراء ١٩٨ - ١٩٩ ) .

\*

وقال أيضاً (( نقول ما قلناه ونحن نعرف ١) إن كثيراً من المفسرين قالوا إن آيات سورة القمر الأولى احتوت خبر معجزة انشقاق القمر فعلاً في مكة ، ورووا أحاديث عدة مؤيدة لقولهم ، وفي بعضها ما يفيد أن هذه المعجزة قد وقعت جواباً على تحدي الكفار . ٢) إن حادث الإسراء الذي ذكر بصراحة في الآية الأولى من سورة الإسراء يسلك في عداد المعجزات النبوية ، ومثله حادث المعراج الذي ذكر ضمناً على رأي بعض العلماء في بعض آيات سورة النجم . ٣) إن في القرآن تأييدات ربانية للنبي ص. والمسلمين في بعض المواقف والأزمات ، وخاصة في أثناء الجهاد ، كما أن فيه ما يدل على أن النبي ص. قد اطلع على بعض الأمور المغيبة مما عد في عداد المعجزات النبوية . ٤) إن في كتب السيرة والحديث والشمال روایات كثيرة من معجزات نبوية ، منها ما روي إنه وقع في مكة جواباً على تحدي الكفار .

غير أننا في الحق نرى أن الموقف السلبي الذي تمثله آيات القرآن عاماً قوياً من الصعب أن ينقضه

ذلك :

فالإسراء النبوي لم يكن جواباً على تحدي ، وإنما كان حادثاً خاصاً بالنبي ص. ليريه من آياته ، وإنه لم يدركه ويشعر به غيره ، واستطعنا بالتالي أن نقول إنه لا يدخل في مدى اصطلاح المعجزة ولا يصح أن يُعد

والحالة هذه ناقضاً للموقف السلبي العام . ونصل إلى النتيجة نفسها إذا ما دققنا في مدى آيات النجم ( ١٣ - ١٨ ) عن المعراج النبوي . وهذا بغض النظر عما هناك من أقوال وروايات مختلفة في كيفية وظروف الحادثتين : حيث هناك روايات بأن كليهما رؤيا منامية ؛ وأنهما كانا في اليقظة والجسد والروح ، أو بالروح دون الجسد ؛ أو بأن الإسراء كان باليقظة والروح والجسد دون المعراج الذي كان مناماً أو كان بالروح ؛ أو بأن حادث المعراج النبوي لم يقع وإنما الواقع الثابت هو حادث الإسراء أو بأن الإسراء كان وقت ، والمعراج في وقت آخر أو بأنهما كان في ظرف واحد ، وبأنهما وقعا في أوائل البعثة وفي أواسطها ، بل هناك قول بأنهما وقعا قبل البعثة بسنة .

(( وانشقاق القمر الذي ذهب جمهور المفسرين إلى أن هذه الآيات ( قمر ١ - ٥ ) تشير إليه ، فهو موضوع بحث ونظر : فالسورة من المبكرات في النزول أولاً ؛ ولم يحك في السور النازلة قبلها عن الكفار تحدي وطلب بإتيان معجزة ثانياً . وقد حمل بعض المفسرين تعبير (( اقتربت الساعة وانشق القمر )) على أنه مقترب وأنه منسّق على نحو (( أتى أمر الله )) و (( اقترب للناس حسابهم )) إذ المجمع عليه أن المعنى هو أن أمر الله أتى لا ريب فيه ، وأن حساب الناس مقترب الأوان دون شك . وقالوا إن الآيات بسبيل ما كررت آيات كثيرة ذكره من تبدل نواميس الكون عند قيام الساعة ( تكوير ١ - ٣ القيامة ٧ - ١٠ ) ولم يأخذوا بالروايات المروية عن انشقاق القمر فعلاً في مكة ، والتي فيها بعض الاختلاف . والجدير بالتنبيه أن الحادث لم يُشر إليه ثانية في السور والفصول القرآنية المكية التي نزلت بعد سورة القمر ، وهي أكثر مما نزل قبلها ، مع أنها حكمت تحديات الكفار بطلب الإتيان بالآيات مراراً وتكراراً ، ومع أنها أشارت ثانية إلى أثر حادث الإسراء في آية من آيات سورة الإسراء نفسها ( ٦٠ ) على ما ذهب إليه جمهور المفسرين : فهذا السكوت عن الحادث على خطورته ، وخاصة إزاء تحدي الكفار قد يُلهم وجهة توجيه الذين لم يأخذوا بالروايات وصرّفوا العبارة القرآنية إلى اشراط الساعة كما هو المتبادر . وهذا منسجم كما هو ظاهر مع الموقف السلبي العام الذي نبهنا إليه .

(( أما التأييدات والإلهامات الربانية للنبي ص . والمسلمين ، التي تضمنت أخبارها آيات قرآنية مثل سورة الأنفال ( ٩ - ١٣ ) وسورة الأحزاب ( ٩ ) وسورة التحريم ( ٣ ) فإنها مما هو ظاهر من نصوصها وروحها لا تدخل في عداد معجزات التحدي . وبالتالي فإنها ليس من شأنها نقض الموقف السلبي العام الذي تمثله الآيات القرآنية .

(( بقيت المعجزات المروية وخاصة التي يقال إنها وقعت في مكة بناءً على تحدي الكفار . ونعتقد أننا على صواب إذا قلنا إن سكوت القرآن عنها ، مع كثرة تحدي الكفار ، واقتصار الأجوبة القرآنية على السلب ، لا يمكن أن يشجعاً على التسليم بصحتها . هذا إلى أن الروايات غير متواترة ولا وثيقة ، وكثير منها، إن لم نقل أكثرها ، لم ترد في المدونات القديمة ، إلى ما فيها من تخالف كبير في الوقت نفسه )) .

\*

وانتهى الأستاذ دروزة ، في بحث موقف القرآن السلبي من المعجزة كدليل على الرسالة ، إلى القول : (( وهذه النواحي الإيجابية في النصوص القرآنية يصح أن تكون مفسرة لحكمة ذلك الموقف السلبي ، بحيث يصح أن يُستلهم منها وأن يقال - وقد ألمع إلى ذلك غير واحد من الباحثين أيضاً - إن حكمة الله اقتضت أن لا تكون الخوارق دعامة لنبوته سيدنا محمد عليه السلام ، وبرهاناً على صحة رسالته وصدق دعوته ( ١ ) )) .

وهكذا فالقرآن يشهد:

أولاً: أن لا معجزة في القرآن. فقد مُنعت المعجزات مبدئياً عن محمد: (( وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون )) (إسراء ٥٩) ومُنعت فعلاً: (( وإن كان كبر عليك أعراضهم فإن استطعت أن تبغى نفقا في الأرض أو سلماً في السماء فتأتهم بأية، ولو شاء الله لجمعهم على الهدى فلا تكونن من الجاهلين )) (أنعام ٣٥) قال الجلالان: (( فتأتهم بأية، مما اقترحوا فافعل: المعنى أنك لا تستطيع ذلك، فاصبر حتى يحكم الله )) .

ثانياً: إن موقف النبي من كل معجزة يراها الشعب ويلمسها حتى يؤمن كان (( سلبيياً )) . مع أن الشعب، طيلة العهد بمكة، طالب محمداً بمعجزة كالأنبياء الأولين، لأنه يشعر بالفطرة أن المعجزة دليل النبوة؛ وقد عوّد الله البشرية على ذلك مع أنبياء الكتاب الذي جاء محمداً مصدقاً لهم. ومع أن محمداً نفسه، وجماعته كانوا يتمنون على الله ذلك طيلة العهد بمكة.

ثالثاً: إن المعجزات المنسوبة لمحمد من تفسير خاطئ للقرآن، أو من روايات السيرة والحديث والشمال، وهي غير موثوقة، تناقض موقف القرآن العام السلبي من كل معجزة.

لذلك فإن (( أسلوب الدعوة القرآنية اختلف كل الاختلاف عن أسلوب الكتب المنزلة )) التي كانت (( امام القرآن )) في الهدى ( هود ١٧ )، وكان على النبي أن يقتدي بها (أنعام ٩٠) وجاء القرآن تفصيلاً لها وتصديقاً (يونس ٣٧).

وفي آخر العهد بمكة يعلل القرآن عدم إيمان أهل مكة برسالة النبي، لموقفه السلبي من المعجزة، سنة الأولين: (( وما منع الناس أن يؤمنوا ... إلا أن تأتيم سنة الأولين أو يأتيم العذاب قبلاً )) (كهف ٥٦).

\*

### بحث ثالث: الإعجاز القرآني والمعجزة

ينفي القرآن إذن عن محمد كل معجزة نفيًا قاطعاً، مبدئياً (إسراء ٥٩) وعملياً (أنعام ٣٥). قال الأستاذ دروزة<sup>١</sup>: (( ولا نعدو الحق إذا قلنا إن المستفاد من الآيات

(١) دروزة: سيرة الرسول ١: ٢٢٦ .

(٢) سيرة الرسول ١: ٢١٧ آخر الصفحة .

القرآنية المكية أن الموقف تجاه هذا التحدي المتواتر ( تحدي المشركين للنبي أن يأتيهم بمعجزة كالأنبياء الأولين ) كان سلبيًا، إذا ما استثنينا الإشارة إلى القرآن كآية كافية، أو إلى احتوائه ما في الكتب السماوية كآية على صحة وحي الله به )) . فكيف ينسجم هذا الموقف القرآني الشامل السلبي من كل معجزة، مع اعتبار الإعجاز القرآني معجزة إلهية؟

برهان القرآن الأكبر في مكة على صحة رسالته ودعوته كان استشهاده الدائم المتواصل بالكتاب وأهله. منذ البدء يصرّح بأن قرآنه (( في زُبر الأولين )) في (( الصحف الأولى صحف إبراهيم وموسى )) ( الأعلى ١٨ ) . وآية قرآنه (( بينة ما في الصحف الأولى: )) وقالوا: لولا يأتينا من ربه. - أولم تأتهم بيّنة ما في الصحف الأولى؟ )) ( طه ١٣٣ ) . وفي كل سانحة يحيل قومه إلى أهل الكتاب، يستشهد بهم، ويشهدون له: (( فسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون بالبينات والزبر )) ( نحل ٤٣ ) ، وذلك لأن القرآن حتى آخر العهد بمكة (( آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم )) ( عنكبوت ٤٩ )؛ وهو نسخة عربية للكتاب: (( والكتاب المبين: إنا جعلناه قرآنًا عربيًّا )) ( فصلت ١ ) . وتعريب الكتاب للعرب آية تكفيهم: (( أولم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم )) ؟ ( عنكبوت ٥١ ) : (( احتواء القرآن ما في الكتب السماوية آية كافية لهم على صحة وحي الله به )) . وبرهانه الأول والأخير على صحة رسالته، شهادة أهل الكتاب له: (( وقال الذين كفروا: لست مرسلًا! - قل كفى بالله شهيداً بيني وبينكم، ومن عنده علم الكتاب )) ( الرعد ٤٥ ) . فلم تكن المعجزة دليل نبوته، بل شهادة أهل الكتاب له.

وفي تضاعيف هذا البرهان الأكبر الدائم ترد (( الإشارة إلى القرآن كآية كافية )) . وهذا ما يسمونه (( إعجاز القرآن )) ويجعلونه (( معجزة النبوة الكبرى الخالدة )) .

\*

١- قال الباقلاني في ( إعجاز القرآن<sup>٢</sup>): (( الذي يوجب الاهتمام التام بمعرفة إعجاز القرآن أن نبوة نبيّنا عليه السلام بنيت على هذه المعجزة )) .

(١) سيرة الرسول ١ : ٢١٧ آخر الصفحة .

(٢) في سلسلة : ذخائر العرب ١٢ - تحقيق أحمد صقر ، عن دار المعارف بمصر ص ١٠ .

وقد أوجز السيوطي في ( إتيقانه ) موقف الأمة من هذه القضية. قال أولاً: « اعلم أن المعجزة أمر خارق للعادة، مقرون « بالتحدي، سالم عن المعارضة؛ وهي إما حسية وإما عقلية. وأكثر معجزات بني إسرائيل كانت حسية لبلادتهم وقلة بصيرتهم، وأكثر معجزات هذه الأمة عقلية لفرط ذكائهم وكما إفهامهم. ولأن هذه الشريعة لما كانت باقية على صفحات الدهر إلى يوم القيامة خُصت بالمعجزة العقلية ليراها ذوو البصائر<sup>١</sup> ». وقال ثانياً: « لما ثبت كون القرآن معجزة نبينا ص. وجب الاهتمام بمعرفة وجه الإعجاز. وقد خاض الناس في ذلك كثيراً، فبين محسن ومسيء<sup>٢</sup> ». ثم يسرد نحو عشرين وجهاً تفسير معنى الإعجاز... وهذا الاختلاف في فهم وجه إعجاز القرآن، جعل الإعجاز « اللغز الذي حير الناس<sup>٣</sup> ». والعقيدة الواضحة لا خلاف عليها بين أهلها، ومعجزتها لا تكون « لغزاً حير الناس ».

**وواقع القرآن** يشهد بأن الاستشهاد بإعجاز القرآن كان عابراً، في ثلاث سور من العهد الثاني متتابعات: في الإسراء: « قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً » (٨٨) لم يقبلوا منه هذا التحدي: « ولقد صرّفنا للناس في هذا القرآن من كل مثل فأبى أكثر الناس إلا كفوراً » (إسراء ٨٩) اعرضوا عن هذه المعجزة العقلية الأدبية وطالبوه للحال بمعجزة حسية مثل الأنبياء الأولين (إسراء ٨٩-٩٢) ولما لمسوا عجزه عن المعجزة اتهموه بالافتراء على الله، فتحداهم بعشر سور مثله مفتريات: « أم يقولون: افتراه! - قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات: وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين » (هود ١٢) وللحال ينتقل من التحدي بالإعجاز إلى الاستشهاد بالكتاب وأهله، برهانه الدائم: « أؤمن كان على بينة من ربه، ويتلوه شاهد منه، ومن قبله كتاب موسى إماماً ورحمة، أولئك يؤمنون به » (هود ١٥-١٦). وفي سورة يونس يعودون إلى تحدي النبي بمعجزة حسية، ويعود إلى تحديهم بمعجزة الإعجاز الأدبية: « وما كان هذا القرآن أن يفترى من دون الله، ولكن تصديق الذي بين يديه ( قبله ) وتفصيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين. أم يقولون:

(١) الإتيقان ٢ : ١١٦ .

(٢) الإتيقان ٢ : ١١٨ .

(٣) محمد زغلول سلام : أثر القرآن في تطور النقد العربي ٣٠٧ .

افتراه! - قل فأتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين! بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله (( ٣٧ - ٤٠). **هنا يأخذ التحدي بالإعجاز معناه ومداه:** ليست المعجزة في إعجاز القرآن البياني بل في هداه، لا في نظم القرآن بل في تعليمه: فهو تصديق الكتاب (( الإمام )) ! وهم (( كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه )) ! وكذبوا بما (( لم يأتهم تأويله )) ! جمل أربع، اثنتان قبل التحدي، واثنتان بعده، وكلها تفسر معنى تحدي القرآن بإعجازه: إعجازه في الهدى، لا في النظم والبيان. والقرآن في الهدى **تابع لا متبوع:** (( ومن قبله كتاب موسى إماماً )) ( هود ١٧ ) وحسب النسخة أن تكون مثل (( الإمام )) . وهذا التحدي بالإعجاز في الهدى ينسبه القرآن لنفسه وللكتاب الإمام على السواء: (( فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا: لولا أوتي مثل ما أوتي موسى! - أولم يكفروا بما أوتي موسى من قبل؟ قالوا: سحران تظاهر! وقالوا: إنا بكل كافرون! - قل: فأتوا بكتاب من عند الله هو أهدى منها أتبعه إن كنتم صادقين )) ( قصص ٤٨ - ٤٩ ) فهذا النص الصريح يوضح أن التحدي بإعجاز القرآن هو التحدي بهداه، لا بنظمه وبيانه. والقرآن في هذا الهدى سواء مع الكتاب: (( أهدى منهما )) ، وليس معجزة خاصة بمحمد والقرآن<sup>١</sup>. ذلك هو الواقع القرآني المكي الذي سها عنه الكثيرون.

\*

## ٢- رجاء في ( الإتيان ) فصول عديدة تظهر أيضاً مدى إعجاز القرآن البياني.

فصل أول في ( غريب القرآن<sup>٢</sup> ). والمراد به مفردات من القرآن، وتعابير وتراكيب، اصطلاح عليها، وجاءت بغير المعنى اللغوي الذي تفيد اللفظة من وضعها الأصلي؛ فكانت كما يقول الرافعي<sup>٣</sup> (( مستغربة في التأويل ... وجملة ما عدوه من ذلك في القرآن كله **سبعماية لفظة** أو تزيد قليلاً )) . وقال عنها السيوطي: (( توقّف العرب فيها فلم يعرفوا معناها )) . ويلحق بهذا (( الغريب )) ما وقع فيه بغير لغة الحجاز التي نزل بها القرآن؛ قال

(١) كانت فترة التحدي بالقرآن كآية من العهد الثاني بمكة؛ ولم يرد في العهد الثالث بمكة إلا مرة واحدة؛ بصيغة مخففة في سورة الطور: (( أم يقولون: تقوله! - بل لا يؤمنون! فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين )) (٣٣ - ٣٤) .

(٢) الإتيان ١: ١١٥ .

(٣) الرافعي: إعجاز القرآن ٧٤ - ٧٦ .

(٤) الإتيان ١: ٣٤ .

الواسطي: (( في القرآن من اللغات خمسون لغة )) ؛ وما وقع فيه بغير لغة العرب<sup>١</sup> قال عنه الرافعي: (( عدّ العلماء في القرآن من غير لغات العرب أكثر من مئة لفظة ترجع إلى لغات الفرس والروم والنبط والحبشة والبربر والسريان والعبران والقبط. وإنما وردت في القرآن لأنه لا يسدّ مسدّها إلا أن توضع لمعانيها ألفاظ جديدة على طريقة الوضع الأول )) ، هذا والقرآن يصرّح مراراً عن نفسه أنه نزل (( بلسان عربي مبين )) . ويلحق بغريب القرآن ما وقع فيه من (( الأفراد<sup>٢</sup> )) وهي ألفاظ وردت في القرآن بمعنى مضطرد مألوف في كل المواضع، إلا في موضع خالف العرف والعادة، وشذ عنهما، وبهذا الشذوذ صار (( غريباً )) . وعكسه ما يسمونه (( الوجوه والنظائر )) وهي ألفاظ مشتركة تستعمل في عدة معان (( حيث كانت الكلمة الواحدة تنصرف إلى عشرين وجهاً وأكثر وأقل، ولا يوجد ذلك في كلام البشر<sup>٣</sup> )) . وللقرآن أيضاً غرائب في التذكير والتأنيث، وفي التعريف والتكثير، في الأفراد والجمع، في السؤال والجواب، في الخطاب بالاسم والخطاب بالفعل، في أحوال العطف، واستعمال الضمائر<sup>٤</sup>، حتى قال بعضهم: (( إن غرائبه لا تنتهي )) .

فصل ثانٍ (( في مشكله وموهم الاختلاف والتناقض )) : جمع الأستاذ دروزة في كتابه (القرآن المجيد ١٩٣) ما تعارض فيه من أوصاف اليوم الآخر، وقال: (( ولعلّ في تنوع الأوصاف والصور والمشاهد القرآنية عن الآخرة وأهوالها ونعيمها وعذابها قرينة أو دليلاً على صواب ما نقرّه ( من أنها وسائل لا أسس في القرآن ) ... مع تقرير أن الإيمان باليوم الآخر وحسابه ونعيمه وعذابه واجب، وأنه ركن من أركان العقيدة الإسلامية، فإن حكمة الله اقتضت وصفهما بهذه الأوصاف على سبيل التقريب والتشبيه )) .

والسيوطي يعرض لأربعة مواضع ظاهرها يوهم بالاختلاف: نفي المسألة يوم القيامة وإثباتها (( فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون ... وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون )) ؛ كتمان المشركين حالهم يوم الدين، وإفشاؤه: (( ثم لم تكن فتنتهم إلا أن قالوا: والله ربنا

(١) الإتيان ١ : ١٣٦ .

(٢) الإتيان ١ : ١٤٤ .

(٣) الإتيان ١ : ١٤٢ .

(٤) راجع كتاب الأستاذ حداد : نظم القرآن والكتاب ، القسم الأول : إعجاز القرآن ١٣٤ - ١٥٦ .

(٥) الإتيان ٢ : ٢٧ - ٣٠ .

ما كنا مشركين ... ولا يكتمون الله حديثاً)) ؛ خلق السماء أم الأرض أيهما تقدّم: (( أنتم أشد خلقاً أم السماء بناها، والأرض بعد ذلك دحاها )) ( نازعات ٢٣ - ٣٠ ) (( خلق الأرض في يومين ... وقدر أوقاتها في أربعة أيام سواءً للسائلين ثم استوى إلى السماء ففضاهن سبع سماوات وفي يومين )) ( فصلت ٩ - ١٢ ). الإتيان بحرف ( كان ) مثل (( كان الله عزيزاً )) والفعل يدل على الماضي مع أن الصفة لازمة. ثم قال: (( موضع آخر توقف عليه ابن عباس. سأل رجل عن يوم كان مقداره ألف سنة ) وعن ( يوم كان مقداره خمسين ألف سنة )؟ فقال ابن عباس هما يومان ذكرهما الله تعالى في كتابه، الله أعلم بهما، وزاد: ما أدري ما هي وأكره أن أقول فيهما ما لا أعلم )) .

ونقل الزركشي في ( البرهان ) تصويب بعض الاختلافات الظاهرة: كقوله عن عصا موسى تارة (( فإذا هي ثعبان )) أي الكبير من الحيات، وتارة (( تهتز كأنها جان )) والجان الصغير من الحيات. وكقوله: (( وقفوهم أنهم مسألون )) مع قوله: (( فيومئذ لا يسأل عن ذنبه إنس ولا جان؛ وكقوله: (( اتقوا الله حقّ تقاته )) مع قوله (( فاتقوا الله ما استطعتم )) ؛ وكقوله في سورة النساء (( فإن خفتن ألا تعدلوا فواحدة )) مع قوله فيها: (( ولن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم )) ؛ وكقوله: (( إن الله لا يأمر بالفحشاء )) مع قوله: (( أمرنا مترفيها ففسقوا فيها )) ؛ وكقوله عن الكافر في يوم الدين: (( فبصرك اليوم حديد )) مع قوله: (( خاشعين من الذل ينظرون من طرف خفي )) ؛ وكقوله: (( الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله )) مع قوله: (( إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم )) .

وانتهى السيوطي إلى تخريج ثلاثة مبادئ تعين على تفسير ما تشابه من مشكله وموهم الاختلاف والتناقض فيه. منها اللجوء إلى الناسخ والمنسوخ.

فصل ثالث: **الناسخ والمنسوخ في القرآن**<sup>١</sup>. التبديل في أي القرآن واقع جرى عليه النبي كما تشهد سورة النحل: (( وإذا بدلنا آية مكان آية، قالوا: إنما أنت مفتّر )) ! (١٠١) وكانت هذه الظاهرة سبب ارتداد بعض المسلمين في أواخر العهد بمكة. ثم جاءت آية النسخ (بقرة ١٠٦) فجعلت من الواقع مبدأ وقاعدة مضطردة حتى قال السيوطي: (( إن النسخ مما خصّ الله به هذه الأمة لحكم، منها التيسير<sup>١</sup> )) . وظاهرة الثالثة (( النسيان )) ؛ روى

(١) الإتيان ٢ : ٢٥ .



الأرجاني في ( فضائل القرآن ) أن النبي كان يصلّي: اللهم ارحمني بالقرآن، اللهم ذكّرني منه ما نسيت، وعلمني ما جهلت<sup>١</sup> )) والظاهرة الرابعة: الرفع، من دون تبديل أو نسخ أو نسيان ( مثل حديث مروى عن أبي موسى الأشعري، جاء فيه ( نزلت سورة نحو براءة ثم رفعت ) ومثل حديث رواه البخاري عن أنس أنه ( نزل في قصة أصحاب بئر معونة قرآن قرأناه ثم رُفِعَ ) . وقد أسقط النبي ذاته مع جبريل كثيراً من المنسوخ، في العرضة الأخيرة<sup>٢</sup> )) وكتب علي بن أبي طالب في مصحفه الناسخ والمنسوخ<sup>٣</sup> )) فجاء عثمان وحذف عند جمع القرآن كل ما استطاع إسقاطه من المنسوخ فلم يبق إلا ما أفلت من رقابته<sup>٤</sup> . وما بقي من المنسوخ إلى اليوم، اختلفوا في عدد آياته؛ وقد عدّ منها النحاس وابن حزم في كتابيهما عن ( الناسخ والمنسوخ ) مئتين ونيفاً.

والمنسوخ في القرآن، مثل المتشابه، مشكل في واقعه وتاريخه يحار فيه المؤمن وغير المؤمن. وهو بلاء من الله عظيم، خصوصاً في انسجام مع التنزيل من اللوح المحفوظ حيث الناسخ والمنسوخ معاً حقيقة إلهية واحدة.

فصل رابع : التكرار في أوصاف اليوم الآخر، وفي براهين التوحيد وفي قصص الأنبياء الأولين، حيث تتكرر في جميع السور تقريباً، واحدة في جوهرها وموضوعها، مختلفة في طرائق عرضها وأسلوبها؛ مثلاً ترد قصة آدم وإبليس ست مرات بالتعابير ذاتها تقريباً. ونحن نسميه (( اقتداراً )) في البيان والتبيين، وغيرنا يسميه ضعفاً وعجزاً.

فصل خامس : المحكم والمتشابه في القرآن. قال السيوطي في ( الإتيان ٢ : ٢ - ٧ ) : (( حكى ابن حبيب النيسابوري: في المسألة ثلاثة أقوال؛ أحدها أن القرآن كله محكم لقوله تعالى ( كتاب أحكمت آياته )؛ الثاني كله متشابه لقوله تعالى ( كتاباً متشابهاً مثاني )؛ الثالث والصحيح انقسامه إلى محكم ومتشابه لقوله تعالى ( هو الذي أنزل عليك الكتاب منه

- 
- (١) عن الأستاذ دروزة : القرآن المجيد ٧١ .  
 (٢) دروزة : القرآن المجيد ٩٠ قابل الإتيان ٢ : ٢٥ . ولهم نوع ( من المنسوخ بالاستثناء ) وهو استثناء يتخذ صفة النسخ . وقد ذكر النحاس في كتابه ( الناسخ والمنسوخ ) ص ( ٢٦٨ ) ثلاثة وعشرين موضعاً .  
 (٣) دروزة : القرآن المجيد ٦٩ .  
 (٤) دروزة : القرآن المجيد ٥٥ .  
 (٥) دروزة : القرآن المجيد ٧٣ .

آيات محكمات هنّ أمّ الكتاب وآخر متشابهات ( . وقد اختلف في تعيين المحكم والمتشابه. قيل المحكم ما وضح معناه والمتشابه نقيضه. قيل المحكم ما تأويله تنزيله، والمتشابه ما لا يدرك إلا بالتأويل. أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: المحكمات ناسخه وحلاله وحرامه، وحدوده وفرائضه أي ما يؤمن به ويعمل به، والمتشابهات منسوخة، ومقدّمه ومؤخره، وأمثاله وأقسامه أي ما يؤمن به ولا يعمل به. وقيل من ذلك القصص والأمثال. وأخرج الفريابي عن مجاهد قال: المحكمات ما فيه الحلال والحرام وما سوى ذلك متشابه. وأخرج ابن أبي حاتم عن الربيع قال: المحكمات هي أوامره الزاجرة ( . وينقل السيوطي ( إتيان ٢ : ١٣٠ ) عن الغزالي وغيره ( إن آيات الاحكام خمسمائة آية؛ وقال بعضهم مائة وخمسون ) .

بناء عليه يكون أكثر القرآن من المتشابه الذي ( لا يعلم تأويله إلا الله، والراسخون في العلم يقولون: أئنا ) .

فالمتشابه في أسلوبه: أقسامه، وقصصه، وأمثاله أي أساليب القرآن الثلاثة في مكة في عهده الثلاثة.

والمتشابه في تعليم القرآن: قال السيوطي: ( من المتشابه آيات الصفات الإلهية؛ وجمهور أهل السنة، منهم السلف وأهل الحديث، على الإيمان بها وتفويض معناها المراد منها إلى الله تعالى، ولا نفسرها، مع تنزيها له عن حقيقتها ... ومن المتشابه أوائل السور، والمختار فيها أيضاً أنها من الأسرار التي لا يعلمها إلا الله تعالى ) .

ويقول الأستاذ دروزة أيضاً ( إن ما ورد من أخبار الملائكة والجن من وسائل التدعيم للدعوة وأهدافها، وليس مقصوداً بذاته ... ولعلّ المتمعّن في الآيات التي جاء فيها ذكر الملائكة والشياطين وأعمالهم وتنوّعها يلهم الناظر في القرآن أنها جاءت بسبيل التقريب والتمثيل. وإن ما ورد في القرآن من مشاهد الكون ونواميسه<sup>١</sup> قد استهدف العظة والإرشاد والتدعيم والتأييد دون أن ينطوي على تقرير ماهيات الكون وأطوار

(١) الإتيان ٢ : ٦ .

(٢) دروزة : القرآن المجيد ١٨٥ - ١٨٨ .

(٣) دروزة : القرآن المجيد ١٩٠ .

الخلق والتكوين ونواميس الوجود من الناحية العلمية والفنية. وإن ما ورد في القرآن عن الحياة الأخروية وإعلامها ومشاهدها<sup>١</sup> وصورها وأهوالها وعذابها ونعيمها قد ورد على سبيل التقريب. فإن ملاحظة ما قدمناه جوهرية من شأنها أن تجعل الناظر في القرآن يتجنب الاستغراق في الجدل حول مشاهد الحياة الأخروية وصورها، والتورط والتكلف والتزيد في صدد ما يقوم في سبيل الماهيات والحقائق لذاتها ... وإن حكمة الله اقتضت وصفها بهذه الأوصاف على سبيل التقريب والتشبيه )) .

ونختم هذا البحث بخاتمة السيوطي لبحثه: (( أورد بعضهم سؤالاً: هل للمحكم ميزة على المتشابه أم لا: فإن قلتم بالثاني فهو خلاف الإجماع، أو بالأول فقد نقضتم أصلكم في أن جميع كلامه سبحانه وتعالى سواء، وأنه نزل بالحكمة )) . وعليه يقول: أن المحكم كالمتشابه من وجه، ويخالفه من وجه: فالمحكم أصل والعلم بالأصل أسبق. ثم (( قال بعضهم: ما الحكمة في إنزال المتشابه ممن أراد بعباده البيان والهدى؟ - قلنا إن كان مما لا يمكن علمه فله فوائد، منها الحث للعلماء على النظر الموجب للعلم؛ وإن كان مما لا يمكن علمه فله فوائد، منها ابتلاء العباد بالوقوف عنده، والتوقف فيه والتفويض والتسليم، ثم التعبد بالاشتغال به من جهة التلاوة كالممنسوخ<sup>٢</sup> )) .

فمتشابه القرآن، وهو أكثره، (( ابتلاء للعباد )) . ومثله المنسوخ وهو يقع في المحكم من القرآن، وأوامره الزاجرة. ولا نرى كيف ينسجم المتشابه والمنسوخ مع إعجاز القرآن في البيان والهدى.

\*

٣- القرآن المكي يجعل إعجاز القرآن في الهدى، على مثال الكتاب الإمام ( قصص ٤٩ )، أكثر منه في البيان. والقرآن المدني عندما يعرض للإعجاز من حيث البيان يفصل فيه نهائياً بأية آل عمران السابعة.

كان التحدي بالقرآن في مكة للمشركين لا للكتابين. فلما اصطدم في المدينة بأهل الكتاب، توقف عن التحدي بإعجاز القرآن. فلم يرد التحدي به إلا في أول العهد، في

(١) دروزة: القرآن المجيد ١٩٦ .

(٢) الإتيقان ٢ : ١٢ .

سورة البقرة وللمشركين أيضاً: « وإن كنتم في ريب مما أنزلنا على عبدنا فأوتوا بسورة مثله، وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين » (٢٣). واصطدم للحال بأهل الكتاب فنزلت آية آل عمران السابعة تبين نهائياً معنى إعجاز القرآن البياني ومداه:

« هو الذي أنزل عليك الكتاب: منه آيات محكمات هن أم الكتاب، وأخر متشابهات - فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله - وما يعلم تأويله إلا الله - والراسخون في العلم يقولون: أماناً به، كل من عند ربنا - وما يذكر إلا أولو الألباب »

في هذه الآية خمسة تصاريح على وجود المتشابه في القرآن، وهي تحدد معنى إعجاز القرآن ومداه. ففي القرآن آيات محكمات، هي آيات الأحكام المئة والخمسين أو الخمسمائة. والباقي يدخل في حكم المتشابه، كما رأيت: فكيف ينسجم الإعجاز البياني والبلاغي مع المتشابه منه وهو أكثر القرآن؟ وكيف يكون معجزاً للتقلين الكلام الذي « لا يعلم تأويله إلا الله »؟ وكيف يكون معجزاً للناس كلام لا يعلم تأويله الراسخون في العلم أنفسهم بل يفوضون علمه لله؟ جاء في (الإتقان) أيضاً: « إن ما لا يمكن الوقوف عليه لا يمكن التحدي به »؛ كما رأيت من المتشابه « الذي لا يعلم تأويله إلا الله »؟ لذلك لا يمكن التحدي به فآية آل عمران (٧) تفسر وتحدد معنى الإعجاز الذي تحدى به في (الإسراء ويونس وهود والطور والبقرة) وتضع حداً لمحاولة التحدي بإعجاز القرآن، هذا إذا لم تتسخها وقد وردت بعدها تقويماً لها. ولا يصلح أن يكون الإعجاز معجزة: لأن الدين للعامة، والإعجاز في البيان العربي للخاصة من العرب، فكيف بعامة البشرية! أيعجزهم بما لا يمكن أن يفقهوه؟ واعتبار الإعجاز معجزة يتعارض مع مبدأ القرآن العام الذي يقرر بأن المعجزات منعت عن محمد (إسراء ٥٩).

لذلك لما اصطدم النبي بالكتابين في المدينة، وكان معهم « أمة واحدة » في مكة، ونزلت آية آل عمران تضع حداً للجدل في الإعجاز، عدل النبي عن التحدي بالقرآن، وفي معركة بدر ظهرت آية « الحديد » التي تضع حداً لكل شيء.

(١) الإتقان ٢ : ١٠٣ .

(٢) الإتقان ٢ : ١١٧ .

وهكذا فالإعجاز القرآني الذي يتحدى به إنما هو في الهدى لا في البيان، والقرآن والكتاب هما في الهدى سواء: « فأتوا بكتاب من عند الله هو أهدى منهما أتبعه إن كنتم صادقين ( قصص ٤٩ ) . لا بل إن الكتاب إمام القرآن في الهدى: ( ومن قبله كتاب موسى إماماً ) ( هود ١٥ ) . وليس الإعجاز القرآني معجزة للقرآن، خاصةً به، دون الكتاب. ولا ينقض هذا الإعجاز موقف القرآن العام، السلبي من كل معجزة. والقرآن يشهد صراحة بأن المعجزة منعت عن محمد مبدئياً ( إسرائ ٥٩ ) وعملياً ( أنعام ٣٥ ) : فلا يجوز في حال من الأحوال اعتبار القرآن معجزة، و ( إشارة ) عابرة - فسرتها نهائياً آية آل عمران - لا تنقض موقفاً عاماً.

\*

### بحث رابع: القرآن ( أسلوب جديد ) في النبوة والمعجزة

للأستاذ دروزة نظرية خاصة في النبوة والمعجزة في القرآن، قال: « وهذه النواحي الإيجابية في النصوص القرآنية يصح أن تكون مفسرة لحكمة ذلك الموقف السلبي ( من المعجزات ) بحيث يصح أن يُستلهم منها وأن يقال - وقد ألمع إلى ذلك غير واحد من الباحثين أيضاً - ان حكمة الله اقتضت أن لا تكون الخوارق دعامة لنبوة سيدنا محمد عليه السلام، وبرهاناً على صحة رسالته وصدق دعوته التي جاءت بأسلوب جديد هو أسلوب لفت النظر إلى الكون وما فيه من آيات باهرة، والبرهنة بها على وجود الله وقدرته الشاملة و وحدته، واستحقاقه وحده للخضوع والعبادة والاتجاه وبطلان الشرك والوثنية وسائر العقائد والتقاليد المتناقضة مع هذا الأصل النقي البسيط.

« ثم أسلوب مخاطبة العقل والقلب في الحث على الفضائل، والتنفير من الرذائل وإثبات قدرة الله على الحياة الأخرى، وفكرة الحق والعدل فيها.

« وعلى اعتبار أن الدعوة التي تقوم على تقرير وجود الله واستحقاقه وحدة للعبودية واتصافه بجميع صفات الكمال، وعلى التزام الفضائل واجتناب الفواحش هي في غنى عن معجزات خارقة للعادة لا تتصل بها في الذات.

(( وفي هذا ما فيه من وضوح مزية الرسالة المحمدية وترشيحها للخلود والتعميم. وآيات الأنبياء السابقين الخارقة حادثات وقعت وانقضت. ولكن أسلوب الدعوة القرآنية - هذا الذي اختلف كل الاختلاف عن أسلوب الكتب المنزلة على بعض أولئك الأنبياء - هو أسلوب خالد حي قوي في كل زمان ومكان ببراينه ودلائله وحيويته وفصاحته ومعقوليته وسموّه. ولذلك كان وظل معجزة النبوة الخالدة الكبرى من هذه النواحي )) .

\*

فالقرآن إذن، بحسب الأستاذ دروزة وأمثاله، أسلوب جديد في النبوة والمعجزة، (( يختلف كل الاختلاف عن أسلوب الكتب المنزلة )) قبله.

من نواحي هذه الجدة والاختلاف طريفته في الوحي والنبوة: فالقرآن هو (( أسلوب لفت النظر إلى الكون وما فيه من آيات باهرة، والبرهنة بها على وجود الله وقدرته الشاملة و وحدته )) . وهل في هذا الأسلوب من جديد؟ أليس كل المؤمنين بالله، خارجاً عن نطاق الوحي، آمنوا بالله ووحدوه من آيات الكون الباهرة؟ أليس هذا هو برهان الفلاسفة في كل زمان ومكان، من سقراط وأفلاطون وأرسطو إلى ملحد العصر الحديث أمثال فليتر<sup>١</sup>؟

وأى شيء في الزبور الذي كان يردّه أحبار اليهود ورهبان عيسى في مكة والمدينة سوى الدعوة للتوحيد بلفت النظر إلى آيات الكون الباهرة؟

وسفر (( الحكمة )) الذي يذكره القرآن مراراً، جعل لفت النظر إلى آيات الكون الباهرة محور التوحيد ودليل الفطرة على التوحيد:

(( إن جميع الذين لم يعرفوا الله حمقى من طبعمهم.

لم يقدرُوا أن يعلموا الكائن من آياته المنظورة !

ولم يتأملوا المصنوعات حتى يعرفوا صانعها!

فإنه - على طريق المقايسة - بعظم جمال المبروات يبصر فاطرها<sup>٢</sup> .

(١) كان فليتر يقول :

Le monde est un horloge et je ne puis songer  
que cet horloge marche sans avoir d'Horloger.

(٢) سفر الحكمة ١٣ : ١ - ١٠ و ١٤ : ١٢ - ١٤ .

ولفت النظر إلى نواميس الكون ودلالاتها الظاهرة على وجود الخالق وعنايته الأبوية بمخلوقاته ألم تكن خطة المسيح في الإنجيل، ورسله والحواريين من بعده؟ كان السيد المسيح يقول:

(( لا تقدرون أن تعبدوا الله والمال!))

من أجل هذا أقول لكم: لا تهتموا لأنفسكم بما تأكلون ولا لأجسادكم بما تلبسون.

**انظروا إلى طيور السماء:** فإنها لا تزرع ولا تحصد ولا تجمع في الاهراء وأبوكم السماوي يقوته! أفلمستم أنتم أفضل منها بكثير؟

**تأملوا زنابيق الحقل كيف تنمو:** إنها لا تتعب ولا تغزل. وأنا أقول لكم: إن سليمان في كل مجده لم يلبس كواحدة منها (( فإذا كان عشب الحقل الذي يكون اليوم ويطرح في التتور غداً يلبسه الله هكذا؛ فكم بالأحرى أنتم يا قليلي الإيمان؟! )) .

والرسول الحواري بولس كان يقول:

(( إن غضب الله يعتلن من السماء على كل كفر وظلم للناس الذين يعوقون الحق بالظلم<sup>٢</sup>. لأن ما يعرف عن الله واضح لهم إذ إن الله قد أوضح لهم: فإن صفاته غير المنظورة ولا سيما قدرته الأزلية وألوهته تبصر منذ خلق العالم مدركة بمبرواته. فهم إذن بلا غدر: هم الذين استبدلوا حقيقة الله بالباطل، واتقوا المخلوق وعبدوه دون الخالق الذي هو المبارك إلى الدهور آمين<sup>٣</sup> .))

أسلوب لفت النظر إلى آيات الكون الباهرة دليلاً على التوحيد كان أسلوب الكتاب، ولكن لم يقتصر الوحي في الكتاب عليه، كما اقتصر عليه القرآن.

\*

واقْتِصَارُ الْوَحْيِ عَلَى لَفْتِ النَّظَرِ إِلَى آيَاتِ الْكَوْنِ الْبَاهِرَةِ هُوَ تَنْزِيلُ الْوَحْيِ إِلَى مَرْتَبَةِ الْفِطْرَةِ. وَمَا يَدْرِكُ بِالْفِطْرَةِ، لَا حَاجَةَ لَنَا بِهِ إِلَى الْوَحْيِ. (( فالذهن الإنساني خليق بأن

(١) إنجيل متى ٦ : ٢٤ - ٣٤ .

(٢) لاحظ أن القرآن يسمي الكفر ظلماً اقتداءً بالكتاب .

(٣) الرسالة إلى الرومانيين ١ : ١٨ - ٢٨ .

يدع للمجهول حصته، وأن يحسب له حسابه: لا يدعو إلى هذا مجرد القداسة الدينية؛ ولكن يدعو إليه اتساع الأفاق النفسية وتفتح نوافذ المعرفة. « فالمعقول » في عالم الذهن، « والمحسوس » في تجارب العلم، ليسا هما كل « المعروف » في عالم النفس. وما العقل الإنساني - لا الذهن وحده - إلا كوة واحدة من كوى النفس الكثيرة. ولن يغلق إنسان على نفسه هذه المنافذ، إلا وفي نفسه ضيق، وفي قواه انحسار، لا يصلح للحكم في هذه الشؤون الكبار. فلندع الذهن يدبر أمر الحياة اليومية الواقعة، أو يتناول من المسائل ما هو بسبب من هذه الحياة. فأما العقيدة، فهي في أفقها العالي هناك<sup>١</sup> .

وتواتر القول بأن الإسلام « دين الفطرة » جعل فلاسفة الإسلام يقولون: لا نبيّ سوى العقل! لأن الوحي الذي يقتصر على الفطرة هو وحي العقل لا وحي السماء! فلو لم يكن عند الله شيء أسمى من الفطرة والعقل، ما أنزله الله وما أوحاه! وتنزيل وحي القرآن إلى « هذا الأصل النقي البسيط » يحط من قدره لو يعلمون! والقرآن الكريم أسمى من ذلك. جعلوا صوت السماء صوت الطبيعة والفطرة، واقتصروا التوحيد القرآني على التوحيد العقلي الطبيعي، وعدوا ذلك أسلوباً جديداً في الوحي والنبوة! وجعلوا من هذا الأسلوب الفطري ميزة القرآن على الكتب المنزلة قبله، وبه « اختلف كل الاختلاف عن أسلوب الكتب المنزلة » . يقدر الله أن يضرب، بواسطة أنبيائه، على وتر الفطرة الحساس، ولكن لا يقتصر وحي الله على وحي الفطرة.

والقول بأن هذا الأسلوب القرآني جديد في الوحي والتنزيل قول يناقضه القرآن. فإنه يصرّح بأن الكتاب « إمامه » في هذا الوحي ( هود ١٥ ) وأن أسلوب لفت النظر إلى آيات الكون الباهرة هو « ذكر مَنْ معه وذكر من قبله » ( أنبياء ٢٤ ) وما القرآن سوى « تفصيل وتصديق » للذكر الذي قبله في وحيه وأسلوبه ( يونس ٣٧ ) حتى أن القرآن ذاته « آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم » أي أهل الكتاب ( عنكبوت ٤٧ ) .

فلا اختلاف، ولا جِدة، ولا ميزة، فالكتاب هو « الإمام » ؛ والقرآن والكتاب هما في هدى التوحيد والبرهنة عليه سواء: « فأتوا بكتاب من عند الله هو أهدى منهما

(١) سيد قطب : التصوير الفني في القرآن ١٨٦ .



اتبعه إن كنتم صادقين)) ؛ والنبي وأهل الكتاب هما في مكة (( أمة واحدة )) ( أنبياء ٩١ مؤمنون ٥١ ) في الوحي وأسلوبه من نوح إلى إبراهيم إلى موسى إلى عيسى إلى محمد: (( إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده ... )) ( نساء ١٩٢- ١٦٤ ).

\*

يقول الأستاذ دروزة أيضاً: (( إن حكمة الله اقتضت أن لا تكون الخوارق دعامة لنبوة سيدنا محمد عليه السلام ... وآيات الأنبياء السابقين الخارقة حادثات وقعت وانقضت، ولكن أسلوب الدعوة القرآنية هو أسلوب خالد حي قوي في كل زمان ومكان ببراهينه ودلائله وحيويته وفصاحته ومعقوليته وسموه، ولذلك كان معجزة النبوة الخالدة الكبرى من هذه النواحي )) .

كأنه وأمثاله يقولون: لا حاجة في النبوة إلى معجزة!

- وصوت الفطرة، وصوت الكتاب، وصوت الإنجيل، وصوت القرآن كلها تصيح وتقول: لا نبوة بلا معجزة.

نكتفي بالواقع القرآني كما استخلصه الأستاذ دروزة نفسه من تحليل سور القرآن: (( لقد تكرر طلب الآيات من جانب الجاحدين، أو بالأحرى زعمائهم كثيراً حتى حكى القرآن المكي ذلك عنهم نحو خمس وعشرين مرة صريحة، عدا ما حكى عنهم من التحدي الضمني ومن التحدي بالإتيان بالعذاب واستعجاله والتساؤل عن مواعده ... إن المسلمين كانوا يتمنون استجابة الله لتحدي الكفار وإظهاره معجزة تبهتهم فيؤمنون ببراءة بأيمانهم ( أنعام ١٠٩ - ١١١ ). وفي الأنعام آية (٣٥) وجه الخطاب فيها إلى النبي ص. تدل على أنه هو نفسه كانت يتمنى أن يحدث الله على يده آية تبهت الكفار وتحملهم على الإدعان ... ولا نعدو الحق إذا قلنا إن الاستفادة من الآيات القرآنية المكية ان الموقف تجاه هذا التحدي المتكرر كان سلبياً إذا ما استثنينا الإشارة إلى القرآن كآية كافية أو إلى احتوائه ما في الكتب السماوية كآية على صحة وحي الله به )) .

فالواقع القرآني يشهد بأن الشعب كان يطالب النبي بمعجزة كالأنبياء الأولين: (( بل قالوا: أضغاث أحلام! بل افتراء! بل هو شاعر! فليأتنا بآية كما أرسل الأولون )) ( أنبياء ٥ ) فالقرآن يشهد (( بأن الموقف تجاه هذا التحدي المتكرر كان سلبياً )) .

وعندما ذكر القرآن وإعجازه (( كآية كافية )) قالوا: (( لولا أنزل عليه آية من ربه! - وإذا جاءتهم آية ( خطابية ) قالوا: لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما أوتي رسل الله )) (أنعام ١٢٤).

والمحاولات المتواترة عبر الزمن لجعل إعجاز القرآن معجزةً له، (( ومعجزة النبوة الكبرى الخالدة )) شاهد على ضرورة المعجزة لإثبات النبوة. وقد رأينا القرآن في إعجازه البياني في الآية السابعة من آل عمران. والقرآن المكي يشهد بأن تحديه للمشركين بإعجازه (إسراء ٨٨ يونس ٣٨ هود ٧١ الطور ٣٤ البقرة ٢٣) كان تحدياً بهداه لا بأسلوبه أو بإعجاز بيانه: (( قل فأتوا بكتاب من عند الله هو أهدى منهما أتبعه إن كنتم صادقين )) ( يقصص ٤٩). والقرآن يشهد بأن الكتاب هو (( إمامه )) في الهدى.

والقول بأن (( آيات الأنبياء السابقين الخارقة لحداثات وقعت وانقضت )) مرأً وهراء. فقد شهدت في حينها لنبوة أنبيائها. وإذا انقضت كحادثات فإن شهادتها لم تزل قائمة حتى بين مشركي مكة: (( فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا: لولا أوتي مثل ما أوتي موسى )) ! (قصص ٤٨). فأجاب النبي: (( قل ما كنتُ بدعاً من الرسل )) ( أحقاف ٩ ) فأجابوا: (( ويل قالوا: أضغاث أحلام! بل افتراه! بل هو شاعر! فليأتنا بآية كما أرسل الأولون )) . ( أنبياء ٥): وهكذا شهادة المعجزة هي شهادة للعصر وللدهر.

فالمعجزة دليل النبوة بشهادة الواقع القرآني. وقد عوّد الله البشرية مع أنبياء الكتاب أن لا نبوة من عنده بدون معجزة إلهية.

وقول أهل العصر بأن القرآن (( أسلوب جديد )) في النبوة والمعجزة (( لاجتماع الدليل والمدلول عليه )) كما قال ابن خلدون في مقدمته؛ أو كما يقول الأستاذ دروزة (( أسلوب جديد، هو أسلوب لفت النظر إلى الكون وما فيه من آيات باهرة والبرهنة بها على وجود الله وقدرته الشاملة ووحدته ... ولذلك كان ( هذا الأسلوب ) وظل معجزة النبوة الخالدة )) هو قول انحدر بوحى الله إلى مستوى الفطرة البشرية؛ مع الشهادة المتواترة: (( إن حكمة الله اقتضت أن لا تكون الخوارق دعامة لنبوة سيدنا محمد عليه السلام وبرهاناً على صحة رسالته وصدق دعوته . ))

والاستعاضة عن الخوارق لدعم النبوة، بأسلوب لفت النظر على الكون وما فيه من آيات باهرة، والبرهنة بها على وجود الله وقدرته ووحدته (( هو جعل الفطرة حكماً على

النبوة، والنبوة صوت الله فلا بدّ من عمل إلهي يهدينا إليه. والاستعاضة عن الخوارق لدعم النبوة بمطابقة النبوة للحقيقة هو جعل العقل حكماً على وحي الله.

وقياس الحقيقة الإلهية على الحقيقة البشرية، وبميزانها، فتشتبه علينا الحقيقة البشرية بالحقيقة الإلهية، يضطرننا إلى اعتبار كل حقيقة بشرية منزلة، واعتبار كل كتاب يعلم الحقيقة منزلاً: فلا سبيل إلى التمييز بين وحي الله ووحى العقل. ولا يمكن أن يتركنا الله في شك من وحيه وتعليمه، بدون ضابط إلهي يميّزها.

والاستعاضة عن المعجزة الحسية بالإعجاز الأدبي هو افتراض المستحيل على الله. فالإعجاز الأدبي العربي هو للخاصة من العرب، والدين المنزل هو لعامة الناس من عرب وعجم. فالشهادة لنبوة من الله بمعجزة الإعجاز البياني هو إرغام عامة البشرية على قبول معجزة يستحيل عليهم أن يفقهوها، وحاشا لله، الرحمان الرحيم، أن يلجئ الناس إلى ما لا يستطيعون (( ولا يكلف الله نفساً إلا وسعها )) .

فإذا صح إن موقف القرآن من كل معجزة كان (( سلبياً )) ، (( وإن حكمة الله اقتضت أن لا تكون الخوارق دعامة لنبوة سيدنا محمد عليه السلام )) فإن أسلوب القرآن في النبوة والمعجزة كان (( أسلوباً جديداً اختلف كل الاختلاف عن أسلوب الكتب المنزلة )) الذي عود الله البشرية عليه منذ كانت النبوة.

\*

### بحث خامس: شخصية النبي في مكة

(( إنما أنا بشر مثلكم يوحى إليّ )) (كهف ١١٠ فصلت ٦)

يظهر لنا من القرآن المكي أن شخصية النبي مثال حي على البطولة الصامدة في دعوة الحق.

قوبلت دعوة محمد بن عبد الله في مكة بين قومه وذويه منذ إعلانها بالاستنكار والاضطهاد على أنواعه.

منذ السور الأولى ( العلق ٦- ١٩ والقلم ١٠- ١٦ والمدثر ١١- ١٩ و ٤٩- ٥٢ والهمزة كلها ) تظهر معارضة الزعماء للدعوة الإصلاحية؛ وقد وصفها القرآن بقوله: (( أم

يقولون: نحن جميع منتصر (( القمر ٤٤ )) « بل الذين كفروا في عزّة وشقاق (( ص ٢ ))  
وقالوا: نحن أكثر أموالاً وأولاداً (( سبأ ٣٥ )) . « أيحسبون إنما نمدهم به من مال وبنين ...  
نسارع لهم في الخيرات! بل لا يشعرون (( مؤمنون ٥٤ )) .

وتطوّرت المعارضة إلى **التكذيب والتعطيل**: « أنزل عليه الذكر من بيننا (( )) وقالوا  
أساطير الأولين أكتتبها فهي تملّى عليه بكرة وأصيلاً! وقالوا ما لهذا الرسول يأكل الطعام  
ويمشي في الأسواق (( )) ! ( الفرقان ٥-٧ ) . « وإذا رأوا آية يستسخرون، وقالوا: إن هذا إلا سحر  
مبين (( )) ! ( الصافات ٥-٧ ) . « ولما جاءهم الحق قالوا: هذا ساحر، وإنا به كافرون! وقالوا:  
لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم (( زخرف ٣٠ )) . فجاء تقرير القرآن: ((  
وكذلك جعلنا في كل قرية أكابر مجرميها ليمكروا فيها وما يمكرون إلا بأنفسهم وما يشعرون ((  
أنعام ١٢٣ )) .

وانتقل التكذيب إلى **التحدّي المبدي**: « وإذا جاءتهم آية ( قرآنية ) قالوا: لن نؤمن حتى  
نؤتى مثل ما أوتي رسل الله (( )) ( أنعام ١٢٤ ) . ولما وقف القرآن الموقف السلبي من تحدّيهم  
للنبي بالمعجزة لصقوه بشتى التهم: (( بل قالوا: أضغاث أحلام! بل افتراه! بل هو شاعر! فليأتنا  
بآية كما أرسل الأولون )) ( الأنبياء ٥ ) . فكان جوابه: « ما كان لنبي أن يأتي بآية إلا بإذن الله ((  
! )) وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون )) ! « وإذا جاءت آيات ربك لا ينفع  
نفساً إيمانها )) .

واقترن التحدي **بالاستهزاء**: « ما يأتيهم من ذكر ربهم محدث إلا استمعوه وهم يلعبون،  
لاهية قلوبهم! وأسروا النجوى الذين ظلموا: هل هذا إلا بشر مثلكم؟ أفتأتون السحر وأنتم  
تبصرون (( )) ؟ ( أنبياء ٢ ) . « وإذا رءاك الذين كفروا إن يتخذونك إلا هزواً: أهذا الذي يذكر  
آلهتكم (( )) ؟ ( أنبياء ٣٦ ) . « وإذا رءوك إن يتخذونك إلا هزواً: أهذا الذي بعث الله رسولا (( )) ! ( )  
فرقان ٤١ ) . ودام هذا الاستهزاء بالنبي وجماعته حتى آخر العهد في مكة: « إن الذين أجرموا  
كانوا من الذين آمنوا يضحكون! وإذا مروا بهم يتغامزون! وإذا انقلبوا إلى أهلهم انقلبوا فاكهين!  
وإذا رءوهم قالوا: إن هؤلاء لضالون )) ! ( المطففون ٢٩-٣٢ ) . فكان جواب النبي: (( فذرهم  
في غمرتهم حتى حين ... أفلم يدبروا القول؟ أم جاءهم ما لم يأت آباءهم الأولين! أم لم يعرفوا  
رسولهم فهم له منكرون )) . ( مؤمنون ٦٩-٧٠ ) .

وجمعوا الجدل إلى الاستهزاء: « ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير! وإذا قيل لهم: اتبعوا ما أنزل الله! قالوا: بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا » ( لقمان ٢١ ). ويتنوع جدلهم في الرسول والرسالة والقرآن.

وقرنا بالجدل الأذى. وقد نال الأذى الأرقاء والمستضعفين من المسلمين أولاً بعرضهم عراً على الحرّة وفوق أجسادهم الصخور الثقيلة؛ أو منع الماء والطعام عنهم وهم مقيدون بأيديهم وأرجلهم إلى الحديد، أو بالجدل بالأسواط، حتى اضطر النبي أن ينصحهم بالهجرة الأولى والثانية إلى الحبشة: « قل يا عبادي الذين آمنوا اتقوا ربكم؛ وأرض الله واسعة... والذين هاجروا في الله، من بعد ما ظلموا لنبوئهم في الدنيا حسنة، ولأجر الآخرة أكبر لو يعلمون » ( نحل ١٠ و٤١ ).

وتوصل المشركون بأذى المسلمين واضطهادهم إلى فتنة بعضهم عن دينه في آخر العهد كما حكته سورة النحل: « من كفر بالله من بعد إيمانه... فعليهم غضب من الله ولهم عذاب عظيم » ( ١٠٦-١٠٩ ) ورددته سورة العنكبوت: « أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا: آمنا وهم لا يفتنون؟ ولقد فتنا الذين من قبلهم. فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين » ( ١-٢ ).

وحاكووا جميع ذلك بالمكر والمؤامرات. « وقد مكروا مكروهم! وعند الله مكروهم! وإن كان مكروهم لتزول منه الجبال »! ( إبراهيم ٤٤ )؛ « وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات تعرف في وجوه الذين كفروا المنكر! يكادون يسطون بالذين يتلون عليهم آياتنا »! ( آية مكية من سورة الحج ٧٢ ).

وانتهت المؤامرات المتتالية إلى محاولة الاغتيال: « وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك! ويقتلوك! أو يخرجوك! ويمكرون، ويمكر الله، والله خير الماكرين » ( أنفال ٣٠ تصف الحالة الأخيرة بمكة ). « فكروا في ثلاث وسائل وهي حبسه أو اغتياله أو نفيه. وروايات السيرة تذكر أن قرارهم قرّ على الاغتيال على شريطة اشتراك شبان من مختلف بيوتات قريش حتى يتوزع نأرة ولا يبقى إيمان لآله أن يطالبوا به. والروايات تذكر كذلك أن هذا قد كان في أخريات العهد المكي. وأن هجرة النبي ص. شخصياً قد وقعت على أثر وصول خبر قرار الاغتيال إليه ». ومكر الله الأكبر كان بالهجرة المتخفية إلى المدينة « إذ أخرجه الله ثاني اثنين، إذ هما في الغار، إذ يقول لصاحبه: لا تحزن إن الله معنا »! ( توبة ٤٠ ).

واستخلص القرآن من هذه المعارضة الدائمة له أن المعارضة للنبوّة قدر مقدور: (( وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً من المجرمين )) ! ( الفرقان ٣١ ). لا عدو واحد بل أعداء: (( وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً: شياطين الإنس والجن )) ! ( أنعام ١١٢ ).

وقد صمد محمد تجاه هذه المواقف العدوانية التي بلغت حد المؤامرة لاغتيا له موقف الصمود في الحق والبطولة في الدعوة له. وهذا فخر للنبي لا يُطال. ولم ينقصه سوى الاستشهاد في سبيل دعوته، كما فعل السيد المسيح. لما بلغت المؤامرة على النبي ذروتها احتال عليها بمعاهدة العقبة، والهجرة المتحفية إلى المدينة؛ أما السيد المسيح، فلما بلغت مؤامرات اليهود عليه حدّها، دخل إلى أورشليم عاصمة الدين والدولة دخول الفاتحين، وواجههم في الهيكل، جامع الصلاة والدعوة، مواجهة الفرد الأعزل لسلطان الدين والقوة وجهاً لوجه. وفي محاكمته لم ينتكر للحق الذي جاء به، ولم يهرب به من وجه القوى الغاشمة، بل شهد للحق واستشهد في سبيله (( وما قتلوه يقيناً؛ بل رفعه الله إليه! وكان الله عزيزاً حكيماً )) ! ( النساء ١٥٧ ) وشهادة الدم للحق أبلغ من شهادة السيف عند الله والناس.

\*

وفي زحمة هذا الإعلان المتواصل للدعوة إلى الإيمان بالله واليوم الآخر، واحتمال الاضطهاد من قومه من سبيل دعوته مدة ثلاثة عشر عاماً يظهر جلياً صدق النبي وإخلاصه، ومصداق قول القرآن فيه: (( وانك لعلى خلق عظيم )) ( قلم ٤ ).

وتتضح أيضاً صورة الإخلاص للدعوة من إعلان القرآن بشرية النبي المحدودة، في جميع مراحل التنزيل.

أعلن بشريته في سيرته العادية: (( وقالوا: ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق )) ! ( فرقان ٧ ) فأجاب: (( وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا أنهم ليأكلون الطعام ويمشون في الأسواق )) ( فرقان ٢٠ ).

وأعلن بشريته في تلقي الوحي. قال النبي إن ملاكاً ينقل إليه الوحي: (( وقالوا: يا أيها الذي نزل عليه الذكر أنك لمجنون! لو ما تأتينا بالملائكة إن كنت من الصادقين )) . ( حجر ٦-٧ ). فأجاب: (( وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً نوحى إليهم من أهل القرى )) ( يوسف ١٠٩ ) واستشهد بأهل الكتاب، على عادته في مكة: (( وما أرسلنا قبلك إلا رجالاً نوحى إليهم: فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون! وما جعلناهم جسداً لا يأكلون الطعام، وما كانوا خالدين )) ( أنبياء ٧-٨ ).

وأعلن بشريته في عجزه عن معجزة لم يأذن بها الله له (( وقالوا: لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيراً. أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفاً، أو تأتي بالله والملائكة قبيلاً. أو يكون لك بيت من زخرف. أو ترقي في السماء، ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتاباً نقرؤه! - قل سبحان ربي هل كنت إلا بشراً رسولاً )) (إسراء ٩٠- ٩٣). ويتحدونه بالمعجزة لتأييد رسالته فيقول: (( وقالوا: لولا نزل عليه آية من ربه! - قل إن الله قادر على أن ينزل آية )) (أنعام ٣٧). وتنزل المعجزة من غيب الله الذي لا يعلمه: (( ويقولون: لولا أنزل عليه آية من ربه! - قل إنما الغيب لله فانتظروا إني معكم من المنتظرين )) (يونس ٢٠) وفي آخر الأمر يصرح بأن المعجزات عند الله وهو ليس بصانع عجائب بل نذير: (( وقالوا: لولا أنزل عليه آيات من ربه! - قل إنما الآيات عند الله! وإنما أنا نذير مبين )) (عنكبوت ٥٠). هو نذير وهاد لا غير: (( ويقول الذين كفروا: لولا أنزل عليه آية من ربه! - إنما أنت منذر ولكل قوم هاد ))! (رعد ٧).

وأوجز القرآن موقف النبي من النبوة والمعجزة وموقف المشركين بتقرير بشرية النبي: (( وأسروا النجوى الذين ظلموا: هل هذا إلا بشر مثلكم: أفتأتون السحر وأنتم تبصرون؟ وما أرسلنا قبلك رجالاً نوحى إليهم فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون! وما جعلناهم جسداً لا يأكلوا الطعام )) (أنبياء ٣ و٧- ٨).

ومن مظاهر هذه البشرية تبرم النبي بضعاف المؤمنين: (( عبس وتولى: أن جاءه الأعمى! أما من استغنى فأنت له تصدى! وأما من جاءك يسعى وهو يخشى فأنت عنه تلهى ))! (عبس ١- ١١).

ومن مظاهر هذه البشرية تأديب الله للنبي أن (( لا يقهر اليتيم ولا ينهر السائل )) (ضحى ٩- ١١). ومن مظاهرها أيضاً دعاؤه على عمه أبي لهب وزوجه حمالة الحطب (سورة المسد أو تبت). ومن مظاهرها رد شتيمة إلى قائلها: عيروه بالأبتر أي المقطوع النسل عند وفاة ابنه الوحيد القاسم، فنزل: (( إن شانئك هو الأبتر ))! (كوثر ١٠٨).

ومن مظاهر هذه البشرية عتاب الله للنبي في بعض الحالات: (( ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة يريدون وجهه، ما عليك من حسابهم من شيء. وما من حسابك عليهم من شيء فتطردهم فتكون من الظالمين )) (أنعام ٥٢). كان المشركون طعنوا في حقارة

جماعته الأولى وطلبوا أن يطردهم ليجالسوه، وأراد النبي ص. ذلك طمعاً في إسلامهم<sup>١</sup> فعاتبه ربه هذا العتاب القاسي.

وتكررت الحادثة مع النبي مراراً وتكرّر اللوم والعتاب: « واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه، ولا تعدّ عينك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا! ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطاً » ( كهف ٢٨ ).

ويظهر القرآن بشرية النبي خصوصاً في الأزمات النفسية والأزمات الإيمانية التي يصفها بإخلاص وصراحة.

\*

**يزخر القرآن المكي بالأزمات النفسية<sup>٢</sup> التي كان يجتازها النبي طيلة العهد بمكة.** وتشعر من وصف القرآن لها أن النبي رجل مليء بالرجولة والبشرية معاً.

**الأزمة الأولى** كانت في لقاء « الوحي لأول مرة » نقل البخاري عن عائشة ( ١ : ٣ ) : « جاءه الحق وهو في غار حراء، فجاءه الملك فقال: اقرأ! - قال: ما أنا بقارئ. قال: فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال: اقرأ! قلت: ما أنا بقارئ! فأخذني فغطني الثالثة ثم أرسلني فقال: « اقرأ باسم ربك الذي خلق، خلق الإنسان من علق، اقرأ وربك الأكرم » . فرجع بها رسول الله ص. **يرجف فؤاده** فدخل على خديجة بنت خويلد فقال: « زملوني! زملوني! »! فزملوه حتى ذهب عنه الروع.

وروى الطبري حديثاً عن ابن الزبير أن أول ردّ فعل لرؤيا الغار كان التفكير **بالانتحار**: « قال: قلت إن الأبعد - يعني نفسه - لشاعر أو مجنون: لا تحدّث بها عني قريش أبداً. لأعمدَنَّ إلى حالق من الجبل فلأطرحن نفسي منه؛ فلأقتلنها فلأستريحن! قال: فخرجت أريد ذلك حتى إذا كنت في وسط الجبل سمعت صوتاً من السماء يقول: يا محمد أنت رسول الله وأنا جبريل » .

(١) تفسير الجلالين على آية الأنعام ٥٢ .

(٢) تجد بحثاً قيماً عنها عند الأستاذ دروزة : سيرة الرسول ١ : ٢٧٥ .

(٣) قابل سورة العلق .

(٤) قابل سورة المزمل .

(٥) نقله دروزة في ( القرآن المجيد ) ٢١ .



**والأزمة الثانية** كانت في فتور الوحي عند موت ورقة بن نوفل سنده في طريق النبوة. يتابع البخاري (١ : ٤) حديث عائشة: « ثم لم ينشب ورقة أن توفي وفتور الوحي ». وفي الروايات خلاف على مدة هذا الفتور تتراوح من أيام إلى ثلاث سنوات: « ولقد قيل إن النبي ضاق ضيقاً شديداً بانقطاع الوحي عنه، وإنه كان بهيم على وجهه في الصحراء يناجي ربه، وبلغ به الأمر مرة أن همَّ بالقاء نفسه من قمة جبل شاهق. وقد انتهت هذه المحنة الشديدة بنزول سورة ( الضحى ) التي تصف هذه الأزمة النفسية. ولم ينقطع الوحي ولم يفتر طويلاً إلا هذه المرة » .

**والأزمة الثالثة** في طريقة الصلاة وتلقي الوحي. جاء في ( أسباب نزول ) آية « طه: ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى » : « أخرج ابن مردويه عن ابن عباس أن النبي ص. كان أول ما أنزل الله عليه الوحي يقوم على حدّ قدميه إذا صلى فأنزل الله الآية. وأخرج عبد الرحمان عن الربيع قال: كان النبي ص. يراوح بين قدميه ليقوم على كل رجل حتى نزلت. وأخرج أيضاً ابن مردويه عن ابن عباس قال: قالوا: ( لقد شفي هذا الرجل بربه ) فنزلت » .

**والأزمة المتواصلة** هي عدم إيمان قومه به واضطهادهم لدعوته: « فإن الله يضل من يشاء، ويهدي من يشاء: فلا تذهب نفسك عليهم حسرات؛ إن الله عليم بما يصنعون » ( فاطر ٨ ). علّق دروزة عليها: « إن الآية احتوت نهياً للنبي عن اهلاك نفسه حسرة على عدم إيمان الجاحدين، وتسليّة له بتقرير أن الهداية والضلال من الله. وتلهم أنها نزلت في وقت اشتد فيه الحزن والغم على النبي ص. بسبب موقف الجحود الذي يقفه قومه من دعوته<sup>١</sup> ». وهذه الأزمة النفسية تتجدد في العهد الثاني: « لعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين! وما يأتيهم من ذكر من الرحمان محدث إلا كانوا عنه معرضين » ( شعراء ١ - ٣ ). من جزاء جحودهم واضطهادهم كان يسيطر على النبي من حين إلى حين حزن شديد يكاد يقتل به نفسه. « ومما لا ريب فيه أنها نزلت في ظرف اشتد فيه حزن النبي وهمه من مواقف التكذيب والاعراض، وهذا مما احتوته الآيات صراحة<sup>٢</sup> ». وتكررت الحال في العهد الثالث أيضاً: « فلعلك باخع نفسك على آثارهم أن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفاً »

(١) محمد صبيح : عن القرآن ٤٠ ودروزة : سيرة الرسول ١ : ١٢٨ .

(٢) سيرة الرسول ١ : ٢٧٦ .

(٣) سيرة الرسول ١ : ٢٧٧ .

( الكهف ٦ ) . قال دروزة: « والآية مثل آية الشعراء الثالثة. وتكرار الخطاب المماثل في فترتين متباعدتين يدل دون ريب على تكرار الظروف، وبالتالي على تكرار الأزمة من جراء موقف الجاحدين<sup>(١)</sup> .

ويزيده وحيه إحراجاً وأساساً بقوله: « إنك لا تسمع الموتى ولا تسمع الصم الدعاء إذا ولوا مدبرين. وما أنت بهادي العمي عن ضلالتهم. إن تُسمعُ إلا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون » ( نمل ٨٠ ) .

وتشتد هذه الأزمة بأزمة سادسة من أقوال المشركين ومواقف الهزء والسخرية به وبدعوته: « وإذا رأوك إن يتخذونك إلا هزواً، أهذا الذي بعث الله رسولاً »؟؟ ( فرقان ٤١ ) . « وإذا رآك الذين كفروا إن يتخذونك إلا هزواً أهذا الذي يذكر آلهتكم »؟! ( أنبياء ٣٦ ) . فيضيق النبي صدرًا بهذا التهكم والاستهزاء: « ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون » ( الحجر ٩٧ ) ويحزن ويغتم لأقوالهم: « فلا يحزنك قولهم: إنا نعلم ما يُبسرّون وما يعلنون »! ( يس ٧٦ ) . وتتوالى عليه أزمات الضيق والحزن من هذه المواقف: « قد نعلم إنه ليحزنك الذي يقولون »! ( أنعام ٣٣ ) .

وتتضاعف هذه الأزمات بأزمة خانقة من فقر المؤمنين به وغنى وقوة زعماء المشركين: « وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات، قال الذين كفروا للذين آمنوا: أيُّ الفريقين خيرٌ مقاماً وأحسن ندياً »! ( مريم ٧٣ ) وهذا الاعتداد بمقامهم يجعلهم يستكبرون عن الدعوة: « وقالوا: نحن أكثر أموالاً وأولاداً! وما نحن بمعذبين »! ( سبأ ٣٥ ) . وهذا الاستعلاء يظنونه من الله: « أيحسبون إنما نمدهم به من مال وبنين ... نسارع لهم في الخيرات! بل لا يشعرون » ( مؤمنون ٥٥ ) . وكان غنى المشركين سبباً في صدّ الناس عن الدعوة، فقال على لسان موسى من فرعون: « وقال موسى: ربنا إنك أتيت فرعون وملاه زينة وأموالاً في الحياة الدنيا! ربنا، ليضلوا عن سبيلك! ربنا اطمس على أموالهم! واشدد على قلوبهم! فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم » ( يونس ٨٨ ) . وكانت حال المشركين من ثراء وقوة سبب حسد في عيني النبي، فردعه الوحي عن هذا خاطر: « ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجاً منهم، زهرة الحياة الدنيا، لنفتنهم فيه ورزق ربك خيرٌ وأبقى ... نحن نرزقك والعاقبة للمتقوى »! ( طه ١٢١ ) . وعاد النبي إلى فتنته وأزمته، وعاد الوحي

(١) سيرة الرسول ١ : ٢٧٨ .

إلى تأديبه: (( لا تمدّن عينيك إلى ما متعنا به أزواجاً منهم، ولا تحزن عليهم، واخفض جناحك للمؤمنين )) ( حجر ٨٨ ).

ومن الأزمات التي يتردد صداها في القرآن تبرّم النبي بجماعته من الفقراء وتأقف زعماء المشركين من الجلوس إليه والسماع إليه وهم قربه. ولذلك يقول له مراراً: (( واخفض جناحك للمؤمنين )) ! ( حجر ٨٨ ). قال دروزة<sup>١</sup>: (( ونعتقد أن آيات سورة الأنعام ٥٢- ٥٣ والكهف ٢٨- ٣٠ والإسراء ٧٢- ٧٥ والقصص ٨٥- ٨٨ تنطوي على مشاهد من أزمات النبي ص. النفسية: إذ يصح أن يقال في صدد آيات الأنعام والكهف إن النبي إذا كان خطر على باله أن يهمل الفقراء والمساكين من المسلمين، أو يصرفهم عنه، حينما احتجّ الزعماء وطلبوا إقصاءهم عنه ليجلسوا إليه ويتحدّثوا معه، فإنما كان في ساعة من ساعات أزماته النفسية ومنبعثاً من حزنه الشديد لتمسكّ الزعماء بجحودهم ومعارضتهم ومتابعة الناس لهم، وعن أمله في انحياز المعتدلين إلى صفه. وإذ يصح أن يقال هذا كذلك في صدد آيات الإسراء والقصص وما يمكن أن يكون قد خطر على باله من الاستجابة والتساهل ببعض مقترحات هؤلاء الزعماء . فيتكرر التحذير: (( واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين )) ! ( شعراء ٢١٤ ).

ومما زاد في حدة أزماته النفسية موقف أقاربه منه ومن دعوته. وقد وصف القرآن موقفهم منه بقوله: (( وهم ينهاون عنه! وينأون عنه )) ! ( أنعام ٢٦ ). قالوا في تفسيرها: إن أقارب النبي الأذنين، خاصة عمه أبا طالب كانوا ينهاون عن مسّ النبي ص. بالأذى في حين يبتعدون عن دعوته<sup>٢</sup>. وفي ( أسباب نزول ) الآية أنها نزلت في عمومته وكانوا عشرة، فكانوا أشد الناس معه في العلانية وأشد الناس عليه في السر. وحاول مراراً استمالتهم فما أفلح بمكة: (( وانذر عشيرتك الأقربين. فإن عصوك فقل: إني بريء مما تعملون )) ! ( شعراء ١٢٤ ). فدعاهم إلى وليمة أولى، ثم إلى وليمة أخرى فما نجح. فدعاهم جهاراً إلى جبل الصفا فعطل الدعوة عمه أبو جهل وناواه عمه أبو لهب. فتوسل بعمه العباس وعمته صفية فما أفلح. (( وإنه لمن الطبيعي أن يثير هذا الموقف السلبي في نفس النبي ص.

(١) سيرة الرسول ١ : ٢٨٢ .

(٢) سيرة الرسول ١ : ٢٨٤ .

أزمات حادة من حين لآخر. فقد عرفت بيئة النبي وعصره بالتضامن أو العصبية العائلية. ومن المعقول أن ينظر الناس إلى موقف أقاربه الأذنين منها وأن يكون لهذا الموقف أثر فيهم. وأن يتخذ الزعماء موقفهم حجة للانصراف والمكابرة، ووسيلة للدعاية بين عامة الناس ضدها<sup>١</sup>. وقد وصف القرآن حرصه على إسلام عشيرته: «إنك لا تهدي من أحببت، ولكن الله يهدي ما يشاء، وهو أعلم بالمهتدين» (قصص ٥٦)، ويأسه من هداهم: «إن تحرص على هداهم، فإن الله لا يهدي من يضل»! (نحل ٣٧).

وهناك أزمة نفسية من أعمق الأزمات هولاً يرددها القرآن من حين إلى آخر، **الشعور الداخلي بالإثم** أو الوزر أو الذنب الذي يلاحقه. إنه وزر أنقض ظهره ووضع الله عنه: «ألم نشرح لك صدرك ووضعنا عنك وزرك الذي أنقض ظهرك»؟ (سورة الشرح). قال الزمخشري: «والوزر الذي انقض ظهره مثل لما كان يثقل على رسول الله ويغمه من فرطاته قبل النبوة». وقال البيضاوي: «ووضعنا عنك وزرك أي عبأك الثقيل، الذي انقض ظهرك: وهو ما ثقل عليه من فرطاته قبل البعثة». **وكان النبي يتعوذ من حضور الشياطين وهمزاتهم:** «وقل: رب أعوذ بك من همزات الشياطين وأعوذ بك رب أن يحضرون» (مؤمنون ٦٨). ويدعوه القرآن إلى الاستغفار من ذنوبه: «فاصبر أن وعد الله حق: واستغفر لذنبك! وسبح بحمد ربك بالعشي والأبكار» (غافر ٥٥). قال الدكتور صبحي الصالح الأستاذ بكلية الآداب بدمشق<sup>٢</sup>: «من المعلوم أن العفو لا يكون إلا عن ذنب، كما أن المغفرة إلا بعد ذنب. وقد صرحت الآية بهذا في سورة الفتح: إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر». جاء في تفسير ابن عباس: «لكي يغفر لك الله ما سلف من ذنوبك قبل الوحي وما تأخر، وما يكون بعد الوحي إلى الموت». قال الزمخشري فيها: «يريد جميع ما فرط منك؛ وعن مقاتل: ما تقدم في الجاهلية وما بعدها؛ وقبل ما تقدم من حديث مارية وما تأخر من امرأة زيد». وقد جمع الجلالان بين آية الشرح وآية الفتح اللتين تنسبان الإثم إلى محمد قبل بعثته وبعدها: «ووضعنا أي حططنا عنك وزرك الذي أنقل ظهرك. وهو كقوله: ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر». وهذا الشعور الدائم بالإثم هو، كما يعلمه أهل الضمائر الحساسة، مصدر الآم نفسية لا حد لها.

(١) سيرة الرسول ١ : ٢٨٥ .

(٢) مباحث في علوم القرآن ص ٧٤ مستنداً إلى تفسير المنار ١٠ : ٤٦٥ .

وهذا الألم من داخل يزيده ألماً من الخارج فشلت دعوته في مكة بسبب توقّفها على معجزة من الله تؤيدها، فانتظرها مع المشركين الذين كانوا يتحدّونه بها، فلم تأتي: (( سأريكم آياتي فلا تستعجلون )) ( أنبياء ٥ و ٣٧ ). فانتظروا وانتظر معهم بدون جدوى: (( ويقولون: لولا أنزل عليه آية من ربه! - فقل: إنما الغيب لله، فانتظروا إني معكم من المنتظرين )) ( يونس ٢٠ ) حينئذ أقسموا جهد أيمانهم: لئن جاءتهم آية ليؤمننّ بها )) ( أنعام ١٠٩ ). فبات ينتظر رحمة ربه؛ وبات المؤمنون معه بانتظار المعجزة المأمولة، فجاء جواب الوحي النهائي بعجز النبي وتعجيزه: (( وإن كان كبر عليك اعراضهم، فإن استطعت أن تبتغي نفقاً في الأرض أو سلماً في السماء فتأتيهم بآية )) ! (٣٥) سقط الجواب فأكمّله الجلالان: (( فافعل: المعنى أنك لا تستطيع ذلك )) . وهذا العجز الفعلي قضت به مبدئياً الحكمة الإلهية: (( وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون )) ( إسرء ٨٨ ): (( فإن حكمة الله اقتضت أن لا تكون الخوارق دعامة لنبوة سيدنا محمد )) : فهذا التحدي المتواصل من المشركين، وهذا العجز المتلاحق من النبي، مع رغبته الملحّة، ورغبة جماعته التي تستحنه عبثاً، كل ذلك مبعثه أزمات نفسية لا تنتهي، ومصدر هزات وجدانية عاصفة لا تهدأ: (( ولو أنّ قرآناً سُيِّرَ به الجبال أو قُطعت به الأرض أو كُلم به الموتى! بل لله الأمر جميعاً: أفلم ييأس الذين آمنوا أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعاً )) ! ( الرعد ٣١ ).

\*

تلك الأزمات النفسية المتلاحقة كان من مظاهرها:

١- تيرّمه بجماعته الفقراء والمساكين ( أنعام ٥٢ كهف ٢٨ ) وتحذير القرآن له من ذلك، وحثه له على ملاطفتهم ( حجر ٨٨ شعراء ٢١٤ ).

٢- رغبته الملحّة وحرصه الشديد على اكتساب بعض الزعماء: (( أثر عن النبي أحاديث يدعو فيها ربه أن يعزّ الإسلام ببعض الأقوياء ... وأن هذا الحال دام ثلاث سنين إلى أن أسلم عمر بن الخطاب وحمزة بن عبد المطلب ر. ( عم النبي الشاب ) وغيرهما من الأقوياء المعروفين )) : وغيرته من تفوّقهم (( بزينة الدنيا من مال وبنين وجاء وقوة )) ( طه ١٣١ حجر ٨٧ ).

٣- تلك المحاولات المتواترة للهرب من اضطهاد قومه له، منذ سورة القلم (( إذ تنهي

(١) سيرة الرسول ١ : ٢٢٦ .

(٢) دروزة : سيرة الرسول ١ : ١٤٨ .

النبى ص. أن يكون كصاحب الحوت الذي حدا به موقف قومه الجحودي إلى اليأس منهم وهجرهم، مما يمكن أن يدل على أن النبى ص. قد تأثر من صدمة الجحود منذ العهد الباكر **تأثراً غير يسير**» وراودته التجربة في العهد الثاني: «وإن كادوا ليستفزونك من الأرض ليخرجوك منها» (إسراء ٧٦): «فلا نستبعد، استلهاماً من آية الإسراء أن يكون النبى قد فكر بالخروج (إلى الحبشة) مع الخارجين ثم ألهمه الله البقاء وثبته مع الذين بقوا وثبتوا في مكة؛ كما لا يستبعد أن يكون قد فكر بالخروج بعدهم وقد قل أصحابه من حوله قلة كبيرة ... وآية الإسراء بسبيل وصف شدة عناد وصد طغاة الزعماء وموافقهم من النبى ص. التي أزعجته إزعاجاً شديداً حتى فكر في النزوح عن مكة في أواسط العهد المكي» . وفعلاً حاول الفرار في آخر العهد الثاني إلى الطائف ورجع خائباً مستجيراً بأحد زعماء مكة ليدخلها. وفي آخر العهد بمكة عاودته الفكرة فردعه الوحي عنها: «فاصبر إن وعد الله حق ولا يستخفئك الذين لا يوقنون» (روم ٦٠) «توصيه الآية بالصبر والأل يحمله استخفاف قومه له على الفتور أو تغيير موقفه أو النزوح، مما يدل على حادث شديد الأثر أثار في نفسه شيئاً غير يسير من القلق» . أخيراً بعد سنتين من المفاوضات السريّة مع أهل يثرب هاجر إليها متخفياً؛ فهذه الأزمات النفسية المتواترة المتراكمة انتهت به إلى الهجرة النهائية من مكة، وتغيير طريقة الدعوة «بالحكمة والموعظة الحسنة» إلى «الحديد الذي فيه بأس شديد» .

٤- وقد حطمت تلك الأزمات من صلابة النبى وحملته على التساهل مع المشركين من حين إلى حين، فترى السور تتلاحق بين علو وهبوط، منذ سورة القلم: «فلا تطع المكذبين: ودوا لو تدهن فيدهنون» . ومن أشكال هذا التساهل مع المشركين فتنة النبى عمّا يوحى إليه: «وإن كادوا ليفتنوك عن الذي أوحينا إليك لتفتري علينا غيره، وإذا لاتخذوك خليلاً. ولولا أن نبيتناك لقد كدت تركزن إليهم شيئاً قليلاً» (٧٣). قال دروزة: تتضمن الآيات مشهداً خطيراً من مشاهد العهد المكي ... وإنه خطر بباله أن يتساهل

(١) دروزة: سيرة الرسول ١ : ٢٨١ .

(٢) دروزة: سيرة الرسول ١ : ٢٦١ .

(٣) دروزة: سيرة الرسول ١ : ٢٨١ .

(٤) دروزة: سيرة الرسول ١ : ١٩٤ - ١٩٦ .

بعض التساهل معهم حرصاً على هدايم. ولكن الله عصمه لأن فيما طلبوه شيئاً من الشذوذ عمّ أوحى إليه من أسس الدعوة ... ولكن الأمر لم يتعدّ الخاطر إلى الفعل. وهكذا يتكرر هذا المشهد الذي بدأ في أوائل البعثة فنزلت به آيات القلم (( . ومن مظاهر التساهل مظاهره المشركين التي يردعه عنها القرآن: (( فلا تكوننّ ظهيراً للكافرين! ولا يصدّنك عن آيات الله بعد أن أنزلت إليك! وادعُ إلى ربك ولا تكونن من المشركين )) ( قصص ٨٧- ٨٨ ). وقال دروزة: (( احتوت تنبيهاً له بأن لا يظاهر ولا يواد الكافرين وبأن لا يدعمهم يصدونه عمّا أنزل الله إليه. وبأن لا يأتي بأي شيء فيها أي معنى من معاني إشراك أحد غير الله مع الله. ويلهم هذا أن النبي ص. كان يختلج في نفسه مسaire الزعماء شيئاً ما رغبة في كسبهم إلى صفه ... وتكرّر الإشارات إلى هذا النوع من المشاهد<sup>١</sup> . وقد تصل به مضايقتهم له بمعجزة، وتساهله مع المشركين إلى الهمّ بإهمال بعض ما يوحى إليه: (( فلعلك تارك بعض ما يوحى إليك وضائق به صدرك أن يقولوا: لولا أنزل عليه كنز أو جاء معه ملاك! إنما أنت نذير ))! (هود ١٢). قال دروزة<sup>٢</sup>: (( احتوت الآية تنبيهاً للنبي ص. إلى ما يمكن أن يجول في خاطره من تبرّم أو ضيق صدر، فيتلافى تلاوة بعض ما يوحى إليه على الكفار بسبب موافقهم: وقد روى الرواة أن الكفار كانوا يطالبون النبي ص. بالمعجزات فلا يستجيب إليهم. ثم توحى الآيات إليه فيسخررون منه، ويقولون: هلاً استنزلت كنزاً أو ملكاً بدلاً من هذه الآيات إذا كانت من عند الله؟ فكان يخجل ويتهرب منهم أحياناً. وليس في الرواية ما لا يتسق مع الآية إجمالاً. وصورة الأزمة الشديدة النفسية في الآية بارزة كل البروز )) . وتصل به الحال في آخر العهد إلى تبديل آية بآية: (( وإذا بدلنا آية مكان آية - والله أعلم بما ينزل - قالوا: إنما أنت مفتر ))! (نحل ١٠١) ممّا شنع به عليه المشركون وحملوا بعض المؤمنين، بسبب هذا التبديل، على الارتداد عن الإسلام في آخر العهد بمكة.

وهذه الأزمت النفسية المتواترة والمتراكمة انتهت به أحياناً إلى أزمت إيمانية خانقة.

\*

ومن أوضح الدلائل على صحة ما وصلنا من القرآن وعلى صدق النبي وصف القرآن لأزمات الإيمان والوحي والتوحيد التي كان يمرّ بها النبي من حين إلى حين.

(١) سيرة الرسول ١ : ١٩٧ .

(٢) سيرة الرسول ١ : ٢٧٧ .

في القرآن المكي ظاهرة متواترة غريبة مريبة، ألا وهي تحذيرات القرآن للنبي من الشرك، ومن التساهل في التوحيد مع المشركين.

منذ سورة القلم يقال له: « فلا تطع المكذبين: ودّوا لو تدهن فيدهنون » (٨-٩): لا تحذير بدون سبب. وفي العهد الثاني تكثرت التحذيرات الصريحة: « فلا تدع مع الله إلهاً آخر، فتكون من المعذبين. وانذر عشيرتكَ الأقربين » ( شعراء ٢١٣ ) فهل دعا مع الله إلهاً آخر حتى جاءه هذا الأمر؟ وختام سورة القصص يوضح الموقف: « فلا تكوننّ ظهيراً للكافرين ولا يصدّتك عن آيات الله بعد إذ أنزلت إليك، وادع إلى ربك ولا تكونن من المشركين، ولا تدع مع الله إلهاً آخر: لا إله إلا هو » (٨٦ - ٨٨): يظهر أنه تساهل مع المشركين وذكر آلهتهم بخير حتى رده القرآن عن مشاركة المشركين ومظاهرتهم، وردّد له الأمر: « لا تدع مع الله إلهاً آخر » ! وتتنوّع التهديدات في سورة الأنعام: « ولا تكونن من المشركين! (١٤) فلا تكونن من الجاهلين! (٣٥) والذين آتيناهم الكتاب يعلمون أنه منزل من ربك بالحق: فلا تكونن من الممترين! (١١٤). وتتكرر في سورة يونس: « ولا تكونن من المشركين! (١٠٥) ولا تدع من دون الله ما لا ينفك ولا يضرّك » ! (١٠٦). تساهل النبي قد يورّطه في الشرك: « فلا تك في مرية مما يعبد هؤلاء: ما يعبدون إلا كما يعبد آباؤهم من قبل » ! ( هود ١١٠ ). وتمتد هذه التحذيرات حتى آخر العهد في مكة: « لئن أشركت ليحبطنّ عملك ولتكوننّ من الخاسرين » ( زمر ٦٥ ). ويدعو القرآن النبي مراراً إلى الاستغفار لذنبه: « واستغفر لذنبك » ! ( المؤمن ٥٧ ): هل يعني هذا الذنب تساهله في التوحيد مع المشركين، وسماحه لهم بعبادة « رب البيت » قبل أن يطهر من الأصنام، أو رب هذا « البلد » قبل إسلامها؟

تلك التحذيرات المتواترة وتلك التهديدات المتواصلة توضح معنى الأزمت الإيمانية التي كان النبي يقاسيها من حين إلى آخر، حتى بلغت عنده مبلغ الشك من وحيه ( يونس ٩٤ ).

\*

١- الأزمة الأولى في قصة الغرانيق من سورة النجم. قال حسين هيكل في ( حياة محمد<sup>١</sup> ): « حديث الغرانيق أورده ابن سعد في طبقاته الكبرى، والطبري في تاريخ الرسل

(١) الدكتور محمد حسين هيكل : حياة محمد : الفصل السادس .



والملوك، وأورده كثيرون من المفسرين المسلمين وكتاب السيرة؛ وأخذ به جماعة المستشرقين (( لما اصطدم النبي في دعوته الأولى بزعماء قومه، وأظهروا له العداة، وأخذوا يضطهدون جماعته تراءى له أن يتساهل معهم في استشفاع آلهتهم اللات والعزى ومناة، وكان يتمنى أن ينزل عليه قرآن يقربهم إليه ويكفون عنه. جاء في ( أسباب النزول ): (( أخرج ابن أبي حاتم وابن جرير ( الطبري ) وابن المنذر من طريق بسند صحيح عن سعيد بن جبير قال: قرأ النبي ص. بمكة النجم فلما بلغ (( أفرايم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى ... )) ألقى الشيطان على لسانه (( تلك الغرائق العلى، وإن شفاعتهن لترتجى )) . فقال المشركون: ما ذكر آلهتنا بخير قبل اليوم فسجد فسجدوا فنزلت: (( وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته فينسخ الله ما يلقي الشيطان ثم يحكم الله آياته )) ( حج ٥٢ ). لاحظ أن فعل (( أرايتم )) يتعدى إلى مفعولين، ولا يتم المعنى بدونهما، فقد ذكر الأول والثاني محذوف ( الجلالان ). والمحذوف هو ما أجمع على روايته أهل التفسير والحديث والسيرة؛ قال الحافظ بن حجر: (( كثرة الطرق تدل على أن للقصة أصلاً؛ مع أن لها طريقتين صحيحتين مرسلتين أخرجهما ابن جرير الطبري )) . وللرواية سند مبني من القرآن لا تفهم بدونه في سورة الحج (٥٢) التي رأينا: أنها تقرّر مبدأ إلقاء الشيطان في قراءة كل نبي، ويقولون بأنه ألقى على لسان محمد في سورة النجم الإقرار بشفاعة آلهة العرب، حتى نسخ الله ما ألقى الشيطان وأحكم آياته. وآية الزمر (( وإذا ذكر الله وحده اشمازت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة وإذا ذكر الذين من دونه إذا هم يستبشرون )) (٤٥) فيها إشارة صريحة إلى قصة الغرائق كما تقول ( أسباب النزول ): (( أخرج ابن المنذر عن مجاهد أنها نزلت في قراءة النبي ص. النجم عند الكعبة، وفرحهم عند ذكر الآلهة )) . وللرواية أيضاً سند واقعي: كل التحذيرات والتهديدات التي يرددها القرآن لا تفهم بدون هذه الهفوة الأولى في (( أم مسائل الإسلام جميعاً: في التوحيد )) !. وختموا الرواية هكذا: (( جلس محمد في بيته حتى إذا أمسى أتاه جبريل، فعرض عليه النبي سورة النجم؛ فقال جبريل: أوجنتك بهاتين الكلمتين؟ قال محمد: قلت على الله ما لم يقل )) !

واستقام بتأكيد التوحيد الخالص، سلباً في سورة ( الكافرون ) وإيجاباً في سورة (الإخلاص).

\*

(١) لاحظ أن الجواب ساقط لا يسد مسده شيء .

٢- فعادت الحرب سجالاً بين النبي وملاّ قريش. وخشي من جديد على جماعته الفقراء الأرقاء من اضطهاد الزعماء لهم، وقد منعوا محمداً من لمس الحجر الأسود المقدس. فأظهر تكريمه لمكة بالقسم بها كما يقسم بمهبط الوحي المسيحي والإسرائيلي: (( والتين والزيتون! وطور سنين! وهذا البلد الأمين! ... )) (سورة التين ١- ٣). أضح أن يقسم بمكة ولم تطهر بعد من الأصنام؟ فلام نفسه ثم استحل القسم بها لوجوده فيها: (( لا! أقسم بهذا البلد، وأنت حلٌّ بهذا البلد! ووالد وما ولد! لقد خلقنا الإنسان في كبد )) (سورة البلد ١- ٣). ولم يكتف بهذا التكريم فتساهل معهم بعبادة (( رب البيت )) (( لإيلاف قريش: فليعبدوا رب هذا البيت! الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف (سورة قريش) كما في عام الفيل. البيت الحرام لم يطهر بعد من الأصنام: فمن هو ربه حتى يسمح بعبادته؟ ولذلك توالى عليه التحذيرات: (( خذ العفو، وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين! وإما ينزعتك من الشيطان نزع فاستعذ بالله أنه سميع عليم. إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون ))! (أعراف ١٩٦- ٢٠٠). فتذكر وأبصر وردد: (( إن المساجد لله: فلا تدعوا مع الله أحداً. وإنه لما قام عبد الله يدعوه كادوا يكونون عليه لبداً. قل إنما ادعو ربي ولا أشرك به أحداً. قل إنني لن يجيرني من الله أحد، ولن أجد من دونه ملتحداً )) (الجن ١٨- ٢٣). وعاد من أزمته واستقام في ظروف الهجرة إلى الحبشة، وتذكر: (( ألم أعهد إليكم يا بني آدم أن لا تعبدوا الشيطان (يس ٥٨)؛ )) (( فلا تطع الكافرين، وجاهدهم به جهاداً كبيراً (فرقان ٥٢)).

\*

٣- عاد بعض جماعته من الحبشة. وتجددت المعارضة للنبي حتى أشقته فنزل تسليية له: (( طه ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى )) (طه ١- ٢). ويظهر أن الأزمات الإيمانية في هذه الفترة، علاوة على الأزمات النفسية، أشقت النبي فكان إيمانه، وإخلاصه في التوحيد، في علو وهبوط.

وحاول في سورة (النمل) أن يجمع بين عبادة الله الأحد، وعبادة رب مكة: (( إنما أمرت أن أعبد رب هذه البلدة، الذي حرّمها وله كل شيء! وأمرت أن أكون من

(١) في سورة الإخلاص يقول: (( قل هو الله أحد، الله الصمد، لم يلد ولم يولد )) وهنا في سورة البلد يقول: (( أقسم بهذا البلد، ووالد وما ولد ))!

المسلمين)) (٩١): إذا كان رب مكة هو الله، إله التوحيد والإسلام، فما معنى دعوته القرآن؟ وإذا كان رب مكة غيره فكيف يؤمر محمد بعبادته؟ - وإنما ذلك تساهل جديد كالذي ورد في سورة قريش. فجاء الجواب لأدعا مرة في سورة القصص التي تليها: «وما كنت ترجو أن يلقي إليك الكتاب إلا رحمة من ربك: فلا تكونن ظهيراً للكافرين! ولا يصدنك عن آيات الله بعد إذ أنزلت إليك! وادع إلى ربك ولا تكونن من المشركين! ولا تدع مع الله إلهاً آخر! لا إله إلا هو» (٨٦-٨٨) - فيظهر أنه دعا مع الله إلهاً آخر بقوله: «إنما أمرت أن أعبد رب هذه البلدة» (٨٦-٩١) يظهر ذلك جلياً من تردد الأمر ذاته في سورة (الإسراء): «لا تجعل مع الله إلهاً آخر فتقعد مذموماً مخذولاً» (٢٢)! «ولا تجعل مع الله إلهاً آخر فتلقى في جهنم ملوماً مدحوراً» (٣٦)! «وقل لعبادي يقولوا التي هي أحسن: إن الشيطان ينزغ بينهم، إن الشيطان كان للإنسان عدواً مبيناً» (٥٣)!

وسورة الإسراء هذه تصف محنة النبي التي تحذره منها: «وإن كادوا ليفتنوك عن الذين أوحينا إليك لتفتري علينا غيره، وإذا لاتخذوك خليلاً! ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئاً قليلاً، إذا لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات ثم لا تجد لك علينا نصيراً» (٧٣-٧٥). قال دروزة: «سورة القصص تأتي في الترتيب قبل سورة الإسراء مباشرة. ويُلح في الآيات شيء مما جاء في آيات الإسراء بصراحة أكثر: إذ احتوت أمراً للنبي ص. بأن يشهد الله على المهتدي من الضال، وتنبيهاً له بأن لا يُظاهر ولا يواد الكافرين، وبأن لا يدعهم يصدونه عما أنزل الله إليه، وبأن لا يأتي بأي شيء فيه أي معنى من معاني إشراك أحد غير الله مع الله. ويلهم هذا أن النبي ص. كان يختلج في نفسه مسابرة الزعماء شيئاً ما رغبةً في كسبهم إلى صفه» .

كادت تلك المسابرة، بشهادة القرآن، توصل النبي إلى فتنته عن الوحي وعن الإخلاص للتوحيد؛ يظهر ذلك من التهديدات المتواترة لفظاً ومعنى.

\*

٤- وهذه الفتنة عن الوحي والتوحيد بلغت مداها من نفس النبي حتى شك محمد من الوحي القرآني كما جاء في سورة (يونس): «فإن كنت في شك مما أنزلنا إليك فاسأل الذين

يقروون الكتاب من قبلك: لقد جاءك الحق من ربك! فلا تكوننّ من الممترين! ولا تكونن من الذين كذبوا بآيات الله فتكونن من الخاسرين» (٩٤- ٩٥). هذا المشهد يشهد بأن أزمة الإيمان بالقرآن والتوحيد بلغت في نفس محمد ذروتها من «الشك والمرية والتكذيب بآيات الله»! وفي هذه الحالة القصوى من الأزمة الإيمانية يحيل القرآن محمداً على عادته إلى أساتذته من أهل الكتاب ليطمئنوه على صحة وحي التوحيد والإيمان به: «فلا يك في مرية»! (هود ١٧) «ولا يك في مرية مما يعبد هؤلاء»! (هود ١١٠). هنا تتجلى بشرية محمد بأجلى مظاهرها؛ ويظهر فضل أهل الكتاب عليه بإرشاده في شكه.

\*

٥- ويظهر من سورة (هود) أن سبب هذه الأزمة الإيمانية الأخيرة الحادثة كان بسبب عجزه عن المعجزة، دليلاً على نبوته؛ تلك المعجزة التي ما فتنوا يتحدّونه بها ليؤمنوا به: «فلعلك تارك بعض ما يوحى إليك، وضائق به صدرك أن يقولوا: لولا أنزل عليه كنزاً! أو جاء معه ملك! - إنما أنت نذير! والله على كل شيء وكيل» (١٢). في الأزمة السابقة شك من قرآنه. وفي هذه الأزمة الجديدة أو شك يترك بعض ما يوحى إليه! وذلك بسبب امتناع المعجزة عنه؛ تلك المعجزة التي طالما انتظرها مع المشركين والمؤمنين على السواء (يونس ٢٠)، فما جاءت، لا بل نزل ما قطع عليه الطريق نهائياً: «وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون» (إسراء ٥٩).

وكذلك تحدي القرآن المشركين بإعجازه في هذه الظروف (إسراء ٨٨ يونس ٣٨ هود ١٣) ليس معجزة، بل رد على مقالة افتراء القرآن: ولو كان في الإعجاز معجزة لما وقع محمد نفسه في محنة الشك (يونس ٩٤) وفتنته عن وحي قرآنه (إسراء ٧٣) وتجربته بترك بعض ما يوحى إليه (هود ١٢). **أيشك محمد لحظة من وحي القرآن ويعطيه معجزة؟! وكان النبي يقول: «شيبنتي هود»! جاء في (الزمخشري): «عن ابن عباس: ما نزلت على رسول الله ص. آية كانت أشد ولا أشق عليه من هذه الآية: (فاستقم كما أمرت ومن تاب معك ولا تطغوا، إنه بما تعملون بصير. ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار!)، ولهذا كان يقول: شيبنتي هود! قيل: ما الذي شيبك منها؟ قال: «فاستقم كما أمرت»! ثم قال: أفنقر إلى الله بصحة العزم**

.. ((

\*

٦- وفي السورة الأخيرة من العهد الثاني جعل القرآن يشدد على الاستقامة في الدين والإخلاص في التوحيد بطريقة سافرة: « قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إليّ إنما إلهكم إله واحد فاستقيموا له واستغفروا! وويل للمشركين »! ( فصلت ٦ ). ويتنصّل من عبادة الشركاء: « هو الحي، لا إله إلا هو: فادعوه مخلصين له الدين! قل إنني نهييتُ أن أعبد الذين تدعون من دون الله، لمّا جاءني في البينات من ربي! وأمرتُ أن أسلم لرب العالمين »! ( غافر ٦٥-٦٦ ). فالدعوة للإخلاص في الدين كانت على أثر نهى صريح عن عبادة شركائهم: « إنا أنزلنا عليك الكتاب بالحق: فاعبد الله مخلصاً له الدين »! ( زمر ٢ ). وتكرار الأمر في هذه الفترة يحمل في طياته معنى الريية من الإخلاص في الدين! فلا زلفى إلى أوليائهم: « ألا الله الدين الخالص! والذين اتخذوا من دونه أولياء - ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى - إن الله يحكم بينهم في ما هم فيه يختلفون » ( زمر ٣ ). ونشعر بخوف النبي من فعلته: « قل إنني أمرت أن أعبد الله مخلصاً له الدين، وأمرت أن أكون أول المسلمين. قل: إني أخاف، إن عصيت ربي، عذاب يوم عظيم! قل: الله أعبد مخلصاً له ديني! فاعبدوا ما شئتم من دونه »! ( زمر ١١-١٤ ). والتوحيد هو الدين الذي شرعه الله لنوح وجميع الأنبياء من بعده (شورى ١٣) وقد أنزله الله في الكتاب، لذلك يؤمن محمد بالكتاب ويطمئن نفسه بهذا الإيمان بالكتاب، وشهادة أهله له: « فلذلك فادع واستقم كما أمرت، ولا تتبع أهواءهم وقل آمنتم بما أنزل الله من كتاب » (شورى ١٥). فسبب كل هذه التحذيرات والتهديدات هو أنه في مسابرتهم اتبع أحياناً أهواءهم.

وأبرموا أمراً بحق النبي ( زخرف ٧٩ ) فاعتزلهم إلى الطائف.

\*

٧- ورجع من الطائف على استحيا ليرى أن أزمة الإيمان بلغت منه ومن جماعته أقصى مداها. لقد اضطر إلى تبديل آيات مكان آيات، فشعر بذلك جماعته والمشركون أنفسهم فشنعوا عليه، وحملوا بعض جماعته على الارتداد عنه وعن الإسلام: « إنا نرجح أن حادث الارتداد الذي أشارت إليه الآيات ( النحل ١٠٦-١٠٩ ) كان بسبب وظروف ما حكته الآيات التي سبقت هذه الآيات من تبديل آية بآية: ( فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم. وإذا بدلنا آية مكان آية - والله أعلم بما ينزل - قالوا: إنما أنت مفتر )! وروح الآيات ومضمونها في الجملة يلهم أنها نزلت في صدد حادث له صلة بالقرآن، ويلهم أنه أوحى للنبي ص. ببعض الآيات لتكون مكان بعض آيات أخرى، فلما تلا الجديدة وأهمل

الأولى استغل زعماء الكفار ذلك فأخذوا يشنعون عليه ويهاجمون دعواه كون القرآن وحياً إلهياً، وينسبون إليه الافتراء والتعلم من الشخص الأجنبي المعين. ولعلمهم قالوا إن الشيطان هو الذي يوسوس له ويلقي عليه لا الملك، وان التبديل دليل على ذلك. وتوسلوا بالإغراء إلى جانب الاستغلال والتهويش. وكان من نتيجة ذلك أن ارتد بعضهم استجابة لهذه الدعاية واستحباً لمنافع الدنيا معاً» والسرّ كل السرّ في قرن الاستعاذة من الشيطان في قراءة القرآن بحادث تبديل آية بآية ( نحل ٩٨ و ١٠٠ ). وهذا التقارب بين الاستعاذة والتبديل تفسره آية الحج: (( وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلا إذ تمنى ( قرأ الكتاب ) ألقى الشيطان في أمنيه )) (٥٢).

بعد أزمة الشك الشخصية، كانت أزمة التبديل في أي القرآن أصعب أزمت الإيمان على النبي وعلى جماعته، بسبب قرنها بالاستعاذة من الشيطان الرجيم.

وهذه الأزمة هي التي ملأت العهد الأخير بمكة وسكبت عليه كل مرارته، وعجلت بمفاوضات الهجرة إلى المدينة. وظلت الفتنة التي نتجت عنها قائمة حتى سورة العنكبوت وهي من آخر ما نزل بمكة: (( أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا: (( آمنا )) وهم لا يفتنون؟ ولقد فتناً الذين من قبلهم: فليعلمن الله الذين صدقوا، وليعلمن الكاذبين )) (١-٣).

وبلغت آثار التبديل في القرآن وفتنة المسلمين بسببها، حدّ اليأس في سورة ( الرعد )، (( ويقول الذين كفروا: لولا أنزل عليه آية من ربه ... ولو أن قرأناً سُيرت به الجبال أو قطعت به الأرض أو كُلم به الموتى! - بل الله الأمر جميعاً: أفلم ييأس الذين آمنوا لو يشاء الله لهدى الناس جميعاً ... وما كان لرسول الله أن يأتي بآية إلا بإذن الله؛ لكل أجل كتاب: يحو الله ما يشاء ويثبت، وعنده أم الكتاب )) ( رعد ٢٩ و ٣٣ و ٤٠ و ٤١ ). إذا كان الله عنده أم الكتاب، فما حاجته مع النبي بالذات إلى التبديل وإلى المحو والإثبات؟؟

تلك الأزمت السبع الإيمانية أوصلت النبي والمسلمين إلى حالة اليأس في آخر العهد بمكة، حتى جاءهم الفرج بالهجرة إلى المدينة.

تلك الأزمات النفسية والإيمانية حملت النبي ومن معه إلى الهجرة النهائية عن مكة، وطوّرت الدعوة بهذه الهجرة، من دينية إلى عسكرية، ومنعت محمداً بالنتيجة من الاستشهاد الفعلي في سبيل دعوته كما ينص الإنجيل عن المسيح.

وحمل محمد وتحملته تلك الأزمات النفسية والإيمانية مدة ثلاث عشرة سنة، وهو فرد ضدّ أمة معارضة، دليل على بطولة النبي وبشريته معاً: إنه (( الرسول البشر )) بكل ما في هذه الكلمة من أنوار وظلال: (( إنما أنا بشر مثلكم يوحى إليّ )) ! ( فصلت ٦ ).

\*

### بحث سادس: موقف محمد من الوحي القرآني

كان موقف الإيمان والأمانة، والصدق والاستقامة. وتصاريح القرآن المتنوعة عن (( بشرية )) النبي، وإنه (( لا يعلم الغيب )) ، وعن تهريبه الدائم من ادعاء المعجزة مع حثهم له طيلة العهد على اجترأها (( لولا اجتبيتها )) ، والأزمات النفسية المتنوعة، والأزمات الإيمانية المتكررة، كلها دلائل على إخلاص محمد لدعوته.

ولكن في القرآن المكي آيات، فيها شبهات يحار فيها المؤمن وغير المؤمن. نوجز منها سبع وقائع تطورت إلى سبعة مبادئ في كيفية تلقّي الوحي القرآني وتبليغه.

١- الظاهرة الأولى: نسيان النبي بعض ما يوحى إليه: (( سنقرئك فلا تنسى<sup>١</sup> إلا ما شاء الله، إنه يعلم الجهر وما يخفى! ونُيسرُكَ لليسرى )) ( الأعلى ٦ - ٨ ). والقضية قضية أمر واقع للنبي: إنه ينسى بعض الوحي؛ وقضية مبدأ إلهي: (( فالاستثناء )) (إلا ما شاء الله) يفيد بأن الله قد يشاء أن ينسى النبي بعض ما يوحى إليه. نقل البيضاوي: (( روي أنه ص. أسقط آية في قراءته في الصلاة، فحسب أبي أنها نُسخت، فسأله؛ فقال: نسيته )) . وعلى كلا الحالين: هل يصح أن يوحى الله شيئاً ثم يأمر بنسيانه؟ وإذا قبل النبي وحيّاً

---

(١) لها قرأتان: على الماضي: فلا تنسى، وفيها شهادة بأن النبي كان ينسى. وعلى الأمر: فلا تنس: فهي عن النسيان (البيضاوي) وفيه تقرير ضمنى بأن النبي كان ينسى. والآيتان ٧ و ٨ تؤيدان قراءة الأمر، وتحذران من النسيان.

فهل يصح أن ينسأه أو يتناساه؟ وما معنى هذا التحذير: «إنه يعلم الجهر وما يخفى»: هل كان النسيان مقصوداً؟ آية التبديل (نحل ١٠١) وآية المحو (رعد ٤١) توحيان بأن النسيان قد يكون مقصوداً من الله ومن النبي. فكيف تنسجم العصمة في البلاغ والتبليغ مع مبدأ النسيان وواقعه؟

**٢- الظاهرة الثانية** التي تطالعنا في القرآن هي استعجال النبي الوحي، واستباقه: «لا تحرك به لسانك لتعجل به! إنا علينا جمعه وقرآنه: فإذا قرأناه فاتبع قرآنه! ثم إن علينا بيانه!» (القيامة ١٦-١٩): هل كان النبي يستبق الوحي أحياناً؟ هل كان يتدخل في جمع القرآن وقراءته حتى يحذره الله من ذلك؟ هل كان ينفرد أحياناً ببيان القرآن حتى يردعه عن ذلك؟ قال البيضاوي: «لا تحرك يا محمد بالقرآن لسانك قبل أن يتم وحيه لتأخذه على عجل مخافة أن يتلفت منك... وهو اعتراض بما يؤكد التوبيخ على حب العجلة». وفي (أسباب نزول) الآية ٣٤ مثال على هذه العجلة المذمومة: (أخرج النسائي عن سعيد بن جبير أنه سأل ابن عباس عن قوله (أولى لك فأولى) أشيء قاله رسول الله ص. من قبل نفسه أم أمره الله به؟ قال: بل قاله من قبل نفسه؛ ثم أنزله الله). ويعود القرآن إلى التحذير ذاته في سورة طه: «ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يلقى إليك وحيه! وقل ربي زدني علماً» (١١٤) قال البيضاوي أيضاً: «فيه نهى عن الاستعجال في تلقي الوحي من جبريل، ومساوقته في القراءة حتى يتم وحيه. وقيل نهى عن تبليغ ما كان مجملاً قبل أن يأتي بيانه». وفي الآية التالية (١١٥) مثل على نسيان محمد القرآن، من جدّه آدم: «ولقد عهدنا إلى آدم من قبل، فنسي ولم نجد له عزماً». قال الزمخشري: «ما المراد بالنسيان؟ قلت: يجوز أن يراد النسيان الذي هو نقيض الذكر، وأنه لم يعن بالوصية العناية الصادقة، ولم يستوثق منها بعقد القلب عليها وضبط النفس حتى تولد من ذلك النسيان. وأن يراد الترك، وإنه ما وصي به من الاحتراس».

**٣- والظاهرة الثالثة** في القرآن هي إمكان فتنه الناس للنبي عن الوحي، وإمكان ركون النبي إلى فتنتهم: «وإن كادوا ليفتنوك عن الذي أوحينا إليك لتفترى علينا غيره: وإذا

(١) القيامة ١٩ «ثم إن علينا بيانه» فسرّه البيضاوي: «بيان ما أشكل عليك من معانيه: وهو دليل على جواز تأخير البيان عن وقت الخطاب. وهو اعتراض بما يؤكد التوبيخ على حب العجلة». وخطاب أو قرآن لا يفهمه النبي للحال، وهو بحاجة إلى بيان متأخر عنه، كيف يكون معجزاً للناس؟ والإعجاز هو السهل الممتنع الذي تنزله تأويله وبيانه؟



لاتخذوك خليلاً! ولولا أن ثبتناك، لقد كدت تركن إليهم شيئاً قليلاً: إذا لأذقناك ضعف الحياة، وضعف الممات! ثم لا تجد لك علينا نصيراً!! (إسراء ٧٣- ٧٥). ويشهد القرآن بأن هذه الإمكانية كادت تكون عند محمد أمراً واقعاً في شيء قليل: (( لقد كدت تركن إليهم شيئاً قليلاً )) ! - جاء في ( أسباب نزول ) الآيات للسيوطي: (( أخرج ابن مردويه وابن أبي حاتم من طريق إسحاق عن ابن عباس قال: خرج أمية بن خلف وأبو جهل بن هشام ورجال قريش فأتوا رسول الله ص. فقالوا: يا محمد تعال تمسح بآهتنا، وندخل معك في دينك، وكان يحب إسلام قومه، فرق لهم. فنزلت. قلتُ: هذا أصح ما ورد في سبب نزولها وهو إسناد جيد وله شاهد. وأخرج أبو الشيخ عن سعيد بن جبير قال: كان رسول الله ص. يستلم الحجر؛ فقالوا: لن ندعك تستلم حتى تلم بآهتنا! فقال رسول الله ص. وما عليّ لو فعلتُ، والله يعلم مني خلافه؟ فنزلت. وأخرج نحوه عن ابن شهاب. وأخرج عن محمد بن كعب القرظي أنه ص. قرأ ( النجم ) إلى ( أفرايتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى ) فألقى الشيطان ( تلك الغرانيق العلى وإن شفاعتهن لترتجى ) ! فنزلت. فما زال مهموماً حتى أنزله الله (في المدينة): (( وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته، فينسخ الله ما يلقي الشيطان ثم يحكم الله آياته )) ( حج ٥٢ ). قال البيضاوي (( والحديث مردود عند المحققين وإن صح فابتلاءه؛ والآية تدل على جوار السهو على الأنبياء وتطرق الوسوسة إليهم )) . وهكذا يتضح من النص والأخبار أن محمداً حدث نفسه أن يذكر آلهة قريش بخير (( وما عليّ لو فعلت )) ؟ ورق لهم وهم أن يتمسح بأصنامها، وكاد يركن إليهم شيئاً قليلاً، ومدح آلهتهم في سورة النجم. وتأسى عن هذه الفتنة بقوله: (( سنة من أرسلنا قبلك من رسلنا، ولا تجد لسننتنا تحويلاً )) (إسراء ٧٧) وهو كقوله في سورة ( الحج ٥٢ ). وغم محمد وهمه من سورة النجم إلى سورة الحج، والتحذيرات والتهديدات التي نزلت بينهما، كل ذلك يوحى بأنه ركن إليهم شيئاً قليلاً.

٤- والظاهرة الرابعة في التسلسل التاريخي إمكان ترك النبي بعض ما يوحى إليه. ما زالت تحديات المشركين تترى على محمد لإثبات رسالته بمعجزة كالأنبياء الأولين؛ ولما ضايقوه هم بترك بعض ما يوحى إليه: (( فلعلك تارك بعض ما يوحى إليك! وضائق به صدرك! أن يقولوا: لولا أنزل عليه كنز أو جاء معه ملك؟ - إنما أنت نذير، والله على كل شيء وكيل )) . ( هود ١٢ ). قال الزمخشري: (( كانوا يقترحون عليه آيات تعنتاً لا استرشاداً.

وكانوا لا يعتدّون بالقرآن ويتهاوتون به، فكان يضيق صدر رسول الله ص. أن يلقي إليهم ما لا يقبلونه ويضحكون منه، فحرّك الله منه وهيجه لأداء الرسالة وطرح المبالاة بردهم واستهزائهم واقتراحهم) . وأكمل البيضاوي: « ليس عليك إلا الإنذار بما أوحى إليك، ولا عليك ردّوا أو اقترحوا: فما بالك يضيق صدرك »؟: أجل لا يلزم من توقع الشيء حدوثه؛ ولكن مجرد التهمة شبهة! وضيق صدر الرسول من عدم وقوع المعجزة دليل على ما همّ به من ترك الوحي: ولولا عزم النبي على ترك بعض الوحي، ما كان القرآن وبخه هذا التوبيخ اللاذع: فلا يليق بالله توبيخ بلا ذنب، ومعاقبة بلا زلة. وفي قضية النسيان المقصود من الله دليل على الإمكانية ووقوع الترك.

**٥- والظاهرة الخامسة هي التبدل في أي القرآن، والآية صريحة لا تحتاج إلى تأويل وتفسير:** « **وإذا بدلنا آية مكان آية - والله أعلم بما ينزل - قالوا: إنما أنت مفتر!** بل أكثرهم لا يعلمون »! ( النحل ١٠١ ): هنا التبدل في أي القرآن أمر واقع؛ وكان سبب فتنة كبرى في ارتداد بعض المسلمين عن الإسلام في آخر العهد بمكة. وهذا التبدل يؤيد ويدعم حقيقة الظواهر السابقة من ترك النبي بعض الوحي، وفتنة الناس له عن بعض ما أوحى إليه، واستعجال الوحي واستباقه، ونسيان بعضه. والمشكل الأكبر في التبدل هو مطابقة القرآن المنزل على ما في اللوح المحفوظ منذ الأزل: هل الناسخ والمنسوخ كلاهما في اللوح المحفوظ؟ هل المُبدل والبديل كلاهما معاً الحقيقة الأزلية؟ يظهر أن البديل أو الناسخ هما ما انتهى إليه الوحي: فما الداعي إلى تنزيل المنسوخ أو المبدل؟ وما حقيقتهما في اللوح المحفوظ الذي هو « لا يدخله الباطل من بين يديه ولا من خلفه » وعليه « حفظة كرام بررة »؟ والتبدل في مكة ( نحل ١٠١ ) يصير النسخ في المدينة ( البقرة ١٠٦ ): الواقع يصير مبدئاً. فكيف ينسجم النسخ والتبدل مع حكمة الله وعصمة النبي؟

**٦- والظاهرة السادسة المؤلمة أن القرآن يجعل للشيطان علاقة غير مباشرة بهذا التبدل.** فقبل آية التبدل ( نحل ١٠١ ) يقول « **فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم** » (٩٨). كلام الله ذاته يطرد الشيطان، وهو ذاته استعاذة من حضوره وهمزاته: فهل استعاذة العبد أقوى من كلام الله؟ ثم ما معنى الاستعاذة من الشيطان الرجيم عند تلاوة القرآن الكريم؟ فهل للشيطان سلطان على بلبله قراءة كلام الله؟ هل له سلطان على إفساد الوحي؟ يظهر من سورة الحج (٥٢) أن للشيطان سلطاناً على إفساد الوحي وتلاوته، ولذلك جاء هذا الأمر المكرر بالاستعاذة من الشيطان الرجيم عند تلاوة القرآن

الكريم. وسورة ( المؤمنون ) التي تلي ( النحل ) تُظهر هلع النبي من حضور الشيطان عنده ومن همزاته: « **وقل رب أعوذ بك من همزات الشيطان، وأعوذ بك ربي أن يحضرون** » (٦٨). وفلسفة آية الحج (٥٢) أن الشيطان ألقى في قراءة محمد كما ألقى في قراءة جميع الرسل: « **سنة من قد أرسلناه قبلك من رسلنا ولا تجد لسنتنا تحويلاً** » (إسراء ٧٧). وفلسفة أخرى لتدخل الشيطان في الوحي، هي أن « **يجعل ما يلقي الشيطان فتنة للذين في قلوبهم مرض** » (حج ٥٣). قال البيضاوي معقياً: « **والآية تدل على جواز السهو على الأنبياء، وتطرق الوسوسة إليهم** ». فتدخل الشيطان في الوحي أمر واقعي لفتنة الناس. هذا، وأيم الحق، أمر مدهش مذهل غريب، لا أثر له في الكتاب لنستأنس به: **يقدر الشيطان أن يفسد وحي الله، والله ذاته يسمح بذلك لفتنة عباده!**

**٧- والظاهرة السابعة والأخيرة في مكة هي المحو والإثبات في التنزيل.** جاء في سورة الرعد: « **وما كان لرسول أن يأتي بآية إلا بإذن الله! لكل أجل كتاب: يمحو الله ما يشاء ويثبت، وعنده أم الكتاب** » (٤٠ - ٤١) قال الجلالان: « **وعنده أم الكتاب أي أصله الذي لا يتغير منه شيء، وهو ما كتبه في الأزل** ». إذا كان تنزيل القرآن، كما هو معلوم، من اللوح المحفوظ المكتوب منذ الأزل ولا يتغير منه شيء، فكيف يمحو الله في تنزيل القرآن ما يشاء ويثبت؟ أيهما المكتوب في اللوح المحفوظ: هل الممحو أم المثبت؟ ثم قد تقضي حكمة الله التعديل في الأحكام من أجل إلى أجل ومن كتاب منزل إلى كتاب « **تتبدل الأحكام بتغير الأزمان** »: **أما أن يكون التبديل والنسخ والمحو والإثبات في أجل واحد، وكتاب منزل واحد، فهل ينسجم ذلك مع حكمة الله وصحة التنزيل؟**

تلك ظواهر سبع، وشبهات سبع، ما بين المبدأ والواقع، ترك في نفس المؤمن آثار مرارة لا تنتهي.

\*

وهناك شبهات من الحديث عديدة تترك غيوماً على ضياء النبوة السني.

١- جاء في الصحيح عن أنس: « **أن نصرانياً كان يكتب الوحي لمحمد، وكان هذا النصراني يقول: ( لا يريد محمد إلا ما كتبتُ أنا )** .

٢- وجاء عن عبد الله بن سعد بن أبي سرح، وكان من كتبة الوحي أيضاً، أنه كان

يقول: « كنت أصرف محمداً حيث أريداً! كان يملي عليّ « عزيز حكيم » فأقول « عليم حكيم » فيقول: نعم، كل صواب! حتى قال لي آخر الأمر: اكتب كيف شئت »!

وجاء في السيوطي عن ( أسباب نزول ) الآية ٩٣ من الأنعام « سأُنزل مثل ما أنزل الله » إنها نزلت في عبد الله بن سعد بن أبي سرح: كان يكتب للنبي ص. فيملي عليه ( عزيز حكيم ) فيكتب ( غفور رحيم ) ثم يقرأ عليه فيقول: نعم سواء. فرجع عن الإسلام ولحق بقريش<sup>١</sup> .

وأخرج ابن جرير ( الطبري ) عن السدي نحوه، وزاد: « قال إن كان محمد يوحى إليه فقد أوحى إليّ، وإن كان الله ينزله فقد أنزلت مثل ما أنزل الله: قال محمد ( سميعاً عليماً ) فقلت أنا ( عليماً حكيماً ) .

وجاء أيضاً عنه: كان يكتب الآية ( مؤمنون ١٢- ١٤ ): « ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين، ثم جعلناه نطفة في قرار مكين، ثم أنشأناه خلقاً آخر » وطلب فاصلة فقلت: « تبارك الله أحسن الخالقين » ؛ فقال محمد: اكتبها كذلك نزلت » ! فشك عبد الله وقال: لأن كان محمد صادقاً لقد أوحى إليّ كما أوحى إليه، ولئن كان كاذباً لقد قلت كما قال »!

وأورد السيوطي في أسباب نزول تلك الآية: « أخرج ابن أبي حاتم عن عمر قال: وافقت ربي في أربع، منها نزلت ( ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ) فلما نزلت قلت أنا ( تبارك الله أحسن الخالقين ) .

٣- وكان عبد الله بن مسعود أيضاً من كتبة الوحي. وقد روي عنه أن محمداً أملى عليه آية فكتبها؛ ثم التمسها ثاني يوم في مصحفه فلم يجدها وكانت الصحيفة خالية. فأخبر النبي ص. فقال له: « إنها نسخت من ليلتها »!

٤- وروى البخاري أيضاً، وغيره، عن عمر قال: وافقت ربي في ثلاث. قلت: يا رسول الله لو أخذت من مقام إبراهيم مصلى! فنزلت: « واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى » ( بقرة ١٢٥ ). وقلت: يا رسول الله إن نساءك يدخل عليهن البرّ والفاجر فلو أمرتهن أن يحتجبن! فنزلت آية الحجاب: « وإذا سألتوهن متاعاً فاسألوهن من وراء حجاب،

(١) قابل السيوطي : أسباب نزول الآية ٩٣ من الأنعام .

ذلكم أظهر لقلوبكم وقلوبهن)) (أحزاب ٥٣). واجتمع على رسول الله ص. نساؤه في الغيرة فقلت لهن: عسى ربه إن طلقك، أن يبذله أزواجاً خيراً منك، فنزلت كذلك: (( عسى ربه أن طلقك أن يبذله أزواجاً خيراً منك )) (تحريم ٥<sup>١</sup>). وكذلك جاء في الحديث عن عمر: **ما قال عمر قط وقالوا، إلا نزل القرآن علي ما قال عمر.** وهذا يدل على دور عمر العظيم في القرآن، وأنه لم يقتصر على الأحداث الثلاثة.

٥- وجاء أيضاً في (أسباب النزول) للسيوطي عن سبب نزول الآية ١٣ و ٣٩ من سورة الواقعة: (( أخرج أحمد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن أبي هريرة قال: لما نزلت (ثلة من الأولين وقليل من الآخرين) شق ذلك على المسلمين فنزلت (ثلة من الأولين وثلة من الآخرين). وأخرج ابن عساکر في (تاريخ دمشق) عن جابر بن عبد الله قال: لما نزل (ثلة من الأولين وقليل من الآخرين) قال عمر: يا رسول الله، ثلة من الأولين وقليل من؟ فأمسك آخر السورة سنة ثم نزلت (ثلة من الأولين وثلة من الآخرين). فقال رسول الله ص. يا عمر تعال فاسمع ما قد أنزل الله! وأخرجه ابن أبي حاتم عن عروة بن رويم مرسلًا )) . وهنا يظهر عمر لسان حال الجماعة.

وجاء أيضاً في (أسباب النزول) للسيوطي عن سبب نزول الآية ٢٨٤ و ٢٨٦ من سورة البقرة: (( روى أحمد ومسلم وغيرهما عن أبي هريرة قال: لما نزلت ( وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله ) اشتد ذلك على الصحابة، فأتوا رسول الله ص. ثم جنوا على الركب فقالوا: قد أنزل عليك هذه الآية ولا نطقها ... فنسخها وأنزل ( لا يكلف الله نفساً إلا وسعها، لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ). وروى مسلم وغيره عن ابن عباس نحوه )) .

٦- ونقل السيوطي في (أسباب نزول) الآية ٥٠ من الأحزاب: (( وامرأة مؤمنة إن وهبت نفسها للنبي إن أراد النبي أن يستنكحها خالصة لك من دون المؤمنين )) أن أم شريك الدوسية عرضت نفسها على النبي ص. وكانت جميلة فقبلها فقالت عائشة: ما في امرأة حين تهب نفسها لرجل خير؛ فنزلت؛ فلما نزلت هذه الآية قالت عائشة: **إن الله يسرع لك في هواك** !!

(١) نقله السيوطي في أسباب نزول الآية ٢٥١ من سورة البقرة .  
(٢) قابل أيضاً أسباب نزول سورة الأنفال في حديث الأسرى .

ونقل في ( أسباب نزول ) الآية ٥١ من الأحزاب: « أخرج الشيخان عن عائشة أنها كانت تقول: أما تستحي المرأة أن تهب نفسها! فأنزل الله ( ترجئ من نشاء منهن وتؤي إليك من نشاء ) فقالت عائشة أرى ربك يسارع لك في هواك ! »

٧- وروى المسور بن مخرمة أن عبد الرحمان بن عوف قال: « ألم نجد في ما أنزل علينا ( جاهدوا كما جاهدتم أول مرة ) فإنا لا نجدها. قال: أسقطت فيما أسقط من القرآن ! »

وروي عن ابن عمر: « لا يقولن أحدكم أخذت القرآن كله، وما يدرية ما كله! قد ذهب منه قرآن كثير! ولكن ليقل قد أخذت منه ما ظهر ! » .

وفي الصحيحين، وأسباب النزول، كثير من مثل هذه الأحاديث الصحيحة. وهي تترك المؤمن في حيرة من أمره.

تلك بعض مظاهر في موقف محمد من الوحي والتنزيل: فيها بعض شبهات وظلال في موقف الإخلاص والأمانة العام.

\*

### بحث سابع: الرسالة والرسول

## أولاً: الرسالة النبوية حجازية

يظهر من القرآن المكي إن رسالة محمد كانت قومية عربية حجازية من كل نواحيها. يشهد بذلك تصاريحه الخاصة ونظرياته العامة.

(١) ثلاثة تصاريح تحصر رسالة محمد في « أم القرى وما حولها » :

يصرح في سورة الأنعام: « وهذا كتاب أنزلناه مبارك مصدق الذي بين يديه! ولتنذر أم القرى وما حولها! والذين يؤمنون بالآخرة يؤمنون به » (٩٢). فالدعوة القرآنية تصديق الدعوة الكتابية، وهذا التصديق القرآني موجه إلى مكة وما حولها. فالدعوة القرآنية مكية حجازية.

ويصرّح أيضاً في سورة الشورى: وكذلك أوحينا إليك قرآناً عربياً لتنذر أم القرى ومن حولها ((٧). وهذا التكرار على فترات متباعدة يدل على أن الدعوة القرآنية ظلت طيلة العهد بمكة مكية حجازية.

ويصرّح أيضاً في سورة القصص: (( وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث في أمّها رسولاً )) (٥٩) محمد هو رسول الله إلى أمّ القرى وقراها.

## (٢) ثلاثة تصاريح أخرى تجعل القرآن ذكراً خاصاً بالعرب:

يصرّح في سورة الأنبياء: (( ولقد أنزلنا إليكم كتاباً فيه ذكركم أفلا تعقلون )) ؟ (١٠): فالقرآن ذكر للمخاطبين من أهل مكة، إذ الآية والسورة مكيتان، كما كانت التوراة في نظره ذكراً لليهود، والإنجيل ذكراً للنصارى.

ويصرّح في سورة الأنبياء أيضاً: (( أم اتخذوا من دونه آلهة؟ - قل هاتوا برهانكم! هذا ذكر من معي وذكر من قبلي )) ! (٢٤) فالقرآن ذكر جماعة محمد في مكة، وهو في جوهره لا يختلف عن الذكر الذي قبله لأنه تصديق له وتفصيل.

ويصرّح في سورة ( المؤمنون ): (( يل آتيناهم بذكرهم! وهم عن ذكرهم معرضون )) (٧٢) فالقرآن ذكر للعرب خاص بهم، فهو (( ذكرهم )) لا أصرح ولا أوضح.

وعلى ضوء هذه التصاريح الواضحة يجب أن نفهم قوله في سورة الأنبياء: (( وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين )) (١٠٧). فكلمة (( العالمين )) يتسع معناها ويضيق بحسب القرآئن اللفظية والمعنوية في الآية والسورة، وتصاريح سورة الأنبياء (١٠ و ٢٤) توضح أنه يقصد (( بالعالمين )) في الآية (١٠٧) جماعته (( من معه )) فهو (( ذكرهم )) ( أنبياء ١٠ مؤمنون ٧٢ ). وأنه لباب شهير في البيان العربي استعمال العام للخاص.

## (٣) ونظرية القرآن العامة أن لكل أمة رسول، وأن محمداً رسول العرب:

المبدأ العام في القرآن: (( ولكل أمة رسول: فإذا جاء رسولهم فُضي بينهم بالقسط وهم لا يظلمون )) ( يونس ٤٧ ). يكرر بعد حين: (( ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً )) ( نحل ٣٦ ) فهو يقرن الواقع إلى المبدأ المقرر. واقع متواتر: (( وإن من أمة إلا خلا فيها نذير )) ( فاطر ٢٤ ) ومبدأ قائم متواتر إلى آخر العهد بمكة: (( ولكل قوم هاد ))

(رعد ٧). وهذان المبدأ والواقع يطبقهما القرآن على محمد: «ويوم نبعث في كل أمة شهيداً عليهم من أنفسهم، وجئنا بك شهيداً على هؤلاء» (نحل ٨٩) ويمتد هذا التطبيق إلى المدينة (آل عمران ١٦٤ ونساء ٤١). هو ومحمد رسول العرب وهاديهم ومنذرهم: «إنما أنت منذر، ولكل قوم هاد» (رعد ٧) لأنه لم يأتهم منذر قبله: «تنزيل العزيز الرحيم: لتنذر قوماً ما أنذر أبائهم فهم غافلون» (يسن ١ - ٦) وليس لهم كتاب منزل يدرسونه: «وما آتيناهم من كتب يدرسونها وما أرسلنا إليهم من قبلك من نذير» (سبا ٤٤ كذلك قصص ٤٦ والسجدة ٣).

فلكل أمة رسول، ومحمد رسول العرب: نظرية قرآنية عامة متأصلة، متواترة، لا يمكن أن تنقض، وعلى ضوءها يجب أن نفهم سائر الآيات.

(٤) نظرية عامة ثانية تحدد مدى رسالة الرسول: **قومية الرسول تحدد قومية رسالته.**

آية سورة النحل (٨٩) تعطي المبدأ العام، وتطبقه على محمد: «ويوم نبعث في كل أمة شهيداً عليهم من أنفسهم، وجئنا بك شهيداً على هؤلاء». فمحمد رسول من العرب يشهد الله عليهم لأن قومية الرسول من قومية المرسل إليهم.

وهذه النظرية المكية تدوم في المدينة: «لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة» (آل عمران ١٦٤): فمحمد رسول من عرب الحجاز وإلى عرب الحجاز.

وهذه القومية في الرسول والرسالة تدوم إلى يوم الدين: «فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد، وجئنا بك على هؤلاء شهيداً؟! يومئذ يود الذين كفروا وعصوا الرسول لو تسوى بهم الأرض» (نساء ٤٠-٤١).

على ضوء هذه النظرية في آية النحل (٨٩) يجب أن نفهم قوله في سورة النحل: «وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ولعلهم يتفكرون» (٤٤). - وربما يُظن بلفظة «الناس» أن رسالة القرآن عامة عالمية، والقرآن يأخذ اللفظة بمعنى الفرد والجماعة المحدودة كما يظهر من قوله: «الذين قال لهم الناس: إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم» (آل عمران ١٧٢) فسره الجلالان: «قال لهم الناس أي نعيم بن مسعود الأشجعي؛ إن الناس أي أبا سفيان وأصحابه». فالكلمة تعني الفرد والجماعة؛ والآية ٤٤ من سورة النحل يجب أن تفهم أيضاً بمعنى الآية (٨٩) منها: قومية الرسول تحدد قومية رسالته.



كذلك يجب أن نفهم آية ( سبأ ) : « وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً » (٢٨).  
 ظاهر قوله « كافة للناس » يُظن به أن رسالة محمد عالمية<sup>١</sup>، ولكن كل تصاريح القرآن المكي قبلها وبعدها، خصوصاً آية الأنعام قبلها (٩٢) وآية الشورى بعدها (٧) اللتين تحصران رسالة محمد في « أمّ القرى وما حولها » تقصر معنى « كافة للناس » على الحجازيين، أو للعرب. ومن يصرّ على فهم « كافة للناس » إنها عالمية يجعل في القرآن المكي تناقضاً مفضوحاً في هذا الموضوع. وآية أو آيتان غامضتان في بعض ألفاظهما لا تنقضان الموقف العام الصريح بأن كل رسالة، حتى رسالة محمد، هي في نظر القرآن قومية.

وكذلك القول عن آية ( الأعراف ) : « قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً ... فأمنوا بالله ورسوله النبي الأمي الذي يؤمن بالله وكلماته » (١٨٥). فكلمة « الناس » وصفتها جميعاً « لا تعني ضرورة البشرية، بل تحددها قرائن اللفظية والمعنوية. فلفظة الناس، كما قلنا، تعني الفرد والجماعة المحدودة، وقد أطلقها القرآن على محمد نفسه: « أم يحسدون الناس على ما أتاهم الله » . وفي الآية (١٥٨) من سورة الأعراف تعني جميع الناس في المدينة من أميين وكتابيين كما يظهر من الآيات القريبة (١٥٥ - ١٥٨) وكما يظهر من خطاب السورة العام، فهو كله موجه إلى العرب يتحدثون النبي بمعجزة كالأنبياء الأولين: وإذا لم تأتهم بأية قالوا: لولا اجتبيتها! - قل إنما أتبع ما يوحى إلي من ربي. هذا بصائر من ربكم وهدى ... وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له » ( أعراف ٢٠٢- ٢٠٣ ).

#### ٥) نظرية عامة ثالثة في القرآن: لغة الرسول تحدّد مدى رسالته.

جاء المبدأ بهذا التصريح: « وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبيّن لهم » (إبراهيم ٤). وفي سورة ( الأنعام ) تفسير لهذا المبدأ: « وهذا كتاب أنزلناه مبارك فاتبعوه لعلمكم ترحمون؛ أن تقولوا: إنما أنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا، وإن كنّا عن دراستهم لغافلين! أو تقولوا: لو أنا أنزل علينا الكتاب لكنا أهدى منهم! - فقد جاءكم بيّنة من ربكم وهدى ورحمة » ( أنعام ١٥٥- ١٥٧ ). لقد غفل عرب الحجاز عن دراسة الكتاب الذي نزل على اليهود، والذي نزل على النصارى لأنه يغير لغتهم، فهذا كتاب بلغتهم، يتلو آياته رسول من أنفسهم، وهذه منة على المسلمين بالمدينة: « لقد منّ الله على المؤمنين إذ بعث الله فيهم رسولا من أنفسهم يتلو عليهم آياته » ( آل عمران ١٦٤ ).

(١) « إلا كافة للناس » لا ترد الصفة قبل الموصوف ولذلك فسرها بعضهم في ( الإتيقان ) أن المقصود « كافاً » - والتاء للمبالغة - يكفّ الناس عن المنكرات .

فهذه الآية تطبق فلسفة سورة الأنعام بأن رسالة الرسول تفهم من لغته ولغة قومه، بسبب المبدأ: ((وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه)).

وعلى ضوء هذه الفلسفة القرآنية في سورة الأنعام يجب أن نفهم ما ورد فيها، مما يوهم النعيم: ((وأوحى إليّ هذا القرآن لأنذركم به **ومن بلغ**: أنكم لتشهدون أن مع الله آلهة أخرى)) (١٩). قد يُظن أنه قصد بقوله ((لأنذركم به)) العرب، ويقوله ((ومن بلغ)) سواهم والآية مكية تقصد أهل مكة وما حولها ((لتنذر أم القرى وما حولها))؛ وسورة الأنعام كلها خطاب لأهل مكة: غفلوا عن دراسة التوراة والإنجيل لأنهما بغير لغتهم، فنزل القرآن عليهم بلغتهم ليفهمه أهل مكة **ومن حولها**.

وكذلك قوله في (الأنعام). ((قل لا أسألكم عليه أجراً: إن هو إلا **ذكرى للعالمين**)) (٩٤) فلفظة ((العالمين)) تقصد المخاطبين في سورة الأنعام أي أهل مكة ومن بلغه ذلك **ممن** حولها (١٩): القرائن اللفظية والمعنوية في السورة كلها تقتضي ذلك. هذا عدا عن النظريات القرآنية العامة والتصاريح الخاصة.

#### ٦) نظرية عامة رابعة: لغة القرآن العربية تحدد رسالته العربية.

ففي اثني عشر موضعاً يصرّح بأن القرآن نزل ((عربياً)) لكي يفهموه. لقد نزل القرآن عربياً لينذر أم القرى **ومن حولها**: ((وكذلك أوحينا إليك **قرآناً عربياً** لتنذر أم القرى **ومن حولها**)) (شورى ٧). والقرآن تفصيل عربي للكتاب، موجه للعرب لكي يفهموه: ((حم تنزيل من الرحمان الرحيم: كتاب فصلت آياته قرآناً عربياً لقوم يعلمون، بشيراً ونذيراً)) (شورى ١-٣)؛ ولا يقولوا: لولا فصلت آياته! ((ولو جعلناه قرآناً أعجمياً لقالوا: لولا فصلت آياته)) (شورى ٤٤). فالقرآن تفصيل الكتاب بالعربية لكي يفهموه لأنه ((ذكرهم)) : ((حم والكتاب المبين: إنا جعلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون)) (زخرف ١-٣). وما نزل القرآن عربياً إلا لأنه ذكر لمحمد وقومه: ((**وانه لذكر لك ولقومك**، وسوف تُسألون)) (زخرف ٤٤).

فهذه النظريات العامة المتواترة في جميع السور، وهذه التصاريح الخاصة التي تقيّد معناها، كلها مجتمعة تشهد شهادة لا تُنقض بأن القرآن يعتبر رسالته قومية حجازية: ((لينذر أم القرى وما حولها))؛ وفي أقصى مداها قد تشمل قومه كلهم: ((وانه لذكر لك

ولقومك )) : فرسالة القرآن قومية عربية لا تتعداهم إلى سواهم. وكل ما أبهم من آيات في تضاعيف تلك النظريات العامة الواضحة والتصاريح الخاصة الصريحة يجب أن يُفهم على ضوءها، لئلا ينقض القرآن نفسه بنفسه.

\*

## ثانياً: الرسول (( النذير ))

يتخذ محمد في مكة لقب (( نذير )) ، وقد لا يصفه القرآن المكي إلا بهذه الصفة. وقد لا يتخذ محمد في مكة لقب نبي أو رسول. وهذه ظاهرة عامة لا ينقضها بعض تعابير مغايرة<sup>١</sup>.

منذ البدء يأتيه هاتف يقول: (( يا أيها المدثر<sup>١</sup> قم فأندر )) ! ( المدثر ١- ٢ ) هذه صفته وهذه رسالته!

ويقسم إن القرآن ذكر ومحمد نذير: (( ص والقرآن ذي الذكر ... وعجبوا أن جاءهم منذر منهم )) ( ص ١- ٤ ).

وسورة ( الأعراف ) تحدّد أن هذا النذير لا يعلم الغيب: (( أولم يتفكروا ما بصاحبهم من جنة: إن هو إلا نذير مبين ... قل لا أملك لنفسي نفعاً ولا ضرراً إلا ما شاء الله، ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسني السوء: إن أنا إلا نذير وبشير لقوم يؤمنون )) ( ١٨٢ و ١٨٧ ).

وإذا جعله القرآن من المرسلين فإنما ذلك بمعنى (( المنذرين )) : (( يسن والقرآن الحكيم: إنك لمن المرسلين: لتنذر قوماً ما أنذر آباؤهم، فهم غافلون ... وسواء عليهم أذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون )) ! ( يس ١- ١٠ ).

وذلك لأن القرآن يفهم النبوة والرسالة أنها إنذار: (( وما نرسل المرسلين إلا مبشرين ومنذرين )) ( أنعام ٤٨ )؛ والرسول نذير لا غير: (( ما كنت بدعاً من الرسل وما أنا إلا نذير مبين )) ( أحقاف ٩ )، فهو من هؤلاء المنذرين (( قل إنما أنا من المنذرين )) ( نمل ٩٢ ).

(١) تتبع في إيراد الآيات والنصوص الترتيب التاريخي في النزول .

وإذا وصف القرآن محمداً بأنه « رسول » فإنما ذلك بمعنى « نذير » كما في سورة (الفرقان): « وقالوا ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق: لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيراً! (٧) ويوم يعرض الظالم على يديه يقول: يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلاً؟ (٢٧) وإذا رآوك إن يتخذونك إلا هزواً: أهذا الذي بعث الله رسولا؟ (٤١): وما أرسلناك إلا مبشراً ونذيراً » (٥٦).

ويؤكد القرآن في كل السور صفة النذير: « إن أنت إلا نذير! إنا أرسلناك بالحق بشيراً ونذيراً: وإن من أمة إلا خلا فيها نذير » ( فاطر ٢٣ - ٢٤ ). فالحق الذي جاء به هو إنذار للمؤمنين المتقين الذين يخشون ربهم: « إنما تنذر الذين يخشون ربهم بالغيب، وأقاموا الصلاة: ومن تزكى فإنما يتزكى لنفسه » ( فاطر ١٨ ).

وهذا الإنذار أو التبشير القرآني يقتصر على التوحيد، وهذا التوحيد نقله « خبير حكيم » عن الكتاب « الإمام » وفصله في القرآن تفصيلاً: « ألر. كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن خبير حكيم: ألا تعبدوا إلا الله، إنني لكم منه نذير وبشير » ( هود ١ - ٢ ). فهو دائماً « النذير » .

ويتحدّونه على إثبات رسالته إليهم بمعجزة مثل الأنبياء الأولين، فيعجز ويتضايق ويهم بتزك بعض ما يوحى إليه. قال دروزة: « وفي سورة ( هود ) آية عظيمة المغزى من ناحية شعور النبي ص. هذا، وهي هذه: « فلعلك تارك بعض ما يوحى إليك، وضائق به صدرك أن يقولوا: لولا أنزل عليه كنز، أو جاء معه ملك! إنما أنت نذير والله على كل شيء وكيل » ( ١٢ ) إذ تكشف عمّا يخالج نفس النبي ص. من حيرة وضيق بسبب تحدي الكفار إياه بالمعجزات، حتى لقد كان أحياناً يهم بتفادي تلاوة بعض ما يوحى به عليهم أو يكاد صدره يضيق به لتوقعه منهم التحدي. وقد روى الرواة في صدد الآية ما فيه توضيح أكثر: إذ قالوا إن الكفار كانوا يطالبون النبي ص. بالمعجزات فلا يستجيب إليهم؛ ثم توحى إليه الآيات القرآنية فيسخررون منه ويقولون: هلاً استنزلت ملكاً أو كنزاً بدلاً من هذه الآيات؟ فكان يخجل ويتهرّب منهم أحياناً » .

وكما كشف مطلع سورة هود أن الوحي القرآني إنما هو تفصيل التوحيد الكتابي، فهذه الآية (١٢) منها توضح بأجلى بيان معنى صفة « النذير » التي يصف بها القرآن نبيّه: النذير

نذير لا غير، وليس عليه من معجزة، لإثبات دعوته وإنذاره؛ قال الجلالان: «**إنما أنت نذير: فما عليك إلا البلاغ لا الإتيان بما اقترحوه**» ! فصفة «**النذير**» تحلته من ضرورة المعجزة لإثبات النبوة، إذ لا معجزة مع هذا النذير ولو ابتغى إليها «**نقفاً في الأرض أو سلماً في السماء**» (أنعام ٣٥).

لذلك، انسجاماً مع هذا الموقف العام الصريح، فإن تحديه لهم في سورة هود (١٣) أو الإسراء أو يونس بعشر سور مثله مفتريات، أو بسورة مثله، لا يأخذ صفة معجزة، وإلا كان التناقض بين الآية ١٢ و ١٣ من سورة (هود) مفضوحاً لا سبيل إلى رده.

ورسالة محمد هي التوحيد، وهي أيضاً الإنذار باليوم الآخر: «**قل إنما أعظكم بواحدة أن تقوموا لله مثنى وفرادى، ثم تتفكروا ما بصاحبكم من جنة: إن هو إلا نذير لكم بين يدي عذاب شديد**» (سبأ ٤٦). وكما أنه لا معجزة عنده على دعوة التوحيد، كذلك لا معجزة عنده على هذا الوعد والوعيد لأنه نذير لا غير: «**وما أرسلناك إلا كافة للناس، بشيراً ونذيراً، ولكن أكثر الناس لا يعلمون. ويقولون: متى هذا الوعد، إن كنتم صادقين؟ - قل لكم ميعاد يوم لا تستأخرون عنه ساعة ولا تستقدمون**» (سبأ ٢٨-٣٠). وكما انتسب إلى الكتاب الإمام في دعوة التوحيد، فهو ينتسب إليه في الدعوة ليوم الدين، ويستشهد به على صحة دعوته ودعواه: «**وقال الذين كفروا: لن نؤمن بهذا القرآن ولا بالذي بين يديه**» (سبأ ٣١) قال الجلالان: «**وقال الذين كفروا أي أهل مكة: لن نؤمن بهذا القرآن ولا بالذي بين يديه أي ما تقدمه كالتوراة والإنجيل الدالين على البعث لإنكارهم له**». فرسالة «**النذير**» في شقيها لا تقتضي المعجزة، حسبها الانتساب إلى الكتاب الإمام الذي تفصله وتستشهد به.

وسورة (حم السجدة أو فصلت) تحدد الوحي القرآني أنه تفصيل الكتاب الإمام قرآناً عربياً؛ وتجعل في ذلك رسالة «**النذير**» الذي هو «**بشر**» كغيره «**لا يعلم الغيب**»: «**حم. تنزيل من الرحمن الرحيم: كتاب فصلت آياته قرآناً عربياً لقوم يعلمون بشيراً ونذيراً! فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون... قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلي أنما إلهكم إله واحد، فاستقيموا إليه واستغفروه: وويل للمشركين**» (١-٦). تنزيل القرآن يقتصر على تفصيل الكتاب في التوحيد، لذلك فالقرآن ذاته «**بشير ونذير**» (ق ١-٤) وصاحب هذا التفصيل «**بشر مثلهم**» (٦) أنذرهم «**صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود**» (فصلت ١٣) وانتظروا وانتظر معهم فلم تحل الصاعقة بهم (يونس ٢٠).

ولا ضير في ذلك لأن الإنذار بالتوحيد ويوم الدين لا يقتضي المعجزة ولا تحديد يوم العذاب: « ويقولون: متى هذا الوعد إن كنتم صادقين؟ - قل إنما العلم عند الله! وإنما أنا نذير مبين » ( الملك ٢٥ - ٢٦ ). لأن « النذير » لا يعلم الغيب حتى يحدد موعد عذاب الكافرين، وليس عليه من معجزة لإثبات هذا الوعد، لأنه نذير لا غير: « إنما أنا نذير مبين » .

وظل مفهوم النبوة أنه إنذار لا غير حتى آخر العهد بمكة وأنه إنذار ينتسب إلى الكتاب وفي هذا النسب شهادة كافية. « وقالوا: لولا أنزل عليه آيات من ربه؟ - قل: إنما الآيات عند الله! وإنما أنا نذير مبين » ( عنكبوت ٥٠ ) فصفا « نذير » لا تقتضي المعجزات؛ معجزته الوحيدة أنه بلغهم ما في الكتاب الإمام: « أو لم يفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم »؟ ( عنكبوت ٥١ ) وهو كقوله: « وقالوا: لولا يأتينا بأية من ربه؟ - أولم تأتهم بينة ما في الصحف الأولى »؟ ( طه ١٣٣ ) فتتزيل الكتاب في القرآن هو بيان ما في الصحف الأولى. والشهادة بذلك ليس المعجزة ( عنكبوت ٥٠ ) ولا العذاب والموعود ( عنكبوت ٥٣ - ٥٤ ) بل شهادة أهل الكتاب له ( رعد ٤٥ ) لأن القرآن « آيات بيّنات في صدور الذين أوتوا العلم » أي أهل الكتاب ( عنكبوت ٤٩ ).

وتختصر سورة ( الرعد ) القرآن المكي كله: القرآن هو الحق لأنه آيات الكتاب: « أمر. تلك آيات الكتاب، والذي أنزل من ربك هو الحق، ولكن أكثر الناس لا يؤمنون » (١). ولم يؤمنوا لأنه لم يأتهم بمعجزة: « ويقول الذين كفروا: لولا أنزل عليه آية من ربه؟ - إنما أنت منذر! ولكل قوم هاد » (٨) فإنذار الناس وهدايتهم إلى الإيمان بالله واليوم الآخر لا تقتضي المعجزة لأنه دين الفطرة، ولأنه ليس من صفة « النذير » الهادي أن يأتي بمعجزة، حتى ولو يؤمنون من ذلك: « ولو أن قرأنا سيرة به الجبال، أو قطعنا به الأرض، أو كلم به الموتى! - بل لله الأمر جميعاً: أفلم يبيأس الذين آمنوا إن لو يشاء الله لهدى الناس جميعاً » (٣٣). لا داعي لليأس لأن المعجزة بإذن الله، ولم يأذن الله بمعجزة لهذا الرسول (الإسراء ٥٩) لأنه نذير لا غير، وليس من صفة النذير صنع المعجزات: « ويقول الذين كفروا: لولا أنزل عليه آية من ربه؟ - إنما أنت نذير ولكل قوم هاد » ( رعد ٨ ). فحسب « نذير » القرآن شهادة أهل الكتاب له لأن شهادتهم من شهادة الله: « ويقول الذين كفروا: لست مرسلًا! - قل: كفى بالله شهيداً بيني وبينكم، ومن عنده علم الكتاب » ( رعد ٤٥ ).

فرسالة القرآن في مكة قومية حجازية؛ وستصبح في المدينة قومية عربية؛ ورسول القرآن في مكة (( نذير )) لا غير، وسيصير في المدينة (( رسولا )) .

\*

\* \*

وهكذا، فالقرآن تعريب التوحيد الكتابي، في تفصيل الكتاب (( الإمام )) للعرب (( قرآناً عربياً )) لكي يعقلوه. هذا ما يرشح من السور المكية جميعها.

دامت الدعوة في مكة ثلاث عشرة سنة. كانت في العهد الأول دعوة للإيمان بيوم الدين في معرض الإصلاح الاجتماعي، في ظل المؤثرات المسيحية الموروثة عن الفقيه المسيحي نسييه ورقة بن نوفل، لذلك سميناه (( العهد المسيحي )) الذي دام نحو خمس سنوات وانتهى بالهجرة إلى الحبشة. وكانت في العهد الثاني دعوة إلى التوحيد الخالص، في ظل المؤثرات الإسرائيلية، التي استأثر بها بعض علماء بني إسرائيل ( شعراء ١٩٧ ) لذلك سميناه (( العهد الإسرائيلي )) الذي دام أيضاً نحو خمس سنوات وانتهى بالهجرة إلى الطائف. وكانت في العهد الثالث، دعوة للإيمان بالله واليوم الآخر معاً، في تساوي النفوذ بين المسيحي والإسرائيلي معاً في (( أمة واحدة )) أي (( دين واحد )) مع الاستطلاع إلى الاستقلال عن أهل الكتاب؛ لذلك سميناه (( عهد الأمة الواحدة )) الذي دام نحو ثلاث سنوات، وانتهى بالهجرة الكبرى إلى المدينة، تلك الهجرة التي غيرت سيرة النبي، ودعوة القرآن، ومعنى الإسلام الأول.

والهجرة إلى المدينة دليل على فشل الدعوة القرآنية في مكة. فشل في الدعوة أولاً: كان عدد المهاجرين إلى الحبشة نحو ثمانين مع خمس عشرة امرأة؛ وفي الهجرة الكبرى على المدينة لا تذكر السيرة أكثر من ذلك، وهذا يعني جمود الحركة الإسلامية في مكة منذ الهجرة الأولى حتى الأخيرة، جمدها الاضطهاد وأضعفتها الارتدادات الأخيرة التي تذكرها سورة النحل، وتندد بها سورتا العنكبوت والرعد في أواخر العهد. وهكذا لم يتجاوز عدد جماعة محمد في مكة المئة: بعد ثلاث عشرة سنة. إنه فشل ذريع، (( مع أن ثلثي القرآن قد نزل في هذا العهد المكي، وأن الأسلوب القرآني المكي هو أقوى وأنفذ من حيث النظم والإنذار والتبشير والترهيب والحجاج والإفحام والإلزام ))<sup>١</sup>. وفشل طريقة الدعوة ثانياً:

(١) صحيح البخاري ٣ : ١٠٤ في تفسير سورة الأنبياء الآية ٩١ (( قال ابن عباس : أمتكم أمة واحدة ؛ قال: دينكم دين واحد )) .  
(٢) دروزة : القرآن المجيد ٣٤ .

كانت بمكة (( بالحكمة والموعظة الحسنة )) على طريقة الإنجيل، فصارت في المدينة بالقوة و(( الحديد الذي فيه بأس شديد )) على طريقة التوراة في جوار يهود المدينة. ومعاهدة العقبة على (( حرب الأحمر والأسود من الناس )) إعلان صارخ على فشل تلك الطريقة المكية (( بالحكمة والموعظة الحسنة )) . وهذا الفشل المزوج في الدعوة وطريقها السمعاء كان من أسباب الهجرة النهائية إلى المدينة، والتطور الجذري الذي أعقبها في الدعوة والداعي.

ونختم مع الأستاذ دروزة<sup>١</sup> هذه النظرات العامة في القرآن المكي: (( وهكذا فإن القرآن، منذ الوقت المبكر من العهد المكي، أكد وظلّ يؤكد طيلة العهد وفي مختلف أدوار التنزيل: وحدة المصدر الذي صدر عنه القرآن والكتب السماوية؛ ووحدة الأهداف والمبادئ التي تضمنها القرآن وتلك الكتب؛ وتأيد القرآن والنبى ص. للأنبياء السابقين والكتب السابقة، والتنويه بهم؛ وإنه استشهد وظل يستشهد بأهل الكتاب على صحة الرسالة النبوية والتنزيل القرآني بأسلوب يلهم استعدادهم للشهادة الإيجابية، والثقة بهم والاعتماد عليهم فيها ... ونعتقد أن النبي ص. قد ألهم هذا الموقف قبل نبوته أيضاً إذ كان بينه وبين بعض الكتابيين في مكة صلة ودّ ومبادلة عطف وتصديق<sup>٢</sup>: وإن هذا من أسباب هذا الموقف الودي المتبادل؛ هذا إلى ما احتواه القرآن من تصديق وتأيد وتنويه بكتبهم وأنبيائهم واستشهاد بهم واعتماد عليهم، وتلقين.

### بالوحدة التامة بينهم ))

\*

(١) سيرة الرسول ٣١ : ٣٠٤ .  
 (٢) هذا الواقع التاريخي والقرآني يبّد أو هام الأقدمين التي تجد مثلاً لها عند أبي بكر الباقلائي في كتاب ( التمهيد : الباب الحادي عشر ١٤٢ ) بمناسبة آية العنكبوت (( وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تحطه بيمينك، إذا لارتاب المبطلون )) ( ٤٨ ) قال : (( ولو عرفوه بذلك أو بصحبة أهل الكتاب ونقطة السير ، ومداخلة أهل الاخبار ، ومجالسة أصحاب هذا الشأن ، لم يلبثوا أن يقولوا له : هذا كذب ، لأنك ما زلت خاطئاً كاتباً وما زلت معروفاً بصحبة أهل الكتب ومجالستهم وقصدهم إلى مواضعهم ومواطنهم ، ومجاراتهم والأخذ عنهم والاستفادة عنهم )) . - لا يرى الباقلائي وأمثاله صحة نبوة النبي ، ومعجزة إعجاز القرآن إلا من وراء أمية محمد ، وانقطاعه عن مخالطة أهل الكتاب والعلم ، مع أن الثقافة والشعر ومطالعة الكتب والعلماء لا تمنع النبوة كما نرى ذلك في مثل موسى الكليم وبعض أنبياء الكتاب مثل أشعيا والرسول بولس .



## الفصل العاشر

### العهد الأول في المدينة - الرابع من الدعوة القرآنية

( من الهجرة ١هـ ٦٢٢م - إلى صلح الحديبية ٦هـ ٦٢٨م )

#### عهد (( الأمة الوسط ))

- تأسيس (( الأمة الوسط )) على الحنيفية الكتابية
- عهد التشريع والأحكام في القرآن.
- دعوة اليهود لاتباع (( النبي الأمي )) .
- الدفاع بالسلح عن الإسلام (٥ سنوات ١٢ سورة).

\*  
\* \*

#### تمهيد : الهجرة ثورة وانقلاب في الرسول والرسالة

(( وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ))  
( بقرة ١٤٢ )

ثم كانت الهجرة الكبرى والنهائية إلى يثرب (( مدينة )) الرسول فيما بعد.  
كانت الهجرة، في السيرة النبوية والدعوة القرآنية، ثورةً وانقلاباً!  
وكان الانقلاب شاملاً كاملاً: انقلاب في الدعوة! وانقلاب في الداعية! وانقلاب في الوحي والتنزيل! وانقلاب في الإسلام! وانقلاب في الأسلوب القرآني!

قال الأستاذ عمر فروخ<sup>١</sup>: « كان للهجرة قيمة خاصة في تاريخ الإسلام: لقد كانت حداً فاصلاً بين عهد كان فيه الإسلام دعوة دينية، يحميها نفر قليلون مستضعفون، وبين عهد أصبح الإسلام فيه دولة قوية مرهوبة ». .

وإنّا لنوجزُ في هذا التمهيد أسباب الهجرة ونتائجها في الرسالة والرسول.

\*

### مطلب أول: أسباب الهجرة

فالهجرة إلى يثرب هي الحدث الأكبر في السيرة النبوية والدعوة القرآنية. لم تكن فراراً فجائياً خفياً كما كانت إلى الطائف؛ بل خطة مدبرة مُحكمة استغرقت مفاوضات سنين ونيفاً كما تنصّ سيرة ابن هشام<sup>٢</sup> والتاريخ الثابت<sup>٣</sup>. لقي في الحج سنة ٦٢٠م سئة نفر من يثرب فدعاهم إلى الإسلام؛ ولما كان موسم الحج في العام ٦٢١ لقي منهم اثني عشر رجلاً فبايعوه على الإسلام. وفي موسم الحج من العام ٦٢٢ كانت بيعة العقبة الثانية علي « حرب الأحمر والأسود من الناس » ، وقد حضرها العباس عم الرسول وثلاث وسبعون رجلاً وامرأتان من يثرب.

لقيت الدعوة القرآنية منذ إعلانها في مكة معارضة قوية عنيفة، واضطهاداً قاسياً مريراً متواصلًا جمّدها في امتدادها منذ الهجرة إلى الحبشة حتى الهجرة إلى المدينة، وكاد يقضي عليها في الارتدادات الاخيرة عن الإسلام. وهذا الفشل خلق في نفس النبي أزمت نفسية وإيمانية حادة حملته على التفكير مراراً بالفرار من ذلك الجحيم.

راودت فكرة الهجرة ضمير نبي مكة منذ العهد الثاني فيها. نجد الإشارة إلى ذلك في سورة ( الزمر ) : « قل يا عبادي الذين آمنوا اتقوا ربكم: للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة وأرض الله واسعة » (١٠) فهي دعوة لطيفة إلى الهجرة والتخلص من الأذى والمحنة. وآية الإسراء: « وإن كادوا ليستفزونك من الأرض ليخرجوك منها » (٧٦) تصف محاولات قريش وأثرها في النبي. وتشهد الدوافع إلى الهجرة في العهد الثالث بمكة بعد

(١) عمر فروخ : العرب والإسلام . بيروت ١٩٥٨ ص ٤٢ .

(٢) السيرة لابن هشام ٢ : ٧٣ و ٨١ و ٩٣ .

(٣) قابل حسين هيكل : حياة محمد ١٨٦ .

محنة الارتداد عن الإسلام ( نحل ١٠٦ - ١١٠ ). فيستعجل النبي الظروف فيردعه الوحي: (( فاصبر إن وعد الله حق: ولا يستخفئك الذين لا يوقنون )) ( روم ٦٠ ) (( لا نستبعد أن يكون النبي ص. قد اتصل قبل نزول الآية بأهل يثرب ورأى منهم ترحيباً، وأن يكون قد فكر في الاستعجال بالخروج إليهم فتبته الله لأن الوقت المناسب لم يكن قد حلَّ بعد )) . وتصف فيما بعد سورة ( الأنفال ) حال النبي في آخر العهد: (( وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يُخرجوك: ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين )) (٣٠) فقد درس زعماء قريش ثلاث وسائل للتخلص من محمد: الحبس أو الاغتيال أو النفي. يشعر محمد بذلك فيستحث المفاوضات مع أهل يثرب. وتنتهي ببيعة العقبة، فيأتي الإذن للنبي والمسلمين بالهجرة في آخر سورة نزلت بمكة، العنكبوت: (( يا عبادي الذين آمنوا: إن أرضي واسعة، فإياي فاعبدون. كل نفس ذائقة الموت ثم إلينا ترجعون ... وكأين من دابة لا تحمل رزقها، والله يرزقها وإياكم )) . (٥٦ - ٦٠). فلا تخافوا في هجرتكم من الموت أو من الجوع!

رجع محمد من الطائف في يأس من قومه ومن أهل الكتاب. انتمى إلى النصارى في أول أمره، وهاجر جماعته إلى ملك الحبشة الذي كان له في مخيطة العرب مكانة عظيمة، لأنه حليف قيصر، واحتلال الحبشة اليمن مراراً، ومحاولة غزو مكة والحجاز في عام الفيل، فما وجد عند النصارى النصر على بني قومه، لقلّة عدد النصارى وعدتهم الحربية في الحجاز، ولفشل الاعتماد عليهم في الخارج لبعث الدار. وفي العهد الثاني بمكة تقرب من بني إسرائيل لسيطرتهم في الطائف ويثرب، ونفوذهم من نجران إلى الحيرة، وهاجر إلى الطائف يستصرخ يهودها وعربها بني ثقيف، فما سمعوا له وردوه رداً غير جميل؛ فاقتنع أن لا فائدة في ذلك الانتساب إلى اليهود، لعلاقتهم المشبوهة مع الفرس الكفار المستعمرين الذين بدأوا يحاصرون الحجاز من الجنوب والشمال، ولأنهم كانوا دخلاء يحتكرون ثروات البلاد محاولين السيطرة عليها. فاضطر أن يتطلع إلى يثرب وعربها اليمانيين. وكانت ظروف يثرب الدينية والسياسية والاجتماعية تدعو إلى التقرب منهم والتقارب.

كان العداء متأصلاً بين اليمن والحجاز، فقد تزعمت دول اليمن المتعاقبة السيطرة على الحجاز. وبعوامل عديدة أسس أهل اليمن مستعمرات لهم في الحجاز مثل يثرب، وملكاً

لهم في نجد مع آل كندة، ودويلات في الشمال مع آل لحم في الحيرة، وآل غسان في بصرى. ولكن في القرنين الخامس والسادس م عصفت بالحجاز رياح الاستقلال. فكان من آثارها القضاء على العائلة المالكة في نجد، آل كندة آباء امرئ القيس، ومنافسة يثرب التجارية باستلام قريش زعامة التجارة الدولية بين الشمال والجنوب، والشرق والغرب، وسيطرتهم على طرق القوافل في الحجاز. وذاتك الاستقلال القومي والازدهار التجاري بعثا تلك النهضة الأدبية التي أوجدت الشعر الجاهلي، زهرة الثورة القومية العدنانية. أمّا أكبر مظهر لتلك الثورة القومية، والسيطرة التجارية، والنهضة الأدبية فكان ظهور الإسلام في الحجاز، الذي انتهى في وقت وجيز إلى السيطرة على الحجاز واليمن والجزيرة كلها. وقد امتدت جذور التطاحن بين العدنانية والقحطانية إلى العصور الإسلامية.

وكان الأوس والخزرج - الحَيَّان العربيان في يثرب - قد هاجروا إليها من اليمن بعد خراب سدّ مأرب، تلك الكارثة الاقتصادية الشهيرة، حاملين معهم إلى موطنهم الجديد تلك المنافسة التقليدية بين القحطانيين والعدنانيين، وما علق بهم من التوحيد الكتابي الذي كان شائعاً في اليمن. وجوارهم في يثرب لأحياء اليهود الثلاثة - بني قريظة وبني النضير وبني قينقاع - قد حفظ فيهم تلك الميول التوحيدية ونمّاها. (( وكانوا يرون لأهل الكتاب فضلاً عليهم في العلم فكانوا يقتدون بكثير من فعالهم )) . ولم يكن في يثرب كعبة مكة ولا مواسم الحج ليحافظوا عليها بسبب منافعها المادية والمعنوية، فتقف عثرة في سبيل اعتناقهم للتوحيد الكتابي فالقرآني.

ولكن كانت الزعامة الدينية والثقافية والسياسية والاقتصادية في المدينة لليهودها. وكان عربها يتململون من الوضع وينتهزون الفرص للتغلب على اليهود والسيطرة على المدينة. فوجدوا الفرصة العظيمة في عرض نبي مكة الهجرة إليهم والاستنصار بهم. فلما عرض محمد عليهم فكرته وافقوه عليها وفرحوا بها، ليتخلصوا بهذا النبي من زعامة اليهود الدينية، أصل صولتهم، وبهذا الزعيم القرشي من زعامة قريش التجارية والقومية، القائمة على جوار الكعبة، حيث كانت تُقام أشهر أسواقهم للأدب والتجارة.

(١) راجع أسباب نزول الآية ٢٢٣ من البقرة للسيوطي : وتجد فيها مثلاً يصف إلى أي حد كانت العرب تقتدي بأهل الكتاب .

وهكذا كان نجاح الدعوة القرآنية في المدينة منتظراً أكثر من مكة ومن كل بلد آخر في الحجاز، لأن روح التوحيد كان شائعاً فيها بعنصريها اليهودي والعربي؛ ولأن التنافس العنصري والاقتصادي بين مكة والمدينة قد بلغ أوجه؛ ولأن التطاحن العربي واليهودي في المدينة قد أخذ مداه. فالتقت أهداف النبي بأهداف (( الأنصار )) كما يظهر ذلك من معاهدة العقبة. وتقبل القوم جميعاً بالترحاب التوحيد القرآني ونبّيه.

يقول محمد صبيح<sup>١</sup>: (( وكانت مهمة النبي، وهو يهاجر، واضحة: وهي أن يكره قريشاً على الإسلام بحد السيف، بعد أن بذل لها النصح ثلاث عشر عاماً فلم تزد إلا عتواً ))!

فكانت الهجرة تنفيذاً لبيعة العقبة الثانية. لم تكن تلك المبايعة ولاءً عادياً، ولا عهداً دينياً للدعوة والنيشير، بل كانت **معاهدة عسكرية**، كما تنص السيرة: (( بايعهم رسول الله ص. في العقبة الأخيرة على حرب الأحمر والأسود من الناس ... صائحاً: **الدم الدم! والهدم الهدم!** أنا منكم وأنتم مني: أحارب من حاربتكم؛ وأسالم من سالمتم! )) والقرآن المدني كله صورة لتلك المعاهدة العسكرية. ولما وصل محمد إلى المدينة: (( قيل في المدينة: جاء نبي الله! فأشرفوا ينظرون ويقولون: جاء نبي الله<sup>٢</sup> ))!

كان ذلك في ١٢ ربيع الأول أي ٢٤ تشرين أول سنة ٦٢٢. وجعلوه رسمياً في محرّم أي ١٦ تموز ٦٢٢م. وهو أول تاريخ ثابت في الإسلام، وبدء التاريخ الإسلامي. ولم يصف القرآن كيفية تلك الهجرة إلا بعد فتح مكة وتوطد سلطان النبي على الحجاز، وذلك في آخر سورة من سوره: (( إلا تنصروه، فقد نصره الله، إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين، إذ هما في الغار، إذ يقول صاحبه (أبي بكر الصديق): لا تحزن إن الله معنا! فأنزل الله سكينته، وأيده بجنود لم تروها وجعل كلمة الذين كفروا السفلى، وكلمة الله هي العليا، والله عزيز حكيم )) (براءة - توبة ٤١). يصف صحيح البخاري<sup>٢</sup> هذه الهجرة ويقول عن ابن عباس: (( بُعث رسول الله ص. لأربعين سنة؛ فمكث بمكة ثلاث عشر سنة يوحى إليه؛ ثم أمر بالهجرة، فهاجر عشر سنين، ومات وهو ابن ثلاث وستين )) .

(١) محمد صبيح : عن القرآن ٦٢ .

(٢) صحيح البخاري ٢ : ٢١٧ .

فكانت الهجرة إلى المدينة نقطة الانطلاق والانتقال في رسالة محمد من دين إلى دولة<sup>١</sup>.

\*

### مطلب ثان: مشاكل الجماعة الجديدة بعد الهجرة

وكان لا بد للنبي من تذليل العقبات والمشاكل الناجمة عن الهجرة في حياة الجماعة الجديدة.

كان **المشكل الأول** في نزول النبي وضيافته. شعر محمد أنه، لاستقلاله الشخصي ورفع الخصومة بين الأنصار على ضيافته لا بد أن يلجأ إلى عادة مألوفة بتخيير ناقته مئواها. فركب ناقته ووضع لها زمامها لا يثنيها به، وهي تمر بين أحياء يثرب والرسول يقول كلما أوقفها أحد: «خلوا سبيلها فإنها مأمورة»، حتى أتت دار بني النجار «ثم تحللت ورزمت ووضعت جرانها فنزل عنها رسول الله ص.<sup>٢</sup>».

**والمشكل الثاني** كان في علاقة المهاجرين بالأنصار حله النبي «بكتاب المؤاخاة» الذي كتبه بين المهاجرين والأنصار، وقد نقلته لنا السيرة<sup>٣</sup>: «المهاجرون والأنصار أمة واحدة من دون الناس؛ وكل منهم على «ريعته» أي حاله التي جاء الإسلام وهم عليها. ولا يقتل مؤمن مؤمناً في كافر؛ ولا ينصر كافراً على مؤمن. وإن المؤمنين بعضهم موالي بعض دون الناس. وإن سلم المؤمنين واحدة: لا يسالم مؤمن دون مؤمن في قتال في سبيل الله إلا على سواء وعدل بينهم ... وأخى رسول الله ص. بين أصحابه، بين المهاجرين والأنصار».

**والمشكل الثالث** علاقة المسلمين بيهود المدينة. كان أمر اليهود مقضياً في معاهدة العقبة. ولكن الرسول بسياسته الرشيدة تقرب إليهم أول أمره، وصلى على قبائلهم،

(١) مثل الدعوة القرآنية والأزمات النفسية والإيمانية التي تبعث على ذلك الفشل حملت النبي على الهجرة وعلى تحويل الدين إلى دولة. بينما نرى في الإنجيل المسيح يتهرب من الدنيا والدولة ليحفظ لدين الله نقاوته: انتصر على محاولة إبليس له في أول أمره لإغرائه بممالك العالم جميعاً (متى ٤ : ٨ - ١١) ؛ وفي منتصف رسالته، ينتصر على محاولات الشعب المتحمس ليقيموه ملكاً عليهم (يوحنا ٦ : ١٥) ؛ وفي آخر أيامه دخل عاصمة الدين والدولة دخول الفاتحين، وكان الشعب كله يهتف : «مبارك الآتي باسم الرب ! مباركة المملكة الآتية مملكة داود أبينا» (مرقس ١٠ : ١٠). أما هو ففضل الدين على الدولة، والاستشهاد على الهجرة لأن شهادة الدم أفضل من شهادة السيف وأفضل في النفوس.

(٢) السيرة لابن هشام ٢ : ١٤٠ - ١٤١.

(٣) السيرة لابن هشام ٢ : ١٤٧.

وصام صيامهم، وكتب لهم (( عهد المواعدة )) : (( إن اليهود أمة مع المؤمنين: لليهود دينهم وللمسلمين دينهم. وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين: وإن على اليهود نفقتهم، وإن على المسلمين نفقتهم. وإن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة، وإن لا تجار قريش ولا من نصرها. وإن بينهم النصر على من دهم يثرب )) .

**والمشكل الرابع** معيشة المهاجرين. كانت في استقبالهم في ضيافة الأنصار، كلٌّ عند مَنْ آخاه. ولكن لا يمكن أن تدوم تلك الحالة - فاضطروا إلى الرجوع إلى العادة القومية البدوية: الغزو. فكانت بعد أيام سرية نخلة، ثم غزوة بدر ثم جلاء بني قينقاع اليهود الذين أُرغموا على ترك بيوتهم وأموالهم؛ مما أيقظ حفيظة بني النضير وبني قريظة، فسعوا إلى التآمر مع المنافين من عرب المدينة، وعلى رأسهم زعيم المدينة عبد الله بن أبي، حليف بني قينقاع، الذي لم ينجح مع النبي في نصره حلفائه؛ ومع زعماء مكة. فكانت السرايا والغزوات المتتالية باب رزق لهم، وانتقاماً من قومهم، ونصرة للإسلام<sup>٢</sup>.

**والمشكل الخامس** حكم الجماعة الجديدة. يصفه صك الموأخاة والمواعدة. يقول للمسلمين: (( وإنكم مهما اختلفتم في شيء فإن مرده إلى الله عز وجل، وإلى محمد ص. )) ويقول لليهود والذين يوادعهم: (( وإنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو أشجار يخاف فساده، فإن مرده إلى الله عز وجل، وإلى محمد ص. )) ففي العهد الأول من المدينة يطلب الطاعة له؛ ولكن لن يعتم حتى يفرضها القرآن فرضاً: (( أطيعوا الله والرسول )) . ثم استدراكاً لعنفوان زعماء الصحابة الذين لم يتروضوا على الحكم والنظام، يشركهم في أمره (( وشاورهم في الأمر )) ويعطي حكمه مظهر الشورى (( وأمرهم شورى بينهم )) . ولكن هل من شورى إذا جاء أمر الله والرسول؟

**المشكل السادس** عبادة الجماعة الجديدة: بدأ في اقتفاء آثار أهل الكتاب، فصام صوم عاشوراء، وصلى قبلة الشام؛ وما عتم أن بدأ الاستقلال والانفصال. (( صُرفت القبلة عن الشام إلى الكعبة ... صرفت في رجب على رأس سبعة عشر شهراً من مقدم رسول الله<sup>٣</sup> )) أي أواسط شباط ٦٢٤م ومنذ سورة البقرة أخذ الاستقلال يتطور حتى سورة الجمعة التي تصف الصلاة الجمهورية الإسلامية.

(١) السيرة لابن هشام ٢ : ١٤٨ .

(٢) راجع في طبقات ابن سعد ( ٢ : ١ - ١٣ ) صلاة محمد إلى الله ليرزق قومه معيشتهم .

(٣) السيرة لابن هشام ٢ : ٢١٠ .

**المشكل السابع** ترتيب الأحوال الشخصية والعامّة للأمة الوسط الجديدة. فمنذ سورة البقرة يظهر القرآن تفسيراً متواصلاً لحياة الأمة وتشريعاً لأحداثها الطارئة. تشريع واقعي يعطي لكل حالة حكمها، وقد يعود إليه فيعدّله أو ينسخه.

وهكذا نجد في صك المواخة والموادعة برنامج الحياة الجديدة الذي ستفصله سور القرآن المدني مع تصلّب في الحكم كلما توطدت سلطة النبي. والظاهرة الكبرى في تلك الوثيقة أن العصبية الدينية تقوم مقام العصبية القبلية، وتصبغ العوائد القومية بصبغتها الجديدة.

\*

### مطلب ثالث: آثار الهجرة في الرسول والرسالة

فما هي النتائج التي أسفرت عنها معاهدة العقبة والهجرة النبوية؟ كانت انقلاباً شاملاً كاملاً في الرسالة والرسول.

**أولاً:** كانت بيعة العقبة والهجرة النبوية انقلاباً في سيرة محمد وشخصيته.

وقد لاحظ المؤرخون المسلمون ذلك الانقلاب العميق في أخلاق النبي: قال حسين هيكل في ( حياة محمد<sup>١</sup>): « هنا يبدأ الدور السياسي ... وهذا الدور من حياة الرسول لم يسبقه إليه نبي أو رسول. فقد كان عيسى وكان موسى، وكان من سبقهما من الأنبياء يقفون عند الدعوة يبلّغونها للناس من طريق الجدل ومن طريق المعجزة. ثم يتركون لمن بعدهم من الساسة وذوي السلطان أن ينشروا هذه الدعوة بالمقدرة السياسية وبالدفاع عن حرية إيمان الناس بها ... وكذلك أمر سائر الأديان في شرق العالم وغربه. فأما محمد فقد أراد الله أن يُنمّ نشر الإسلام وانتصار كلمة الحق على يديه، وأن يكون الرسول والسياسي والمجاهد والفاتح » .

وهكذا كان محمد يقول في مكة: « قلّ ما كنتُ بدعاً من الرسل » ! ( أحقاف ٩ ) فتراه بهذا الدور الجديد بدعاً من الرسل « لم يسبقه نبي أو رسول » ، ونراه بدعاً من الرسالة « وكذلك أمر سائر الأديان في شرق العالم وغربه » . وهل في هذا الشذوذ عن سائر الأنبياء والمرسلين من إعجاز ومعجزة؟ نحن في رسالة السماء، أم في سياسة الدنيا؟ نحن في تأسيس دين أم في تكوين دولة؟

\*

(١) حسين هيكل : حياة محمد ١٩٠ .



**ثانياً: كانت بيعة العقبة والهجرة النبوية انقلاباً في الوحي والتنزيل والدعوة.**

القرآن المكي كله دعوة إلى الإيمان بالله واليوم الآخر. ودعوة يوم الدين فيه، كأنه يوم قريب، على الأبواب. لا تخلو سورة من توجيه الناس من شؤون الدنيا إلى شؤون الآخرة. ولا تخلو سورة من التحريض على الزهد بالدنيا ومناعتها الغرور. وقد يشمل التحذير من مغريات الدنيا النبي نفسه: (( ولا تمدن عينيك إلى ما متّعنا به أزواجاً منهم، زهرة الحياة الدنيا لفتنهم فيه، ورزق ربك خيرٌ وأبقى! وأمرُ أهلِكَ بالصلاة، واصطبر عليها. لا نسألك رزقاً، نحن نرزقك، والعاقبة للمتقوى )) ( طه ١٢١- ١٢٢ ). ويعود القرآن نفسه إلى تحذير محمد مرة ثانية في آخر العهد: (( ولا تمدن عينيك إلى ما متّعنا به أزواجاً منهم، ولا تحزن عليهم )) ! (الحجر ٨٨). كان محمد يرغب أن يتمتع بما يتمتع به زعماء مكة من مال وبنين ( سبأ ٣٥ مؤمنون ٥٥ ) ويحزن لحرمانه، وحرمان جماعته.

فقطورت الدعوة من الإيمان باليوم الآخر، إلى الإيمان باليوم الحاضر. وقد أثر التغيير بالضرورة في شخصيته وشخصية الإسلام وتعاليمه وأعماله (( ... وكان الهجرة نقطة البداية لنوع جديد من الوحي: فمنذ ذلك الوقت أصبحت الآيات تختلف جدّاً الاختلاف عن الآيات المكية، وتناولت الآيات الجديدة مشكلات الحياة العملية، وتوزيع الغنائم، وما شاكل )) .

وتكثر السؤالات للنبي، والاستفتاءات في الحياة اليومية.

وروح الزهد في الدنيا، التي كانت روح القرآن المكي وروحانيته، تحولت إلى إقبال على الدنيا والتمتع بها. فمنذ البدء يقول: (( يا أيها الناس كلوا مما في الأرض حلالاً طيباً )) (بقرة ١٦٨). وظل حتى النهاية يقول: (( يسألونك: ماذا أحلّ لهم؟ - قلّ أحلّ لكم الطيبات! .. اليوم أحلّ لكم الطيبات! .. يا أيها الذين آمنوا لا تحرّموا طيبات ما أحلّ لكم، ولا تعتدوا أن الله لا يحب المعتدين )) ( مائدة ٥ و٦ و٩٠ ) ويمتاز النبي بهذا التحليل في بعض الشؤون (أحزاب ٥٠ تحريم ١).

كانت الدعوة في مكة روحية، فصارت في المدينة دنيوية. كانت في مكة صوفية

(١) العرب في التاريخ ٥٤ ثم ٥٨ .

فصارت في المدينة تشريعية زمانية. تغلغل الدين في صميم الحياة حتى امتزج الدين في الدنيا، وامتزجت شؤون الروح بشجون الجسد. قد يرون في ذلك شمولاً وكمالاً، ولا يراه سواهم.

\*

### ثالثاً: كانت بيعة العقبة والهجرة النبوية انقلاباً في الدين إلى دولة.

كان الإسلام في مكة دعوة دينية فصار في المدينة دولة دينية<sup>١</sup>.

قال الإمام حسن البنا، مرشد الأخوان المسلمين في مصر: (( الإسلام دين ودولة ... وإنه تعرّض لشؤون الحياة الدنيوية العملية بأكثر مما تعرّض للأعمال التعبدية ... إن الدين جزء من نظام الإسلام والإسلام ينظمه كما ينظم الدنيا ... ومن ظن أن الإسلام لا يعرض للسياسة، أو أن السياسة ليست من مباحثه فقد ظلم نفسه، وظلم علمه بهذا الإسلام. وجميل قول الإمام الغزالي: إن الشريعة أصل والملك حارس؛ وما لا أصل له فمهذوم، وما لا حارس له فضائع<sup>٢</sup> ))

لقد علّمت حياة مكة محمداً أنه لا بدّ له من هيئة سياسة مجاهدة لتحمي دعوته الدينية وتناصرها وتعمل لها. فأخذ منذ سورة البقرة يعمل لتكوين هذه الدولة. وتشعر رويداً رويداً أن الإسلام في السور المدنية ينقلب من دين إلى دولة، تعمل السياسة والدبلوماسية والجهاد لتوطيدها. يقول عمر فروخ<sup>٣</sup>: (( الإسلام دولة: في المدينة أصبح الإسلام ديناً ودولة معاً. فبدأت قواعد الدولة الإسلامية بالرسوخ. وأخذ الرسول يهتم بالأسس الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والعلمية التي يجب أن تقوم عليها الدولة. وسيبرز في الوحي بعد ذلك ناحيتان: ناحية الجهاد لتثبيت الإسلام وإنشاء الدولة الجديدة؛ وناحية التشريع لإدارة هذه الدولة )) .

بذلك قضت ظروف البيئة الحجازية البدوية التي لم تكن تفهم الدين إلا من خلال القومية والسلطان. وقد لاحظ هذه الناحية المفكرون المسلمون والأجانب.

(١) عمر فروخ: العرب والإسلام ٤٢ .

(٢) أحمد محمد جمال: دين ودولة. المقدمة الأولى .

(٣) عمر فروخ: العرب والإسلام ٤٣ .

قال ابن خلدون، واضع علم الاجتماع، في مقدمته<sup>١</sup>: (( إن العرب لا يحصل لهم الملك إلا بصيغة دينية من نبوة أو ولاية أو أثر عظيم من الدين على الجملة. والسبب في ذلك أنهم لخلق التوحش الذي فيهم أصعب الأمم انقياداً بعضهم لبعض للغلظة والأنفة، وبعد الهمة والمنافسة في الرئاسة )) .

وهذه **الثنائية** بدمج الدين بالدولة أصيلة في المجتمع العربي، ولذلك انتهى إليها الإسلام في تأسيسه: (( فالديانة في المجتمع العربي البدائي كان يعبر عنها كما كانت تنظم بطريقة سياسية، لعدم وجود شكل آخر للتعبير عنها وتنظيمها. وبالعكس كانت الديانة وحدها هي التي تعدُّ أساس كل حكومة عند العرب الذين كان كل تصوّر للسلطة السياسية غريباً عنهم )) في الحجاز<sup>٢</sup>.

وهذه هي الظاهرة الكبرى في القرآن المدني، والفارق الأكبر بين المدني والمكي: (( لقد كان الإسلام إلى ذلك الوقت عبارة عن دين في دولة. أما في المدينة بعد بدر فقد أصبح أكثر من دين دولة: إنه أصبح الدولة نفسها. ومن هناك منذ ذلك الوقت خرج إلى العالم قوة حربية سياسية<sup>٣</sup> )) .

\*

### رابعاً: كانت بيعة العقبة والهجرة النبوية انقلاباً في طريقة الدعوة.

كانت الدعوة القرآنية في مكة إلى الإيمان بالله واليوم الآخر في زهد من الجسد والدنيا والدولة؛ فأصبحت في المدينة دعوة إلى الإيمان بالله في اليوم الحاضر الغارق في شؤون الجسد والدنيا والدولة. كان الإسلام في مكة يهتم بملكوت السماء، فأصبح في المدينة يهتم بملك الأرض.

كانت طريقة الدعوة القرآنية في مكة (( بالحكمة والموعظة الحسنة )) ؛ فإذا بطريقة الدعوة القرآنية في المدينة تصير (( بالحديد الذي فيه بأس شديد )) ! ويصرح بأن هذه الطريقة الجديدة **منزلة**: (( وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد، ومنافع للناس، وليعلم الله من ينصره ورسوله بالحق: إن الله قوي عزيز )) ( الحديد ٢٥ ).

(١) ابن خلدون المقدمة - دار الكتاب اللبناني ص ٢٦٩ .

(٢) العرب في التاريخ ٥٤ و٥٧ .

(٣) حتى: تاريخ العرب ١ : ١٦٢ .

قال عمر فروخ<sup>١</sup>: «لما هاجر المسلمون من مكة إلى المدينة أصبح الإسلام ديناً ودولة معاً، بعد أن كان ديناً فقط... من أجل ذلك جعل الرسول يعدّ المسلمين للجهاد بالتربية الخلقية والنفسية» .

فنزل الإذن بالقتال، بعد أن كان يمنعه في مكة: «أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وأن الله على نصرهم لقدير، الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا: ربنا الله! ولولا دفع الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يُذكر فيها اسم الله كثيراً. ولينصرنَّ الله من ينصره، إن الله لقوي عزيز» . (الحج ٣٩ - ٤٠): يقول لولا الجهاد والقتال لما قام دين لموسى وعيسى ومحمد! قال الزمخشري: «وهي أول آية أذن فيها بالقتال بعدما نهى عنه في نيف وسبعين آية» .

وسورة البقرة، الأولى في المدينة، تفسّر رويداً رويداً هذه الطريقة الجديدة في الدعوة القرآنية: «كتب عليكم القتال وهو كره لكم؛ وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم» (بقرة ٢١٦) فالقتال في سبيل الدين والدولة واجب إلهي. ويشعر النبي أنهم ينفرون من هذه الطريقة الجديدة، فيفهمهم أن فيها الخير لهم. تأدب القوم بأدب الكتاب أنه «لا إكراه في الدين» كما يصدّقه القرآن؛ ولكن مع ذلك لا بدّ من القتال لأن «الفتنة أكبر من القتل» ولو كرهوا (بقرة ٢١٧). ومن هذا المبدأ أخذ ينثر التحريضات على القتال: «وما لنا لا نقاتل في سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا وأبناننا؟!». وينقل القصص التوراتي الذي يقص الجهاد، كقصّة طالوت وجالوت. ويحدّد مدها ومواقعه: «وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم، ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين» (بقرة ١٩٠) وإذا لزمه الأمر يستدرك: «واقتلوهم حيث تفتنموهم، وأخرجوهم من حيث أخرجوكم! والفتنة أشد من القتل! ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه: فإن قاتلوكم فاقتلوهم فيه، كذلك جزاء الكافرين» (بقرة ١٩١). وعندما تقتضيه مصالح الدولة الناشئة أن يستبيح ما لم يكن مباحاً، يصرّح: «ويسألونك عن الشهر الحرام: قتال فيه؟ - قل: قتال فيه كبير»! (بقرة ٢١٧). ويعدّ القتلى بالحياة الخالدة في جنة تجري من تحتها الأنهار: «ولنبلوكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات! وبشر الصابرين، الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا: إنا لله وإنا إليه راجعون! ولا تقولوا

(١) عمر فروخ: العرب والإسلام ٤٥ .

لمن يُقتل في سبيل الله: أموات! بل أحياءٌ عند ربهم يرزقون (( ١٥٤- ١٥٥)). فلن تسمع بعد اليوم في القرآن المدني سوى هذا الصوت الهدّار للدعوة الجديدة: (( وقاتلوا في سبيل الله: إن الله سميعٌ عليم )) ( بقرة ٢٤٤ ) وكل ما رُدّه في مكة من صفح و عفو و صبر و احتمال ينسخه بفريضة القتال ( بقرة ٢١٦ ) وآية السيف ( براءة ٥ ) .

(( وإلى جانب تأييد الوحي للبرنامج الحربي الذي شرع فيه رسول الله، فإنه أخذ ينزل بتشريع الإسلام ووضعه أسسه الخلقية والاجتماعية )) .

ونفذ النبي برنامجه الحربي في المدينة على فترتين وصيغتين:

**فترة الدفاع بالسلاح، من الهجرة (٦٢٢) إلى الاستعداد لحملة الحديبية (٦٢٨) وذلك** مدة خمس سنوات ونيف؛ ويتلخص العهد بحملتين من قريش على المدينة، يوم أحد، ويوم الخندق. **وقد نزل في هذا العهد الأول اثنتي عشرة سورة.**

**وفترة الهجوم بالسلاح من حملة الحديبية (٦٢٨ م) إلى موت الرسول (٦٣٢ م) مدة** خمس سنوات. ويتلخص العهد الثاني بحملتين من المسلمين على مكة، عام الحديبية، و عام الفتح الأكبر. **وقد نزل في هذا العهد الثاني اثنتي عشرة سورة.**

في العهد الأول وقف العرب من الصراع بين محمد وبني عشيرته موقف المترقب ليروا العاقبة ويسيروا عليها: (( يمكن أن يقال - استدلالاً من أحداث العهد المدني وما كان من عداء ونضال مستمرين بين النبي والمسلمين من جهة وأهل مكة من جهة أخرى، ممّا احتوى القرآن المدني إشارات عدّة إليه - إن أهل مكة ومَن ظل متأثراً بموقفهم الجحودي والعدائي، وخاصة من كان في منطقتهم من قرى وقبائل، قد ظلت أكثريتهم الساحقة جاحدة منقبضة عن الاستجابة إلى الدعوة إلى أن فتحت مكة ودانت للإسلام، أي إلى السنة الثامنة بعد الهجرة )) .

\*

(١) محمد صبيح : عن القرآن ٦٥ .

(٢) دروزة : سيرة الرسول ٢ : ١٢ .

**خامساً: من أهداف بيعة العقبة والهجرة الاستقلال عن أهل الكتاب.**

كان الانفصال عن أهل الكتاب من شروط بيعة العقبة. كان الانصار فيها ثلاثة وسبعون رجلاً، وكان مع النبي عمه العباس، فاستدرك أحد الأنصار المبايعة فقال: « يا رسول الله: إن بيننا وبين الرجال - يعني اليهود - حبالاً، وأنا قاطعوها. فهل عسيّت إن نحن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا؟ قال: فتبسم رسول الله ص. ثم قال: بل الدم الدم! والهدم الهدم! أنا منكم وأنتم مني! أحارب من حاربتم وأسالم من سالمتم! » وبئيت النبي وبيت الأنصار معه قطع « الحبال » مع اليهود.

وسور العهد المدني الأول تصف تطور الانفصال عن أهل الكتاب اليهود والاستقلال الإسلامي « الطائفي ». منذ سورة البقرة يظهر الاستقلال بتأسيس الإسلام « أمة وسطاً » بين اليهود والنصارى، وشعار هذا الانفصال والاستقلال: القبلة في الصلاة إلى كعبة مكة. بهذا العمل العبقري، ربط الكعبة وحجها بإبراهيم وملته الحقّة، يتم تعريب التوحيد الكتابي، ويتم الاستقلال عن أهل الكتاب، ويبدأ الانفصال. وفي نظر محمد فإن ربط الحنيفية الكتابية، التي جعلها عقيدة الأمة الوسط، بإبراهيم من فوق الإنجيل والتوراة وعيسى وموسى، رجوع إلى الأصل النقي؛ وفي هذا الرجوع الديني القومي حق الانتساب الأفضل إلى إبراهيم جد إسماعيل والعرب المستعربة في الحجاز. وفي سورة آل عمران بعد واقعة بدر المظفرة يتمكن الاستقلال عن أهل الكتاب باعتماد الحنيفية الكتابية، أي التوحيد الكتابي مع دمج بعوائد القومية العربية؛ ويتبلور الجدل على ملة إبراهيم هل هي مع اليهود في الكتاب أم قبل الكتاب مع غيرهم: « ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً، ولكن كان حنيفياً مسلماً، وما كان من المشركين! إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه، وهذا النبي والذين آمنوا، والله ولي المؤمنين » (٦٧-٦٨). وفي سورة النساء يتم الانفصال عن أهل الكتاب، بإعلان الإسلام ملة إبراهيم، وتفضيل الحنيفية الإبراهيمية على سائر ملل التوحيد: « ومن أحسن ديناً ممن أسلم وجهه لله، وهو محسن، واتبع ملة إبراهيم حنيفاً: واتخذ الله إبراهيم خليلاً »! (١٢٤). وفي سورة البينة تصوير الحنيفية الكتابية، الدين القومي العربي، دين القيمة: « وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين، حنفاء، ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة: وذلك دين القيمة »! (٦).

ولمّا بدأ محمد يفرض زعامته النبوية على المدينة ذرّ النفاق قرنه بين القوم. فقام بين محمد واليهود في المدينة جدال فخصام فقتال؛ وقام بين محمد وبعض عرب المدينة، الذين يسميهم القرآن (( المنافقين )) ، دسّ وتفارقة بقيادة عبد الله بن أبي، زعيم المدينة قبل مجيء محمد إليها. وكان ذلك بسبب التطاحن على زعامة المدينة لا بسبب الاختلاف في الدين والتوحيد. فقد توهم الفريقان المعارضان، اليهودي والعربي، أن محمداً يتخذ من النبوة سبيلاً إلى الملك، فنازعه في الملك والنبوة. وتصف سور العهد ذينك النفاق والخصام.

(( إن ثلث القرآن تقريباً إنما نزل في الدفاع عن العقيدة المحمدية ضد مزاعم اليهود. وكانت للوحي مهمة أخرى، إلى جانب كفاح اليهود، وهي الكشف عن المنافقين وتشديد النكير عليهم. وفي هؤلاء القوم نجد آيات كثيرة جداً، لا تصل في كثرتها إلى آيات اليهود، ولكنها تستغرق قسماً من طوال السور )) .

كل ذلك، ومحمد يوجه الدعوة صريحاً في العهد الأول إلى اليهود ويسمي نفسه (( النبي الأمي )) الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل، يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر، ويحلّ لهم الطيبات، ويحرّم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم )) (أعراف ١٥٦). لا يمكن أن يكون هذا الموقف من مكة، لأن القرآن المكّي كله يصور لنا (( وحدة تامة )) بين محمد وأهل الكتاب. ولا يمكن أن يكون من العهد الثاني في المدينة، وقد انتهى من اليهود بالقتل أو النفي. فدعوة (( النبي الأمي )) لليهود هي من العهد الأول في المدينة.

ويظهر ذلك منذ سورة البقرة. يذكرهم بنعم الله عليهم باصطفائهم على العالمين: (( يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وإني فضلتكم على العالمين )) (٤٧). ويكررها في الحجّ (١٢٢). ويذكرهم بعهد الله عليهم بالإيمان بالرسول: (( يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأوفوا بعهدي أوف بعهدكم: وأمنوا بما أنزلت مصدقاً لما معكم ولا تكونوا أول كافر به )) ! (٤٠ - ٤١). (( وإذا قيل لهم آمنوا بما أنزل الله قالوا: نؤمن بما أنزل علينا ويكفرون بما وراءه )) (٩١) (( فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به: فلعنة الله على الكافرين )) (٨٩).

ومظاهر الانفصال عن اليهود، في السنة الثانية للهجرة، كانت أولاً بتغيير القبلة من أورشليم إلى مكة، وبالعدول عن صوم عاشوراء إلى صوم عاشوراء إلى صوم رمضان، وبالتقرب في طريقة الصلاة من عددها عند رهبان عيسى، أي من اثنتين مثل اليهود، إلى خمس.

وكل الجدل والخصام والقتال بين محمد وأهل الكتاب، إنما هو بين محمد واليهود، لا بين محمد والنصارى: (( ولما جاءهم رسول من عند الله، مصدق لما معهم نبذ فريق من الذين أوتوا الكتاب كتاب الله وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون )) ( بقرة ١٠١ ). وحتى سورة المائدة، وهي الأخيرة أو ما قبل الأخيرة، ظل القرآن يشيد بمودة النصارى للمسلمين ( مائدة ٨٥ ) وتصديقهم للقرآن وخشوعهم عند سماعه ( مائدة ٨٦ ).

فالعهد الأول من المدينة عهد الانفصال عن أهل الكتاب اليهود، والاستقلال عنهم في (( أمة وسط )) مع دعوة (( النبي الأمي )) إليهم ليؤمنوا به وبالقرآن. فلما أصروا على الرفض، ونافقوا وأزروا قريشاً عليه، أمر بمحاصرتهم وقتالهم، وقتلهم، أو نفيهم، حياً بعد حي، من بني قينقاع إلى بني النضير إلى بني قريظة. وتذكر سيرة ابن هشام أنه لم يسلم من اليهود إلا أربعة رجال أو خمسة، أشهرهم عبد الله بن سلام.

\*

### سادساً: من أهداف الهجرة تأسيس الإسلام (( أمة وسط )) في المدينة.

كان القرآن المكي كله دعوة للتوحيد في (( أمة واحدة )) ( مؤمنون ٥١ وأنبياء ٩١ ) مع أهل الكتاب. ويستفتح القرآن المدني بتأسيس (( الأمة الوسط )) : (( وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكون شهداء على الناس ويكون الرسول شهيداً عليكم )) ( بقرة ١٤٣ ). ويرد هذا الإعلان بعد تصريحه: (( وقالوا: كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا! - بل ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين )) ( بقرة ١٣٥ )؛ وبعد إعلان إيمانه بجميع أنبياء الكتاب (١٣٦) وتبرئة إبراهيم وأنبياء الكتاب من يهود المدينة (١٤٠). فالقارئ صريحة على أن تأسيس الإسلام كان (( أمة وسطاً )) - أي ديناً وسطاً - بين اليهودية والنصرانية.

قام هذا التوسط في العقيدة والشريعة كما سنرى. ظل في العقيدة على التوحيد الكتابي ( بقرة ١٣٦ آل عمران ٨٣-٨٥ نساء ١٦٢-١٦٤ ). ولكنه جعل هذا التوحيد، ملة

(١) صحيح البخاري ( ٣ : ١٠٤ ) يفسر الأمة بالدين نقلاً عن ابن عباس ترجمان القرآن .



إبراهيم، جد العرب بإسماعيل قبل عيسى وموسى، وأسند إليه تأسيس الكعبة والحج إليها (بقرة ١٢٧ - ١٢٨): فعرب التوحيد الكتابي وجعله قومياً عربياً، فصار إسلام الكتاب، الحنيفية الإبراهيمية. وكانت العقيدة وسطاً بين النصرانية والموسوية بإيمان القرآن بعيسى: قبل نبوته ضد اليهود، وأنكر نبوته الإلهية ضد النصارى.

وصار الإسلام (( أمة وسطاً )) في المدينة بشريعته أيضاً. كان ينحو في مكة منحى أهل الكتاب في شرائعه، فأمسى في المدينة يقبل بسهولة عوائد قومه، مع دمجها بالتوحيد الكتابي، محتفظاً بنفس الأحكام السارية قبل الإسلام في مسائل الملكية والزواج والصلوات الاجتماعية القبلية<sup>١</sup>. نجد المبدأ على هذا التشريع الوسط في سورة النساء، حيث يبين في آيتين متتابعتين، اقتفاء القرآن سنن الكتاب مع تعديلها للتخفيف عن قومه: (( يريد الله ليبين لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم ... يريد الله أن يخفف عنكم، وخلق الإنسان ضعيفاً )) (٢٥- ٢٧).

واتخذ منذ إعلان (( الأمة الوسط )) شعاراً لها القبلة الوسط إلى كعبة مكة.

بتأسيس (( الأمة الوسط )) في المدينة تبلور تعريب التوحيد الكتابي إسلاماً قومياً عربياً: (( اليوم أكملت لكم دينكم! ورضيت لكم الإسلام ديناً ))!

\*

### مطلب رابع: أسلوب القرآن المدني

نوجزه بكلمة عن مظاهره العامة والخاصة.

#### ١- قال الأستاذ دروزة<sup>٢</sup> يصف مظاهر الأسلوب المدني العامة:

(( أما القرآن المدني فالسجع فيه قليل بل نادر؛ وطول نفس الآيات غالب. وتقلّ فيه فصول القصص، ووصف مشاهد الآخرة والجن والملائكة، والجدل ( مع المشركين ) ووصف مشاهد الكون، أو تقصر ويكتفي من ذلك بالتذكير والإشارات الخاطفة. وتصطبغ فيه المبادئ والتكاليف التعبدية والأخلاقية والاجتماعية والقضائية والسلوكية بصبغة التقنين والتعقيد. وفيه تشريع الجهاد ووقائعه وظروفها. وفيه أبطال عادات

(١) العرب في التاريخ ١٥٨ و ١٩٠ .

(٢) دروزة : القرآن المجيد ١٠٤ .

وتقاليد قديمة، وإقرار عادات وتقاليد قديمة أخرى مع التصليح والتهذيب، وإنشاء عادات وتقاليد جديدة في سبيل الإصلاح الأخلاقي والاجتماعي. وفي صور النفاق والمنافقين ومواقفهم. ولهجته عن اليهود شديدة في الدعوة والتعنيف والتنديد، وفيه صور عن مواقفهم وأخلاقهم. وفيه الاستفتاءات والأسئلة القضائية والاجتماعية والأخلاقية والأسروية، وأجوبتها التشريعية. وواضح أن هذا كله متنسق أيضاً مع ظروف العهد المدني من السيرة النبوية )) .

وقال أيضاً: « وتبدل أسلوب الحث والتشجيع في الشؤون الأخلاقية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية الذي هو الغالب في القرآن المكي، إلى أسلوب الأمر والفرص في الإجمال. ومما احتواه القرآن المدني فصول عدة عن حياة النبي ص. الزوجية والبيئية، مما لم يرد شيء عنه تقريباً في القرآن المكي. وأسلوب الفصول الجدلية والحملات على الكفار واليهود والمنافقين يصطبغ في الإجمال بأسلوب القوي العزيز الذي أمكنته الفرصة من نفسها. والفصول القرآنية المدنية، في المواضيع المتنوعة متداخلة بحيث يوجد شيء من كل موضوع في مختلف أدوار التنزيل المدني شأنها في ذلك شأن الفصول المكية ومواضيعها )) .

وهكذا يظهر القرآن المدني وكأنه تفسير يومي لأحداث العهد اليومية، وحوادثه السياسية، وجدالاته العقائدية مع أهل الكتاب والمنافقين، وحالات النبي العائلية. لا تعرض فيه العقيدة أو الشريعة أو الصوفية لذاتها مبتدئة في شكل دستور، بل تأتي تفسيراً لحادث أو جواباً لسؤال.

\*

## ٢- أسلوب النظم في القرآن المدني.

تلك الظواهر العامة تميل بالنظم إلى مستوى النثر العادي. فالإيقاع الموسيقي يخف، والسجع يندر، والنفس يطول ويتباطئ وتضعف فيه العاطفة والخيال. فبينما كانت الآيات المكية قصيرة، عنيفة اللهجة، حادة الألفاظ مملوءة حرارة، وأكثر التزاماً لنغمات موسيقية تهز الأسماع والنفوس، إذا بالآيات المدنية طويلة، متباطئة، وأحياناً متهذلة، بلا إيقاع ولا سجع، وقد تكون بلا عاطفة ولا خيال. يفقد الأسلوب حرارته الأولى ليغرق بالمجادلات مع أهل الكتاب والاستفتاءات مع المسلمين. هبط الأسلوب من سحره

الشعري المعجز إلى لغة الواقع. فمما لا شك فيه (( أن الأسلوب القرآني المكي هو أقوى وأنفذ من حيث النظم والإنذار والتبشير والترغيب والحجاج والإفحام والإلزام )) . وهذا متنسق مع طبيعة الدعوة ما بين مكة والمدينة: ففي مكة دعوة روحية يوحي بها بيان إيحائي وفي المدينة تأسيس دولة تُبنى وتتكيف بالظروف الطارئة فلا بد من أن ينزل الوحي إلى مستوى الواقع، ويهبط الأسلوب إلى مستوى النثر العادي<sup>٢</sup>، مهما كان جذاباً.

وفي تعبيره يختفي اسم الجلالة الكتابي (( الرحمان )) ويظهر الاسم القومي (( الله )) . وبعد سورة البقرة، التي هي صلة الوصل بين الأسلوبين المكي والمدني، يختفي اسم (( بني إسرائيل )) الكتابي، ليظهر اسم التحقير: (( اليهود أو الذين هادوا )) . ويظهر اسم جديد (( المنافقون )) ، الذين (( في قلوبهم مرض )) وتبدأ الفتاوي والأحكام أحياناً بالأمر (( قل )) أكثر من ذي قبل مما يُظهر نفسية السيد المطاع.

وتعابير أركان الإسلام تتبلور في جوار يهود المدينة، وترد في المصحف مكتوبة بصيغتها الأرامية (( صلوة، زكاة )) . وميزة الأسلوب المكي الثالث، الأمثال، تكثر في سورة فترة الانتقال، البقرة، (١٧ و ١٩ و ٢٦ و ١٧١ و ٢٦١ و ٢٦٤ و ٢٦٦ و ٢٧٤) ثم تتضاءل تدريجياً ( محمد ١٥ حج ٤٣ نور ٣٥ ) حتى تصير تشبيهاً بسيطاً ( حشر ١٥ و ١٧ و ٢١ جمعة ٥ تحريم ١٠ الملك ٢١ الحديد ٢٠ ) .

فأسلوب القرآن المدني في نظمه أسلوب خطابي. لقد التزم القرآن في مطلع لغة الشعر حتى قالوا: (( سحر يؤثر )) ! وتطور إلى لغة القصة والتمثيل في العهد الثاني والثالث بمكة حتى قيل: (( نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن )) ( يوسف ٣) . وفي العهد المدني يمتاز بلغة التشريع والخطابة.

وفي ترتيب الآيات والسور يقول أيضاً الأستاذ دروزة<sup>٣</sup>: (( أما من حيث ترتيب آيات القرآن المدني في السور، ومن حيث شخصيات سوره فالناظر يجد:

- 
- (١) دروزة : القرآن المجيد ٣٤ .
  - (٢) لاحظ ذلك أيضاً المستشرقون أمثال جولدتسهيير : العقيدة والشريعة في الإسلام ، ترجمة القاهرة ١٤ - ١٥ .
  - (٣) دروزة : القرآن المجيد ١٠٤ - ١٠٦ .

( من حيث المطالع ) « أن سورتين منها تبندان بحروف متقطعة وهما ( البقرة وآل عمران). وثمانى منها تبتدى بنداى النبى وتوجيه الخطاب إليه وهى ( النصر والتحرىم والطلاق والمنافقون والمجادلة والفتح والأحزاب والأنفال ). وخمساً منها تبتدى بالتسبيح وهى ( التغابن والجمعة والصف والحشر والحديد ). وثلاثاً تبتدى بخطاب المؤمنين وهى ( الممتحنة والحجرات والمائدة ) أما باقى السور المدنية، وهى ( البينة ومحمد والنور والتوبة والنساء ) فلم تكن ذات طابع مطلعي خاص.

( من حيث الطول ) « وإن من السور المدنية: اثنتين قصيرتين جداً وهما (النصر والبينة). وثلاث عشر قصاراً وهى (التحرىم والطلاق والتغابن والمنافقون والجمعة والصف والممتحنة والحشر والمجادلة والحديد والحجرات والفتح ومحمد). وأربع متوسطة وهى (الأنفال والأحزاب والنور والحج). وخمساً طويلة (البقرة وآل عمران والنساء والمائدة والتوبة).

( من حيث الموضوع ) « وباستثناء ( الجمعة والمجادلة ) فإن ثلاث عشرة من الخمس عشرة القصيرة المذكورة ذات موضوع واحد، وهذا يلهم أنها نزلت وكسبت شخصيتها دفعة واحدة. كذلك فإن إحدى السور المتوسطة ( وهى الأنفال ) ذات موضوع واحد، وفصولها تلهم أنها نزلت هى الأخرى دفعة واحدة. وأن السور التى احتوت مواضيع عديدة وفصولاً متنوعة وغير مترابطة أحياناً تسع، منها اثنتان قصيرتان هما ( الجمعة والمجادلة )؛ واثنتان متوسطتان هما ( الأحزاب والنور )؛ وخمس طوال هى ( التوبة والمائدة والنساء وآل عمران والبقرة ).

« وفي الحق إن مواضيع هذ السور وفصولها تلهم أنها لم تنزل دفعة واحدة، ولا فصولاً متتابعة بدون اعتراض. وتلهم أنها ألفت تأليفاً على ما هى عليه فى المصحف بعد تكامل فصولها من دون سائر السور المكية والمدنية ... وان من هذه الفصول والآيات ما نزل متأخراً، أو ما نزل متقدماً، أو ما نزل بعد فصول من سور أخرى » .

(١) ويعطى الأستاذ دروزة ( ١٠٨ - ١١٠ ) أمثلة على دمج آيات بآيات من أزمنة مختلفة : آية النساء (٢٥) تذكر أن حد الإمام نصف حد الحرائر ، فقد نزلت حتماً بعد آية ( النور ) التى تنص على حد الحرائر . وآية الكلاله فى آخر ( النساء ) وهى من آخر القرآن نزولاً . كذلك آية الأحزاب ( ٤٩ ) فى عدة المطلقة . وآخر ما نزل من القرآن كآية الربا وآية الدين ( إتقان ١ : ٢٧ ) لا يوجد فى سورة التوبة وهى بحسب البخارى

فالسور المدنية الكبرى إذن، وهي أم القرآن، ليس فيها وحدة تنزيل، ولا وحدة موضوعية، وبالتالي، ليس فيها وحدة فنيّة، مهما تناسبت وتسلسلت فصولها.

والظاهرة الكبرى من حيث النظم والتأليف، هي **اختفاء التقسيم الثلاثي المعهود في أكثر السور المكية**، من توحيد وقصص وحديث الآخرة، ذلك التقسيم الذي أكسبها روعة وحدتها الفنيّة. أما في القرآن المدني، فإننا نجد أنفسنا، في أكثر السور، وأعظمها شأنًا، أمام **مجموعات متفرقة**، تشريعية وتحريضية وإخبارية معاً تضيع فيها وحدة النظم والموضوع والفن التي هي عنوان الإعجاز البلاغي والبياني.

\*

### ٣- أسلوب التشريع في القرآن المدني

يغلب أيضاً على القرآن المدني أسلوب التشريع والأحكام. **فتراه سلسلة أسئلة وأجوبة**، واستفتاءات وتشريعات وتعديلات. تجد مثلاً: (( تسلسل الأسئلة وأجوبتها التشريعية في سورة البقرة. وتسلسل فصول أحكام الأسرة في سورة النساء. وتسلسل فصول أهل الكتاب في سورة المائدة. وتسلسل فصول الجهاد ومواقف المشركين والمنافقين في سورتي آل عمران والتوبة. وتسلسل الفصول التأديبية والتعليمية والإرشادية وما يتصل بمشاكل الأسر في سورة النور. وتناسب فصول سورة الأحزاب في الحملة على المنافقين والكفار والتنديد بمواقفهم المختلفة وتناسب فصولها الأخرى في صدد التأديب والأنكحة )) .

**والظاهرة الكبرى في التشريع القرآني** أنه نزل في حادث أو جواباً على سؤال، وقليلاً ما كان ينزل مبتدئاً لذاته. قال محمد صبيح: (( وأورد كتاب تاريخ التشريع: كانت الآيات التشريعية، هي آيات الأحكام، تنزل على رسول الله ص. في الغالب جواباً لحوادث في المجتمع الإسلامي. وتعرف هذه الحوادث ( **بأسباب النزول** )، وقد اعتنى بها جماعة من المفسرين وألّفوا فيها كتباً وجعلوها أساساً لفهم القرآن. وأحياناً كانت تنزل الآيات

آخر سورة نزلت بل في سورة البقرة وهي أول سورة نزلت في المدينة . وورود آيات مدنية في سور مكية ، وآيات مكية في سور مدنية ، وجمع بعض السور لأقسام مدنية ومكية معاً ، وهي كما يسميها الزمخشري (( متبعضة )) دليل أحياناً على تأليف الآيات في السور دون اعتبار زمن النزول ، ودليل أيضاً على وحدة بعض السور المصطنعة .

(١) دروزة : القرآن المجيد ١٠٧ .

جواباً عن أسئلة يسألها بعض المؤمنين. وقليلاً ما كانت تنزل الأحكام مبتدئة... فقلما ترى حكماً لم يذكر له المفسرون حادثاً أنزل الحكم مرتباً عليه<sup>(١)</sup>.

تشريع كهذا وليد الواقع والطوارئ، ابن بيئته وابن ساعته، ليس بالتشريع الدستوري الذي ينزل مبتدئاً فوق أحوال الساعة والبيئة، وظروف الزمان والمكان، والذي يُعلن ويُبلّغ وتسير الدعوة على هداية.

\*

#### ٤- أسلوب التاريخ والواقع في القرآن المدني

قال أحدهم<sup>(٢)</sup>: (( في المدينة تنتقل الاخبار المدونة من الأسطورة إلى التاريخ )) . لا لأن القصص المكي التوراتي لم يكن في أصله تاريخياً بل لأن (( أسلوب القصص القرآنية لم يكن سرداً تاريخياً كما هو الحال في قصص التوراة؛ وتخلله الوعظ والإرشاد والتبشير والانداز... فهو لم يورد القصة لذاتها إنما يوردها للعتة والتمثيل<sup>(٣)</sup> )) .

وظاهرة القصص المدني أن محوره إبراهيم الخليل وابنه اسماعيل جد العرب المستعربة من بني عدنان، بينما محور القصص المكي كان موسى؛ وإذا ذكر إبراهيم ذكر معه إسحاق بتأثير البيئة الكتابية عليه. فقد كان القصص في مكة توراتياً فصار في المدينة قومياً عربياً، يظهر في سورة البقرة، ويخف في غيرها تاركاً المحل لذكر غزوات الجهاد.

ينتقل القرآن المدني من قصص الأولين إلى واقع الرسول والمسلمين. في المدينة تبرز سيرة الرسول وشخصيته وحياته اليومية أكثر من مكة. فقد وجدت بعض الغزوات وصفاً لها في القرآن: مثل سرية ابن جحش في البقرة، وغزوة بدر في الأنفال، وواقعتي أحد وبدر الصغرى في آل عمران، وغزوة الخندق في الأحزاب، وهدنة الحديبية في سورة الفتح، وحصار بني النضير في الحشر، وذكر حنين وتبوك وجيش العسرة في براءة. كما ينقل لنا القرآن المدني أطرافاً من حياة محمد البيئية كقصة زينب بنت جحش في الأحزاب،

(١) محمد صبيح : عن القرآن .

(٢) العرب في التاريخ ٥٤ .

(٣) دروزة : قرآن مجيد ١٦٦- ١٦٧ .

وتحريم مارية القبطية عليه في سورة التحريم، وحديث الإفك على عائشة في سورة النور، وقصة غيرة أزواج النبي وعزمه على طلاقهن في الأحزاب أيضاً. فالقرآن المدني أقرب إلى الواقع من القرآن المكي.

\*

### ٥- أسلوب الجدل في القرآن المدني

كان الجدل القرآني في مكة بين النبي والمشركين، فصار في المدينة بينه وبين الكتابيين من اليهود. جدل قصير على وتيرة واحدة في مكة مع قريش، وجدل مستفيض متنوع في المدينة مع اليهود، وعلمائهم. كان لا يذكر أهل الكتاب بمكة إلا بكل تجلّة واحترام، فإذا به في المدينة يجعل اليهود منهم (( شرّ البرية )) وجدالهم شغله الشاغل. كان يقول في مكة وفي سورة البقرة: (( اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وإني فضلنكم على العالمين )) ( بقرة ٢٧ و ١٢٢ ) فانتهى في آخر جدالهم إلى القول: (( إن الذين كفروا من أهل الكتاب ( اليهود ) والمشركين في نار جهنم خالدین فیها: أولئك شر البرية )) ( البينة ٦ ).

ونلاحظ أن جدل القرآن المدني لليهود هو جدل النصارى لهم، من تحريف التوراة، وألوية الانتساب إلى إيمان إبراهيم. وتشهد السيرة أن دعوة (( النبي الأُمي )) لليهود كانت عقيمة لم يؤمن منهم إلا أربعة أو خمسة.

\*

وهكذا جاء أسلوب القرآن المدني خطابياً، تشريعياً، جدلياً، تاريخياً، أقرب إلى واقع الدولة الدينية الناشئة في المدينة؛ كما جاء أسلوب القرآن المكي شعرياً، قصصياً، مثاليّاً، وأقرب إلى مثالية الدعوة الروحية في مكة.

وأخيراً يجعل القرآن المدني دوراً للصحابة فيه، وأسباب النزول تروي الآيات التي نزلت على رغبة منهم، أو على ما قالوا، كما حدث مراراً لعمر بن الخطاب. والقرآن يشهد بأن (( أمرهم شورى بينهم )) ؛ ويأمر الرسول: (( وشاورهم في الأمر )) . ويأمر المسلمين: (( وأطيعوا الله والرسول وأولي الأمر منكم )) . فقد استسلم الرسول أحياناً لصحابته فقادهم وقادوه إلى جعل التوحيد الكتابي، الذي كان عليه في مكة، توحيداً قومياً في المدينة، وإلى تأسيس هذا الإسلام الكتابي (( أمة وسطاً )) بين اليهود والنصارى في العقيدة والشريعة والصوفية: (( وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس )) ( بقرة ١٤٣ ).

### تخطيط السور في العهد المدني (٦٢٢ م - ٦٣٢ م)

**العهد المدني الأول (القرآني الرابع):** عهد (( الأمة الوسط )) .

- تأسيس (( الأمة الوسط )) و الدفاع عنها بالسلاح .

- دعوة (( النبي الأمي )) ليهود المدينة وتصفيتهم .

- ١٢ سورة في ٥ سنوات.

**البحث الأول:** أول العهد في المدينة: تأسيس (( الأمة الوسط )) .

(من الهجرة ١٢ ربيع أول (خريف ٦٢٢ م) - إلى بدر ١٧ رمضان ٢ هـ = آذار ٦٢٤ م)

سورة البقرة وحدها.

**البحث الثاني:** الصمود لقريش: توطيد الحنيفية الكتابية.

(من بدر في آذار ٦٢٤ - إلى الخندق في شوال ٥ هـ = آذار ٦٢٧ م)

سور: الأنفال، آل عمران، الحشر، النساء، محمد، الأحزاب.

**البحث الثالث:** الانتقال من الدفاع إلى الهجوم.

(من الخندق في آذار ٦٢٧ - لى قُبَيْل (( فتح )) الحديبية ٦ هـ = آذار ٦٢٨ م)

سور: الطلاق، البينة، المنافقون، المجادلة، النور.

\*

**العهد المدني الثاني (القرآني الخامس):** العهد الإسلامي.

- نشر الإسلام بالهجوم بالسلاح.

- دعوة (( أحمد )) النصارى إلى (( كلمة سواء )) .

- ١٢ سورة في ٥ سنوات.

**البحث الأول:** (( فتح )) الحديبية، وشمال الحجاز ( ٦ هـ = آذار ٦٢٨ ).

سور: الحج، التحريم، التغابن، الجمعة، الفتح، الممتحنة، الحجرات، الصف.

**البحث الثاني:** فتح مكة وجنوب الحجاز ( رمضان ٨ هـ = كانون ثاني ٦٣٠ ).

سور: الحديد، المائدة، صدر آل عمران.

**البحث الثالث:** فتح الجزيرة العربية في اليمن والشمال (٦٣١- ٦٣٢).

سورة التوبة، ( وفيها سورة (( براءة )) )، سورة النصر.

\*



## البحث الأول:

### أول العهد بالمدينة: تأسيس (( الأمة الوسط ))

(من الهجرة ١٢ ربيع أول = ٢٤ ت ٦٢٢ م - إلى بدر ١٧ رمضان ٢هـ = آذار ٦٢٤م)

### سورة البقرة ٩١/١ (٢)<sup>١</sup>

(( وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ))  
( بقره ١٤٣ )

فذلکه : ميزات سورة البقره .

أجمعوا على أنها أول سورة نزلت في المدينة . ودام تنزيلها سنة ونصف السنة ، من الهجرة إلى معركة بدر ، أول نصر في الإسلام . وقد صدّروا بها القرآن لأنها أطول سورة وأعظمها ؛ جاء في الإتقان ( ٢ : ١٥٣ ) عن أبي هريرة : (( إن لكل شيء سناماً ؛ وإن سنام القرآن البقره . وفيها سيدة أي القرآن ، آية الكرسي )) . لذلك فهي عنوان إعجاز القرآن .

وفيها اتخذ الإسلام صبغته الدينية والتشريعية ، وتميّز في تأسيسه (( أمةً وسطاً )) ( ١٤٣ ) بين الموسوية والمسيحية ، جاعلاً كعبة مكة ، (( البيت العتيق )) قبلة الصلاة ( ١٤٤ و ١٤٩ و ١٥٠ ) شعاراً مميّزاً لهم ما بين قبلة النصارى إلى الشرق ، وقبلة اليهود العرب إلى الغرب تجاه بيت المقدس . لذلك فهي صورة صادقة عن أول العهد بالمدينة في أحداثه وما نزل فيها .

وظاهرتها الكبرى أنها صلة الوصل بين العهدين المكي والمدني أسلوباً وموضوعاً ؛ إليها ينتهي القرآن المكي في دعوته وأسلوبها، ومنها يبدأ القرآن المدني في دولته وتشريعها ، فهي صلة الوصل بين الدعوتين . وهي صلة الوصل بين الأسلوبين : إنها امتداد للعهد المكي الثالث بتعابيرها ، ومزج الأمثال بالقصص ، والاعتزاز بإعجاز القرآن ( ٢٣ ) ؛ وابتداء للعهد المدني بإطراد فصولها التشريعية التي أفحموا عليها آيات من أزمنة مدنية مختلفة لإعطاء تشريعاتها إكمالها وكمالها .

وميزات السورة الكبرى : الاستقلال عن أهل الكتاب بتأسيس (( الأمة الوسط )) ؛ والانفصال عنهم بتحويل القبلة إلى مكة . والتطور في التقوى بالانتقال من صوفية الزهد المكي ، إلى تحليل الطبييات (١٦٩). ثم الابتعاد عن عوائد أهل الكتاب والتقرب من عوائد القومية العربية بالتخفيف من تشريع الكتابيين ( ١٧٨ ) وتشريع الجاهلية ( ١٨٧ و ١٩٨ ) .

---

(١) = رقم التسلسل التاريخي في المدينة ، ٩١ = رقم التسلسل التاريخي العام ؛ ( ٢ ) = رقم المصحف .

رغم الانفصال والاستقلال عن أهل الكتاب بتأسيس الأمة الوسط على الحنيفية الكتابية، وجعلها وسطاً بين الموسوية والمسيحية بعقيدتها وشريعته وصوفيتها، فلم يزل لليهود تأثيرهم غير المباشر، وللنصارى تأثيرهم المباشر.

يظهر تأثير اليهود من تطوير الدين إلى دولة دينية على مثال الموسوية؛ ومن التحول من الزهد في الدنيا إلى تحليل طبيعتها؛ ومن تشريع الجهاد لنشر الدين على مثال شريعة موسى (تثنية ٢٠: ٨ وارميا ١٤: ٨ وصموئيل الأول ٢٥: ٢٨)؛ ومن قصصها التوراتي التلمودي: عبادة الملائكة لأدم، قصص البقرة، وجالوت وطالوت، وهاروت وماروت، وإبراهيم ونمرود؛ وفي تشريعات الأحوال الشخصية.

ويظهر تأثير النصارى، في مودتهم للمسلمين طيلة العهد كله إلى السنة الأخيرة من حياة الرسول، وفي جدل القرآن لليهود على أفضلية الانتساب الروحي لإبراهيم على الجسدي، وفي تهمتهم بقتل الأنبياء بغير الحق (٦١) وبتحريف التوراة (٧٥): كان النصارى يتلون التوراة والكتاب في الترجمة اليونانية ((السبعينية)) والترجمة السريانية ((البيسطة))، وفي الجدل مع اليهود على بعض أوصاف تختلف في الترجمة عن الأصل، كان النصارى يتهمون اليهود بالتحريف، فجارهم النبي؛ واتخذ في الكلام عن أركان الإسلام التعابير المسيحية السريانية بحرفها ولفظها ومعناها (صلوة، زكاة، ربوا).

وبما أن سورة البقرة هي السورة التشريعية الكبرى في القرآن فقد كثر فيها الناسخ والمنسوخ. قال النحاس: في البقرة من الناسخ سبعة عشر موضعاً ومن المنسوخ أربعة وثلاثون موضعاً، صح منها اثنان وعشرون موضعاً منسوخاً. وقال ابن سلامة: تحوي البقرة ثلاثين آية منسوخة. وقال ابن حزم: فيها ستة وعشرون موضعاً منسوخاً أضاف إلى قول النحاس أربعة على طريق الاستثناء. وسنذكر في الحواشي الآيات الناسخة والمنسوخة. والنسخ يقع أكثره على القرآن المكي، مما يوحى بتبذل الحال بين المدينة ومكة. والمنسوخ المدني يعني تطور التشريع في المدينة إلى آخر العهد (آية الربا). وقال النحاس أيضاً في (الناسخ والمنسوخ ص ٢٦٣): ((أول ما نسخ الصلاة الأولى ثم القبلة الأولى ثم الصوم الأول ثم الزكاة الأولى ثم الاعراض عن المشركين (وكل هذا منذ سورة البقرة) ثم الموارثة ثم العفو والصفح عن أهل الكتاب ثم المخاطبة في الحج ثم العهد الذي كان بينه وبين المشركين)) (في سائر السور).

في سورة البقرة يستقر القرآن على ((الدين الوسط)) الذي ما فتئ يتطور إليه في عهوده المكية الثلاثة: يصير الإسلام في سورة البقرة ((الأمة الوسط)) بين اليهودية والمسيحية في العقيدة، وفي شريعة أركان الإسلام، أخيراً في صوفيته الأخلاقية: ففي سورة البقرة يرفع المسؤولية والمحاسبة عن النيات إلى الأعمال (الآية ٢٨٤) وفي (أسباب النزول) نجد أن الله ((قد رفع المحاسبة على الوسوسة عن هذه الأمة)). بينما الإنجيل في شريعته التأسيسية على الجبل نقلها من الأعمال إلى النيات في تعديل الكلمات العشر. وفي سورة البقرة أيضاً شرع مبدأ التخفيف في التكليف (الآية ١٧٨) دستورياً في جعل الإسلام ((أمة وسطاً)) أي ديناً وسطاً بين الكتابيين والعرب، وبين الكتابيين أنفسهم من يهود ونصارى؛ وقانونياً في تشاريعه الخاصة: من تخفيف ((ذلك تخفيف من ربكم)) ومن فدية أو تحلة في الواجبات (١٩٦ و ١٨٤) ورفع المسؤولية في ((اللّم))

أي الآثام الصغيرة مثل (( اللغو )) في الأقسام ( ٢٢٥ ) والمحاسبة على الوسوسة ( ٢٨٤ - ٢٨٦ ) ورفع الخطر عن المحرمات عند الضرورة (( فمن اضطر غير باغ ولا عادٍ فلا إثم عليه )) ( ١٧٣ ). أخيراً شرع مبدأ النسخ في الأحكام ( ١٠٦ ) للقرآن ، وتوسّع به للسنّة ، تاركاً الباب مفتوحاً على مصراعيه للأمة : فلما نزل إتيان النساء من حيث أمرهم الله ( ٢٢٢ ) تحرّجوا فنزلت التوسعة للحال ( ٢٢٣ ) ؛ ولما نزلت المحاسبة على الوسوسة ( ٢٨٤ ) احتج الصحابة : (( لقد أنزل عليك هذه الآية ولا نطبقها ، فنسخها الله بالآية ٢٨٦ )) . وهكذا نرى في المدينة تدخل الله بالآية ٢٨٦ . وهكذا نرى في المدينة تدخل الصحابة في الوحي ، ونزول القرآن على ما يقول بعضهم ، خصوصاً عمر بن الخطاب لسان حال الصحابة والجماعة ( ١ ) ، مما لم نكن نره في مكة . وكل ذلك يتبلور في المبدأ الذي سيكرره القرآن المدني : (( وما جعلنا عليكم في الدين من حرج )) !

وتقسم سورة البقرة إلى ثلاثة أقسام : دعوة فتشريع فتحريض على الجهاد . فالدعوة للعرب ثم لبني إسرائيل ، وجدالهم على ملة إبراهيم ، وتغيير القبلة . والتشريع في أركان الإسلام ، والحلال والحرام . ويختم بالترغيب في الجهاد بالنفس والمال . وتنتهي السورة بثلاثة ملاحق عن الربا والدين والمحاسبة على الوسوسة .

تلك بعض ميزات سورة البقرة التي تساعد على فهمها .

\*

## القسم الأول من البقرة: الدعوة (( للأمة الوسط )) ( ١ - ١٥٢ )

الفصل الأول: الخطاب الأول في المدينة ( ١ - ٢٠ ) موقف العرب من الدعوة القرآنية.

**مطلع (١):** (( بسم الله الرحمن الرحيم<sup>٢</sup> . الم<sup>٣</sup> . ذلك الكتاب، لا ريب فيه، هدى للمتقين ))

(١) الإتيان ( ١ : ٥ ) (( فيما نزل من القرآن على لسان بعض الصحابة : الأصل فيه موافقات عمر ؛ وعن ابن عمر قول الرسول ( إن الله جعل الحق على لسان عمر وقلبه ) وقال ( ما نزل بالناس أمر قط فقالوا وقال الأ نزل القرآن على نحو ما قال عمر ) . وعن مجاهد قال ( كان عمر يرى الرأي فينزل به القرآن ) . وأخرج البخاري وغيره عن أنس قال ( قال عمر وافقت ربي في ثلاث : مقام إبراهيم ، والحجاب ، وطلاق نساء النبي ) .

(٢) البسملة القرآنية . جاء في الإتيان ( ١ : ٧٩ ) أثبت الشافعي البسملة في كل سورة ؛ وأنكر المالكية وغيرهم لأنها لم تتواتر في أوائل السور .

(٣) الآية ١ (( ألم )) في الإتيان أيضاً ( ٢ : ٨ ) : (( من حروف التهجي التي وردت في مطلع تسع وعشرين سورة ، منها في المدينة البقرة وآل عمران . وهذه الفواتح من متشابه القرآن الذي لا يعلم تأويله إلا الله )) .

(٤) الآية ( ١ ) (( ذلك الكتاب )) : ما تقصد الإشارة إلى البعيد في مطلع الكلام ؟ - إنها من الفواتح التي تذكر علاقة القرآن بالكتاب المقدس . فسرها الجلالان بقوله : (( ذلك أي هذا )) !

- (١) « أربع آيات<sup>١</sup> من أول البقرة نزلت في المؤمنين (٢- ٥) .  
 (٢) « وآيتان في الكفار (٦- ٧) .  
 (٣) « وثلاث عشرة في المنافقين في المدينة » (٨- ٢٠): يخادعون الله، ويفسدون ويستهزون<sup>٢</sup> .

\*

### الفصل الثاني: دعوة عامة للتوحيد (٢١- ٣٩) - سورة مستقلة بذاتها<sup>٣</sup> .

**مطلع (٢١):** « يا أيها الناس، اعبدوا ربكم » .

**(١) براهين التوحيد ( ٢٢ ثم ٢٨- ٢٩ ):** جعل الأرض فراشاً، والسماء بناءً!

(١) جاء هذا التفصيل في ( أسباب النزول ) للسيوطي ، على الآية الأولى من البقرة . قاد المعارضة للنبي والنفاق عبد الله بن أبي وفي السيرة لابن هشام ( ٣ : ١٣٥ ) أن الخزرج كانوا مزعجين المنادة بعبد الله هذا ملكاً عليهم قبيل الهجرة ، وأنه حقد على النبي لأن قدومه حال دون ذلك .  
 (٢) الآية ١٦ « فما ربحت تجارتهم » : الإيمان تجارة رابحة عند الله . فكرة إنجيلية ( مثل الكنز ومثل اللؤلؤة في إنجيل متى ١٣ : ٤٤ - ٤٦ ) رددتها النصرانية ، قال اكليمنضس الاسكندري في عظة له على الغني المحسن : يا لها من تجارة رابحة ؛ يا له من بيع إلهي : نشتر الخلود بأموال تبلى » .  
 الآية ١٧ « كمثل الذي استوقد ناراً فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم » سقط جواب « لما » . قالوا : فيه إيجاز حذف . ولكن الأصل في الحذف أو الإيجاز أن لا يخل بالمعنى : فأين التشبيه والمثل ؟ ما لا يفهم إلا بذكره لا يجوز حذفه .  
 (٣) هذا الفصل من البقرة ( ٢١ - ٣٩ ) سورة مستقلة بذاتها في توحيدها وقصصها : قد تكون من العهد المكّي بتعبيرها ( يا أيها الناس ) وقصصها ، إذ ترد قصة آدم وإبليس مرة هنا في المدينة وست مرات في مكة ( أعراف ١٠ حجر ٢٨ إسراء ٦١ كهف ٥٠ طه ١١٦ صاد ٧١ ) وأسلوب أمثالها ( بقرة ١٧ و ١٩ و ٢٦ الخ ) ؛ وقد تكون من العهد المدني ؛ لأن سورة البقرة صلة الوصل بين عهدين ، يلتقي فيها الأسلوب المكّي العابر بالأسلوب المدني الطالع .  
 وقوله « يا أيها الناس » مثل قوله « في الأرض » تعميم يُراد به التخصيص ، وهو باب البيان ؛ والمقصود هنا ناس المدينة وأرض المدينة .  
 وكلمة ( إبليس ) من اليونانية عن طريق السريانية ؛ وكلمة ( الشيطان ) من العبرية عن طريق الحبشية ؛ وكلمة ( طاغوت ) حبشية ، مرادف للشيطان المعبود في الصنم ، وهذه نظرة مسيحية ( الرسالة إلى أهل كورنثس ) .

أنزل المطر وأخرج الثمر! يعطي الحياة ثم يعيدها<sup>١</sup> (٢٨) وهو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً، ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سماوات<sup>٢</sup> (( ٢٩)).

- يقطع سياق البراهين (٢٢- ٢٩) **ردود على موافقهم** من الدعوة (٢٣- ٢٧): رد على المشركين: التحدي بسورة من مثله<sup>٣</sup>! (٢٣- ٢٤).

جواب للمؤمنين: لهم البشرى بجنة تجري من تحتها الأنهار، رزقها دائم، ولهم فيها أزواج مطهرة<sup>٤</sup> (٢٥).

رد على اليهود الفاسقين الذين استهزؤوا بمثل البعوضة<sup>٥</sup> (٢٦- ٢٧).

(١) الآية ٢٨ (( وكنتم أمواتاً فأحياكم ! ثم بميتكم ثم يحييكم ! )) ظاهر التعبير أن الإنسان قبل خلقه يكون (( ميتاً )) فيحييه الله بخلقه : يدل على صحة هذا الاستنتاج تشبيهه الخلق الأول بالخلق الثاني في البعث . قال الجلالان : (( كنتم أمواتاً أي نتفاً في الأصلاب )) ! - هل النطفة حي أم ميت ؟ وهل يخرج حي من ميت ؟ فالحي من الحي! وكان يقول : (( الله يبدأ الخلق ثم يعيده )) (يونس ٣٤) .

(٢) الآية ٢٩ (( ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سماوات )) . يرجع الضمير إلى ما بعده ؛ وينزل غير العاقل منزلة العاقل . ويظهر أن خلق (( ما في الأرض جميعاً )) سبق تفصيل السماء سبع سماوات (( ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سماوات )) ! - هل هذا من الإعجاز العلمي الذي بدأوا يكتشفونه في القرآن ؟ (( والقرآن كتاب علم قد جمع أصول كل العلوم والحكمة ؛ وكل مستحدث في العلم نجد أن القرآن قد وجه النظر إليه أو أشار )) ( عبد الرزاق نوفل : القرآن والعلم الحديث - الإعجاز العلمي للقرآن ٢٢ ) . وقد أصاب عبد المتعال الصعيدي في قوله : (( نزل القرآن لتشريع العقائد والأحكام . فلا يقصد منه غير هذا من بيان مسائل التاريخ أو الطب أو غيرهما من العلوم ، لأنه لم ينزل لغرض من هذه الأغراض )) ( النظم الفني في القرآن ٢٢ ) .

(٣) الآية ٢٢ (( فأتوا بسورة من مثله )) هو أبلغ من قوله (( فأتوا بسورة مثله )) (يونس ٤٨) : فقد بلغ التحدي مداه . ولكن كيف ينسجم هذا التحدي في الأحكام مع تقرير النسخ مبدئاً وواقعاً ( ١٠٦ ) ؟ والنسخ والإعجاز في الأحكام المنسوخة لا يجتمعان ! وكيف ينسجم التحدي في البيان مع تقرير المتشابه ، مبدئاً أو فعلاً ( آل عمران ٧ ) والإعجاز والمتشابه في البيان لا يجتمعان !

(٤) الآية ٢٥ نعيم السماء (( جنات تجري من تحتها الأنهار ، وأثمار متشابهة ، وأزواج مطهرة )) من الحيض وكل قدر ( الجلالان ) فلا يمنع المتعة منهن ، في كل وقت ، شيء من موانع الدنيا .

(٥) الآية ٢٦ (( لا يستحي الله أن يضرب مثلاً ما . بعوضة فما فوقها )) : سورة البقرة صلة الوصل بين العهد الثالث في مكة والعهد الأول في المدينة ، فهي امتداد لذلك في أسلوبها من مزج الأمثال بالقصص ، وابتداء لهذا في أسلوب الأحكام .

مثل البعوضة : أين هو ؟ ويقول (( بعوضة فما فوقها )) والأصل أن يقول (( فما دونها )) لأن المقصود بالتشبيه بالبعوضة هنا حقارتها ، وما هو أحقر منها ، إذ ( ما فوقها ) كالأسد لا يكون مثلاً على الحفارة .

## (٢) قصص التوحيد (٣٠-٣٩).

حوار الله مع الملائكة في خلق آدم خليفة له على الأرض<sup>١</sup> (٣٠-٣٣).

قصة سجود الملائكة لآدم، إلا إبليس<sup>٢</sup> (٣٤-٣٩).

\*

دعوة اليهود وجدالهم (٤٠-١٦٨) في ثمانية خطابات<sup>٣</sup>

(١) الآية ٣٠ «وإذ قال ربك للملائكة (( الاستفتح ((بإذ)) أسلوب قرآني يظهر كثيراً في سورة البقرة ( ٣٠ و٣٤ و٤٩ و٥٠ و٥١ و٥٢ و٥٣ و٥٤ و٥٥ و٦٠ و٦١ الخ).

- ((إني جاعل في الأرض خليفة)) : الإنسان خليفة الله على الأرض ، هذا من أجمل وأجل الأوصاف القرآنية . ويظهر أن هذه الخلافة تأتي آدم من ((نبوته)) لا من خلقته الطبيعية أو ((بنوته)) المعنوية لله . والكتاب لا يعتبر آدم نبياً مثل القرآن ، لأنه ولو كلم الله ، فلم يكن معه من بشر يُرسل إليهم - ونبوءة آدم وردت في التلمود : ((كان آدم نبياً عظيماً)) (تكوين رباح ٢٤ : ٥) . أما كون النبوة خلافة الله على الأرض فهي مقالة الأنبياء بحق المسيح ، قال اشعيا ( ٥٥ : ٤) : ((هأنذا قد جعلته للشعوب شاهداً ، وعليها قائداً ووصياً)) ؛ وجاء في الزبور : (( سلني فأعطيك الأمم ميراثاً لك وأقاصي الأرض ملكاً)) (مزمو ٢ : ٨) .

((قالوا : أتجعل فيها من يفسد فيها)) - هل يصح اعتراض الملائكة على الله في خلق آدم ؟ والكتاب لا يذكر إلا الاستحسان (تكوين ١ : ٢٧ و ٣١ ثم ٢ : ١٩) . والحوار القرآني له مثيل في القصص التلمودي الأورشليمي (مدرش على العدد ١٩ : ٣) والبابلي (سنهدين ٣٨) .

الآية ٣١ ((وعلم آدم الأسماء وعرضهم)) : فيه أشكال لفظي : لِمَ يعود الضمير ؟ قالوا : فيه تغليب العقلاء ! ولكن لم يكن سوى آدم وزوجه ؛ شعروا بالمشكل فقراً ابن مسعود (عرضهن) وأبي (عرضها) . وفيه شبهة معنوية : يأمر الله مخلوقاً بالسجود لمخلوق ؟ - قالوا : السجود بمعنى الإكرام البالغ (الطيري) ؛ ولكن القرآن لا يسند السجود إلا للخالق ؛ ولو كان المقصود الإكرام لما رفضه الملائكة . وسجود الملائكة لآدم قصص تلمودي (مدرش على التكوين ٨ : ٩) ربما كان بتأثير النصرانية بالسجود ((لآدم الجديد)) أي المسيح في نظرهم .

(٢) الآيات (٣٦ و ٣٨) ((اهبطوا ... اهبطوا منها جميعاً)) تعني هبوط إبليس وآدم من جنة السماء لا من جنة عدن على الأرض ؛ وهذا الالتباس الأصلي هو سبب وصف القرآن للسماء بأنها جنات تجري من تحتها الأنهار ، ملى بالأنهار والأطبار .

- والآيات ٣٦ ٣٨ في خطيئة آدم وعداوة الشيطان لجنسه ، وحي الله لآدم (( بكلمات )) الوعد بالهدى والخلص : تعليم مسيحي عن الخطيئة الأدامية الموروثة والوعد بالمخلص .

(٣) نرى في جدال القرآن لليهود ، في سورة البقرة ، ثمانية خطابات ، يقطعها كلام مستقل أو دخيل . وفي تلك الخطابات موجز الدعوة الأولى الموجهة إلى اليهود ، وخلاصة الجدل العنيف الذي رافقها : بدأ بالتوّد العظيم (( فضلتم على العالمين )) وانتهى بالقطيعة ، والاستقلال عن أهل الكتاب بتأسيس (( الأمة الوسط )) ، وتمييزها بالقبلة الوسط .

الفصل الثالث: الخطاب الأول (٤٠ - ٤٦): دعوة لليهود (( أوفوا بعهدي )) .

(( يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي وأوفوا بعهدي، لا تكونوا أول كافر به )) (٤٠ - ٤١).  
 (( لا تلبسوا الحق بالباطل، و تكتموا الحق وأنتم تعلمون )) (٤٢ - ٤٦) .

الفصل الرابع: الخطاب الثاني (٤٧-٧٤): تحذير اليهود من الكفر بالنبي<sup>١</sup>.

مطلع (٤٧-٤٨): (( اذكروا نعمتي التي أنعمتُ عليكم وإني فضلتكم على العالمين ))<sup>٢</sup>.

(١) معجزة النجاة من مصر، واجتياز البحر، وخوارق سيناء انتهت بعبادة العجل:  
 عفونا وانتقمنا<sup>٣</sup> (٥٠-٥٥).

(١) كان اليهود ينتظرون النبي الذي وعد به موسى ، إذ لم يؤمنوا بالمسيح الذي صرّح أن موسى ذكره إياه ( إنجيل يوحنا ٥ : ٣٩ - ٤٧ ) ويستفتحون على العرب به فقد أظلم زمانه . وعرف محمد ذلك من نفر اليهود الذين تابعوه . وأخذ القرآن يردد على يهود المدينة أنه هو (( النبي الأُمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل )) : كان محمد في مكة يعرض نفسه (( نذيراً )) لا غير ، فصار يعرض نفسه في المدينة (( نبياً ورسولاً )) ، ويقول إنه هو (( النبي الأُمي )) الذي وعد به الله ، وأخذ على اليهود في الكتاب ميثاقاً أن يؤمنوا به متى ظهر . فاختلف اليهود مع محمد على نعت (( النبي الموعود )) هل هو (( أُمي )) كما يقول ، أو من (( بني إسرائيل )) كما يعتقدون : وإذ أصرّوا على موقفهم اتهمهم بكتمان نعت (( الأُمي )) وتأويله وتحريفه . وهذا هو سوء التفاهم الذي يرشح من كل هذه الخطابات والجدالات .

(٢) الآية ٤٧ : لاحظ تشابه المطالع في خطابه لبني إسرائيل ( ٤٠ و ٤٧ و ١٢٢ ) . ولاحظ استفتاح الآيات بحرف (( إذ )) وكل (( إذ )) تذكر نعمة من الله لهم كفروا بها . وقدّر من هذه المطالع ما كان لليهود من نفوذ كاسح في المدينة : (( كانوا في مركز المعلم والمرشد والمرجع ، بل والقاضي لسكان يثرب )) ( دروزة : سيرة الرسول ٢ : ٥٠ ) . لذلك كان لتصديقهم دعوة النبي ، لو صدّقوا ، أثراً بالغاً في عرب المدينة والحجاز؛ وكان لتتكرّم لدعوة القرآن أسوأ العواقب ، فقد يقضي موقفهم الجاحد على الدعوة في مهدها ، لذلك لم يلن معهم ، ولم بمهلهم بل أعمل فيهم القتل والسبي والنفي .

(٣) الآية ٥٣ (( الكتاب والفرقان )) قال الجلالان (( إنه عطف تفسير )) والعطف في أصله زيادة ، والفرقان عند اليهود هو سنة موسى ، لا قرآن الكتاب ، فصار في القرآن صفة مترادفة للكتاب والقرآن .  
 والآية ٥٤ (( فاقتلوا أنفسكم )) أي بعضكم بعضاً . قابل ( خروج ٣٢ : ٢٦ ) .

(٢) معجزات التّيه: بعثهم بعد موتهم<sup>١</sup>، تظليل الغمام فوقهم<sup>٢</sup>، المن والسلوى، الوصول إلى أرض الموعد؛ كلها انتهت بتبديل أوامر الله: (( فأنزّلنا على الذين ظلموا رجزاً من السماء<sup>٣</sup> )) (٥٦- ٥٩).

(٣) معجزات سيناء: الاثنتا عشرة عيناً<sup>٤</sup>، ورفع الطور فوقهم<sup>٥</sup>؛ انتهت بانتهاك حرمة السبت، (( فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين<sup>٦</sup> )) (٥٨- ٦٦).

- ويقطع السياق إقحام أول: (( ضربت عليهم الذلة<sup>٧</sup> )) ( آخر ٦١ ).

(١) الآية ٥٥ (( لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة ، فأخذتهم الصاعقة )) : قال البيضاوي: (( الذين طلبوا ذلك هم السبعون الذين اختارهم موسى للميقات ، وقبل عشرة آلاف من قومه )) . وزاد الجلالان (( فأخذتكم الصاعقة أي الصيحة فمتم وأنتم تنظرون ما حلّ بكم ثم أحييناكم من بعد موتكم لعلمكم تشكرون )) : هذا قصص تلمودي مدرّاشي تجهله التوراة ، ولم تكن التوراة تهمل ذكر موت أمّة ، أو عشرة آلاف منها ، أو شيوخها السبعين ، وبعثهم ، تلك الخارقة التي لا مثيل لها في تاريخ الأمم .

(٢) والآية ٥٦ (( وظللنا عليكم الغمام )) : قابل سفر العدد ( ١٣ : ١٤ ) وهو تفخيم لتظليله التابوت ( خروج ٣٣ : ٩ و ٤٠ : ٤ - ٦٣ ) .

(٣) الآية ٥٨ - ٥٩ (( ادخلوا هذه القرية )) إشارة إلى بعثة تجسّس بعث بها موسى ، فبدّل قوم شهادتهم لتثبيط عزائم الشعب عن غزو كنعان ( قابل سفر العدد ١٣ ) . (( الرجز )) المذكور، يفسره الجلالان بالطاعون . والتوراة لا تذكر بهذه المناسبة شيئاً ، بل تنص على عقابهم في (( التيه )) لئلا يدخلوا أرض الميعاد .

(٤) الآية ٦٠ (( اضرب بعصاك الحجر ، فانفجرت منه اثنتا عشرة عيناً )) جمع القرآن حادثتين منفصلتين في التوراة : في ( إيليم ) شربوا من اثنتي عشرة عيناً طبيعية ، وفي حوريب ضرب موسى الصخرة فانفجرت منها الماء ، دون تحديد لعدد العيون ( خروج ١٥ : ٢٧ ) .

الآية ٦١ (( لن نصبر على طعام واحد )) قريب من تذمّر اليهود في التوراة ( العدد ١١ : ٤ - ١٠ ) .

(٥) الآية ٦٢ (( ورفعنا فوقكم الطور )) ، قال البيضاوي: (( روى أن موسى لما جاءهم بالتوراة فرأوا ما فيها من التكاليف الشاقة ، كبرت عليهم ، وأبوا قبولها ، فأمر جبريل فقلع الجبل فظلّه فوقهم )) . هذا قصص مدرّاشي تجهله التوراة ؛ ولا يمكن أن تسكت عن معجزة خارقة كهذه !

(٦) الآية ٦٥ (( كونوا قردة )) قال البيضاوي : (( لم يكرم بعض اليهود حرمة السبت فمسخهم الله قردة )) . هذا أيضاً قصص مدرّاشي ، فالتوراة تذكر أن أحدهم انتهك حرمة السبت ، فأنزل الله رجمه ( العدد ١٤ : ٣٢ - ٣٦ ) .

(٧) آخر الآية ٦١ (( ضربت عليهم الذلة ، وباؤوا بغضب من الله ... ويقتلون النبيين بغير الحق )) : مقحمة على النص ، يدل عليه انتقال الخطاب إلى الغيبة ؛ وتتنافر مع تعداد نعم الله عليهم التي فضلتهم على العالمين .



- ثم إقحام ثانٍ: لا خوف على أهل التوحيد، ومن أيّ ملة كانوا<sup>١</sup> (٦٢).
- ٤) قصة البقرة ومعجزتها: حوار متعنت لمعرفة أوصافها (٦٧- ٧٣).
- خاتمة (٧٤)** (( ثم قست قلوبكم فهي كالحجارة أو أشد قسوة<sup>٢</sup> )) .

\*

(١) الآية ٦٢ (( إن الذين آمنوا والذين هادوا والذين نصارى والصابئين )) مقحمة أيضاً ، وهي تتنافر مع الخطاب كله وتتناقض مع آخر الآية السابقة (( باؤوا بغضب من الله )) . ولذلك قيل هي منسوخة بقوله : (( ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه )) ( ابن حزم ) ؛ وقال مجاهد هي محكمة ، والثانية تفسيرية لها وهو الصواب ( النحاس ) . لأن الإسلام الذي لا يقبل الله بديلاً عنه هو (( الإيمان الله واليوم الآخر )) إيمان جميع أنبياء الكتاب ( ١٣٦ ) .

- ومن هم الصابئون ( ٦٢ ) ؟ قال الجلالان : (( هم طائفة من اليهود والنصارى )) ؛ وقال البيضاوي : (( هم قوم بين النصارى والمجوس ، وقيل أصل دينهم دين نوح )) . وقول الجلالين أصح ، إذ لا صلة لهم بالمجوس ، وما كان المجوس بأهل توحيد حتى يُذكروا معهم ( كما في الحج ١٧ ) . نقل أبو الفداء في ( المختصر في اخبار البشر ) : (( إن ملة الصابئين هي ملة السريان ( - هنا وهم المؤرخ ، بل لغتهم السريانية ) والسريان هي أقدم الأمم ، وكان كلام آدم وبنيه بالسرياني . ويذكرون أنهم أخذوا دينهم عن شيت وادريس . وللصابئين عبادات : منها سبع صلوات منهن خمس توافق صلوات المسلمين ، والسادسة صلاة الضحى ، والسابعة في تمام الساعة السادسة من الليل . ( - وهي الصلوات السبع عند رهبان عيسى ) . وصلواتهم كصلاة المسلمين . ولهم الصلاة على الميت بلا ركوع ولا سجود . ويصومون ثلاثين يوماً . وإن قصص الشهر الهلالي صاموا تسعاً وعشرين يوماً . ويراعون في صومهم الفطر والهلل . ويصومون من ربع الليل إلى غروب قرص الشمس )) . كانت هذه أيضاً عبادات وعوائد رهبان عيسى في زمن النبي في تشريعه.

(٢) قصة البقرة ( ٦٧ - ٧٣ ) . الآية ٧٢ هي أول قصة البقرة ( الجلالان ) وهي متأخرة في النسق عن القصة ( ٦٧ - ٧١ ) والآية ٧٣ فيها إيجاز حذف يزيد القصة غموضاً ، استدركه البيضاوي : (( فضربوا القتل بلسانها أو عجب ذنبها فحبي وقال : قتلني فلان وفلان ، ولابني عمه ، ومات ، فحرما الميراث وقُتلا )) . وهذا الاستدراك قصص مدراسي ، وهو إحياء قتيل ليشهد عن قاتله . وهذه الآية ( ٧٣ ) تظهر أن غاية قصة البقرة تمثيلاً للبعث (( كذلك يحيي الله الموتى )) : فقد جمع القرآن قصتين من التوراة في واحدة ، صارت عنده قصة ، وهي في التوراة تشريع مزدوج ؛ الأول تبرئة أهل الجوار من القتل المجهول قاتله ، برش دم البقرة الضحية ( تث ٢١ : ١ - ٩ ) ؛ والتشريع الآخر تطهير المنجسين بلمس الميت ، برش رماد حريق ذبيحة الخطأ عليهم ( العدد ١٩ : ٢٩ - ١٠ ) . وقد رددت الرسالة إلى العبرانيين رمز رش الرماد ( ٩ : ١٣ ) . ولكن القصص القرآني له مثل في التلمود ( قدوشيم ١٣ ) .

(٣) الآية ٧٤ حملة القرآن على اليهود ( ٧٤ و ٨٨ و ٩٧ ) صدى لحملة الرسل الحواريين عليهم : (( فيا قساة الرقاب إنكم في كل حين تقاومون الروح القدس : كما كان أبواكم كذلك أنتم! فأى نبي من الأنبياء لم يضطهده أبواكم ، وقد قتلوا الذين تنبأوا بمجيء الصديق ، ذاك الذي صرتم أنتم له قتلًا )) ( أعمال ٧ : ٥١ - ٥٣ ) .

**خطاب مستقل للمسلمين**، وهو مقم (٧٥- ٨١) تحذير لهم من مناورات اليهود<sup>١</sup>.  
فيه رد على مقالة أولى لليهود، «لن تمسنا النار إلا أياماً معدودة»<sup>٢</sup> (٨٠).

\*

الفصل الخامس: الخطاب الثالث لليهود (٨٢- ٨٦) حملة أولى على بني قتلة الأنبياء.  
نقضوا الشريعة (٨٣) وتخلّوا عن عصبيتهم لإخوانهم (٨٤- ٨٥):  
فالعاقبة عليهم خزي في الدنيا وعذاب في الآخرة.

\*

الفصل السادس: الخطاب الرابع لليهود (٨٧- ٩٨) حملة ثانية على اليهود منكري عيسى

ومحمد.

(١) كذبوا موسى وقتلوا عيسى الذي أيده الله بروح القدس<sup>٣</sup> (٨٧- ٨٨).  
وفيه رد على مقالة ثانية لليهود: «وقالوا: قلوبنا غلف»! (٨٨).  
(٢) كفروا بالقرآن الذي يصدّق الكتاب، بغياً أن ينزل على «أمّي»! (٨٩- ٩٠).

(١) الآية ٧٥ تذكر تحريف اليهود لكلام الله على أيام موسى ، مما يدل على أنه تأويل للنص لا تحريف له .  
والآية ٧٩ تذكر تحريفاً يقوم على كتمان صفة النبي في التوراة . الصفة المكتومة هي ، هل هو «أمّي» أم من  
بني إسرائيل . وجاء في ( أسباب النزول ) أن الآية « نزلت في أحبار يهود وجدوا صفة النبي مكتوبة في  
التوراة ( أكحل ، أعين ، ربعة ، جعد الشعر ، حسن الوجه ) فمحوه حسداً وبغياً ، وقالوا نجده ( طويلاً ، أزرق  
، سبط الشعر ) - وهب فعل يهود المدينة القلائل ذلك فهل يجاريهم يهود العالم وهم لا يعلمون من أمر محمد  
شيناً بعد؟! »  
(٢) الآية ٨٠ « لن تمسنا النار إلا أياماً معدودة » والمقصود جمع القلة « معدودات » . القرآن يردّ هذا الادّعاء  
، مع ذلك فقد وجد طريقه إلى الفقه الإسلامي : « لا يخلد في النار مسلم »!  
(٣) الآية ٨٧ قوله « أيدناه بروح القدس » يعني « الاسم الذي كان عيسى يحيى به الموتى » ( إتقان ١ : ١٢٠ )  
« ففريقاً كذبتم وفريقاً تقتلون » : من الفريق المقتول من الأنبياء ؟ قال الجلالان « كزكريا ويحيى » . ( قابل  
سفر الأيام ٢٤ : ٢٠ وإنجيل مرقس ٦ : ١٤ - ١٩ ) . ولكن سياق الآية ، التي لا تذكر رسولاً جاء بكتاب وأنشأ  
أمة سوى موسى وعيسى - فالإشارة إلى الرسل عابرة ليست ذات موضوع - يقتضي أن يقع التكذيب على  
موسى ، والقتل على عيسى . والقرآن كله لا يذكر رسولاً جاء بكتاب بعد موسى وقتلوه سوى عيسى . جوّ  
السورة كله يوحي بذلك فالصراع فيها على تأسيس « الأمة الوسط » بين أتباع موسى وأتباع عيسى .  
والآية ٨٨ « قلوبنا غلف » تعبير كتابي ( سفر الأحبار ٢٦ : ٤١ ) .

(٣) لم يؤمنوا بالرسول فقد قتلوا منهم! ولا بموسى فقد اتخذوا العجل من بعده!<sup>١</sup> (٩١-٩٣).

وفيه رد على مقالة ثالثة لليهود (( قالوا: نؤمن بما أنزل علينا ويكفرون بما وراءه )) (٩١).

(٤) رد على مقالة رابعة (( الدار الآخرة خالصة لهم من دون الناس ))! - فهم أحرص الناس على حياة! (٩١-٩٦).

(٥) رد على مقالة خامسة لهم: (( جبريل عدو اليهود من الملائكة )) - (( الله عدو الكافرين ))! (٩٧-٩٨).

الفصل السابع: الخطاب الخامس لليهود (٩٩-١٠٤) حملة ثالثة على اليهود: يفضلون الأساطير على كتاب الله والقرآن.

(١) نبذوا كتاب الله والقرآن الذي يصدقه (٩٩-١٠١) وفيه رد على مقالة سادسة لهم<sup>٢</sup>.

(١) الآية ٩٣ (( وإذا أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور )) فسرهما البيضاوي : (( إن الله أمر جبريل فقلع الجبل وظلله فوقهم ))! - تجهل التوراة هذه المعجزة التي لا مثيل لها ، ولكنها وردت في التلمود ( عبوداه زاره على الخروج ٩٢ : ١٩ ) .

(٢) الآية ٩٧ (( قل من كان عدواً لجبريل فإنه نزله على قلبك بإذن الله )) . جاء في ( أسباب النزول ) : (( أخرج ابن جرير ( الطبري ) عن عمر أنه كان يأتي اليهود فيسمع من التوراة فيعجب كيف تصدق ما في القرآن . قال فمر بهم النبي ص . فقلت نشدتكُم بالله أتعلمون أنه رسول الله ؟ فقال عالمهم : نعم نعلم أنه رسول الله ! قلتُ فلم لا تتبعونه ؟ قالوا سألناه من يأتيه بنبوته فقال : جبريل وذلك عدونا من الملائكة )) . - لاحظ تردد النبي والصحابة على نوادي اليهود وكنيسهم وتذكر السيرة أيضاً تردد محمد على بيت المدراش ( حيث يتدارسون كتابهم ) ومباحثتهم ( ٢ : ٢٠١ ) . (( وأخرج ابن أبي حاتم أن يهودياً لقي عمر بن الخطاب فقال إن جبريل الذي يذكر صاحبكم عدو لنا . فقال عمر : من كان عدواً لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال فإن الله عدوه - فنزلت على لسان عمر )) . - لاحظ نزول القرآن أحياناً على ما قال عمر وعلى لسانه .

والآية ٩٧ هي الوحيدة في القرآن التي تسمي ملاك الوحي القرآني باسمه ، فقل ظل محمد ، حتى المدينة ، ليعرف اسمه ، وقد سماه في القرآن المكي (( الروح الأمين )) و (( روح القدس )) : ووصف جبريل بأنه (( روح القدس )) تعليم يهودي انتقل إلى النصارى اليهود المهاجرين إلى الحجاز . وجبريل ، روح القدس، له صفة أخرى عند اليهود ، ويوسيفوس ( πρωτος αγγελος ) أي الملاك الأول أو زعيم الملائكة ، كما ورد في سورة القدر ( ٤ ) .

(٣) الآية ١٠١ جاء في ( أسباب النزول ) عن ابن عباس : (( قال ابن سوريا للنبي ص.: يا محمد ما جئتنا بشيء نعرفه ! وما أنزل الله عليك من آية بيّنة - أي لا يصدق القرآن الكتاب كما تقول ، ولم ينزل عليك

(٢) وفضلوا أساطيرهم عليهما (١٠٢) وفيه رد على مقالة سابعة لهم<sup>١</sup>.

\*

**خطاب مستقل للمسلمين (١٠٥- ١١٠)** وهو مقم على السياق.

تحذير لهم من دس اليهود والمنافقين على النسخ في القرآن وطلب المعجزات<sup>٣</sup>.

\*

معجزة تصدق ما تقول - فأنزل الله الآية ١٠١ « ولقد أنزلنا إليك آيات بينات » والآية ١٠٨ « أم تريدون أن تسألوا رسولكم كما سئل موسى من قبل » .

وفي الآية ١٠١ قوله « نبذ فريق من الذين أتوا الكتاب » : الإشارة إلى اليهود واضحة من السورة كلها . وهكذا نرى أن الخصام بين النبي وأهل الكتاب هو منذ البداية حتى النهاية بين محمد واليهود كما يشهد بذلك كل القرآن المدني ، ولا دخل للنصارى فيه فقد ظلوا حتى عام الوفود ، ومناظرة أهل نجران للنبي « أهل المودة » . لم يخاصمهم القرآن ولا النبي إلا في السنة الأخيرة ، وفي صدر سورة براءة وحدها ، وهي وصية محمد الأخيرة لأمته .

(١) الآية ١٠٢ « واتبعوا ما تتلو الشياطين على ملك سليمان » جاء في ( أسباب النزول ) : « قالت اليهود : انظروا إلى محمد يخلط الحق بالباطل ، يذكر سليمان مع الأنبياء ، أفما كان ساحراً يركب الريح ؟ فأنزل الله الآية » .

وقوله « ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر ، وما أنزل على الملائكين ببابل هاروت وماروت » قال الجلالان : « قال ابن عباس هما ساحران كانا يعلمان السحر . وقيل ملاكان أنزلا لتعليمه ابتلاءً من الله للناس » . الآية تعتبر السحر كفرة ، وتعليماً من الشياطين « وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر » ففي الآية تكفير للسحر وتعريض به ، وفيها أيضاً تحريض عليه لأن الله أنزل السحر على الملائكين هاروت وماروت ، وأرسلهما لكي يعلمتا الناس ، وهما يحذران منه . فقصة هاروت وماروت غامضة متعارضة لفظاً وموضوعاً . ولا أصل لها في الكتاب الذي يحرم السحر ( تث ١٨ : ١٠ و ١٤ ) ويشرح قتل الساحر ( تث ١٨ : ٢٠ خروج ٢٢ : ١٨ ) . وقد وردت في القصص التلمودي ، المدراش ، وهو قصص شعبي على الكتاب ( قابل مدراش ألخخير ٩٤ ومدراش يلكوت ٤٤ مجموعة Jellinek IV 127 ) .

وقوله « ولا تقولوا : راعنا » بلغة الأنصار لأن اليهود يلونها بلغتهم « رَعْنَا » حتى تؤدي إلى نعت النبي بالرعونه ( سيرة الرسول : ٢ : ٧٢ ) . كذلك نساء ٤٨ .

(٢) آية النسخ ١٠٦ قال الجلالان : « لما طعن الكفار في النسخ وقالوا : إن محمداً يأمر أصحابه اليوم بأمر وينهى عنه غداً نزلت » . والآية تذكر النسخ والنسيان وهما ظاهرتان مختلفتان ، قال النحاس في ( الناسخ والمنسوخ ) : « وعن ابن عباس قال ننسخها أي ننسخ حكمها يريد بأنه غيرها بآية أخرى ؛ وننسخها أي نزيل حكمها بأن نطلق لكم تركها ( دون آية ناسخة ) كذلك أطلق للمسلمين من غير آية نسختها ترك الكتابة في الذين إلى أجل مسمى ، والشهادة في البيع » . - وكيف يُعلم ذلك بدون ناسخ ؟ قيل قد تنسخ السنة القرآن !

الفصل الثامن: متفرقات مجموعة (١١١- ١٢١) وهي مقحمة على السياق.

(١) من مناظرة النصارى واليهود والعرب في عام الوفود<sup>١</sup> (١١١- ١١٣).

- وفيه رد على مقالة سابعة لهم (١١١).

(٢) منع الحج ظلم - نزلت لما صدوا النبي ص. عام الحديبية عن البيت<sup>٢</sup> (١١٤- ١١٥).

(٣) أينما تولوا فثم وجه الله - استعداد لتحويل القبلة (١١٦).

(٤) رد على نسبة الولد إلى الله<sup>٣</sup> (١١٧- ١١٨).

وكما كان التبديل في أي القرآن ( نحل ) بلاءً سبب الارتداد من الإسلام في مكة؛ كذلك كان النسخ في المدينة بلاءً مكن المنافقين من نفاقهم .

وكيف ينسجم مبدأ النسخ مع قول القرآن مراراً : (( لا تبديل لكلمات الله )) ثم (( لن تجد لسنة الله تحويلاً ))؟ وكيف ينسجم أيضاً واقع النسخ مع القول بإعجاز القرآن ( بقرة ٢٣ ) هل الآيات المنسوخة معجزة؟ إن كانت معجزة فكيف نسخت ، وإن كانت غير معجزة فلم نزلت؟ ... والنسخ ظاهرة كبرى في القرآن رافقته في تنزيله وفي جمعه : فقد كان جيريل يعارض القرآن كل عام ليرفع منه المنسوخ ، وفي السنة الأخيرة عارضه فيه مرتين . ومع ذلك بقي منسوخ كثير جمعه علي ابن أبي طالب في مصحفه ، وأسقطه عثمان من المصحف الأميري ( دروزة : القرآن المجيد ٥٥ ) ولم يزل إلى الآن منسوخ يؤلفون فيه الكتب . - والآية بفاصلة مختلفة مما يلهم بأنها مقحمة من زمن آخر نجعله .

والآية ١٠٩ (( فاعفوا واصفحوا )) قال ابن سلامة وابن حزم (( أخبار العفو والصفح منسوخة بأية السيف )) ( براءة ٦ ) .

(١) هذه المناظرة قد تكون من أول العهد بالمدينة ، وقد تكون من آخر العهد ، مثل صدر سورة آل عمران ( ٣٣ - ٦٤ ) أي من عام الوفود لما قدم وفد نجران على النبي ( قابل سيرة ابن هشام ٢ : ١٩٧ ) .

وفي الآيات ١١١ و ١٢٠ و ١٣٥ إن صح أنها من العهد الأول ، (( ذكر النصارى استطرادي على ما يتبادر )) ( دروزة : سيرة الرسول ٢ : ٥١ حاشية ) .

(٢) الآية ١١٤ (( أولئك ما كان لهم أن يدخلوها إلا خائفين )) تستند المالكية إلى هذه الآية لتحظر على غير المسلمين دخول الجامع ، ويجيزه الفقه الحنفي والشافعي ، لأن الآية مخصوصة تحصر المنع في من منع ذكر الله في المساجد وسعى في خرابها .

(٣) الآية ١١٧ (( وإذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون )) : في الآية مشكل نحوي حير المفسرين : قال الزمخشري : (( كن فيكون ، أصله من كان التامة أي أحدث فيحدث . وهذا مجاز من الكلام وتمثيل ولا قول تم )) . وقال الجلالان : (( فيكون أي فهو يكون ( بالرفع ) . وفي قراءة بالنصب جواباً للأمر )) . ونعرف بالبيهية أن الأصل هو : (( كن فكان )) وعدل عنه لضرورة الفاصلة كما يجري أحياناً .

٥) « وقال الذين لا يعلمون: لولا يكلمنا الله - أرسلناك بشيراً ونذيراً » (١١٩).

٦) ويختم برد على مقالة ثامنة لليهود: « ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم »! (١٢٠-١٢١).

\*

### الفصل التاسع: الخطاب السادس لليهود (١٢٢ - ١٣٤).

- جدال أول على ملة إبراهيم : إبراهيم هو إمام العرب الحنفاء لا إمام اليهود.

**مطلع متواتر (١٢٢-١٢٣):** اذكروا نعمتي أني فضلتكم على العالمين<sup>١</sup>.

**مطلع خاص (١٢٤):** « كلمات الله » لإبراهيم<sup>٢</sup> - عهد الله لإبراهيم أنه إمام العرب لا اليهود.

١) تكليف الله إبراهيم بتطهير البيت العتيق - صلاة إبراهيم للبلد الحرام<sup>٣</sup> (١٢٥ - ١٢٦).

١) هذا التفضيل لبني إسرائيل ورد في التوراة ( تث ٢٧ : ١٩ ) كما ورد في العهد الجديد ( الرسالة إلى الرومانيين ( ٩ : ٤ ) .

٢) الآية ١٢٤ كلمات إبراهيم : هي تقاليد يتوارثها العرب ، ويختص بها الحنفاء منهم . قال الجلالان : « قيل هي المضمضة والاستنشاق والسواك وقص الشارب وفرق الشعر وقلم الأظفار ونتف الأبط وحلق العانة والختان والاستنجاء » . جعلوها عشراً مثل كلمات الله العشر لموسى ! ففارقن وتأمل .

وكما جعل الله الكلمات العشر في التوراة بنوداً للعهد مع بني إسرائيل وبهن صار موسى إماماً لهم فقد جعل القرآن كلمات إبراهيم عهداً مع العرب ، وبها صار إبراهيم إماماً للعرب من دون سائر ذريته : « وإذا ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فاتمهن قال : إني جاعلك للناس إماماً ! قال : ومن ذريتي ؟ قال : لا ينال عهدي الظالمين » . فقد نزع القرآن من اليهود أبوة إبراهيم الروحية لهم وإمامته . وذلك كما فعل الرسول بولس من قبل : « فافهموا إذن إن المؤمنين وحدهم أبناء إبراهيم ، أما الذين يقتصرون على أعمال الناموس فإنهم جميعاً تحت الغضب » ( الرسالة إلى غلاطية ٣ : ١ - ١٠ ) - قابل أيضاً « فباؤوا بغضب على غضب » ( بقرة ٩٠ ) - جدال القرآن مع اليهود هو جدال النصارى لهم .

٣) الآية ١٢٥ « واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى » في « اتخذوا » قراءتان على الماضي أو على الأمر . وفي ( أسباب النزول ) أنها نزلت على لسان عمر ، في فتح مكة أو في حجة الوداع ، وقد أفحموها هنا إقحاماً يتنافر مع الآية نظماً وزماناً ومكاناً ، وذلك دليل على ما في الآيات أحياناً من جميع كفي .

والآية تذكر زيارة إبراهيم لمكة وإقامته فيها مع إسماعيل البيت العتيق . والتوراة تجهل ذلك فهي تذكر أنه لما أبعد إبراهيم إسماعيل وأمه هاجر المصرية سكنا في بركة فاران ( تك ٢١ : ٢١ ) وهي ما بين سيناء

(٢) تجديد بناء البيت، وصلاة إبراهيم: يطلب أمة مسلمة من ذرية إسماعيل، ورسولاً منهم (١٢٧- ١٢٩).

(٣) هذه الأمة المسلمة هي ملة إبراهيم التي وصى بها إبراهيم ويعقوب بينهم<sup>١</sup> (١٣٠- ١٣٣).

**ختام (١٢٤):** بنو يعقوب أمة خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم.

\*

الفصل العاشر: الخطاب السابع لليهود (١٣٥- ٢٤١) جدال ثان على ملة إبراهيم<sup>٢</sup>.

**مطلع (١٣٥)** ملة إبراهيم هي الأصل، لا اليهودية ولا النصرانية.

وشرق الأردن، مقابل أخوته، بني إسرائيل (تك ٢٥ : ١٨) فاتخذت له أمه زوجة مصرية، لأنها مصرية وتسكن بالقرب من مصر (تك ٢١ : ٢١). وتقول التوراة بأنه لما مات إبراهيم حضر إسماعيل فدفنه في مغارة المكفيلة بقرية أربع، قرب حبرون (تك ٢٥ : ٨ - ١٩) وهي بأرض كنعان (تك ٢٣ : ٢) وسميت حبرون مدينة الخليل إكراماً لقبر خليل الله فيها. وبين الخليل ومكة مسيرة عشرة أيام، مما يجعل بين ذهاب النعي إلى إسماعيل في مكة، وحضور إسماعيل إلى حبرون، عشرين يوماً: فهل تبقى الجثة كل هذا الوقت؟ ولكنه ورد في مدراش على التلمود (مدراش ألجذل ٢١ : ٢١ ومدراش يلكوت ٩٥) أن إبراهيم زار ابنه إسماعيل مرة على أيام ولاية العمالقة على مكة ومرة على أيام ولاية الجرهميين وقد تزوج إسماعيل بابنة أميرهم مضاض بن عبد المسيح. وهذا الاسم يدل على ما في الرواية من الأسطورة؛ إذ ليس من المعقول أن يحمل أحد اسم (( عبد المسيح )) قبل وجود المسيح بألفي سنة. والمؤرخون الثقات، في هذا الموضوع، يسفون إلى الأسطورة؛ فابن خلدون يذكر كيفية إلحاق نسب معد، الجد الأكبر للنبي - ومعده هو بن عدنان - بإسماعيل. قال حجة المؤرخين (( نقل القرطبي عن هشام بن محمد أنه فيما بين عدنان وقيدار نحواً من أربعين أباً؛ وقال سمعت رجلاً من أهل تدمر من مسلمة اليهود ممن قرأ كتبهم يذكر نسب معد بن عدنان إلى إسماعيل من كتاب أرميا علي السلام )) - وكتاب أرميا موجود إلى اليوم على رق غزال قبل الإسلام بمئات السنين، ولا ذكر فيه لشيء من ذلك. فنسب معد بن عدنان إلى إسماعيل، هو من الإسرائيليات المدسوسة على العرب والإسلام تقرب بها اليهود إلى العرب قربي نسب ودم؛ وقد حاولوا أن يفعلوا ذلك مع أسبرطة واليونان فلم يفلحوا (١ مكابيين ١٢).

(١) الآيات ١٣٠ - ١٢٤ تجعل الحنيفية ملة إبراهيم ويعقوب والأسباط = (( ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه )) مثل بني إسرائيل بعد موسى. وفي مكة كان (( كتاب موسى إماماً )) للقرآن.

(٢) هذا الجدل الثاني فيه تراجع عن تصلب الجدل السابق. جاء في أسباب نزول الآية ١٣٥ (( قال ابن صوريا للنبي ص. ما الهدى إلا ما نحن عليه فاتبعنا يا محمد تهتد، فنزلت )) .

(١) إيمانها هو إيمان جميع الأنبياء: « لا نفرق بين أحد ونحن له مسلمون » (١٣٦) - (١٣٨). وفيه رد على مقالتهم التاسعة (١٣٥).

(٢) إيمانها بالله واحد مع اليهودية والنصرانية: « أتأجونا في الله، وهو ربنا وربكم »؛ (١٣٩).

(٣) إيمانها إيمان الآباء والأسباط من قبل اليهودية والنصرانية، بشهادة الكتاب (١٤٠). وفيه رد على مقالتهم العاشرة.

**ختام مكرر (١٤١) تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم.**

\*

### الفصل الحادي عشر: الخطاب الثامن لليهود (١٤٢-١٥٢) جدال ثالث على القبلة<sup>٢</sup>.

(١) الآية ١٣٨ « صبيغة الله ، ومن أحسن من الله صبيغة » . قال الطبري : « هي صبيغة الإسلام . وذلك أن النصراني إذا أراد أن تنصّر أطفالهم جعلتهم في ماء لهم تزعم أن ذلك لها تقديس - بمنزلة غسل الجنابة لأهل الإسلام - وأنه صبيغة لهم في النصرانية . واختلفوا في تأويل تلك الصبيغة في الإسلام فقال بعضهم هي دين الله ؛ وقال آخرون صبيغة الله هي فطرة الله من قوله « فاطر السماوات والأرض » (أنعام ١٤) أي بل نتبع فطرة الله وملته التي خلق عليها خلقه ، وذلك الدين القيم » . والآية مقحمة على النص لا ترتبط به وقد أقموها ليجمعوا تفضيل الحنيفية على المسيحية إلى تفضيلها على اليهودية . وذكر النصراني (١٣٥) وذكر صبيغتهم (١٣٨) ظاهر الإقحام لأنه لا يعقل أن يقول اليهود أن الهداية في النصرانية كما هي في اليهودية « كونوا هوداً ، أو نصارى تهتدوا » ، والجناس في التعبير يقتضي : « كونوا هوداً تهتدوا » .

(٢) تغيير القبلة منذ أول العهد بالمدينة ، كان الحدث الأول والأكبر في الإسلام ، لأنها دليل الاستقلال عن أهل الكتاب . ولذلك كان لها هذه الضجة التي تصفها سورة البقرة (١٤٢ - ١٥٢) .

قال دروزة : « إذا كانت السلسلة نزلت جميعها معاً فمعناه أن حادث التبديل كان بدءاً بالهام ربّاني غير قرآني . ولعل حكاية تساؤل اليهود بصيغة ( ما ولأهم ) قرينة على هذا وإن السلسلة نزلت للرد على اليهود وتثبيت النبي على ما ألهمه من التحول . وفي القرآن شواهد عدة على أن النبي ص. كان يُلهم العمل ثم ينزل القرآن بتثبيته وتبريره ، ومن الأمثلة على ذلك غزوة بدر ، وعزيمة زيادة الكعبة التي انتهت بصلح الحديبية فقد نزلت سورتا الأنفال والفتح فيهما بعد وقوعهما » . ( سيرة الرسول ٢ : ٨٦ ) .

جاء في الإتقان ( ١ - ٣٣ ) : « أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس : إن رسول الله لما هاجر إلى المدينة أمره الله أن يستقبل بيت المقدس (تألفاً لليهود) . ففرحت اليهود . فاستقبلها بضعة عشر شهراً . وكان يحب قبلة إبراهيم فكان يدعو الله وينظر إلى السماء » .

جاء في السيرة لابن هشام : « صرفت القبلة عن الشام إلى الكعبة ، وصرفت في رجب على رأس سبعة عشر شهراً من مقدم رسول الله ص. المدينة » ( ٢ : ١٩٨ ) .



**مطلع** (١٤٢- ١٤٣): الأسباب الموجبة لتغيير القبلة: إنها هدى من الله ، وشعار (( الأمة الوسط )) .

(١) هداية محمد إلى قبلة الأمة الوسط بعد تردّد<sup>٢</sup> (١٤٤- ١٤٨).

(٢) تشريع القبلة إلى المسجد الحرام لئلا يكون للكتابين حجة أو سبيل على المسلمين (١٤٩- ١٥٠).

**ختام** (١٥١- ١٥٢): رسول عربي و قبلة عربية: القبلة استقلالاً ونعمة من الله والرسول.

\*

الفصل الثامن عشر: متفرقات مجموعة (١٥٣- ١٦٨) - وهي مقحمة على السياق.

(١) في قتلى بدر (١٥٣- ١٥٧): إنهم أحياء لا أموات؛ وهذا كان بلاءً من الله<sup>٣</sup>.

(١) الآية ١٤٣ (( وكذلك جعلناكم أمة وسطاً : في صحيح البخاري ( ٣ : ٦٦ و ١٠٤ )) (( الأمة الدين )) . فالإسلام دين وسط بين اليهودية والمسيحية ، ولذلك جاءت قبلته قبلة وسطاً بين اليهودية والمسيحية . جاء في الإتقان ( ٢ : ٨٤ ) : (( لما كان الخطاب لموسى من الجانب الغربي توجهت إليه اليهود ( يهود العربية ) وتوجهت النصارى إلى المشرق ، كانت قبلة الإسلام وسطاً بين القبلتين )) . وهكذا كان تأسيس الإسلام في المدينة ديناً وسطاً بين المسيحية واليهودية ، وشعار هذا (( الوسط )) في الدين ، هو القبلة الوسط إلى كعبة مكة ، بين الشرق والغرب . فتغيير القبلة كان دليل الاستقلال عن أهل الكتاب ، وشعار الانفصال عنهم ، والتميز الطائفي : (( لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه )) ( ١٤٣ ) لئلا يكون للناس عليكم حجة ( ١٥٠ ) . وإذا كان الاسم دليل المسمى ، فقد وصف القرآن الإسلام ، بين اليهودية والمسيحية ، أحسن وصف بتسميته (( الأمة الوسط )) أي الدين الوسط بين اليهودية والمسيحية ، بعقيدته وشريعته وصوفيته كما سيظهر ذلك في سائر القرآن المدني . (٢) الآية ١٤٤ (( وقد نرى تقلب وجهك في السماء )) ؛ جاء في أسباب النزول (( لما نزلت قال اليهود: تحيّر على محمد ودينه )) . وقال النحاس : نسخها وسط الآية ذاتها : (( فولّ وجهك شطر المسجد الحرام )) ، وهذا النسخ عدّله وتمّمه في آخر الآية ذاتها: (( وحيث ما كنتم فولتوا وجوهكم شطره )) . الآية ١٤٥ تظهر تحجّر الفرقاء كلّ على قبلته بعد مفاوضات فاشلة ؛ والآية ١٤٨ تشرح أن اختلاف الموحدين في قبلتهم هو من الله (( ولك وجهة هو موليها . فاستبقوا الخيرات )) . (٣) الآية ١٥٣ جاء في أسباب النزول إنها نزلت في قتلى بدر ، وهذا بعد سورة البقرة .

- (٢) السماح بالطواف بالصفاء والمروة (١٥٨) - وذلك بعد فتح مكة، لتأليف القبائل<sup>١</sup>.  
 (٣) حملة على كتمان اليهود ما في الكتاب<sup>٢</sup> (١٥٩-١٦٢).  
 (٤) دعوة عامة للتوحيد (١٦٣-١٦٨) وهي رائعة توجز كل براهين القرآن.

\*  
\* \*

### القسم الثاني من البقرة

شريعة « الأمة الوسط » : وأركان الإسلام (١٨٨-٢٤٢).

فذلكه : تشريعات سورة البقرة من أول العهد بالمدينة . ولكنهم أقحموا عليها تعديلات أو تفصيلات من أزمنة أخرى ( مثل آية الربا من آخر العهد ) حتى تأتي سورة البقرة السورة التشريعية الكبرى في القرآن .

فصل أول : حكم الحلال والحرام في المآكل (١٦٨-١٧٣).

(١) خطاب عام: تحليل الطيبات التي يحرمها المشركون<sup>٣</sup> (١٦٨-١٧١).

(١) ١٥٨ قال الجلالان : « نزلت لما كره المسلمون ذلك ، لأن أهل الجاهلية كانوا يطوفون بهما وعليهما صنمان يمسخونها. وعن ابن عباس أن السعي بينهما غير فرض ، لما أفاده رفع الإثم من التخيير؛ وقال الشافعي وغيره أنه ركن » - قال النحاس : « إن قوله : فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما » ( ١٥٨ ) قد نسخته الآية ١٣٠ « ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه » - لاحظ أن الناسخ يرد قبل المنسوخ . - ولكن يزول التعجب حين نعلم أن الآية ( ١٣٠ ) نزلت في أول العهد عندما كان النبي يحارب أهل مكة ومن الإهم؛ والآية ( ١٥٨ ) نزلت بعد فتح مكة فسمح بالطواف بالصفاء والمروة تألفاً لأهلها.

(٢) الآية ١٥٩ قال الجلالان: « نزل في اليهود ( إن الذين يكتُمون - الناس - ما أنزلنا من البينات والهدى ) كآية الرجم ونعت محمد » . فكل حملات القرآن على اليهود واتهامهم بالكتمان تارة وبالتحريف أخرى تعود إلى تفسيرهم الرجم بالجلد ، وتفسيرهم « النبي الآتي الذي يعد به موسى » ، بأنه ليس « النبي الأمي » بل نبياً يظهر من اليهود . هذا هو محور الجدل والخلاف ، والتهم والحملات .

(٣) ١٦٨ « يا أيها الناس كلوا مما في الأرض حلالاً طيباً » : كانت العرب تحرم المخنقة والموقودة والمتردية والنطيحة وما افترس السبع ( مائدة ٤ أنعام ١٢١ و١٤٦ نحل ١١٦ ) . وشريعة القرآن كتابية : فقد أباحت التوراة لحوم الطير والحيوان والأسماك، ولحمأ بدمه ( تكوين ٩ : ١ - ٤ ) وحرمت الدم ( أحبار ١ : ٥ و ١٩ : ٣٦ تث ١٢ : ٢٣ ) .

(٢) خطاب خاص بالمسلمين: تحليل الطيبات إلا الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل به لغير الله<sup>١</sup> (١٧٢-١٧٣).

فصل مقحم: (١٧٤-١٧٧) حملتان على اليهود.

حملة أولى بسبب كتمانهم نعت النبي الموعود (١٧٤-١٧٦).

حملة ثانية على استنكارهم قبلة المسجد الحرام<sup>٢</sup> (١٧٧) وفي الآية أركان الإيمان الستة.

\*

(١) الآية ١٧٣ (( إنما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل به لغير الله )) . وقال ابن حزم : نسخ منها بالسنة : (( أحل لنا ميتتان ودمان : السمك والجراد ، والكبد والطحال . وقال سبحانه ( وما أهل به لغير الله ) ثم رخصت للمضطر إذا كان غير باغ ولا عاد بقوله تعالى: (( فلا إثم عليه )) . وقوله (( فمن اضطر غير باغ ولا عاد فلا إثم عليه )) ( ١٧٣ ) هو تفسيح للمضطر بأكل غير المباح عند الضرورة ، وهو شرع كتابي أيضاً كان قائماً عند اليهود والنصارى . ومن هنا كان المبدأ الفقهي : الضرورات تبيح المحظورات . وهذه ظاهرة القرآن التشريعية الكبرى : التخفيف في التشريع !

وهذا التشريع القرآني شبيه بالتشريع المسيحي الذي سنّه الرسل الحواريين للأميين المنتصرين: (( لقد رأى الروح القدس ونحن أن تمتنعوا عمّا ذبح للأصنام ، وعن الدم وعن المخنوق والفحشاء )) ( أعمال الرسل ١٥ : ٢٩ ) . وفي هذا التشريع القرآني يقف القرآن وسطاً بين اليهود والنصارى : يساير اليهود في تحريم الخنزير - كلمة عبرية عن طريقة الأرامية - لا في تحريم الجمل والأرنب ( تث ١٤ وأحبار ١١ ) ، ويساير النصارى في تحريم الدم والميتة ، وتحليل الباقي .

(٢) الآية ١٧٧ (( ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن ، )) . الآية تجعل الإيمان بالكتاب المقدس وأنبيائه من أركان الإسلام . ثم في الآية مشاكل لغوية : (( ولكن البر من آمن )) فليس البر المؤمن نفسه حتى يقول ( من ) بل البر هو الإيمان ، ولذا قيل فيه حذف : (( ولكن البر ( بر ) من ... )) . كذلك يوجد حذف في قوله : (( وفي الرقاب )) أي (( في - فك - الرقاب )) . وفي قوله (( والموفون بعهدهم )) عطف جملة اسمية على خبرية (( وأقام الصلاة وآتى الزكاة )) . وفي قوله : (( والصابرين )) عطف نصباً على مرفوع ( والموفون ) ، وذلك من خطأ الكتاب .

وقال الزمخشري: (( الخطاب لأهل الكتاب لأن اليهود تصلي قبل المغرب إلى بيت المقدس ، والنصارى قبل المشرق )) - الخطاب رد لليهود على استنكارهم تحويل القبلة ، إذ لا جدال مع النصارى في أول العهد بالمدينة ؛ بل هو متفق معهم في (( البر )) الذي تشيد فيه الآية (( وآتى المال على حبه ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل ، والسائلين ، وفي ( فك ) الرقاب )) وهذه كانت أعمال الرحمة التي تميز بها النصارى ، وخصوصاً رهبانهم ، كما شهد القرآن لهم بها : (( وجعلنا في قلوب الذين اتبعوه رافة ورحمة )) .

فصل ثانٍ: حكم القصاص في القتلى (١٧٨- ١٧٩).

كتب عليكم القصاص في القتلى: الحر بالحر، والعبد بالعبد الأنتى بالأنثى )) . والعفو تخفيف من ربكم<sup>١</sup>.

\*

فصل ثالث: حكم الوصية الأخيرة (١٨٠- ١٨٢).

- الوصية للوالدين والأقربين بالمعروف<sup>٢</sup>.

- تبديل الوصية إثم؛ ثم خففه بإباحة التبديل لمن خاف من موصل جنفاً!

\*

فصل رابع: حكم الصيام (١٨٣- ١٨٧).

**مطلع:** الصوم في القرآن شريعة كتابية: (( كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم<sup>٣</sup> )) (١٨٣).

(١) جاء في ( الناسخ والمنسوخ ) للنحاس : (( نُسخ منه بالسنة : لا يقتل الوالد بولده . وعند عكرمة وعطية نسخ بقوله : وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس . وعند الحسن وطاوس وقتادة والعلاء أنها محكمة )) . قال الزمخشري : (( النفس بالنفس حكاية ما كتب في التوراة عن أهلها ، وهذه خوطب بها المسلمون وكتب عليهم ما فيها ... لأن أهل التوراة كتب عليهم القصاص البتة وحُرِّم العفو وأخذ الدية . وعلى أهل الإنجيل العفو وحُرِّم القصاص والدية . وخُيرت هذه الأمة بين الثلاثة : القصاص أو الدية أو العفو ، توسعة عليهم وتيسيراً )) . فتشريع القرآن تشريع وسط بين التوراة والإنجيل ، ومن صفات هذا التشريع الوسط التخفيف في الأحكام . وجاء في السنة : دية العبد على النصف من دية الحر ، ودية المرأة على النصف من دية الرجل . وقال ابن حزم وابن سلامة : قتل الحر بالعبد إسراف ، وكذلك قتل المسلم بالكافر ؛ وحكى ابن سلامة قول العراقيين بجواز قتل المسلم بكافر معاهد .

(٢) الآية ١٨٠ (( الوصية للوالدين والأقربين بالمعروف )) قيل إنها منسوخة . قال النحاس : (( عن ابن عباس ناسخها ( وللرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون ) ؛ وقالوا ناسخها السنة )) ( لا وصية لوارث )) وقال ابن حزم : اختلفوا في ناسخها ، ومنهم من قال ناسخها قوله : (( يوصيكم الله في أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين )) .

(٣) الآية ١٨٣ - ١٨٤ ينص القرآن على أن الصوم شريعة كتابية يقتدي بها : صام عاشوراء ( كبتور ) في مكة ؛ وفي المدينة كان صوم المسلمين الأول مثل اليهود (( أياماً معدودات )) أي العشرة الأولى من محرم، إبلافاً لليهود ( قابل البخاري والطبري وابن الأثير ) ثم تطور إلى الاقتداء بالنصارى (( شهر رمضان )) (١٨٥) .

١ ) شريعة الصوم القرآنية الأولى (١٨٣): اختيارية (( فمن تطوع خيراً فهو خير له، قابلة للفدية )) وعلى الذين يطيقونه فدية: طعام مسكين )) بدون تحديد عدد الأيام<sup>١</sup> وبدون اقتراب من النساء (١٨٤) اقتداءً بأهل الكتاب.

٢ ) شريعة الصوم القرآنية الأخرى (١٨٤- ١٨٧): حددت الوقت (( شهر رمضان )) ، وصارت إجبارية (( فمن شهد منكم الشهر فليصمه )) . ولكن أحلّ الرفث إلى النساء ليلة الصيام، ابتعاداً عن عادة أهل الكتاب، واستثنى من الإباحة الرفث أثناء الصلاة. وحدد وقت الصوم في النهار بحسب عادة اليهود والنصارى<sup>٢</sup>.

\*

الآية ١٨٤ كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم ... شهر رمضان )) . قال البيضاوي : (( وقيل معناه صومكم كصومهم في عدد الأيام ؛ إما روي أن رمضان كتب على النصارى ، فوقع في برد أو حر شديد ، فحولوه إلى الربيع وزادوا عليه عشرين يوماً كفارة لتحويله )) .

وقوله (( كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم )) نسخ عدته (( أياماً معدودات )) ، (( بشهر رمضان )) ( ١٨٤ ) ونسخ التعفف في الصوم على طريقة أهل الكتاب ، بقوله : (( أحلّ لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم )) ( ١٨٧ ) . وإذا عني بقوله (( أياماً معدودات )) شهر رمضان فالأصل فيها (( معدودة )) لأنه جمع كثرة . وذلك بعكس الآية ( ٨٠ ) (( لن تمسنا النار إلا أياماً معدودة )) فالأصل (( معدودات )) إذ المقصود جمع قلة .

(١) الآية ١٨٤ وعلى الذين يطيقونه فدية : طعام مسكين ... وأن تصوموا خير لكم )) من الافطار والفدية . نسخه بقوله : (( من شهد منكم الشهر فليصمه )) .

(٢) الآية ١٨٧ جاء في ( أسباب النزول ) : (( أخرج البخاري عن البراء قال : لما نزل صوم رمضان كانوا لا يقرّبون النساء برمضان كله ( كعادة أهل الكتاب ) . فكان رجال يخونون أنفسهم ( ١٨٧ ) : وقع ذلك لعمر ، وصنع كعب مثل ذلك . فغدا عمر إلى النبي ص . فأخبره فنزلت الآية ( أحلّ لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم ) ففرحوا بها فرحاً شديداً )) فالآن باشروهن وابتغوا ما كتب الله لكم وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض ... )) وهذا يعني السماح ليلة الصيام بالرفث إلى النساء ومباشرتهن مع الأكل والشرب حتى الفجر ؛ قال البيضاوي (( فيه تجويز المباشرة إلى الصبح )) ! قال الجلالان : (( ثم بالغوا بمباشرتهن ، فكان يخرج أحدهم ، وهو عاكف في المسجد ، فيجامع امرأته ويعود إلى الجامع ، فنزلت (( ولا تباشروهن وأنتم عاكفون في المساجد )) . - صورة عن المجتمع الإسلامي في نشأته عن أيام النبي .

وتشريع بدء الصوم وانتهائه كل يوم تشريع كتابي درج عند اليهود والنصارى . والإشارة (( حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر )) تلمودية : (( أول النهار هو الوقت الذي يقدر فيه المرء أن يميّز الخيط الأبيض من الخيط الأزرق )) ( مشنة : بر أخوت ١ : ٢ ) .

فصل خامس: تشريعات خاصة (١٨٨- ١٨٩).

- (١) تحريم الكسب الحرام (١٨٨).
- (٢) الأهلة مواقيت للناس والحج<sup>١</sup> (١٨٨).
- (٣) « ليس البر أن تأتوا البيوت من ظهورها ... وأتوا البيوت من أبوابها » (١٨٩).

\*

فصل سادس: تشريع القتال ليوم الحديبية<sup>٢</sup> (١٩٠- ١٩٥).

- القتال دفاع: « وقاتلوا الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا » (١٩٠).
- ويتطور إلى هجوم: « واقتلوهم حيث ثقتموهم وأخرجوهم من حيث أخرجوكم » (١٩١).

(١) الآية ١٨٨ « يسألونك عن الأهلة ! - قل هي مواقيت للناس والحج » - قابل المزمور ١٠٤ : ١٩ « صنع القمر للأوقات » .

(٢) ١٨٩ « ليس البر أن تأتوا البيوت من ظهورها » : روى البخاري عن البراء كانوا إذا أحرموا في الجاهلية أتوا البيت من ظهره فنزلت . وأخرج الطيالسي عن البراء أيضاً : كانت الأنصار إذا قدموا من سفر لم يدخل الرجل من قبل بيته . ( أسباب النزول ) .

(٣) الشريعة الأولى للقتال في الإسلام هي الإذن به « أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا : الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق أن يقولوا : ربنا الله » ! ( الحج ٣٩ ) . والشريعة الثانية هي فرضه في آخر سورة البقرة : « كتب عليكم القتال وهو كره لكم » ( ٢١٦ ) وهنا ( ١٩٥ - ١٩٥ ) الطور الثالث من تشريع القتال ، ينقله من الدفاع ( ١٩٠ ) إلى الهجوم ( ١٩١ ) وقد أجمعوا أن ذلك تم في أثناء القيام بحج عسكري في عام الحديبية .

(٤) الآية ١٩١ « وقاتلوهم حيث ثقتموهم » قال النحاس ( في الناسخ والمنسوخ ) : « هذه الآية من أصعب ما في الناسخ والمنسوخ » لأنها تنسخ للحال عدم الاعتداء في الآية التي قبلها « ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين » : بهذا النسخ أباح الاعتداء لأنها تبيح القتال في الشهر الحرام وعند المسجد الحرام وقد نهت عنه الآية السابقة : « ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه » . قال النحاس أيضاً ( صفحة ٢٦ ) : « روي أن عمر بن عبد العزيز كتب لجيوشه : لا تقتلوا النساء ولا الصبيان ولا الرهبان في دار الحرب ، فتعدتوا : إن الله لا يحب المعتدين ... وقال أحد الفقهاء : لا يؤخذ من الرهبان جزية ، وليس الرهبان ممن يقاتل » تلميحاً إلى الآية ٣٠ من سورة براءة .

وقوله « وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم » فسره البيضاوي : « قيل كان ذلك قبل أن أمروا بقتال المشركين كافة ، والمقاتلين منهم والمحاجرين . وقيل معناه الذين يصابونكم القتال ، ويتوقع منهم ذلك دون غيرهم من المشايخ والصبيان والرهابة والنساء » .

وقد يتطور إلى استباحة الحُرُمات: (( فإن قاتلوكم ( عند المسجد الحرام ) فاقتلوهم<sup>١</sup> ... وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله ... الشهر الحرام بالشهر الحرام<sup>٢</sup> (١٩١- ١٩٤) والقتال يقتضي دائماً النفقة للحرب (١٩٥).

\*

### فصل سابع: حكم الحج والعمرة (١٩٦- ٢١٤).

(١) شريعة الحج الأولى من عام الحديبية: (( وأتموا الحج والعمرة<sup>٣</sup> )) (١٩٦).

ومنذ البدء يظهر التخفيف في التشريع: (( فإن أحصرتم فما استيسر من الهدي )) . ثم مبدأ الفدية أي التحلة من المحظورات القرآنية<sup>٤</sup>.

(٢) شريعة الحج النهائية وهي من بعد فتح مكة (١٩٧- ٢٠٣).

(( الحج أشهر معلومات (١٩٧) أي معروفات<sup>٥</sup> .

(١) القتال عند المسجد الحرام : قال في عام الحديبية (( ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه ، فإن قاتلوكم فاقتلوهم )) : هذا الاستثناء نسخة في سورة براءة : (( فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم )) (٥) وهذا هو الطور الرابع والأخير من تشريع القتال . وهكذا ترى أنه تشريع واقعي - لا دستوري مقرر منذ البدء - يتطور مع تطور الجماعة الإسلامية من الضعف إلى القوة .

(٢) الآية ١٩٤ القتال في الشهر الحرام : (( الشهر الحرام بالشهر الحرام )) قال الجلالان : (( ردّ لاستعظام المسلمين ذلك )) ؛ وفي ( أسباب النزول ) : (( كره المسلمون قتالهم في الحَرَم والإحرام والشهر الحرام - حسب عوائد العرب - فنسخه بالآية (١٩٣- ١٩٤) ثم بآية براءة )) . وقد فسره البيضاوي: (( قاتلهم المشركون عام الحديبية في ذي القعدة ، واتفق خروجهم لعمرة القضاء ( التي اتفقوا عليها في معاهدة الحديبية ) فيه، وكرهوا أن يقاتلوهم فيه لحرمة ، فقيل لهم هذا الشهر بذاك ، وهناك بهنكه فلا تبالوا به . ( والحرمة قصاص ( فلما هتكوا حرمة شهركم بالصدّ فافعلوا بهم مثله وادخلوا عليهم عنوة واقتلوهم إن قاتلوكم )) .

(٣) الآية ١٩٦ (( وأتموا )) وفي قراءة : (( أقيموا مما أدخل الجدل على تقرير مبدأ الفدية . عند ضرورة حلق الرأس قبل الأوان المحدد ، بثلاثة من صيام أو صدقة أو نسك ؛ وعند فقدان الهدي ، وهو شاة يذبحها بعد الإحرام ، فمن لم يجد الهدي لفقده أو فقد ثمنه فعليه صيام ثلاثة أيام في الحج وسبعة إذا رجعوا )) (الجلالان). ثم يقول : (( تلك عشرة كاملة )) قال البيضاوي (( فذلّة الحساب وفاندها ، فإن أكثر العرب لم يحسنوا الحساب )) !!

(٤) الآية ١٩٧ فسرّها الجلالان (( وقت الحج أشهر معلومات : شوال وذو القعدة وعشر ليل من ذي الحجة وقيل كله )) وأوضحه البيضاوي : (( وتسع من ذي الحجة بليلة النحر عندنا ( مذهب الشافعي ) ، والعشر عند أبي حنيفة ، وذو الحجة كله عند مالك )) .

- « فمن فرض فيهن الحج: فلا وقت ولا فسوق ولا جدال في الحج (١٩٧).  
 « وتزوّدوا فإن خير الزاد التقوى<sup>١</sup> (١٩٧).  
 « ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلاً من ربكم - في مواسم الحج<sup>٢</sup> (١٩٧).  
 « فإذا أفضتم من عرفات فاذكروا الله عند المشعر الحرام<sup>٣</sup> (١٩٨).  
 « ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس<sup>٣</sup> (١٩٩).  
 « فإذا قضيتم مناسككم فاذكروا الله ... في أيام معدودات<sup>٤</sup> » (٢٠٠- ٢٠٣).

\*

### فصل مقحم: متفرقات مجموعة (٢٠٤- ٢٠٦).

(١) قصة المنافق، الأخنس بن شريق (٢٠٤- ٢٠٦).

- (١) الآية ١٩٧ « وتزوّدوا » قال الجلالان : « نزل في أهل اليمن وكانوا يحجون بلا زاد فيكونون كلاً على الناس » كما رواه البخاري وهذا السبب يجعل الآية من آخر العهد المدني عندما حج أهل اليمن .  
 (٢) « ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلاً من ربكم - في مواسم الحج » : نزل ردّاً لكرهتهم التجارة في الحج ( الجلالان ) : فيسمح القرآن بالاستفادة من الحج الديني للتجارة ؛ وفي ( أسباب النزول ) : « روى البخاري عن ابن عباس قال كانت عكاظ ومجّة وذو إنجاز أسواقاً في الجاهلية . فتأثّموا أن يتجروا في المواسم (الحج) فسألوا رسول الله ص. فنزلت « يسمح بالتجارة في الحج وهو القائل : « رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة » . قابل في الإنجيل طرد المسيح للتجار من الهيكل في موسم الحج اليهودي ( يوحنا ٢ : ١٣ - ٢٢ - ٢١ متى ٢١ : ١٢ - ١٣ ).  
 (٣) الآية ١٩٨ - ١٩٩ قال البيضاوي : « إن قريشاً كانت تخالف سائر العرب فتقف بالمشعر الحرام - جبل في آخر المزدلفة - فارتفع ، بأن أمرّوا بأن يقفوا أيضاً بعرفة » . وهكذا حسم القرآن الخلاف وساوى بين المسلمين ، وبين قريش وسائر العرب ، وهذا تدبير عليم حكيم خبير . ولكنه حفظ « لمقام » قريش منزلة إذ أمر جميع المسلمين أن يذكروا الله مع قريش في المشعر الحرام ، فأدخل المشعر الحرام في مناسك الحج العامة . وهذا أيضاً تدبير زعيم خبير حكيم عليم .  
 (٤) الآية ٢٠٠ تذكر « مناسك الحج » وهذه المناسك سبعة : الإحرام ( إزاء ورداء غير مخيطين ) ، الوقوف بعرفة ، المبيت بالمزدلفة ثم بمنى ، الطواف حول البيت ، السعي بين الصفا والمروة ، رمي الجمار أو الجمرات ، الفداء والهّدي . وكلها مناسك جاهلية ، طهرها الإسلام وصبغها بالتوحيد وفرضها . الآيات ٢٠٠ - ٢٠٣ تذكر تفاخرهم بأبائهم بعد الحج ، وفي الموقف بمنى ، بعد رمي الجمرات . جاء في ( أسباب النزول ) : « أخرج ابن جرير بن مجاهد قال : كانوا إذا قضوا مناسكهم وقفوا عند الجمرات وذكروا آباءهم في الجاهلية وفعل آبائهم فنزلت » . هذا التفاخر كان سبب تناحر فحسمه .



(٢) قصة المؤمن، المضطهد المهاجر، وصهيب (٢٠٧).

(٣) قصة نفر اليهود الذين أسلموا وترددتهم في إسلامهم<sup>١</sup> (٢٠٨ - ٢١٣): ينتقم الله من تبديل نعمته، فالقرآن يبين للناس ما اختلف فيه اليهود من الكتاب<sup>٢</sup>.

(٤) زلزال محمد والمسلمين في يوم الخندق والأحزاب! متى نصر الله؟<sup>٣</sup> (٢١٤).

\*

### فصل عاشر: فتاوى مختلفة (٢١٥ - ٢٢٥).

(١) (( يسألونك ماذا ينفقون؟ - قل ما أنفقتم من خير فلولو الدين والأقربين واليتامى والمساكين وابن السبيل )) (٢١٥).

- الآية (٢١٦) (( كتب عليكم القتال )) استفتاح محم لسرية في الشهر الحرام.

(١) الآيات ٢٠٨ - ٢١٠ جاء في أسباب النزول: (( أخرج ابن جرير عن عكرمة قال: جاء عبد الله ابن سلام وتعلية وابن ياسين، وأسد وأسيد ابنا كعب، وسعيد بن عمر وقيس بن زيد، كلهم من يهود - وهم السبعة الوحيدون الذين أسلموا من يهود العرب ) - وقالوا: يا رسول الله يوم السبت يوم نعظمه، فدعنا فلنسبت فيه، وإن التوراة كتاب الله فدعنا فننقم بها بالليل، فنزلت: يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة ))؛ فدعا الإسلام مسلماً من باب التورية.

(٢) الآية ٢١٣ قال الزمخشري: (( كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين )) فيه حذف يخل بالمعنى فتداركه عبد الله بقرائه: (( كان الناس أمة واحدة - فاختلوا - فبعث ... )) فإن قلت: متى كان الناس أمة واحدة؟ متفقين على الحق؟ قلت عن ابن عباس: إنه كان بين آدم ونوح عشرة قرون على شريعة الحق فاختلوا. وقيل هم نوح ومن كان معه في السفينة )) .

(٣) الآية ٢١٤ جاء في أسباب النزول عن قتادة: (( نزلت هذه الآية في يوم الأحزاب: أصاب النبي ص. يومئذ بلاء وحصر )) .

(٤) الآية ٢١٥ (( ما أنفقتم من خير فلولو الدين ... )) وفي أسباب النزول، (( أخرج بن جرير عن ابن جريح قال: سأل المؤمنون رسول الله ص. أين يضعون أموالهم فنزلت )) . قال النحاس والآية منسوخة بقوله (( يوصيكم الله في أولادكم )) .

(٥) الآية ٢١٦ (( كتب عليكم القتال وهو كره لكم )) : هذا أول تشريع يفرض القتال في المدينة . وفكرة الجهاد المقدس بالقتال ضد عدو الدين فكرة يهودية تورانية (تثنية ٢٠ : ٨ صموئيل الأول ٢٥ : ٢٨ - ٢٩ وإرميا ١٤ : ٨ ) فتأثر الإسلام بالموسوية في مزج الدين بالقومية، وإقامة الدين بالقتال، وهو يجادل اليهود ويقاتلهم .

قال النحاس في ( الناسخ والمنسوخ ) : (( تكلم فيها ( الآية ٢١٦ ) العلماء والصحابة وغيرهم بأجوبة مختلفة: فقال قوم هي ناسخة لحظر القتال عليهم ولما أمروا به من الصفح والعفو بمكة . وقال قوم هي منسوخة، وكذا قالوا في قوله (( انفروا خفافاً وثقالاً )) والناسخ لهما (( وما كان المؤمنون لينفروا كافة )) . وقال قوم هي على

- (٢) «يسألونك عن الشهر الحرام: قتال فيه؟ - قل قتال فيه كبير» (٢١٧- ٢١٨).
- (٣) «ويسألونك عن الخمر والميسر؟ - قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس» ! (٢١٩).

الندب ، لا على الوجوب . وقال قوم هي واجبة والجهاد فرض ، وهذا هو القول الصحيح . وقال الرازي (٢) : (٢١٣) «اختلف العلماء في هذه الآية أنها تقتضي القتال على الكل . وعن ابن عمر وعطاء أن هذه الآية تقتضي وجوب القتال على أصحاب الرسول في ذلك الوقت فقط بسبب قوله «عليكم» والعمل به مرة واحدة . والإجماع اليوم منعقد على أنه من فروض الكفايات ، إلا أن يدخل المشركون ديار المسلمين فإنه يتعين الجهاد حينئذ على الكل» .

(١) الآية ٢١٧ القتال في الشهر الحرام نزلت في سرية عبد الله بن جحش في الشهر الحرام وإقرار الرسول له في فعله (سيرة ٢ : ٢٥٤) «وهي أولى سرايا النبي بعد الإذن بالقتال» (دروزة : سيرة الرسول ٢ : ٢٦٣) . قال النحاس (٣٠ - ٣١) : «أجمع العلماء على أن هذه الآية منسوخة ، وأن قتال المشركين في الشهر الحرام مباح . غير عطاء فقال إن الآية محكمة ولا يجوز القتال في الشهر الحرام ... وقد قاتل رسول ص. هوازن وثقيفاً بالطائف في ذي القعدة - وهو من الشهر الحرام - وذلك في سنة ثمان من الهجرة» .

(٢) الآية ٢١٩ الخمر . في مكة لما كان الإسلام «أمة واحدة» مع أهل الكتاب كانت الخمر «آية» من آيات الله : «ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذونه منه سكرًا ورزقًا حسنًا إن في ذلك لآية لقوم يعقلون» (النحل ٧٦) . فسّر الجلالان «السُّكْر» بالخمر التي تُسكر . وقد أخذ القرآن التعبير العبراني بحرفه (شُكْر) كما ورد في الكتاب والنبیین . وآية البقرة «فيهما إثم كبير ومنافع للناس» هو تعليم حكمة ابن سيراخ (ف ٣١) : «لا تكن ذا بأس تجاه الخمر فإن الخمر أهلكت كثيرين . الخمر حياة للإنسان إذا اقتصدت في شربها . الخمر من البدء خلقت للانبساط لا للسُّكْر . الخمر ابتهاج القلب وسرور النفس لمن شرب منها في وقتها ما كفى . الشرب بالرفق صحة للنفس والجسد ، والإفراط من شرب الخمر خصومة ونزاع ؛ الإفراط من شرب الخمر مرارة للنفس . السكر يهيج غضب الجاهل لمصرعه ، ويقلل القوة ويكثر الجراح» . وجاء في أسباب النزول : «روى أحمد عن ابن هريرة قال : قدم رسول الله ص. المدينة وهم يشربون الخمر ويأكلون الميسر. فسألوا رسول الله ص. فأنزل الله (الآية ٢١٩ من البقرة) فقال الناس : ما حُرِّم علينا إنما قال «إثم كبير» . وكانوا يشربون الخمر حتى كان يوم صلى رجل من المهاجرين أم أصحابه في المغرب فخلط في قراءته فأنزل الله آية أشد (لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى - آل عمران) ثم نزلت آية أشد من ذلك (إنما الخمر والميسر رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه) قالوا : انتهينا» ! (مائدة) . بعد البقرة امتنع قوم وبقي قوم ؛ وبعد آل عمران امتنعوا عند الظهر وشربوها سائر اليوم صباحاً فمساءً . وامتنعوا نهائياً بعد المائدة (عن النحاس وابن حزم) . واختلف العلماء هل التحريم في قوله «فاجتنبوه» أم في قوله «فهل أنتم منتهون» ؟. والعهد الجديد الذي يبيح الخمر ، يجعل حد السكر من حدّ الزنى فأصحابهما لا يدخلون ملكوت الله : «السكران والزناة لا يدخلون ملكوت الله» : فليس السكر فقط رجس يُجْتَنَّبُ ويُنتَهَى عنه بل هو مثل الزنى يقود إلى النار . وكان تحريم الخمر نكاية باليهود ، وتهذيباً للمسلمين ، اقتداءً برهبان عيسى الذين كانوا يحرمونها على أنفسهم في زمن النبي .

- (٤) (( ويسألونك ماذا ينفقون؟ - قل العفو ))! (٢١٩).
- (٥) (( ويسألونك عن اليتامى؟ - قل إصلاح لهم، وإن تخالطوهم فإخوانكم )) (٢٢٠).
- (٦) (( ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمنن! ولا تنكحوا المشركين حتى يؤمنوا )) (٢٢١).
- (٧) (( ويسألونك عن المحيض؟ - قل هو أذى: فاعتزلوا النساء في المحيض ))! (٢٢٢).
- استطراد: (( فإذا تطهرن فاتوهن من حيث أمركم الله )) (٢٢٢).

(١) الآية ٢١٩ (( العفو )) في النفقة هو الفائض عن الحاجة ، الفضل من الأموال . وقالوا : كان (( العفو )) الزكاة الأولى ، فنسختها الزكاة الأخيرة المفروضة : (( خذ من أموالهم صدقة تركيهم وتطهرهم )) . وقال النحاس ( ٥٣ ) : (( في الآية ثلاثة أقوال : من العلماء من قال إنها منسوخة بالزكاة المفروضة . ومنهم من قال هي الزكاة فهي محكمة ) . ومنهم من قال : هي شيء غير الزكاة لم تنتسخ )) .

(٢) الآية ٢٢٠ حكم كفالة الأيتام بإصلاح أموالهم ومخالطتهم في المأكل والمشرب .

(٣) الآية ٢٢١ (( ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمنن )) قال النحاس ( ٥٦ ) استثنى (( المحصنات من الذين أوتوا الكتاب )) .

(٤) الآية ٢٢٢ (( اعتزلوا النساء في المحيض )) . قال الزمخشري : (( الطهر انقطاع دم المحيض ، والتطهر الاغتسال ) . فاعتزلوا النساء ) أي اجتنبوهن يعني مجامعتهن . روي أن أهل الجاهلية كانوا إذا حاضت المرأة لم يؤكلوها ولم يشاربوها ولم يجالسوها على فرش ولم يُساكنوها في بيت كفعل اليهود والمجوس . وقيل إن النصارى كانوا يجامعوهن ولا يباليون في الحيض ، واليهود كانوا يعتزلوهن في كل شيء : فأمر الله بالاقتصاد بين الأمرين )) . وهذا مثال آخر على التشريع الوسط (( للأمة الوسط )) . واعتزال النساء في الحيض عادة توراتية ( أحبار ٨ : ١٩ ؛ و ١٥ : ٢٤ خروج ٢١ : ٨ - ١١ ) تأثرت بها البيئة الحجازية كما تأثرت في كثير من الطقوس والعادات المتنوعة كالختان والتطهير من الجنابة ، ويوم العروبة - وهو يوم الجمعة كيوم السبت - وغير ذلك )) ( دروزة : عصر النبي ٤٤٠ ) .

وقال النحاس ( ٥٩ ) : (( أدخلت هذه الآية في الناسخ والمنسوخ لأنه معروف في شريعة بني إسرائيل أنهم لا يجتمعون مع الحائض في بيت ، ولا يأكلون معها ولا يشربون . فنسخ الله ذلك من شريعتنا وأمرنا أن نأكلهن ونشاربهن ونصنع كل شيء إلا النكاح ، كما قالت عائشة : يحل منها كل شيء إلا الفرج . ولذا قالت اليهود : وما يريد محمد أن يدع شيئاً من أمرنا إلا خالفناه فيه )) .

(٥) الآيتان ٢٢٢-٢٢٣ في مجامعة النساء: الآية ٢٢٢ (( فاتوهن من حيث أمركم الله )) نُسخت بناءً على احتجاج عمر والصحابة بالآية ٢٢٣ (( نساؤكم حرث لكم : فاتوا حرثكم أنتم سئتم )) . قال السيوطي في ( أسباب النزول ) : (( كان من أمر أهل الكتاب لا يأتون النساء إلا على حرف ، وذلك أستر ما تكون المرأة . وكان هذا الحي من الأنصار قد أخذوا بذلك . وكان هذا الحي من قريش ( المهاجرين ) يشرحون النساء شرخاً ويتلذذون منهن مقبلات ومدبرات ومستلقيات . فلما قدم المهاجرون المدينة تزوج رجل منهم امرأة من

- ثم نسخه: (( نساؤكم حرث لكم: فأتوا حرثكم أنى شئتم )) (٢٢٣).

(٨) (( ولا تجعلوا الله عرضة لأيمانكم ... )) (٢٢٤).

فتحرّجوا فنزل التخفيف (( لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم )) (٢٢٥).

\*

### فصل حادي عشر: أحكام الطلاق (٢٢٦ - ١٤٢).

حكم ١ - قَسَمَ الرجل على المفارقة: عليه (( تربص أربعة أشهر<sup>١</sup> )) يرجع فيها أو بعدها عن اليمين إلى الوطء (٢٢٦ - ٢٢٧).

الأنصار فذهب يصنع بها كذلك . فأنكرت عليه وقالت : إنما كنّا نؤتى على حرف . فسرى أمرهما فبلغ ذلك رسول الله . وأخرج أحمد والترمذي عن ابن عباس قال : جاء عمر إلى رسول الله ص. فقال : يا رسول الله هلكتُ . قال : وما هلكك ؟ قال: حولتُ رحلي الليلة . فلم يرد عليه شيئاً ، فأنزل الله هذه الآية ( نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم ) أي مقبلات ومدبرات ومستلقيات ، يعني بذلك موضع الولد . وأخرج الطبراني في ( الأوسط ) بسند جيد قال : إنما نزلت رخصة في إتيان الدبر! والسبب في نزول الآية مشهور . .  
ولاحظ واقعية التعبير القرآني : النساء « حرث » للرجل في الجماع ( ٢٢٢ ) - ومجامعتهن « رفث » يصزّن به « لباساً » « هن لباس لكم وأنتم لباس لهن » ( ١٨٧ ) وهذه هي المباشرة في قوله « والآن بأشروهن » ( ١٨٧ ) وهو الزاق البشرة بالبشرة » ( البيضاوي ).

لا تجد هذا التصوير الواقعي في الإنجيل! - ولا هذا التجاوب مع الصحابة في رغباتها وشهواتها: كان اليهود يبيحون الطلاق لعدة ، فحرمه المسيح وأمر بوحدة الزواج ، فكان أول من احتجّ صحابته الرسل الحواريون : « إن كانت هذه حال الرجل مع امرأته فالأولى له أن لا يتزوج . فقال لهم من استطاع أن يقبل بهذا فليقبل به » ( متى ١٩ : ١ - ١٢ ) .

(١) الآية ٢٢٤ (( ولا تجعلوا الله عرضة لأيمانكم )) قال الجلالان (( بأن تكثرُوا الحلف به )) . فتحرّجوا فنزلت (( لا يؤاخذكم باللغو في أيمانكم )) وهو ما يسبق إليه اللسان من غير قصد الحلف نحو : لا والله ! وبلى والله ! فلا إثم عليه ولا كفارة )) . قال النحاس أيضاً : (( وأخرج الأئمة الخمسة من رواية الحسن البصري الحديث : إذا حلفت على يمين ، ورأيت غيرها خيراً منها ، فأأت الذي هو خير ، وكفر عن يمينك )) : والإنجيل يقول : (( سمعتم أنه قيل للأولين : لا تحنث بل أوف للرب بأيمانك ! أما أنا فأقول لكم : لا تحلفوا البتة ! فليكن كلامكم : نعم ! نعم ! ولا ! لا )) ( متى ٥ : ٣٣ - ٣٧ ) .

(١) في الشريعة الأولى للطلاق ( ٢٢٦ - ٢٢٨ ) يطلب التريث في التنفيذ ، أربعة أشهر عند الرجل الذي يقسم عليه ثم ثلاثة أشهر عند المطلقة . ويشرع بأن (( بعولتْهن أحق بردهن إن أرادوا إصلاحاً )) . ويفرض المعاملة بالمثل بين الزوجين في الواجبات مع تفضيل الرجل في الحقوق . وذلك للحد من طغيان موجة الطلاق وإباحته بين العرب .

وفي الآية ٢٢٦ تطور على ما في التوراة : (( لم تخط عنده لعيب أنكره عليها )) يعطيها كتاب طلاق وتخلّى ( تث ٢٤ : ١ ) .

حكم ٢- **عدة المطلقة:** (( والمطلقات يتربصن بانفسهن ثلاثة قرء )) (٢٢٨).  
ثم يضيف: (( وبعولتهن أحق بردهن في ذلك إن أرادوا إصلاحاً )) (٢٢٨).  
ويقول: (( ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف وللرجال عليهن درجة<sup>٣</sup> )) (٢٢٨).

(١) الآية ٢٢٨ (( ثلاثة قرء )) الأصل فيها (( ثلاثة أقرأ أو أقرأ )) : قال النحاس (( اختلف العلماء في الأقرأ فقالوا فيها ثلاثة أقوال : العرب تسمى القرء الطهر ، والحيض قرءاً ، والطهر مع الحيض قرءاً . والقول الثالث هو المفضل . قالوا هذا بشيء من القرآن ومن الإجماع ومن السنة ومن القياس . وعن ابن عباس وقتادة أنها نسخت بأية الأحزاب ، وعن غيرهما أنه زاد عليها استثناءً وتبييناً لحالة الطلاق قبل المس : (( يا أيها الذين آمنوا إذا نكحتم المؤمنات ثم طلقتموهن من قبل أن تمسوهن لما لكم عليهن من عدة تعتدونها )) (أحزاب). (( وأولات الحمل أجلهن أن يضعن حملهن )) . فلم يرد بالإقراء الثلاثة الحوامل ولا اللواتي لم يدخلن بهن )) (الناسخ والمنسوخ ٦٢- ٦٣) .

قال الجلالان : (( والمطلقات ينتظرن عن النكاح ثلاثة قرء ، وهذا في المدخول بهن ، أما غيرهن فلا عدة عليهن لقوله )) فما لكم عليهن من عدة )) . وفي غير الأيسة والصغيرة ، فعدتهن ثلاثة أشهر . والحوامل فعدتهن قرءان بالسنة (( التي تنسخ القرآن في هذا الحكم والمرضع عدتها حولان كاملان . واستثنت السنة من هذا الحكم أيضاً الأمة ( الإتيان ٢ : ١٦ ) : جاء في الحديث (( طلاق الأمة تطليقتان ، وعدتها حيضتان )) . قال الرسول (( دعي الصلاة يوم أقرانك ثم اغتسلي وصلي )) .

والإقراء الثلاثة شريعة تلمودية قائمة بين العرب (( التربص تسعين يوماً )) .  
(٢) العدة وإرجاع المطلقة : في أسباب النزول نرى أن التشريع ينزل حسب ظروف الجماعة : (( أخرج أبو داود وابن أبي حاتم عن أسماء الأنصارية قالت : (( طلقْتُ على عهد رسول الله ص . ولم يكن للمطلقة عدة فأنزل الله عدة الطلاق .

(( وذكر الثعلبي أن إسماعيل الغفاري طلق امرأته قتيبة ولم يعلم بحملها ثم علم فراجعها فولدت فماتت ومات ولدها فنزلت (( يتربصن ثلاثة قرء )) .

والآية (( وبعولتهن أحق بردهن في ذلك )) وقد تكون مقيدة في حال الحمل ؛ وقد تكون مُطلقة توافق عادة القوم في إرجاع المطلقة إن أرادوا إصلاحاً . ولذلك نسخ القرآن إباحة العرب في ذلك ، ونسخ شريعته الأولى الموافقة لإباحة الإرجاع ، بالشرعية الثانية (( الطلاق مرتان ... أو تسريح بإحسان )) ( عن النحاس ) .  
(٣) آخر الآية ٢٢٨ (( ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف ؛ وللرجال عليهن درجة )) تذكر مساواة بين الرجل والمرأة: فأية مساواة ؟ - قال الجلالان : (( ولهن مثل الذي عليهن من الحقوق بالمعروف شرعاً من حسن العشرة وترك الأضرار ونحو ذلك ، وللرجال عليهن فضيلة في الحق من وجوب طاعتهم لهم لما ساقوه من المهر والإنفاق )) - إذن شبه مساواة في الحياة الزوجية التي يظل الفضل فيها أيضاً للرجل . قال البيضاوي: (( لهن حقوق على الرجال مثل حقوقهم عليهن في الوجوب ، واستحقاق المطالبة عليها ، لا في الجنس . وحقوقهن المهر والكفاف وترك الضرر ونحوها )) إذن ليس من مساواة في الجنس ، بل في الحقوق الزوجية. قال الزمخشري : (( والمراد بالمماثلة ماثلة الواجب في كونه حسنة ، لا في جنس الفعل ؛ فلا يجب عليه إذا غسلت ثيابه

حكم ٣ - «الطلاق مرتان فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان» (٢٢٩).

حكم ٤ - مصير المهر أو الصداق في الطلاق: «ولا يحل لكم أن تأخذوا مما آتيتموهن شيئاً» (٢٢٩).

ويضيف: «ولا جناح عليهما فيما افتدت بها نفسها» (٢٢٩).

أو خيزت له أن يفعل نحو ذلك ، ولكن يقابله بما يليق بالرجال . (درجة) أي زيادة في الحق وفضيلة . قيل تنال من اللذة ما ينال الرجل ؛ وله الفضيلة بقيامه عليها وإنفاقه في مصالحها . . - إذن حتى في الحقوق الزوجية للرجل زيادة في الحق والفضيلة لأنه قيم عليها ، وينفق في مصالحها . فالآية القرآنية لا تعني المساواة (في الجنس) ، ولا في الحياة الاجتماعية ، حتى ولا في الحياة العائلية ، اللهم إلا في بعض الحياة الزوجية . وأربع شرائع قرآنية تقضي على المساواة إلى الأبد : في الحقوق الزوجية «للرجال عليهن درجة» ، في الحياة الاجتماعية «الرجال قوامون على النساء» ، في القضاء «شهادة رجل وامرأتين» ، وفي الميراث «حظ الذكر مثل حظ الأنثيين» .

(١) الآية ٢٢٩ جاء في حديث أبي رزين : يا رسول الله «الطلاق مرتان» فأين الثالثة؟ قال «تسريح بإحسان» . الطلاق بمعنى التطلق : في لغة العرب يأتي الاسم أو المصدر بمعنى الفاعل أو المفعول ، وتدل عليه القرائن .

جاء في (أسباب النزول) للسيوطي عن عائشة : «كان الرجل يطلق ما شاء ، وكلما همت العدة راجعها فذهبت امرأة فأخبرت النبي ص . فسكت حتى نزل القرآن «الطلاق مرتان ...» . وقال الزمخشري: «عند أبي حنيفة وأصحابه الجمع بين التطلقين والثلاث بدعة ، والسنة أن لا يوقع إلا واحدة في طهر لم يجامعها فيه . وعند الشافعي لا بأس بإرسال الثلاثة» . قال النحاس : «الطلاق مرتان : اختلف العلماء فيها فمنهم من جعلها ناسخة كما كان في الجاهلية وأول الإسلام من إباحة الطلاق والرجعة ، فجعل حد الطلاق ثلاثاً وجعل له الرجعة ما لم تطلق ثلاثاً . ومنهم من جعلها منسوخة بقوله «ومطلقوهن لعدتهن» . ومنهم من جعلها محكمة ، وافترق القول فيها على ثلاث جهات» . وهكذا فالآية ٢٢٩ ناسخة بالإجماع للشريعة الأولى ٢٢٧ وهي منسوخة بالشريعة الثالثة (في سورة الأحزاب) على قول بعضهم .

وقوله «تلك حدود الله فلا تعتدوها ، ومن يتعد حدود الله فأولئك هم الظالمون» : لماذا قلب (تعتدوها) من (تتعدها) كما استقام بعدها؟ ولماذا بعد القلب عداها لنفسها وهي تتعدى بالحرف؟ ولماذا عدل عن الفرد الدال على الجنس (من يتعد) إلى لفظ الجمع (فأولئك هم)؟  
(٢) الآية ٢٢٩ شريعة إرجاع المهر أو الصداق إلى المطلقة شريعة تلمودية أيضاً نصها «تزد لها الخطوبة» (يب ٦٣) .

(٣) الآية ٢٢٩ تشرع الخلع الذي كان قائماً أي أن تقتدي المرأة نفسها بمهرها ليلطقتها زوجها : «لا حرج على الزوج في أخذه ولا حرج على الزوجة في بذله» (الجلالان) . ويرى بعضهم أن آية الخلع قد نسخت في آية النساء: «وإن أردتم استبدال زوج مكان زوج ، وآتيتهم إحداهن قنطاراً فلا تأخذوا منه شيئاً : أتأخذونه بهتاناً وإثماً مبيناً» . وقال قوم هما محكمتان لاختلاف الحال» (النحاس) .

حكم ٥ - الطلاق المبرم: (( فإن طلقها ( ثالثة ) فلا تحل له حتى تنكح زوجاً غيره<sup>١</sup> )) (٢٣٠)

حكم ٦ - إرجاع المطلقة بالثلاثة: (( فإن طلقها ( الزوج الجديد ) فلا جناح عليهما أن يتراجعا )) (٢٣٠).

حكم ٧ - معاملة المطلقة عند أجل العدة: (( إذا بلغن أجلهن ( أي أجل عدتهن ) فأمسكوهن بمعروف، أو سرّوهن بمعروف. ولا تمسكوهن ضرراً لتعتدوا<sup>٢</sup> )) (٢٣١).

حكم ٨ - تسهيل زواج المطلقة: (( وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن فلا تعضلوهن أن ينكحن أزواجهن إذا تراضوا بينهم بالمعروف )) (٢٣٢).

- الآيات ٢٣٣ - ٢٣٧ مقحمة لاستكمال شريعة الطلاق؛ يدل على ذلك اختلاف الفاصلة.

حكم ٩ - الرضاعة: (( والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين<sup>٣</sup>.

وعلى المولود له رزقهن وكسوتهن بالمعروف )) (٢٣٣).

(١) ٢٣٠ (( ولا تحل له حتى تنكح زوجاً غيره )) . كانت التوراة قد حرمت ذلك : (( ليس لبعثها الأول الذي طلقها أن يعود ويأخذها لتكون له زوجة بعد ما تدنست : فإن ذلك رجس لدى الرب )) ( تث ٢٤ : ٣ - ٤ وإرميا ٣ : ٢ ) . فأباح القرآن الشريعة التوراتية ، ولكن شرط لها النكاح الصحيح مع زوج غير زوجها - ولكن هذا النكاح المشروط بألغى فقط أم بالوطء أيضاً ؟ قال الزمخشري : (( حتى تنكح أي حتى تتزوج . وقد تعلق من اقتصر على العقد في التحليل بظاهره ؛ والذي عليه الجمهور أنه لا بد من الإصابة )) . وقال الجلالان : (( لا يجوز إرجاع المطلقة بالثلاثة حتى تتزوج زوجاً غير زوجها ويطؤها ، كما في الحديث ، رواه الشيخان )) . وهكذا جاءت شريعة الطلاق القرآنية وسطاً بين المسيحية التي تحرم الطلاق وبين الموسوية التي تبيحه بلا حد ، شرعاً وسطاً يليق بالأمة الوسط : أباح الطلاق ولكنه وضع له حدوداً ، وهو في ذلك تطور على التوراة بتأثير المسيحية .

(٢) الآية ٢٣١ تمنع إمساك المطلقة ضرراً ، بإعادة التطليق ، وتطويل الحبس ، والإلجاء إلى الفدية .

(٣) الآية ٢٣٣ الرضاعة (( حولان كاملان )) شريعة تلمودية كانت قائمة ، وتمنع المطلقة من عقد زواج جديد قبل إتمام الرضاعة حولين كاملين - وفي قوله : (( وعلى الوارث مثل ذلك )) قال النحاس : (( منهم من قال إنها منسوخة مثل مالك بن أنس ولم يبين ما الناسخ . ومنهم من قال هي محكمة وفي بيانه ستة أقوال )) .

حكم ١٠ - عدة الأرملة: يتربص بأنفسهن أربعة أشهر وعشراً (( (٢٣٤).

حكم ١١ - خطبة المطلقة في عدتها: (( لا جناح من خطبة النساء، ولكن لا تواعدوهن سراً، ولا تعزموا عقدة النكاح حتى يبلغ الكتاب أجله )) (٢٣٥).

حكم ١٢ - متعة المطلقة بدون مسّ: إذا لم يفرض لها شيء، فمتعوها بالمعروف (٢٣٦).

وإذا فرض لها شيء فنصف الفريضة؛ إلا أن يعفون، أو يعفو الذي بيده عقد النكاح<sup>٢</sup> (٢٣٧).

آيات الصلاة (٢٣٨- ٢٣٩) مقحمة تقطع السياق.

حكم ١٣ - الوصية للأرملة، متاع إلى الحول، غير إخراج (٢٤٠) نسختها الآية<sup>٤</sup> (٢٣٣).

حكم ١٤ - نفقة المطلقة في عدتها - متاع بالمعروف (٢٤١) كما بينته الآية (٢٣٣).

ختام الفصل في الطلاق: (( كذلك يبيّن الله لكم آياته لعلكم تعقلون )) (٢٤٢).

\*

(١) الآية ٢٣٤ عدة الأرملة ((أربعة أشهر وعشراً)) قيل إنها ناسخة للآية ٢٤٠ اللاحقة: ((متاعاً إلى الحول غير إخراج)) وهذا من غريب الناسخ والمنسوخ. قال ابن حزم: ((وليس في كتاب الله آية تقدم ناسخها على منسوخها إلا هذه وآية الأحزاب - إنّنا أحلنا لك -)). ويضيف (الإتقان ٢: ٢٤) آية الفيء في سورة الحشر المنسوخة بآية (الأنفال) المتقدمة عليها.

(٢) الآية ٢٣٥ تذكر كتاب الطلاق، ولا تفصله مثل التوراة، كما ينقل الإنجيل (متى ١٩: ٧).

(٣) الآية ٢٣٦ متعة المطلقة دون مسّ ولا فريضة محدودة. قال النحاس: ((لقد اختلفوا فيها فمنهم من قال هي محكمة، واجبة. ومنهم من قال هي مندوب لها. ومنهم من قال قد أخرج منها شيء. ومنهم من قال هي منسوخة. وعن قتادة كانت المتعة واجبة لمن لم يدخل بها (في الأحزاب): ((ثم طلقتموهن من قبل أن تمسوهن فما لكم عليهن من عدة تعتدونها فمتعهن)) فهذا إيجاب المتعة. ثم نسختها الآية في البقرة: ((وقد فرضتم لهن فريضة فنصف ما فرضتم)). وهذا أيضاً من غريب الناسخ (آية البقرة) الذي يتقدم على المنسوخ (آية الأحزاب). وهذا يدل على أن صالح الجماعة هو الذي يعين المنسوخ أكثر من القرآن أحياناً.

(٤) الآية ٢٤٠ تشرع وصية للأرملة، متاعاً إلى الحول، والآية ٢٤١ النفقة في ترميها؛ ونسخهما معاً بآية الميراث: ((ولهن الربع مما تركتم إن لم يكن ولد، فإن كان لكم ولد فلهن الثمن مما تركتم)): فبين الميراث وترك النفقة والوصية. قال الجلالان ((والوصية المذكورة منسوخة بآية الميراث، وتربص الحول بآية أربعة أشهر وعشراً، السابقة المتأخرة في النزول)) والوصية للأزواج منسوخة بالسنة: لا وصية لوأرث. ((واختلفوا في نفقة الأرملة الحامل، فأكثر العلماء أنه لا نفقة لها ولا سكن، وممن قال بالنفقة من رأس المال علي بن أبي طالب، وقد حسمتها آية الميراث)) (عن النحاس).



فصل ثانى عشر: حكم الصلاة<sup>١</sup> (٢٣٨- ٢٣٩).

- (١) عدد الصلوات: (( حافظوا على الصلوات، والصلاة الوسطى<sup>٢</sup> )) (٢٣٨).  
(٢) صلاة الخوف: (( فإن خفتم فرجالاً أو ركبانا. فإذا أمنتم فانكروا الله كما علمكم<sup>٣</sup> )) (٢٣٩).

\*  
\* \*

**القسم الثالث من البقرة**

**تحريض على الجهاد<sup>٤</sup> (٢٤٣- ٢٧٤).**

**مطلع:** الدعوة إلى الجهاد بالنفس (٢٤٤) والمال (٢٤٥).

فصل أول: ترغيب في الجهاد بالنفس (٢٤٣ و ٢٤٦- ٢٥٣).

- (١) قصة حرق قبال مع جماعة من بني إسرائيل أماتهم الله ثم أحياهم تأديباً لهم لخوفهم من الموت<sup>٥</sup> (٢٤٣).

---

(١) حكم الصلاة مقم بين أحكام الطلاق، ولا مبرر لإقحامه!  
(٢) الآية ٢٣٨ كانت الصلاة تقتصر طيلة العهد بركة على صلاة الغداة وصلاة العشاء، مع إقامة الليل نافلةً. ومنذ مطلع العهد بالمدينة تصير الصلاة نهائية، وتزيد بالصلاة الوسطى (( وهي العصر أو الصبح أو الظهر أو غيرها، أقوال مختلفة؛ وأفرادها بالذكر لفضلها )) (الجلالان). ونظن أن اسمها (الوسطى) يدل على أنها متوسطة بين صلاة الغداة وصلاة العشاء، وهي صلاة الظهر، جاء في أسباب النزول (( إن النبي كان يصلي الظهر بالهاجرة، وكانت أثقل الصلوات على أصحابه، فنزلت (( حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى )) . قال النحاس: (( وقوله ( قوموا لله قانتين ) أي طائعين نسخت الكلام في الصلاة )) : في الحديث (( كنا نتكلم في الصلاة حتى نزلت فأمرنا بالسكوت ونهينا عن الكلام . رواه الشيخان )) .  
(٣) الآية ٢٣٩ صلاة الخوف: لها مثلها في الزبور: (( حمدُ الله في أفواههم، وسيوف ذات حدين في أيديهم )) (مزمور ١٤٩: ٦) .  
(٤) التحريض على الجهاد: كانت السور المكية تنتهي بذكر الآخرة، فصارت السور المدنية تنتهي بذكر العاجلة والتحريض فيها على الجهاد، كأنه صفة الحياة الحاضرة الكبرى .  
(٥) الآية ٢٤٣ (( وهم أوف حذر الموت )) قال الجلالان: (( هم قوم من بني إسرائيل وقع الطاعون ببلادهم ففروا فماتوا ثم أحياهم الله بعد ثمانية أيام أو أكثر بدعاء نبيهم حزقيال )) . الكتاب يجهل هذه المعجزة

(٢) قصة شموئيل في تملك طالوت على بني إسرائيل (٢٤٦- ٢٥٢).

وقالوا لنبي لهم: ابعث لنا ملكاً نقاتل في سبيل الله<sup>١</sup> ... (( (٢٤٦).

(( وقال لهم نبيهم: إن الله قد بعث لكم طالوت ملكاً عليكم<sup>٢</sup>.

(( وقالوا: أتى يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه<sup>٣</sup>.

(( وقال لهم نبيهم: إن آية ملكه أن يأتيكم التابوت<sup>٤</sup> فيه سكينه من ربكم<sup>٥</sup>، وبقيته مما ترك

آل موسى وآل هارون<sup>٦</sup>، تحمله الملائكة<sup>٧</sup> (٢٤٨).

الخارقة. ونبوة حزقيال ( ٣٧ : ١ - ١٤ ) رؤيا رمزية على قدرة الله القادر على إحياء آمال بني إسرائيل وردّهم من المنفى فهو الذي يحيي العظام وهي رميم . فصارت في التلمود والمدراش معجزة واقعة انتقلت إلى القرآن . (١) الآية ٢٤٦ يجهل القرآن اسم هذا النبي العظيم المشهور: صموئيل ( صموئيل الأول ٩ : و ١٠ : ٢٧ ).

وقوله (( من بعد موسى إذ قالوا لنبي لهم )) : كأنه لا فاصل زمني بينهما ، وبينهما نحو ثلاثماية سنة ونيف . والحوار بين بني إسرائيل وشموئيل : (( وما لنا لا نقاتل في سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا وأبائنا )) : لا تذكر التوراة في زمن شموئيل نفياً لبني إسرائيل أو سبياً ، وسفر صموئيل يقول فقط : (( ثم رأيتم أن حاش ملك بني عمون صاعد عليكم فقلتم لي : كلا بل ليملك علينا ملك )) ! ( صموئيل الأول ١٢ : ١٢ ) .

وقابل آية البقرة ٢٤٧ مع ١ صموئيل ٨ : ٥ - ٢٠ .

(٢) الآية ٢٤٨ (( قد بعث لكم طالوت ملكاً )) : اسمه في التوراة شاول ، فهل تحرف عن طريق الكلدانية والأرامية حتى وصل إلى الحجاز على هذه الصورة ؟

(٣) الآية ٢٤٨ (( قالوا أتى يكون له الملك علينا )) ؟ والتوراة تنص : (( فهتف الشعب كلهم وقالوا : ليحيى الملك ! وأما بنو بليعال فقالوا : كيف يخلصنا هذا ؟ وازدروه )) ! ( ١ صموئيل ١٠ - ٢٤ - ٢٧ ).

(٤) الآية ٢٤٨ (( إن آية ملكه أن يأتيكم التابوت )) : التوراة تنص على أن التابوت آية موسى ومن زمن موسى قبل صموئيل وطالوت بثلاثماية سنة ونيف ( خروج ٢٥ : ٧ ) .

(٥) الآية ٢٤٨ (( فيه سكينه من ربكم )) سكينه تعريب العبراني (( شخينه )) أي الحضرة الإلهية في التابوت ( خروج ٢٥ : ٢٢ ) فانظر كيف فهموها : (( اختلفوا في معنى السكينه : عن علي بن أبي طالب هي ریح خجوج هفافة لها رأسان ووجه كوجه الإنسان ، وعن جاهد هي شيء يشبه الهرة له جناحان . وعن ابن عباس هي طشت من ذهب الجنة كان يُغسل فيه قلوب الأنبياء . قال وهب هي روح من الله ، تنتبأ لهم . وقال قتادة الكلبي هي فعيلة من السكون أي طمانينة )) . فتأمل !

(٦) الآية ٢٤٨ (( وفيه بقيته مما ترك آل موسى وآل هارون )) : هل هما قبيلتان ، وموسى وهارون أخوان ؟ والتوراة تقول : كان فيه لوحى الوصايا والعهد ( خروج ٢٥ : ١٦ و ٢١ ) ؛ والرسالة إلى العبرانيين قد فصلت هذه (( البقية )) : (( وتابوت العهد المغشى بالذهب من كل جهة ، وفيه إناء من الذهب فيه المن وعصا هارون التي أوركنت ، ولوحا العهد )) ( عبر ٩ : ٤ ) .

(٧) الآية ٢٤٨ (( تحمله الملائكة )) قد يكون تقليداً تلمودياً ، فالتوراة تنص على أن اللاويين من بني هارون هم حملة التابوت .

(( فلما فصل طالوت بالجنود قال: إن الله مبتليكم بنهر، فمن شرب منه فليس مني<sup>١</sup> )) (٢٤٩).

(( ولما برز لجالوت وجنوده ... وقتل داود جالوت (٢٥٠- ٢٥١).

**ختام القصة:** (( ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ... تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق! وإنك لمن المرسلين<sup>٢</sup> )) (٢٥١- ٢٥٢).

\*

فصل مقحم: المفاضلة بين الرسل<sup>٣</sup>، واختلاف أهل الكتاب ( الآية ٢٥٣).

\*

فصل ثان: ترغيب في الجهاد بالمال ( ٢٥٤ ثم ٢٦١- ٢٧٤ ).

**مطلع:** دعوة المؤمنين إلى الإنفاق (٢٥٤).

\*

( هنا تقطع السياق ) **سورة مستقلة مقحمة** ( ٢٥٥- ٢٦٠ ) توحيد (( الحي القيوم ))

**مطلع:** الله هو الحي القيوم<sup>٥</sup> (٢٥٥).

(١) الآية ٢٤٩ الابتلاء بالشرب من النهر هو في القرآن آية لطالوت ( شاوول ) ، وهو في التوراة آية لجدعون وقومه ( سفر القضاة ٧ : ٥ - ٧ ) وبين الإثنين نحو منتي سنة ( ١ صموئيل ١٧ ).

(٢) الآية ٢٥١ (( تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق )) : قصة طالوت ( شاوول ) في القرآن تختلف عن التوراة ؛ ما تلاها محمد بذاته في الكتاب ، ولا خطها بيمينه ، بل وصلته عن طريق التلمود بالسماع ، والسماع مدعاة للنسيان والسهو.

(٣) الآية ٢٥٣ الإقحام ظاهر نظماً ( بتغيير الفاصلة ) وموضوعاً بإقحام مبدأ المفاضلة : هنا يضع القرآن مبدأ المفاضلة بين الرسل ؛ وفي غير موضع يقول (( لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون )) .

من عنى بقوله: (( ورفع بعضهم درجات )) ؟ جاء في الجلالان : (( قالوا : محمداً )) . والآية تذكر الرفع في الدرجة بين موسى وعيسى فلا محل لمحمد بينهما ؛ وبما أنه يذكر للمرة الثانية تمييز عيسى وانفراده بالبينات وتأييد الروح القدس ، فالمقصود بهذا الفضل عيسى ( الآية ٢٥٣ مثل الآية ٨٧ ) كما أن المقصود بفضل التكليم موسى : وكان المبدأ وُضع للمفاضلة بين عيسى وموسى ، فلم يفاضل القرآن بينهما ، بل أظهر ميزة كل منهما .

(٤) الآيات ٢٥٥ - ٢٦٠ هذه السورة المستقلة بتوحيدها وقصصها وحديث البعث ، من الإقحامات الشاذة على هذه السورة : وهي تقع بين دعوة عامة متواصلة إلى الجهاد بالنفس والمال . وهنا تقطع حديث الإنفاق بالمال بين الآية ٢٥٤ والآية ٢٦١ .

(٥) الآية ٢٥٥ (( الحي القيوم )) : اسم الجلالة الكتابي الأعظم ورد بلفظه في سفر دانيال ( ١٢ : ٧ ) وأخذه بلفظه من السريانية ( الإتيان ١ : ١٤٠ ) ؛ قد لا يظهر في مكة ، وتمتاز بذكره السور المدنية ( البقرة ، آل عمران ) وهو توحيد إيجابي يكشف عن ذات الله ، بينما التوحيد المكي ضد الشرك كان سلبياً : (( لا إله إلا الله )) وهذا أيضاً انفعال ديني بالبيئة التي يقاومها سياسياً : وهذه ظاهرة تاريخية متواترة : من يغلب عسكرياً قد ينغلب ثقافياً كما جرى للرومان والعرب أنفسهم .

- (١) توحيد (٢٥٥- ٢٥٧) التوحيد هو العروة الوثقى! كرسيه دليل على عظمته!  
 (٢) قصص التوحيد: - قصة إبراهيم ونمرود<sup>٢</sup> (٢٥٨).  
 - قصة عزيز في أورشليم<sup>٣</sup> (٢٥٦).  
 - معجزة الطير تري إبراهيم كيف يحيي الله الموتى<sup>٤</sup> (٢٦٠).

\*

( يتابع التحريض ) الإنفاق بلا من ولا أدى (٢٦١- ٢٦٦).

الإنفاق بلا من ولا أدى كمثل حبة أنبتت سبع سنابل<sup>٥</sup> (٢٦١- ٢٦٣).

- (١) الآية ٢٥٥ « وسع كرسيه السماوات والأرض » ! في الجلالين « ! قيل أحاط علمه بها . وقيل الكرسي نفسه مشتمل عليهما لعظمته ، لِحديث : ما السماوات في الكرسي ، إلا كدارهم سبعة ألقيت في ترس! » . قال اليهود لما سمعوا الآية : هذا الكرسي ! فكيف بالعرش !؟  
 الآية ٢٥٦ « لا إكراه في الدين » ! قال النحاس ( في الناسخ والمنسوخ ٨٠ ) : « اختلف العلماء في قوله ( لا إكراه في الدين . فقال بعضهم : هي منسوخة لأن النبي ص. قد أكره العرب على دين الإسلام وقتلهم ولم يرضَ منهم إلا الإسلام ؛ وقد نسختها الآية ( يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين ) : استأذن الله بقتالهم فأذن له - وقال بعض العلماء : ليست بمنسوخة ولكن هي مخصوصة ، نزلت في أهل الكتاب لا يكرهون على الإسلام إذا أتوا الجزية ، والذين يكرهون هم أهل الأوثان ، فهم الذين نزل فيهم ( يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين . وقول ابن عباس هو أولى الأقوال لصحة إسناده ، وإن مثله لا يؤخذ بالرأي » .  
 في أسباب النزول : وأخرج ابن جرير عن ابن عباس أيضاً قال : نزلت في رجل من الأنصار من بني سالم بن عوف ، يقال له الحصين ، كان له ابنان نصرانيان ، وكان هو مسلماً ؛ فقال للنبي ص.: ألا استكرههما ؟ فإنهما أبيا إلا النصرانية . فأنزل الله الآية ( لا إكراه في الدين ) .  
 (٢) الآية ٢٥٨ لا تذكر التوراة مثل هذا الحجاج ؛ وتجده في التلمود بحرفه ( مدراش رباح ١٧ على التكوين ١٥ : ٧ ومدراش هاجدل ١١ : ٢٨ ) . ثم إن التوراة تجعل نمرود قبل إبراهيم بأجيال : ( تكوين ١٠ : ١ - ١٠ ) .  
 (٣) الآية ٢٥٩ من هود « الذي مرَّ على قرية وهي خاوية فأماته الله مئة عام ثم بعثه ، وبعث أمامه حمارة الذي قضى معه منذ مئة عام ؟ - قيل هو عزيز ! القرآن يذكر قصته ولا يسميه . والكتاب يجهل هذه القصة . والمدراش اليهودي أكثر منها ليثبت بقصصه الأسطوري أن « عزيز هو ابن الله » ( توبة ٣١ ) مات وقام لا المسيح .  
 (٤) الآية ٢٦٠ معجزة إحياء الطير دليل البعث لإبراهيم . هي في التوراة ذبيحة لختم العهد والميثاق بين الله وإبراهيم حيث الأربعة من الطير هي عجلة وعنزة وكبش ويمامة . ( تكوين ١٥ ) فصارت في المدراش معجزة لإثبات البعث ( مدراش هاجدل ١٥ : ١٧ ) حتى وصلت الحجاز والقرآن .  
 (٥) الآية ٢٦١ « كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبل مئة حبة » موجز لمثل الزرع في الإنجيل ( متى ١٣ : ٤ - ٩ ) .

- الإِنْفَاقُ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى أَي بِالرِّيَاءِ كَمَثَلِ صَفْوَانَ<sup>١</sup> (٢٦٤).  
 الإِنْفَاقُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ كَمَثَلِ جَنَّةِ بَرَبُوءَةَ<sup>٢</sup> (٢٦٥- ٢٦٦).  
 (٢) **الإِنْفَاقُ بِإِخْلَاصٍ حَكْمَةٌ لَا فَقْرَ** (٢٦٧- ٢٧١).  
 - الإِنْفَاقُ بِإِخْلَاصٍ مِنَ الْكَسْبِ وَالزَّرْعِ (٢٦٧).  
 - الشَّيْطَانُ يَعِدُّكُمْ الْفَقْرَ بِالْإِنْفَاقِ وَالصَّدَقَاتِ (٢٦٨).  
 - الإِنْفَاقُ حَكْمَةٌ، ظَهَرَ أَمَّ خَفِيَ (١٦٠- ٢٧١).  
 (٣) **الإِنْفَاقُ خَيْرٌ لِلنَّفْسِ** (٢٧٢) وَأَجْمَلُهُ عَلَى فَقَرَاءِ الْمَجَاهِدِينَ (٢٧٣).  
**خَتَامٌ: لِلنَّفَقَةِ أَجْرٌ دَائِمٌ عِنْدَ اللَّهِ** (٢٧٤).

\*

**الخاتمة: ملاحق بسورة البقرة (٢٧٥- ٢٨٦).**

**ملحق أول: في الربا<sup>٣</sup>: أحل الله البيع وحرّم الربا<sup>٤</sup> (٢٧٥- ٢٧٧)**  
**يهتددهم بترك الربا وإمّا الحرب<sup>٥</sup> (٢٧٨- ٢٨١).**

(١) الآية ٢٦٤ (( مثله كصفوان عليه تراب فأصابه وابل فتركه صلداً )) من مثل الزرع أيضاً في الإنجيل : (( وسقط بعض على أرض حجرة ، وإذا لم يكن له أصل من تراب يبس )) ( مرقص ٤ : ٥ ) .  
 (٢) الآية ٢٦٥ (( كمثّل حبة بر بوءة أصابها وابل فأنت أكلها ضعفين )) هذا مثل متواتر في الأنبياء والإنجيل ، وقد مرّ بك في أمثال القرآن .  
 (٣) هذا الملحق في الربا من زمنين : الأول في تحريم الربا ( ٢٧٥ - ٢٧٧ ) الثاني في التهديد بالحرب ، وهو من آخر العهد أقحم هنا لتنام الفائدة : جاء في ( الإِتْقَانُ ١ : ٢٧ ) : (( أخرج البخاري عن ابن عباس والبيهقي وابن ماجة عن عمر قالوا : آخر آية نزلت آية الربا . وكان الربا محرماً عند اليهود مع ابن دينهم ، ومباحاً مع الأميين . فأطلق القرآن تحريمه ، اقتداءً برهبان عيسى في زمانه . واستثنت السنة (( العرايا )) (إتقان ٢ : ١٦) .  
 (٤) الآية ٢٧٥ : في قوله (( وأحل الله البيع )) هل كل بيع حلال ؟ استثنت السنة البيوع الفاسدة ( إتقان ٢ : ١٦ ) .  
 وقوله (( إنما البيع مثل الربا )) ظاهر التعبير يعني أن البيع الحرام مثل الربا ، أو أنّ الربا حلال مثل البيع . والأصل أن يقال : (( إنما الربا مثل البيع )) وهو قول اليهود ومن جاراتهم من العرب يستحلون به الربا مثل البيع .  
 (٥) الآية ٢٨١ (( واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله )) في الإِتْقَانِ ( ١ : ٢٧ - ٢٨ ) (( وعن ابن عباس أنها آخر آية نزلت وكان بينها وبين موت النبي ص . واحد وثمانون يوماً ، وعن سعيد بن جبير أنها آخر ما نزل من القرآن كله ، عاش بعدها النبي ص . تسع ليالٍ ثم مات ليلة الإثنين )) . - أهذا من التاريخ أم من التمثيل ؟ ولماذا وضعوها في سورة البقرة ؟

**ملحق ثان:** الدين عند كاتب العدل<sup>١</sup> (٢٨٢- ٢٨٣) وأشهدوا إذا تبايعتم .

**ملحق ثالث:** المحاسبة على الوسوسة (٢٨٤- ٢٨٦). علمتها الآية (٢٨٤) ونسختها الآية<sup>٢</sup> (٢٨٦).



(١) الآية ٢٨٢ آية الدين : في الإتيان ( ١ : ٢٨ ) « آخر القرآن عهداً بالعرش آية الربا وآية الدين » . وقال النحاس ( ٣٨ ) : « افترقوا على ثلاثة أقوال في كتابة الدين : فمنهم من قال هو واجب واحتجوا بظاهر القرآن . وقال بعضهم هو على الندب والإرشاد لا على الحتم ( مالك والشافعي وأصحاب الرأي ) . قال بعضهم منسوخ بما بعده ( فإن أمن بعضكم بعضاً فليؤد الذي أوتمن أمانته ) فنسخت هذه الآية ما قبلها . وقال بعضهم أطلق الله للمسلمين ترك الكتابة في الدين ، والشهادة في البيع من غير آية نسختها » - فبماذا نسخ هذا البعض القرآن ؟ - لا بالقرآن ولا بالسنة ، بل بالمصلحة في تيسير الحياة .

وقوله « واستشهدوا شهيدين من رجالكم ، فإن لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان » ( الآية ٢٨٢ ) فالرجل يساوي امرأتين في الشهادة ، كما في الميراث « حظ الذكر مثل حظ الانثيين » - شهود العقد والدين اثنان : شريعة تورانية ( تثنية ١٦ : ٢٥ ) وإنجيلية ( متى ١٨ : ١٦ يوحنا ٨ : ١٧ الثانية إلى كورنثس ١٣ : ١ ) .

(٢) الآيات ٢٨٤ - ٢٨٦ المحاسبة على الوسوسة : في ( أسباب النزول ) : « روى أحمد ومسلم وغيرهما عن ابن عباس وأبي هريرة قالوا : لما نزلت آية المحاسبة على الوسوسة ، اشتد ذلك على الصحابة فأتوا رسول الله فقالوا : قد أنزل عليك هذه الآية ولا نطيقها . وتذللوا . فنسخها الله بقوله « لا يكلف الله نفساً إلا وسعها » ( ٢٨٦ ) ! - فالقرآن المدني يستجيب في التنزيل لرغبات وشهوات الصحابة مثل آية الوسوسة (٢٨٤) والرخصة في إتيان الدبر ( ٢٢٣ ) ويمتاز عمر الخطاب في العرض والمطالبة ، والتوجيه مثل حديث مقام إبراهيم ( ١٢٥ ) وحديث جبريل ( ٩٧ ) - قابل في الإتيان ( ١ : ٣٥ ) ما نزل من القرآن على لسان بعض الصحابة . وفي رفع المحاسبة على الوسوسة ينسون الحديث ( إنما الأعمال بالنيات ) الذي هو شريعة الإنجيل ؛ وفي هذا تعارض كبير بين القرآن والإنجيل في روح التشريع : فالقرآن يشرع اكتساب الإثم في العمل فقط ( لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ) لا في النبات الشريرة فقد « رفع الله المحاسبة على الوسوسة عن هذه الأمة » ( أسباب النزول ) . والمسيح في شريعته الدستورية التأسيسية منذ الخطاب الأول على الجبل نقل المسؤولية والمحاسبة في « الكلمات العشر » من الأعمال إلى النيات ( متى ف ٥ - ٦ ) .

## البحث الثاني

الصمود لقريش - وتوطيد (( الأمة الوسط )) على الخنيفة الكتابية

(من بدر ١٧ رمضان ٢ هـ ( آذار ٦٢٤ ) إلى الخندق شوال ٥ هـ ( آذار ٦٢٦ م )

((وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله ))  
(أنفال ٣٩)

### تمهيد

أحداث هذه الفترة، ( نقلاً عن السيرة لابن هشام).

١- غزوة بدر: في رمضان من السنة الثانية للهجرة ( آذار ٦٢٤ ). (( بدر بئر على نحو مائة وخمسون كيلو متراً من المدينة، جنوباً في غرب، وعلى نحو عشرين كيلو متراً من ساحل البحر الأحمر. وكانت بدر على الطريق الممتدة بين الشام واليمن، كما كان حولها طرق فرعية تربطها بالمدينة وبطريق مكة. كان المسلمون في حالة حرب منذ الهجرة، وقد كانت بينهم معارك صغيرة قبل غزوة بدر. ولذلك كانت هذه المعركة الكبرى منتظرة يعدُّ لها كل من الفريقين عدته. وبلغ الرسول أن قافلة للمكيين راجعة من الشام فعزم على اعتراضها عند بدر، فخرج في ثلاثماية أو يزيدون قليلاً. وكان عدد القافلة نحو ألف رجل في ألف جمل )) بقيادة أبي سفيان زعيم مكة فاستنفروا قريشاً، فجاء النفير بقيادة أبي جهل عدو النبي الأكبر. ونجت العير، واشترك في المعركة النفير فقضى أبو جهل مع تسعة وأربعين قتيلاً؛ قتل منهم عليٌّ وحده اثنين وعشرين وأسر المسلمون نحو خمسين.

---

(١) عمر فروخ : العرب والإسلام ٤٥ .

بينما لم يستشهد من المسلمين سوى أربعة عشر رجلاً. فكان هذا النصر في الرأي العام إشارة من السماء لتأييد النبي ودعوته. فثارَت مشكلة الأنفال والأسرى التي تصفها سورة ( الأنفال ). ومما دعا محمداً إلى التساهل في اقتداء الأسرى أن صهره، أبا العاص، زوج زينب بنت النبي، كان بينهم، فأرسلت إليه ابنته زينب عقداً من ذهب كان لأمها خديجة، في فداء زوجها، ففعل . ورأى النبي في ظروف المعركة، من نوم جماعته مطمئنين ليلة المعركة، ومن هطول المطر المنعش، ومن حماية الملائكة لهم، ومن رمي الرسول للمشركين بالحصباء، إيذاناً بالهجوم الموفق، دلائل سماوية على تأييد الله له، فمضى قُدماً، متأكداً أن الحرب هي الوسيلة الوحيدة لنشر دعوته: (( وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة، ويكون الدين كله لله )) ( أنفال ٣٩ ).

٢- إجلاء بني قينقاع اليهود، عن المدينة. جاء في طبقات ابن سعد أنه لما كانت وقعة بدر، أظهر بنو قينقاع البغي والحسد، ونبذوا العهد. وكانوا أشجع الناس. فأنزل الله (( وإمّا تخافن من قوم خيانة ... فقال رسول الله: أنا أخاف بني قينقاع، فسار إليهم بهذه الآية )) . وجاء في السيرة<sup>٣</sup>: (( وكان من حديث بني قينقاع أن رسول الله ص. جمعهم بسوق قينقاع ثم قال: يا معشر يهود احذروا من الله مثل ما نزل بقريش من النعمة، وأسلموا، فإنكم قد عرفتم أنني نبي مرسل، تجدون ذلك في كتابكم وعهد الله إليكم. قالوا: يا محمد: إنك ترى أننا قومك! لا يغرناك أنك لقيت قوماً لا علم لهم بالحرب، فأصبت منهم فرصة: إنا والله لنن حاربناك لتعلمن أننا نحن الناس )) فكان هذا الاجتماع إيذاناً بالخصام فالقتال. فحدث لحادث امرأة عند صائغ يهودي عبث بها: (( فعمد الصائغ إلى طرف ثوبها فعقده إلى ظهرها، فلما قامت انكشفت سوءتها، فضحكوا بها؛ فصاحت، فوثب رجل من المسلمين على الصائغ فقتله، فاستصرخ أهل المسلم المسلمين على اليهود، فغضب المسلمون. فوقع الشر بينهم وبين بني قينقاع. فحاصرهم رسول الله خمس عشرة ليلة حتى نزلوا على حكمه )) فأرغم حليفهم عبد الله بن أبي زعيم

(١) السيرة لابن هشام ٢ : ٣٠٨ .

(٢) قابل دروزة : سيرة الرسول ٢ : ١١٥ .

(٣) السيرة لابن هشام ٣ : ٥٠ .



المعارضة في مكة، النبي على العفو عنهم وإجلالهم<sup>١</sup>. (( فأجلاهم عن المدينة، وصادر أموالهم وسلاحهم، ولم يكن لهم أرضون<sup>٢</sup> )) . وفيهم نزل ( أنفال ٥٥ - ٥٨ وآل عمران ١٢ - ١٣ ) مع تحذير لسواهم ( أنفال ٦٠ - ٦٣ ) .

فخرج **كعب بن الأشرف** حتى جاء مكة فجعل يرثي أصحاب القليب، ويحرّض على الرسول حتى حملهم على التجهيز لغزو المدينة. ورجع إلى المدينة يشبّب بنساء المسلمين حتى آذاهم. (( فقال رسول الله ص. من لي بابن الأشرف؟ فقال له محمد بن مسلمة: أنا لك به يا رسول الله، أنا أقتله! قال فافعل إن قدرت على ذلك<sup>٣</sup> )) فجمع نفراً منهم أخو كعب في الرضاعة الذي استدرجه إلى خارج بيته، وقتلوه، وجاؤوا آخر الليل يخبرون محمداً بذلك وهو قائم ينتظرهم (( فأصبحنا وقد خافت يهود لوقعتنا بعدو الله: فليس بها يهودي إلا وهو يخاف على نفسه )) . وكذلك كان اغتيال **أبي رافع اليهودي**، بعد كعب الأشرف، في السنة الثالثة للهجرة قبل غزوة أحد<sup>٤</sup>، مع ثلاثة آخرين.

**٣- غزوة أحد في شوال من السنة الثالثة للهجرة ( ربيع ٦٢٥ م ) .** استنفرت قريش بعض حلفائها من القبائل واصطحبوا المنشدات ينشدن للحرب، وأنوا المدينة من شمالها إلى (أحد) جبل على أربعة كيلومترات منها، في نحو **ثلاثة آلاف رجل** بقيادة **أبي سفيان**. فأخذ المسلمون على حين غرة. واتفق محمد وزعيم المعارضة **ابن أبي** على انتظارهم في المدينة، فأبى الشباب المتحمسون وأرغموهم على الخروج إلى العدو. (( فخرج رسول الله ص. في ألف من أصحابه، حتى إذا كانوا بالشوط بين المدينة وأحد، انخزل عنه **عبد الله بن أبي بن سلول** بثلاث الناس. وإنّ الأنصار قالوا لرسول الله ص. يا رسول الله ألا نستعين بحلفائنا من يهود؟ فقال لا حاجة لنا فيهم، ومضى حتى نزل الشعب من أحد في عدوة الوادي إلى الجبل فجعل ظهره وعسكره إلى أحد. وأمر على الرماة **عبد الله بن جبير**، والرماة خمسون رجلاً، فقال انضح الخيل عنا بالنبل لا يأتونا من خلفنا، إن كانت لنا أو علينا، فاثبت مكانك لا تؤتيت من قبلك. وتعبأت قريش ومعهم مئتا فرس قد

(١) السيرة لابن هشام ٣ : ٥١ - ٥٢ . وفي طبقات ابن أسعد ، إنهم نزلوا بأذرعات في الشام .

(٢) عمر فروخ : العرب والإسلام ٤٧ .

(٣) السيرة ٣ : ٥٦ - ٦٠ .

(٤) عمر فروخ ، العرب والإسلام ٤٨ .

جنبوها مع خالد بن الوليد وعكرمة بن أبي جهل. فاقتتل الناس حتى حميت الحرب. وقاتل حمزة، عم النبي، حتى قتله وحشي، غلام جبير بن مطعم؛ وهو حبشي يقذف بالحربة قذف الحبشة، ولما يخطئ بها شيئاً... ثم أنزل الله نصره على المسلمين فحسوهم بالسيف حتى كشفوهم عن العسكر، وكانت الهزيمة لا شك فيها، إذ مالت الرماة إلى العسكر حتى كشفنا القوم عنه، وخلوا ظهورنا للخيل، فأتينا من خلفنا، وصرخ صارخ: ألا إن محمداً كشفنا القوم عنه، وخلوا ظهورنا للخيل، فأتينا من خلفنا، وصرخ صارخ: ألا إن محمداً قد قُتل! فانكفأنا وانكفأ علينا القوم. وانكشف المسلمون فأصاب فيهم العدو. وكان يوم بلاء وتمحيص، حتى خلص العدو إلى رسول الله فددت بالحجارة حتى وقع لشقه فأصيبت رباعيته وشج في وجهه، وكلمت شفته، وكان الذي أصابه عتبة بن أبي وقاص. ووقع رسول الله ص. في حفرة، فأخذه علي بيده. ووقعت هند بنت عتبة والنسوة التي معها يمثلن بالقتلى، يجدن عن الأذان والأنف، وبقرت عن كبد حمزة فلاكتها فلم تستطع أن تسيغها فلفظتها! ... وإن رسول الله حين رأى ما رأى قال: إن أظهرني الله على قريش لأمثلن بثلاثين رجلاً منهم! ... فكان ممّا أنزل الله في يوم أحد من القرآن **ستون آية من ( آل عمران )**: (( وإذ غدوت من أهلك تبوئ المؤمنون المقاعد للقتال )) . (( وقد قُتل في هذه المعركة من المسلمين سبعون رجلاً فيهم حمزة عم الرسول، وجرح كثيرون فيهم الرسول نفسه. ولم يقتل من المكيبين سوى ثلاثة وعشرين رجلاً )) ! فتدهورت هيئة الرسول والمسلمين فاسترجعها بغزوة بدر الآخرة لميعاد أبي سفيان وبإجلاء بني النضير وبعض الغزوات الصغيرة.

#### ٤- أمر إجلاء بني النضير سنة أربع: خريف ٦٢٦م.

(( ثم خرج رسول الله ص. إلى بني النضير يستعينهم في دية فأتروا به لاغتياله (حشر ٤). فرجع إلى المدينة وأمر بالتهيؤ لحربهم والسير إليهم. ثم سار بالناس حتى نزل بهم. وذلك في شهر ربيع الأول، فحاصروهم ست ليالٍ. فتحصنوا في الحصون. فأمر رسول الله ص. بقطع النخيل والتحريق فيها. فنادوه: يا محمد قد كنت تنهى عن الفساد وتعيبه على من صنعه، فما بال قطع النخيل وتحريقها؟! فاستنجدوا بابن أبي وحلفائهم. فلم يفعلوا. وقذف الله في قلوبهم الرعب. وسألوا رسول الله ص. أن يجلبهم ويكف عن

(١) السيرة : متفرقات ٣ : ٦٤ - ١١٢ .

(٢) عمر فروخ : العرب والإسلام ٤٨ .

دمانهم، على أن لهم ما حملت الإبل من أموالهم، إلا الحَلَقَة ( السلاح كله، أو خاص بالدروع ) ففعل. فحملوا من أموالهم ما استقلت به الإبل؛ فخرجوا إلى خيبر ومنهم من سار إلى الشام. إنهم استقلوا بالنساء والأبناء والأموال، معهم الدفوف والمزامير، والقيان يعزفن خلفهم ... بزهاء وفخر ما رُئي مثله من حي من النساء قبلهم. فلما نزلوا خيبر دان لهم أهلها. وخلوا الأموال لرسول الله ص. فكانت له خاصة يضعها حيث يشاء فقسما على المهاجرين الأولين دون الأنصار. ولم يُسلم من بني النضير إلا رجلاً: أسلما على أموالهما فأحرزها ... ونزل في بني النضير سورة الحشر بأسرها<sup>١</sup> . وكان ابن عباس يسميها سورة بني النضير. في هذه الفترة، تزوج محمد وهو ابن خمس وخمسين سنة على - سودة وعائشة - حفصة بنت عمر، إرضاءً لأبيها ولنفسه عساه يأتيه منها ولد يرثه، فلا يكون ذلك من نصيب أولاد علي وفاطمة الحسن والحسين اللذين ظهرا للوجود في هذه الفترة. وفي هذه السنة أيضاً تزوج أرملتين، ماتت إحداهما للحال.

#### ٥- غزوة الخندق، شوال من السنة الخامسة للهجرة - آذار ٦٢٧م.

ثم حاول محمد أن يفرض هيئته على الجوار العربي أيضاً. بعد شهرين من جلاء بني النضير (( غزا نجداً يريد غطفان فلقى بها جمعاً عظيماً، فتقارب الناس وخاف بعضهم بعضاً، حتى صلى رسول الله ص. بالناس صلاة الخوف ثم انصرف بالناس<sup>٢</sup> )) .

(( ثم خرج في شعبان سنة أربع إلى بدر، لميعاد أبي سفيان حتى نزله - وهي غزوة بدر الآخرة - فأقام عليه ثمانين ليالٍ ينتظر أبا سفيان. وخرج أبو سفيان في أهل مكة حتى نزل مَجِنَّة، من ناحية الظهران؛ ثم بدا له بالرجوع ( بسبب الجذب ) فرجع بالناس<sup>٣</sup> )) .

(( ثم انصرف رسول الله ص. إلى المدينة فأقام بها أشهراً. وفي شهر ربيع الأول سنة خمس، غزا دومة الجندل. ثم رجع قبل أن يصل إليها ولم يلق كيداً فأقام بالمدينة بقية سنته<sup>٤</sup> )) .

(١) السيرة لابن هشام ٣ : ١٩٩ - ٢١٢ .

(٢) السيرة ٣ : ٢١٤ .

(٣) السيرة ٣ : ٢٢٠ .

(٤) السيرة ٣ : ٢٢٤ .

ثم كانت غزوة الخندق في شوال سنة خمس ( آذار ٦٢٧ )<sup>١</sup>. لأن نفرًا من اليهود منهم سلام بن أبي الحقيق، وأخوه كنانة وحيي بن أخطب في نفر من بني النضير، ونفر من بني وائل، حزبوا الأحزاب على رسول الله ص. حتى قدموا على قريش مكة فدعوه إلى حرب رسول الله ص. وقالوا لهم: إنا سنكون معكم حتى نستأصله. فلما قالوا ذلك لقريش سرّهم ونشطوا إلى حرب الرسول. ثم خرج أولئك النفر من يهود حتى جاؤوا غطفان فدعوه إلى حرب رسول الله ص.، وأخبروهم أنهم سيكونون معهم عليه، وأن قريشاً قد تابعوهم على ذلك فاجتمعوا معهم فيه. فلما سمع بهم رسول الله، وما أجمعوا له من الأمر ضرب الخندق على المدينة<sup>٢</sup>.

(( وأدرك الرسول أن لا قبل لأهل المدينة بمقابلة المشركين هذه المرة في معركة مكشوفة لأنه علم عددهم سيكون عظيماً جداً. لذلك قرّر الرأي على حفر خندق حول النقاط الضيقة من المدينة لمقاتلة المشركين من ورائه. والمعروف من معظم المصادر أن سلمان الفارسي هو الذي أشار على الرسول بحفر الخندق ... وقد عمل في حفر هذا الخندق ثلاثة آلاف رجل، كل عشرة منهم يحفرون في نقطة، وقد بدأ الحفر في النقاط المختلفة في وقت واحد. واستغرق حفر الخندق نحو عشرين يوماً. أما الرسول فقد أشرف على حفر الخندق إشرافاً تاماً وكان أحياناً يساعد في الحفر ونقل التراب<sup>٣</sup>)).

(( ولما فرغ رسول الله من الخندق أقبلت قريش في عشرة آلاف من أحابيشهم ومن تبعهم من بني كنانة وأهل تهامة، وأقبلت غطفان ومن تبعهم من أهل نجد. وخرج رسول الله في ثلاثة آلاف من المسلمين حتى جعلوا ظهورهم إلى جبل سلع والخندق بينه وبين القوم )) .

وحمل حُيَي بن أخطب كعب بن أسد القرظي صاحب عقد بني قريظة وعهدهم على نقض عهده. وعظم عند ذلك البلاء واشتد الخوف، وأتاهم عدوهم من فوقهم ومن أسفل

(١) قال الزرقاني : (( واختلف في تاريخها ، فقال موسى ابن عقبة في مغازيه ، التي شهد مالك والشافعي بأنها أصح المغازي أنها كانت سنة أربع )) .

(٢) السيرة ٣ : ٢٢٥ .

(٣) عمر فروخ : العرب والإسلام ٤٨ .

منهم حتى ظن المؤمنون كلَّ ظن ونجم النفاق من بعض المنافقين، حتى قال بعضهم: (( كان محمد يعدنا أن نأكل كنوز كسرى وقيصر، وأعدنا اليوم لا يأمن على نفسه أن يذهب إلى الغائط. ))

وأقام المشركون قريباً من شهر لم تكن بينهم حرب إلا الرميّ بالنبل والحصار. وفاوض الرسول قَائِدِي غطفان، فأعطاهما ثلث ثمار المدينة على أن يرجعا بمن معهما عنه وعن أصحابه.

واستعمل محمد أحد بني غطفان للسعي بين قريظة و غطفان وقريش فنجح وتخاذل القوم<sup>١</sup> وتناكروا. (( وبعث الله عليهم الريح في ليالٍ شاتية باردة شديدة البرد، فجعلت تكفأ قدورهم وتطرح أبنيهم )) . وكان المكيون بعيدين عن مراكز تموينهم فسرعان ما أصبحوا يشكون نقصاً في المؤن. وكان أحلاف المكيين مرتزقة فلما طال الحصار سئموا المقام. (( ثم قال أبو سفيان: يا معشر قريش إنكم والله ما أصبحتم بدار مقام! لقد هلك الكراع ( الخيل ) والخف وأخلفتنا بنو قريظة، ولقينا من شدة الريح ما ترون: ما تطمئن لنا قدر ولا تقوم لنا نار ولا يستمسك لنا بناء. فارتحلوا إني مرتحل! )) ولم يُستشهد من المسلمين يوم الخندق إلا ستة نفر. ولما انصرف أهل الخندق عن الخندق قال رسول الله ص.: (( لن تغزوكم قريش بعد عامكم هذا، ولكنكم تغزونهم )) !

(( وكان لارتداد الأحزاب عن المدينة معنى كبير هو أن الإسلام كان في ذلك الحين قد أصبح أقوى من جميع خصومه متظاهرين )) . يدل على ذلك إسلام عمرو بن العاص وخالد بن الوليد ما بين الخندق والحديبية<sup>٢</sup> أو بعدها قبل فتح مكة. وفي هذه الحملة المفزعة الفاشلة نزلت سورة الأحزاب.

#### ٦- استنصال بني قريظة، سنة خمس:

ما أن عاد محمد صباحاً من الخندق حتى أمر مؤدناً فأذن في الناس: (( من كان سامعاً مطيعاً فلا يصليّ العصر إلا في بني قريظة. وكان ذلك حقاً لأنهم نقضوا عهد النبي في

(١) السيرة ٣ : ٢٤٠ و ٢٤٣ .

(٢) السيرة ٣ : ٢٩٠ و ٢٦٤ و ٢٦٦ وفي بعض الروايات إن إسلامهما كان بعد صلح الحديبية ( دروزة: سيرة الرسول ٢ : ١٤ ) .

أخرج الأوقات. وحاصرهم رسول الله خمساً عشرين ليلة حتى جهدهم الحصار وقذف الله في قلوبهم الرعب. فلما أصبحوا ( وقد أعيتهم الحيلة ) نزلوا على حكم رسول الله ص. فتواثبت الأوس فقالوا: يا رسول الله إنهم موالينا من دون الخزرج وقد فعلت في موالينا بالأمس ما قد علمت. فقال: ألا ترضون يا معشر الأوس أن يحكم فيهم رجل منكم؟ قالوا: بلى. قال: فذاك إلى سعد بن معاذ. ( وقد عرف النبي من يُحكّم لأن سعداً كان من جرحى الخندق وهو في بحران الألم وكانوا شتموه لما أرادوا استمالتهم في الحصار فحملوه إلى ناديمهم ). فقاموا إليه فقالوا: يا أبا عمرو، إن رسول الله ص. قد ولاك أمر مواليك لتحكم فيهم. فقال سعد: عليكم بذلك عهد الله وميثاقه أن الحكم فيهم كما حكمت؟ قالوا: نعم! قال: وعلى من ههنا؟ (يعني النبي). فقال رسول الله ص. نعم! قال سعد: فإني أحكم فيهم: أن تقتل الرجال، وتقسّم الأموال، وتسيّ الذراري والنساء! قال رسول الله: لقد حكمت فيهم بحكم بحكم الله من فوق سبعة أرقعة )) ( أي سبع سماوات ).

(( ثم استنزلوا من حصنهم فحسبهم رسول الله في دار. ثم خرج إلى سوق المدينة، فخندق بها خنادق. ثم بعث إليهم فضرب أعناقهم في تلك الخنادق، يُخرج بهم إليه أرسالاً (طائفة بعد طائفة)، وهي ست مئة أو سبع مئة، والمكثّر لهم يقول: كانوا بين الثمان مئة والتسع مئة. وفيهم حبي بن أخطب، وكعب بن أسد، رأس القوم. وأتي بحبي بن أخطب. فلما نظر إلى رسول الله ص. وقال: أمّا والله ما لمت نفسي في عداوتك ولكنه من يخذل الله يُخذل. ثم أقبل على الناس فقال: أيها الناس إنه لا بأس بأمر الله؛ كتاب وقدر وملحمة كتبها الله على بني إسرائيل. ثم جلس فضربت عنقه. ولم يقتل من نسائهم إلا واحدة. قالت عائشة: والله إنها لعندي تحدّثت معي وتضحك ظهراً وبطناً ورسول الله ص. يقتل رجالها في السوق، إذ هتف هاتف باسمها: أين فلانة ( امرأة الحسن القرظي )؟ قالت: أنا والله! قلت لها: ويلك! ما لك؟ قالت: أقتل!!! قلت: ولم؟ قالت لحدث أحدثته ( وهي التي طرحت الرحا على خلاد بن سويد فقتلته ). قالت عائشة: فانطلق بها. فضربت عنقها. فكانت عائشة تقول: ما أنس عجباً منها، طيب نفسها، وكثر ضحكها وقد عرفت أنها تقتل!

(( ثم إن رسول الله ص. قسّم أموال بني قريظة ونساءهم وأبناءهم على المسلمين. وكان رسول الله ص. اصطفى لنفسه من نسائهم ريحانة؛ عرض عليها أن يتزوجها، ويضرب عليها الحجاب؛ فقالت: يا رسول الله بل تتركني في ملكك، فهو أخف عليّ وعليك، فتركها.

(( وأنزل الله تعالى في أمر الخندق، وأمر بني قريظة، من القرآن، القصة في سورة الأحزاب ))

\*

\* \*

### السورة الثانية: (أو ٩٢) الأنفال (٨) - يوم (( الفرقان )) في وقعة بدر ( آذار ٦٢٤).

فذلكة ( ٢ ) : (( علم النبي ص. أن قافلة تجارية لقريش أتية من الشام ، وليس معها حامية كافية ؛ فندب المسلمين للخروج لعلّ الله يهبها لهم . فخرجوا أخلاطاً مهاجرين وأنصاراً وفيهم منافقون . وفي الطريق عرفوا أن القافلة نجت وأن حملة قوية أتية من مكة ، فاقترح بعضهم العودة وعدم الاشتباك لأنهم إنما خرجوا للقافلة ... فطلب النبي أن يشير عليه الناس ، حتى فهم الأنصار أنه يعنيهم فقال له زعماءهم : امض يا رسول الله لما أمرك الله - فالتقى الفريقان في وادي بدر، على ماء بدر - وكان في ظروف المعركة بعض مظاهر تأييدية للمسلمين طمأنتهم بأن الله معهم : كانوا تعين قلعين فغشاهم النعاس فناموا واستراحوا ، وكانت حاجتهم ماسة إلى المطر فأمطروا وقضوا بذلك حاجاتهم . وقد نصب للنبي عريش لمشاهدة سير المعركة ، وكان يصلي: (( اللهم إذا غلبت هذا الفئة فلن تعبد في هذه الأرض )) فألهم أنه مُمَدُّ بألف من الملائكة بقصد البشرى والتثبيت . فانصرفوا وقتلوا وأسروا من عدوهم . وقد اختلف المسلمون بعد المعركة في شأن توزيع الغنائم ، على المحاربين فقط ، أم على الحاضرين جميعاً ؛ كما كان اختلاف بشأن أسلاب القتلى ونسبة التوزيع بين الركبان والمشاة . وشاور النبي أصحابه في شأن الأسرى ، فأشار عمر بن الخطاب بقتلهم لإرهاب أهل مكة ، وارتأى أبو بكر الصديق الرفق وأخذ الفداء النبي برأيه، فنزل القرآن بعتابهما فسكت عمر .

(( ونزلت سورة الأنفال عقب وقعة بدر الكبرى على ما أجمع عليه المفسرون والرواة ( ٣ ) تشيد بنصر الله ، وإيجاب الرضاء عليهم بقسمة الغنائم ، أو بتعبير أدق بفرز الخمس منها ، لأن الكلام فيها مصبوب على ذلك ، وإطاعة الرسول وعدم التنازع والشقاق . والتذكير بموقف المنافقين . وتأبيد ما فعله النبي ص. في الأسرى ، مع العتاب عليه . ويلمح في السورة ما كان للانتصار من أثر في استعلاء الإسلام ، وشعور المسلمين بالعزة والقوة والتأييد بالرباني الذي غلبت به فئة قليلة فئة كبيرة . ولقد

(١) السيرة ٣ : ٢٤٩ - ٢٥٦ .

(٢) نقتطعها من تحليل محكم للأستاذ دروزة : سيرة الرسول ( ٢ : ٢٦٧ - ٢٧٢ ) - ننصح بقراءة هذا الفصل .

(٣) سيرة الرسول ٢ : ٢١١ .

أحدث اشتراك أهل المدينة في المعركة تطوراً عظيماً وحاسماً في موقف كل من المدينتين الكبيرتين تجاه الأخرى مما حَسِبَ حسابَه أهلُ مكة . كما أنه أحدث تطوُّراً بارزاً في التضامن القوي الدموي ، بعد الديني ، بين المهاجرين والأنصار ( آية ٧٢ ) . وكذلك كان تشريع خمس الغنائم ذا خطورة عظيمة ، من ناحية أول تشريع قرآني مالي رسمي محدّد توطّد به بيت المال في الإسلام . . - وكانت الزكاة قائمة على التبرع ، ولم تحدّد إلا في آية من سورة التوبة . ويلاحظ في السورة قلة التناسق في المواضيع ؛ ويرجع ذلك إلى أن أقسامها نزلت في أوقات مختلفة في مواضع مختلفة جُمع بعضها إلى بعض كما نزلت شيئاً فشيئاً .

قيل فيها من الناسخ خمسة مواضع ومن المنسوخ ستة .

\*

**مطلع:** (١ - ٤) الخصاص على غنائم بدر - الجواب الأول: (( قل الأنفال لله والرسول )) .

أولاً: الاستعداد للمعركة (٥ - ٤١).

١- يجادلون النبي في قتال العير أم النفير، كأنما يساقون إلى الموت لقتال النفير (٥ -

٦).

٢- إذ يعدكم الله إحدى الطائفتين إنها لكم (٧ - ٨) إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أني ممدكم بألف من الملائكة مردفين، بشرى لكم (٩ - ١٠) ويغشاكم العاصم أمنة وينزل عليكم مطراً بروجكم، بدل الحوض الذي احتله المشركون (١١) ويوحى ربك للملائكة: فاضربوا فوق الأعناق وكل بنان<sup>٢</sup> (١١ - ١٢).

(١) الآية ١ (( يسألونك عن الأنفال )) - وفي مصاحف ابن مسعود وأبي عكرمة (( يسألونك الأنفال )) بحذف حرف الجر ، أي نصيبهم منها ؛ فكان الجواب الأول : (( قل الأنفال لله والرسول )) : فاختص الغنائم لنفسه فقامت قائمتهم ، فنسخها بقوله فيها : (( واعلموا أنما غنمتم من شيء فإن لله خمسة وللرسول )) ( ٤١ ) وهذا الجواب الثاني مقحم بدليل تغيير الفاصلة . وزاد النحاس : (( والخلاف على معنى الأنفال : قيل هي الغنائم أنفلها الله أمة محمد . وقيل هي زيادات على الغنائم ، والتنزيل في اللغة الزيادة ، أو هي بقايا منه . وقيل الأنفال للسرايا خاصة . وقيل إن الأنفال هي الخمس ، خاصة النبي لأن الأسم الأربعة للمحاربين ، وإنما الاختلاف في السهم الخامس )) . والنفل هو حصة غير المحاربين حاضري المعركة . والغنيمة حصاد الحرب ، والفية الغنيمة بدون حرب على أثر استسلام . وهكذا بعد فرز الخمس قسّم غنائم بدر على السواء بين أهل النفير وأهل العير . وهذا كما فعل داود عند اقتسام غنائم العمالق (صموئيل الأول ٢٠ : ٢١ - ٢٥) . ولكن عدل القرآن شريعة الكتاب باستنثار الرسول بالخمسة لبيت المال معه ، والاستنثار بالفية وحده .

(٢) الآية ٩ - ١٠ الله يقاتل بواسطة الملائكة مع المؤمنين : إنها فكرة كتابية كان يرددها اليهود مع الكتاب : (( الله يحارب عنكم وأنتم صامتون! ( خروج ١٤ : ١٤ ) فقال المصريون : فهرب من إسرائيل لأن الله



- إقحام أول: الآيات (١٣- ١٦) مقحمة، يدل عليها تغيير الروي: تعليمان لكيفية القتال<sup>١</sup>.

- إقحام ثانٍ: آية الرمي (١٧) (( وما رميتَ ولكن الله رمى<sup>٢</sup> )) .

- إقحام ثالث: جواب متأخر لمقالة أبي جهل، قائد حملة المشركين في بدر: (( إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح )) (١٩)<sup>٣</sup>.

٣- فتنة المنافقين بالإنسحاب من المعركة (٢٠- ٢٩): (( واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة ... لو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم، ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون!

يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول واذكروا إذ أنتم مستضعفون في الأرض تخافون أن يتخطفكم الناس )) !

**استطرد مقحم:** (٣٠- ٣٨) خطاب موجه بعد المعركة إلى أهل مكة: مكرهم بالنبي في مكة! وإنفاقهم اليوم ليصدوا عن سبيل الله! ويختم بقوله: (( قل للذين كفروا: إن ينتهوا يُغفر لهم ما قد سلف<sup>٤</sup> )) !

يفاتلون . يقاتل عنهم المصريين ( خروج ١٤ : ٢٥ ) (( الله يحارب عنكم كما صنع في مصر على عيونكم )) ( تث ١ : ٢٩ و ٣ : ٢٢ ) . وفي أسباب نزول الآية ( ٩ ) محاولة تمثيل محمد بموسى يصلي والقوم مع يشوع بن نون

(١) الآية ١٦ (( ومن بولهم دبره ، فقد باء بغضب من الله )) : قال النحاس : (( فيها ثلاثة أقوال : قيل إنها منسوخة بقوله ( يا أيها النبي حرّض المؤمنين على القتال ) وفيه الإطلاق لهم أن يولوا دبرهم من هو أكثر منهم . وهذه نسخت أيضاً بقوله : (( والآن خفف عنكم وعلم إن فيكم ضعفاً . وقيل هي مخصوصة بأهل بدر . وعن ابن عباس أنها محكمة إلى يوم القيامة ، فهي وعيد والوعيد لا يُنسخ )) .

(٢) الآية ١٧ آية الرمي، جاء في ( أسباب النزول ) للسيوطي أنها نزلت يوم أُحُد في طعنة النبي أبيّاً بحربته. وأخرج ابن جرير ( الطبري ) (( إن رسول الله ص. يوم خيبر دعا بقوس فرمى الحصين فأقبل السهم يهوي حتى قتل ابن أبي الحقيق وهو في فراش فأنزل الله (( وما رميت )) - مرسل جيد الإرسال - والمشهور أنها نزلت في رمية بدر بقبضة من الحصباء فانهزموا )) .

(٣) الآية ١٩ في ( أسباب النزول ) استفتح أبو جهل بقوله : (( اللهم أيُّنا كان أقطع للرحم، وأتى بما لا يُعرف ، فأحنه الغداة )) ! ثم قال : (( اللهم انصر أعزّ الفتنين وأكرم الفرقتين )) ! - ولما بلغ النبي ذلك ، نزلت .

(٤) الآية ٣٨ (( قل للذين كفروا أن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف )) قيل نسخها للحال (( وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة )) ٨٩

**استطرد آخر،** بروي مختلف (٣٩- ٤١): خطاب للمؤمنين: وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله. واعلموا إنما غنمتم من شيء فإن لله خمسه وللرسول!

ثانياً: **المعركة (٤٢- ٦٦).**

١- لقاءً على غير موعد (٤٢- ٤٣).

**إقحام أول:** (٤٤- ٤٥) بروي مختلف: منام الرسول (٤٤) رؤيا المؤمنين أخصامهم قليلاً!

**استطرد آخر:** (٤٦- ٥٠) خطاب للمؤمنين<sup>٢</sup>: دعوة للثبات وطاعة الرسول بلا تنازع - تذكيرهم بمقالة الشيطان يوم بدر (٤٩)! وبمقالة المنافقين (( غرَّ هؤلاء دينهم ))! (٥٠).

٢- نصر الله بملائكته المسلمين على الكافرين كدأب آل فرعون والذين من قبلهم (٥٠- ٥٥).

**استطرد مقحم (٥٦- ٦٤)** خيانة<sup>٣</sup> بعض الأعراب، واليهود<sup>٤</sup>، عهدهم للنبي والمسلمين: (( أعدوا لهم ما استطعتم من قوة. وإن جنحوا للسلم فاجنح لها. يا أيها النبي حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين . ))

(١) الآية ٤١ تشريع الخمس للرسول وذوي قرياه ، واليتامى والمساكين وابن السبيل المنقطع في سفره ، لكل خمس الخمس ، والأخماس الأربعة الباقية للغانمين ( الجلالان ). والتشريع الجديد في هذه الآية ناسخ لآية الأنفال ( ١ ) باختصاص الرسول بها.

(٢) الآيات ( ٤٥ - ٤٦ ) نزلت تقويماً لأخطاء وقعت في معركة بدر ( دروزة : سيرة الرسول ٢ : ٢٤١ ).  
(٣) الآية ٥٩ (( وإما تقويماً تخافن من قوم خيانة )) وفي أسباب النزول : (( دخل جبريل على رسول الله ص. فقال : قد وضعت السلاح ؟ فأخرج ، فإن الله قد أذن لك في قريظة فنزلت )) ، وغزوة قريظة بعد وقعة الخندق .  
(٤) الآية ٦١ (( ترهبون به عدو الله وعدوكم أي كفار مكة ، وآخرين من دونهم لا تعلمونهم وهم المنافقون أو اليهود )) ( الجلالان ) .

- والآية ٦٢ (( وإن جنحوا للسلم فاجنح لها )) قال النحاس : إنها منسوخة بقوله (( ولا تهنوا وتدعوا إلى السلم وأنتم الأعلون )) . ثم نسخ هذه أيضاً بقوله : (( فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم )) !  
(٥) الآية ٦٤ (( يا أيها النبي حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين )) أجمعت أسباب النزول أنها نزلت في إسلام عمر بن الخطاب .

استطرد آخر مقحم (٦٥- ٦٦) يا أيها النبي حرّض المؤمنين على القتال: (( إن يكن منكم مائة يغلبوا ألفاً )) ! (٦٥). نسخها للحال: (( الآن خفف عنكم وعلم أن فيكم ضعفاً: فإن يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين )) ! (٦٦).

### ثالثاً: بعد المعركة :

#### ١- مصير الأسرى (٦٧- ٧١).

نزل القرآن أولاً بمقالة عمر<sup>٢</sup>: (( ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض تريدون عرض الدنيا )) !

ونسخها بمقالة أبي بكر: (( لولا كتاب من الله سبق لمسّمكم فيما أخذتم عذاب عظيم: فكلوا ممّا غنمتم<sup>٣</sup>! ))

#### ٢- الموارثة للمواخاة في الدين أم للأرحام؟ (٧٢- ٧٥)

كان المسلمون يتوارثون بالهجرة فنسخها بقوله ( وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض ) فتوارثوا بالنسب<sup>٤</sup>.

\*

\* \*

(١) الآية ٦٥ (( وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألفاً )) تفخيم مثل الكتاب الذي سمعه : (( الواحد منكم يهزم ألفاً لأن الله إلهكم هو المحارب عنكم )) ( سفر يشوع بن نون ٢٣ : ١٠ ) . وجاء في أسباب النزول عن ابن عباس قال (( لما افترض الله عليهم أن يقاتل الواحد عشرة بقوله (( إن يكن منكم مائة يغلبوا ألفاً )) ! ثقل ذلك عليهم وشق : فوضع الله ذلك عنهم إلى أن يقاتل الواحد رجلين ، فأنزل الله (( فإن يكن منكم مئة صابرة يغلبوا مائتين )) .

(٢) الآية ٦٧ (( ما كان لنبي أن يكون له أسرى )) : في أسباب النزول: (( استشار النبي ص. في الأسارى يوم بدر فقام عمر بن الخطاب فقال : يا رسول الله اضرب أعناقهم ! فأعرض عنه . فقام أبو بكر فقال : نرى أن تعفو عنهم وأن تقبل الفداء فعفا عنهم وقبل منهم الفداء. فقال عمر: (( ما كان لنبي أن يكون له أسرى ... )) فنزل القرآن بقول عمر وأنزل الله (( لولا كتاب من الله سبق ... )) . قال الجلالان : (( وقوله ( ما كان لنبي أن يكون له أسرى ) منسوخ بقوله ( فإما منأ بعد وإمأ فداء ) ! جاء في البيضاوي والزمخشري على الآية (٤) من سورة محمد : (( كانت الشريعة الأولى في الإسلام : قتل الأسرى ؛ ثم عدلها فخير قومه بين قتل الأسير أو المن أو الفداء )) . وهذا التخفيف شرع توراثي أيضاً ( تث ٢٠ : ١٠ - ١٥ ) .

(٣) الآية ٧٠ (( يا أيها النبي قل لمن في أيديكم من الأسرى )) في أسباب النزول إنها نزلت في إسلام العباس يوم فتح مكة .

(٤) كانوا يتوارثون بالهجرة والمواخاة بين المهاجرين والأنصار دون المسلمين الذين لم يهاجروا

السورة الثالثة: (أو ٩٣) آل عمران (٣) « بيان للناس » في هزيمة أحد (آذار ٦٢٥).

فذلكة : ما بين وقعة بدر ( آذار ٦٢٤ م ) ومعركة أحد ( آذار ٦٢٥ ) تجدد الجدل بين اليهود والنبي، بعنف أكثر ، خصوصاً بعد إجلاء بني قينقاع هذا فيما كان النبي من جهة أخرى منهمكاً في تدبير المشاكل من غنائم وأسرى ، التي نجمت عن نصر بدر ( الأنفال ) . ثم كانت حملة مكة الأولى بثلاثة آلاف رجل على المدينة ، مما « يدل على أن المسلمين كانوا ما يزالون في حالة ضعف وقلة ، فضلاً على دلالتها على تفوق مكة على المدينة في القوة واليأس بصورة عامة . وإذا صحت الرواية أن عدد الغزاة كان ثلاثة آلاف ، لم يقابلهم سوى ألف من المدينة ، ظهر هذا الضعف واضحاً ؛ كما أن تفكير بعض الزعماء بعدم الخروج للقاء الغزاة ، والدفاع من وراء الجُدُر والبيوت ، على عاداتهم المألوفة في المدينة ، يؤيد ذلك . وموقف المنافقين في ظروف الوقعة تمرّداً وتخلفاً وانسحاباً وتأثيراً وتهويشاً وتظاهراً على غير ما يليق يدل على أنهم كانوا أقوياء إلى حدّ ما ، وكانوا مستشعرين بقوتهم كما كان المسلمون مستشعرين بذلك أيضاً . والآيات ( ١٥٤ - ١٦١ ) ، على ترجيح أن المتذمّرين مزيج من مخلصين ومنافقين ، تلهم أن الحكمة اقتضت مسابرة الموقف ومدارة المنافقين (١) . وآخر السورة في قسم ثالث يدور حول معركة بدر الثانية سنة ٦٢٦ م مما يجعل نزول سورة آل عمران يمتد إلى ثلاث سنوات ، تخللها نزول سورة الحشر في جلاء بني النضير في خريف ٦٢٦ م . وقد أقموا على جدال اليهود ، جدال وفد نجران للنبي في عام الوفود ٦٣١ . وهذا الإقحام يتنافر زمنياً وموضوعاً ، إذ لم يقم طيلة العهد بالمدينة جدال أو خصام مع النصارى بل حتى سورة المائدة ( ٨٥ ) ، يظل عهد « المودة » قائماً بينهم . ولذلك نقلنا هذا القسم المسيحي من السورة إلى وقته وظروفه من عام الوفود .

موقف اليهود ، كان قبل بدر موقف الاستعلاء والهزء والسخرية ؛ أما ما بين بدر واحد فكان موقف المؤامرة والتواطؤ مع المنافقين في المدينة ، من تشكيك في « متشابه القرآن » إلى التظاهر بالإسلام والارتداد عنه لإثارة الشبهات واللبال والانقسام بين المسلمين ( ٦٩ - ٧٣ ) . ثم حكمت السورة توأصيهم فيما بينهم بالكتمان بما في التوراة ، والكتمان في مقاصدهم وعدم الإيمان إلا لمن تبع دينهم ( ٧٠ - ٧٣ ) . وقام علماء اليهود بإظهار تعارض القرآن والتوراة لتشكيك المسلمين في دينهم ونبههم ( ٧٧ - ٧٨ و ٨٣ - ٨٩ ) . وحاولوا زرع بذار التفرقة بين الأوس والخزرج ( ٩٨ - ١٠٠ ) . ويبدو من لهجة السورة أن هذه المؤامرة المزدوجة الدينية والقومية على الإسلام كاد يكون لها أثر غير محمد ، وبدأت دلائل الفتنة ؛ فالآية ٨٦ تصرح بأن قوماً كفروا بعد إيمانهم وبعد أن شهدوا أن النبي حق . ولكن جمعهم الفتنة في موقعة أحد . وفي هزيمة أحد نزلت آل عمران .

قبل فيها من الناسخ موضعان، ومن المنسوخ عشرة مواضع .

\*

( ٧٢ و ٧٤ و ٧٥ ) فلا إرث بينكم وبينهم ، ولا نصيب لهم في الغنيمة - قال الجلالان : « وهذا منسوخ بآخر السورة » وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله . لاحظ هذا الاستشهاد بالكتاب المقدس . (١) دروزة : سيرة الرسول ٢ : ٢٨٢ .

**مطلع (١- ٦):** القرآن تصديق التوراة والإنجيل، فالذين كفروا به لهم عذاب شديد!

### القسم الأول من آل عمران

سلسلة جديدة من جدال اليهود (٧- ٩٧ ما عدا ٢٣- ٦٤)

**جدال أول (٧- ٩) في متشابه القرآن:** فيه آيات محكمات وأخر متشابهات<sup>٢</sup>.

(١) الآيات ١- ٣ تقرن في صحة التنزيل الكتب الثلاثة التوراة والإنجيل والقرآن ، وتعود فتعلن أن القرآن تصديق لهما لاحظ فرق التعبير في قوله « نزل عليك الكتاب ، وأنزل التوراة والإنجيل : قال الرازي ( ٢ : ١٢٤ ) النزول هو المصدر المطلق ، والتنزيل مختص بالنزول على سبيل التدريج ، والإنزال مختص بما يكون النزول فيه دفعة واحدة .

- وما معنى عطفه « وأنزل الفرقان » ؟ هل هو الكتب الثلاثة ، أم غيرها ؟ في الأصل عند اليهود، الفرقان هو سنة موسى والتوراة هي « المقرا » أو « القرا » أي القرآن ؛ أما في القرآن فصار مرادفاً للقرآن وفي هذه الآية ( ٣ ) هو بدل من الكتب الثلاثة . وقد يكون التعبير حكاية لقول اليهود بنزول السنة مثل الكتاب . (٢) الآية ٧ متشابه القرآن : نزل في مكة قوله « كتاباً متشابهاً » فجعله كله من المتشابه وقوله « كتاب أحكمت آياته » فجعله كله محكماً ؛ وفي جدال علماء اليهود يصرح التصريح النهائي بأن « فيه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات » ( الإتيان ٢ : ٢ ) وجاء في السيرة لابن هشام ( ٢ : ٢٢٦ ) : « وأخر متشابهات : لهن تصريف وتأويل ابتلى الله فيهن العباد ، كما ابتلاهم في الحلال والحرام » . ومتشابه القرآن « لا يعلم تأويله إلا الله ، والراسخون في العلم يقولون أمانا به » : اختلف في قراءته ، هل ( الواو ) للعطف ( الله والراسخون في العلم ) أم للاستئناف ( والراسخون في العلم يقولون ) ؟ أخرج الحاكم في ( المستدرک ) عن ابن عباس أنه كان يقرأ « وما يعلم تأويله إلا الله ؛ ويقول الراسخون في العلم أمانا به » . وحكى الفراء أن قراءة أبي بن كعب هي أيضاً « ويقول الراسخون » . وأخرج ابن أبي داود في ( المصاحف ) قراءة أخرى لابن مسعود : « وإن تأويله إلا عند الله . والراسخون في العلم يقولون أمانا به » . وهكذا فالقراءات المختلفة تفيد الاستئناف وترفع الغموض في القراءة العثمانية . وفي تفسير ابن عباس ( ٣١٩ ) « وأما الأكثر من الصحابة والتابعون وأتباعهم من بعدهم ، خصوصاً أهل السنة ، فذهبوا إلى الثاني أي الاستئناف ، وهو أصح الروايات . قال السمعاني لم يذهب إلى الأول ( أي العطف ) إلا شذمة قليلة » . والأحاديث والتفاسير التي ينقلها السيوطي ( إتيان ٢ : ٣ - ٤ ) تقطع بأن الآية منقطعة ( الواو ) للاستئناف . فقد ثبت أن في القرآن « متشابهاً لا يعلم تأويله إلا الله » : والكلام الذي لا يعلم تأويله إلا الله كيف يكون معجزاً للناس في بيانه ؟ وكيف يكون كذلك معجزاً في أحكامه التشريعية المنسوخة ؟ فالتحدّي الذي تحدّي به القرآن المشركين بإعجازه في سور ( الإسراء ٨٨ ويونس ٣٨ وهود ١٤ والطور ٣٤ عندما تحدّي به أهل الكتاب وجادلهم ( بقرة ٢٣ ) تراجع وصرح لا إن في أحكامه ناسخاً ومنسوخاً ، ( بقرة ١٠٦ ) وأن في بيانه متشابهاً ( آل عمران ٧ ) ؛ والمنسوخ والمعجز لا يجتمعان ، والمتشابه والمعجز يتعارضان .

**فصل مقحم: (١٠- ١٧) في جلاء بني قينقاع اليهود في المدينة<sup>١</sup>.**

**جدال ثان (١٨- ٢١) على الإسلام:** (( إن الدين عند الله الإسلام )) في التوراة والإنجيل والقرآن؛ لا اليهودية ولا المسيحية وحدهما. هذه شهادة الله والملائكة وأولو العلم أي أهل الكتاب المقسطين.

ويوجه الدعوة لأهل الكتاب ( اليهود ) والأمة: (( أسلمتم؟ فإن أسلموا فقد اهتدوا )) !

**جدال ثالث (٢٢- ٢٥):** (( وقالوا: لن تمسنا النار إلا أياماً معدودات )) - ! قل تعالوا إلى كتاب الله ليحكم بيننا!

**فصل مقحم: (٢٦- ٣٢) خطاب للمسلمين: (( لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء!**

**قصص آل عمران في مولد مريم وميلاد المسيح (٣٣- ٦٤) من عام الوفود<sup>٢</sup>.** لذلك فهو مقحم يتعارض والسورة هنا. سنجده في حينه.

**جدال رابع (٦٥- ٧٤):** (( لم تحاجون في إبراهيم وما أنزلت التوراة والإنجيل إلا من بعده )) !

**جدال خامس (٧٢- ٧٤) حملة أولى على قولهم في الدين (( لا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم!**

(١) الآيات (١٠ - ١٧) - في ( أسباب النزول ) للسيوطي أنها نزلت في بني قينقاع ؛ وينقل الحديث أن الرسول هو الذي جمعهم في السوق ودعاهم إلى الإسلام فأبوا ، فحاصرهم وأجلاهم . بدأ بهم لأنهم كانوا أشجع اليهود ( طبقات بن سعد ) . وقد يكون في آيات البقرة ( ١٠٠ ) والأنفال ( ٥٥ - ٥٨ و ٦٠ - ٦٣ ) تحذير وإنذار مثل آل عمران ( ١٢ - ١٣ ) .

(٢) قصص آل عمران ( ٣٣ - ٦٤ ) : في أسباب النزول (( لما قدم أهل نجران على رسول الله ص. يسألونه عن عيسى بن مريم نزلت فيهم فاتحة آل عمران إلى الثمانين منها . أخرجه البيهقي في الدلائل )) . قوله إلى (( الثمانين منها )) توسع لا يبرره ما قبل ( ٢٣ ) ولا ما بعد ( ٦٤ ) . وتفسير الطبري يدل أن الفصل من عام الوفود ٦٣١ .

(٣) الآية ٦٥ (( لم تحاجون في إبراهيم )) : كان الحجاج في البقرة على ملة إبراهيم هل هي اليهودية أم أنها مستقلة هنا يؤيد القرآن نظريته بأنها مستقلة ، لأن إبراهيم كان قبل الإنجيل والتوراة ، ويستشهد بالتوراة . قابل جدال بولس الرسول لليهود على صحة الانتساب لإبراهيم ، بالإيمان ، لا بالنسب ( غلاطية ٣ : ١ - ٧ ) .

**جدال سادس ( ٧٥- ٧٧ ) حملة ثانية على معاملتهم الناس:** (( ليس علينا في الأميين سبيل! ))

**جدال سابع (٧٨) حملة ثالثة:** يلوون أسنتهم بالكتاب، ويقولون عن تفسيرهم له: (( هو من عند الله! - وما هو من عند الله! ))

**جدال ثامن (٧٩- ٨٠) حملة رابعة على تربيتهم أنفسهم، وتربيب الملائكة والنبیین!**

**جدال تاسع (٨١- ٨٥) حملة خامسة على ناقضي عهد الله معهم بالإيمان بالنبی الآتي.**

ومحمد هو النبي الآتي لأنه يؤمن بما أنزل على جميع الأنبياء (( لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون )) . والإسلام هو دين جميع الأنبياء (( ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يُقبل منه! ))

**فصل مقحج ( ٨٦- ٩١ ) الردة أي الكفر بعد الإيمان<sup>٣</sup>.**

(( على المرند لعنة الله والملائكة والناس أجمعين! )) .

**جدال عاشر (٩٣- ٩٥) على الحلال والحرام بالطعام في ملة إبراهيم<sup>٤</sup>.**

(١) الآية ٨٠ هذه الحملة على اليهود لتربيتهم أحبارهم الربانيين ، وتربيب الملائكة والنبیین ، لا تجعلهم كفاراً كما تلمح عدة آيات من هذه السورة ، لأنهم مع ذلك لم يزالوا مسلمين (( أيامركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون )) ؟  
(٢) الآية ٨٥ مرتبطة بالآية ٨٤ ، الإسلام هو دين جميع أنبياء الكتاب من دون تفرقة . وهذا الإسلام هو دين الله في كل كتبه من التوراة إلى الإنجيل إلى القرآن ، وليس في القرآن وحده ؛ وهو واحد عند جميع أمم التوحيد على السواء ، وليس عند المحمديين وحدهم : فالإسلام ( ٨٥ ) هو التوحيد المنزل على إبراهيم وموسى وعيسى ومحمد ، وما محمد إلا الحلقة الأخيرة من أنبياء التوحيد، يصدقهم ( الآية ٣ ) ويؤمن بإيمانهم ( ٨٤ ) ؛ واليهود والنصارى والمحمديون ، كلهم موحدون ، وكلهم مسلمون (( لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون )) ! - هذا تعليم القرآن الصريح المحكم .

(٣) هذا الفصل ( ٨٦- ٩١ ) يدل على أن الارتداد عن الإسلام كان يقع حتى في المدينة ، كما تذكر أسباب النزول . وليس فقط في مكة ( النحل ) . والآية ( ٩١ ) (( إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار فلن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهباً ولو اقتدى به )) هي صدى لقول الإنجيل : (( ماذا ينفع الإنسان لو ربح العالم كله وخسر نفسه ، أو ماذا يعطي الإنسان فداءً عن نفسه )) . - الآية ( ٩٢ ) مقحمة على السياق ولا صلة لها به!  
(٤) الآية ٩٣ (( كل الطعام كان حلاً لبني إسرائيل قبل التوراة )) ( قابل تكوين ٩ : ٣ ) : (( إلا ما حرّم إسرائيل على نفسه )) وهو عرق النسا ( تكوين ٣٢ : ٣٣ ) .

« كل الطعام كان حلاً لبني إسرائيل من قبل أن تنزل التوراة: فاتبعوا ملة إبراهيم حنيفاً  
! »

**جدال حادي عشر (٩٦-٩٨) أحق بيت بالتكريم والقبلة:**

« إن أول بيت وضع للناس للذي بمكة! فيه آيات بينات » : مقام إبراهيم، والأمن عنده  
والحج إليه!

\*

### القسم الثاني من آل عمران

**سلسلة خطابات: دعوة وتحذير! (٩٨-١٢٠).**

**خطاب أول (٩٨-٩٩) لليهود: لِمَ تكفرون بآيات الله؟ لِمَ تصدون عن سبيل الله؟**

**خطاب ثان (١٠٠-١٠٨) للمسلمين تحذير من دسائس اليهود لحملهم على الكفر:** «  
اتقوا الله حق تقاته»! اعتصموا بحبل الله ولا تفرقوا! ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير! ويختم  
« تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق » . - الآية ١٠٩ مزيدة يدل عليها تغيير الروي.

**خطاب ثالث (١٠٩-١١٧) للمسلمين: خير أمة من أمم التوحيد.**

- « كنتم خير أمة أخرجت للناس »! (١٠٩-١١٠).

- « ولو آمن أهل الكتاب ( اليهود ) لكان خيراً لم: لن يضروكم إلا أذى! وإن يقاتلوكم  
يولوكم الأدبار »! (١١٠-١١٢).

---

(١) الآية ٩٧ « والله على الناس ، حج البيت من استطاع إليه سبيلاً » قيل نسخ آخرها أولها ( النحاس ) .  
(٢) الآية ١٠٢ « اتقوا الله حق تقاته » قيل نسخها بالتغابن « فاتقوا الله ما استطعتم » .  
(٣) الآية ١١٠ « منهم ( أهل الكتاب ) المؤمنون ومنهم الفاسقون » : في أدق المواضع لا يصفهم بالكفر بل  
بالفسق! قال الرازي ( ٢ : ١٢٩ ) : « الفسوق الخروج عن الطاعة . واختلف المفسرون ، فكثير من حملوه  
على كل المعاصي ؛ وذهب بعضهم إلى أن المراد منه بعض المعاصي . ويعني على التخصيص المحققين  
المروق في الإيمان .  
- وفي الآية ١١٠ « كنتم خير أمة أخرجت للناس » وفي ( البقرة ) يصرح عن اليهود « اذكروا نعمتي  
التي أنعمت عليكم وإني فضلتكم على العالمين » ( ٤٧ و ١٢٢ ) : فهل من تعارض ؟ أم تبدل الحال ما بين  
عشية وضحاها ؟



- (( ليسوا سواء من أهل الكتاب، أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل )) ( النصارى ورهبانهم ).

- هذا أفضل مديح لرهبان عيسى ومتابعيهم (١١٣- ١١٥).

ويختتم (( إن الذين كفروا لن تغني عنهم أموالهم! ما ينفقون ريح (١١٦- ١١٧).

**خطاب رابع (١١٨- ١٢٠) للمسلمين: تحذير من موالاتة اليهود.**

تحبونهم ولا يحبونكم! تؤمنون بالكتاب كله، ولا يؤمنون بكتابكم!

\*

### القسم الثالث من آل عمران

في هزيمة أُحد (١٢١- ١٧١)

(( هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين )) !<sup>١</sup>

أولاً: **قبل المعركة (١٢١- ١٢٩):**

١- فيما النبي يبوءُ المؤمنين مقاعد للقتال على سفح أُحد (١٢١).

إذ همّت طائفتان، بنو سلمة وبنو حارثة، بدسّ ابن أبيّ، أن تفشلا (١٢٣).

اذكروا نصر بدر، وامداد الله لكم بثلاثة آلاف من الملائكة<sup>٢</sup>، واليوم بخمسة آلاف (١٢٤).  
(١٢٥).

٢- **استدراك:** كان هذا الوعد بشري لتطمئن قلوبكم، وليس أمراً واقعاً إذ وعدكم الله بخمسة آلاف وفشلتم<sup>٣</sup>: **الله الأمر يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء (١٢٦- ١٢٩).**

---

(١) جاء في (الإتيان ١ : ٢٧) : (( إن أول ما نزل من آل عمران (( هذا بيان للناس )) ثم أنزلت بقيتها في يوم أُحد . وقال ابن إسحاق : نزلت ستون آية من آل عمران في أُحد ، في شوال من السنة الثالثة )) (آذار ٦٢٥) .  
(٢) الآية ١٢٤ كان مدد الملائكة في بدر بألفين ( أنفال ٩ ) فصار في آل عمران ثلاثة آلاف ( ١٢٤ ) .  
(٣) الآية ١٢٦ استدراك يبرّر وعد الله قبل المعركة بخمسة آلاف ( ١٢٥ ) وفشلهم مع ذلك في المعركة: كانت بشرى إيمانية لا حقيقية واقعية : ليس للنبي من الأمر شيء فإله يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء .  
- الآية ١٢٨ (( ليس لك من الأمر شيء )) لها أسباب عديدة في النزول منها (( ما أخرجه البخاري في

**خطاب مقحم (١٣٠- ١٣٦)** تحذير من الربا: وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السماوات والأرض!<sup>١</sup>

النفقة تكفر فاحشة الربا: جزاؤها المغفرة، وجنات تجري من تحتها الأنهار!

ثانياً: **معنى هزيمة أحد (١٣٨- ١٥١):**

١- كلمة أولى حالاً بعد الهزيمة: « قد خلت من قبلكم سنن<sup>٢</sup> »! (١٣٨).

٢- خطاب في صيغة « بيان للناس » عن سياسة الله في هزيمة أحد:

لا تهنوا ولا تحزنوا فأنتم الأعلون: وتلك الأيام نداولها بين الناس! (١٣٩- ١٤٠).

غاية الله أن يمتحن إيمانكم، وجهادكم، ويتخذ منكم شهداء<sup>٣</sup> (١٤٠- ١٤٢).

كنتم تمنون الموت: فرأيتموه! ما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله! (١٤٣- ١٤٥).

- الآية (١٤٤) « وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل » : مقحمة على النص لا تمت إليه بصلة!<sup>٤</sup>

تاريخه ، وابن إسحاق ، عن سالم بن عبد الله بن عمر قال : جاء رجل من قريش إلى النبي ص. ( يمتحنه ) فقال : إنك تنهى عن السب ! ثم تحوّل فحوّل قفاه إلى النبي ص. وكشف استه ! فلعنه النبي ودعا عليه فأنزل « ليس لك من الأمر شيء » ثم أسلم الرجل وحسن إسلامه .

(١) الآية ١٣٣ « جنة عرضها السماوات والأرض » ! قال الجلالان : « العرض السعة أي كعرضها لو وصلت إحداهما بالأخرى » : إذا كانت مساحة الجنة كسعة السماوات والأرض ، فهل يبقى محلّ للسماوات والأرض ؟ - الإيغال في التشبيه باب من البيان العربي ، لا يقتضي التحقيق - وذلك مثل قوله « وسع كرسيه السماوات والأرض » ( بقرة ٢٥٦ ) .

- الآية ١٣٥ « ومن يغفر الذنوب إلا الله » كما ورد في الإنجيل ( لوقا ٥ : ٢١ ) .

(٢) الآية ١٣٧ قال الجلالان : « ونزل في هزيمة أحد : قد مضت طرائق في الكفار بإمهالهم : فلا تحزنوا لغلبتهم فأننا أمهلهم لوقتهم » ! - هذا معنى الهزيمة الأولى .

(٣) الآية ١٤٠ في أسباب النزول : « لما أبطأ الخبر على النساء خرجن ليستخبرن فإذا رجلان مقبلان على بعير ، فقالت امرأة : ( ما فعل رسول الله ص. ) ؟ قال: حي ! قالت : فلا أبالي ، يتخذ الله من عباده الشهداء ، فنزل القرآن على ما قالت : ويتخذ منكم شهداء » .

(٤) الآية ١٤٤ أسباب النزول تذكر أن اليهود قد قالوا : قتل محمد ! أو قالها المسلمون « فقال أناس : لو وكان نبياً ما قتل » ! وعن الزهري أن الشيطان صاح يوم أحد : إن محمداً قد قتل ! والأصح ما جاء في

ثالثاً : مشاهد الهزيمة وأسبابها (١٥٢- ١٦٤):

مشهد أول (١٥٢) فشلتُم لأنكم تنازعتُم في الأمر وعصيتُم أمر الرسول: ( بقاء الرماة ناحيةً رد رماة العدو ):

مشهد ثانٍ (١٥٣) الهزيمة (( تصعدون ولا تلوون على أحد )) فجازاكم غم الهزيمة على غم الغنيمة الفائتة.

مشهد ثالث (١٥٤) طائفة صادقة يعشاهم النعاس قرب الرسول أمانة بعد الغم، وطائفة أخرى منكم (( قد أهمتهم أنفسهم يقولون: هل لنا من الأمر من شيء؟ يقولون: لو كان من الأمر شيء ما قُتلنا ههنا ))!

مشهد رابع (١٥٥) الهاربون (( وهم المسلمون إلا اثني عشر رجلاً )) إنما استذلهم الشيطان!

مشهد خامس (١٥٦- ١٥٩) مقالة المنافقين (( لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا ))! فاعف عنهم واستغفر لهم!

ختام (١٦٠) النصر من الله، والخذلان بأمره: وعلى الله فليتوكل المؤمنون.

رابعاً : بعد الهزيمة (١٦١- ١٧١).

موقف المسلمين (١٦١- ١٦٥) يتهمون النبي بالاستنثار بالغنيمة، وهو منة من الله عليهم؛ يتهمهم بعصيان أمره وتدبيره (( قل هو من عند أنفسكم )) : وقد أدى ذلك إلى الفشل<sup>١</sup>.

---

صحيح البخاري عن موت النبي : قال الزهري عن ابن عباس : (( إن أبا بكر خرج وعمر بن الخطاب يكلم الناس ، فقال أبو بكر : أما بعد من كان منكم يعبد محمداً ص. فإن محمداً قد مات ؛ ومن كان منكم يعبد الله ، فإن الله حي لا يموت ! قال الله (( وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ؟ ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً ! وسيجزي الله الشاكرين )) . وقال : (( والله لكأن الناس لم يعلموا أن الله أنزل هذه الآية حتى تلاها أبو بكر فتلقاها منه الناس كلهم فما أسمع بشراً من الناس إلا يتلوها )) . - إن صح صحيح البخاري فالآية من أبي بكر يوم موت الرسول تحذيراً من الردة وتهديداً ، فأقحموها في آل عمران ، والإقحام ظاهر ، لأن السورة ووقائع أحد لا تحتل أي معنى للردة المذكورة .

(١) الآية ١٦٥ قال الجلالان : (( لما أصابكم مصيبة بأحد ، بقتل سبعين منكم ، وقد أصبتم مثلها ببدر بقتل سبعين وأسر سبعين منهم ، قتلتم من أين لنا هذا الخذلان ؟ ونحن مسلمون ورسول الله فينا ! قل لهم هو من عند أنفسكم لأنكم تركتم المركز فخذلتم ، ومن الله النصر ، ومنه منعه ، وقد جازاكم بخلافكم )) .

موقف المنافقين (١٦٦- ١٦٨) التعطيل من قبل: (( قالوا لو نعلم قتالاً لاتبعناكم )) ! ومن بعد: (( قالوا لو أطاعونا ما قُتلوا )) !

مصير القتلى (١٦٩- ١٧١) (( أحياء عند ربهم يرزقون<sup>١</sup> فرحين بنعمة الله وفضله )) .

\*

### القسم الرابع من آل عمران

غزوة بدر الآخرة في السنة الرابعة (١٧٢- ٢٠٠) (ربيع ٦٢٦م).

١- ما نزل بمناسبة غزوة بدر الآخرة<sup>٢</sup> (١٧١- ١٧٥).

تهديد من الناس والشيطان، قابله المؤمنون بإيمان فانقلبوا بنعمة من الله لم يمسسهم سوء.

٢- حملة على المنافقين بهذه المناسبة (١٧٦- ١٧٩) اشتروا الكفر بالإيمان: لن يضروا الله شيئاً؟ مسارعتهم في الكفر ليميّز الله الخبيث من الطيب فيما بينهم.

٣- حملة على اليهود بهذه المناسبة (١٨٠- ١٨٧):

ليس بخلهم خيراً لهم بل هو شر (١٨٠).

---

(١) الآية ١٦٩ (( بل أحياء عند ربهم )) : فكرة مسيحية شائعة أن الشهداء ينتقلون رأساً إلى السماء ، أحياء سعداء خالدين لذلك يستشفعون بهم للحال . والنص القرآني يرد حرفياً في ( التعليم المسيحي السوري : الذبذسكاليا 32 Patr Or. VII ) .

(٢) الآيات ( ١٧١ - ١٧٥ ) اختُلف في مدلولها : قيل (( روي أن المكيين ندموا على ترك المسلمين وقد أثنوا فيهم ( في أحد ) وهموا بالكرة ، ودرى بذلك النبي فندب الناس إلى الخروج ثانية فاستجاب المخلصون مع ما فيهم من جراح وبلاء ، وأخبار التجمع . ولم يجدوا عدواً لأن المكيين لم ينفذوا عزيمتهم )) ( دروزة : سيرة الرسول ٢ : ٢٨٠ ) ولهذا القول سند من قوله (( من بعد ما أصابهم القرح )) ( ١٧١ ) . وقال الجلالان: (( نزل لما أراد أبو سفيان وأصحابه العود ، وتواعدوا مع النبي ص. وأصحابه سوق بدر ، العام المقبل من يوم أحد ... وخرجوا مع النبي ص. فوافوا سوق بدر وألقى الله الرعب في قلب أبي سفيان وأصحابه فلم يأتوا )) ؛ ولهذا القول سند واضح من قوله : (( الذين قال لهم الناس : إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم )) مما يوحي بتجمع جديد ، لأن المكيين في أحد كانوا كثرة، منتصرين ، لا حاجة بهم إلى تجمع .

- رد على مقالة أولى لهم: (( إن الله فقير ونحن أغنياء )) - فلا غرو فإنهم بنو قتلة الأنبياء! (١٨١- ١٨٢).

- رد على مقالة ثانية لهم: (( إن الله عهد إلينا ألا نؤمن لرسول حتى يأتينا بقربان تأكله النار! قل قد جاءكم رسل قبلي بالبينات وبالذي قلتم فلم قتلتموهم؟! )) (١٨٣- ١٨٥).

- تحذير منهم: لتسمعن من الكتابيين والمشركين أذى كثيراً! (١٨٦).

- توبيخ لليهود: نبذوا ميثاق الله عليهم بإظهار الكتاب والنبي للناس! (١٨٦- ١٨٨).

(٤) خطاب للمسلمين (١٨٩- ١٩٥): تأمل في الإيمان والاستشهاد وثوابهما.

ختام (١٩٦- ٢٠٠) موقف أهل المدينة من الدعوة القرآنية، في السنة الرابعة للهجرة:

- تفوق المنافقين والكفار بالتجارة والكسب.

- تفوق المؤمنين بالإيمان والثواب.

- إيمان بعض الكتابيين بالقرآن.

\*

\* \*

### السورة الرابعة (أو ٩٤): الحشر (٥٩) (( سورة بني النضير )) .

فذلكت: قال دروزة: (( سورة الحشر نزلت عقب جلاء بني النضير الذي كان في أواخر السنة الثالثة (٢) ففي آب ٦٢٦ ، كان حصار بني النضير وجلاؤهم عن المدينة )) . (( إن المجمع عليه أن وقعة بني النضير التي أشير إليها في سورة ( الحشر ) قد وقعت قبل وقعة الخندق ووقعة بني قريظة التي كانت عقبها ... فإن من المعقول أن تكون آيات الحشر التي أشارت إلى وقعة بني النضير قد نزلت قبل سورة الأحزاب )) .

(١) الآية ١٨٣ (( بقربان تأكله النار ... فلم قتلتموهم )) : الإشارة إلى المسيح وقربانه وقتله صريحة ، وإن حاولوا إخفاءها . قال الجلالان : (( وعهد إلى بني إسرائيل ذلك إلا في المسيح ومحمد . قل لهم قد جاءكم رسل من قبلي بالمعجزات وبالذي قلتم كزكريا ويحيى فقتلتموهم )) . - زكريا ويحيى لم يأتوا بقربان ، ومحمد لم يأت بقربان ولم يقتله اليهود : بل القربان هي معجزة المسيح الكبرى ( المائدة ١١٥ الخ ) وقد قتله اليهود بعدها : لا ينطبق النص إلا على المسيح . وقوله (( فلم قتلتموهم )) القرآن يعتبر اليهود بني قتلة الأنبياء مثل الإنجيل ( متى ٢٣ : ٢٧ لوقا ١٣ : ٢٤ ) .  
(٢) سيرة الرسول ٢ : ١٣ .

« وإن سبب الغزوة المباشر هو أن النبي ص. ذهب مع بعض أصحابه إلى محلة بني النضير يستعينهم على دية بعض القتلى، فتأمروا على اغتياله... ولقد كان قبل هذا الحادث أن أمر النبي بقتل أحد شعرائهم وزعمائهم وطواغيتهم، كعب بن الأشرف، لما كان منه من هجو فاحش وكيد شديد للنبي والمسلمين كما جاء في كتب السيرة ( ١ ) ». وابن عباس يسمي ( الحشر ) سورة بني النضير .

قيل فيها من الناسخ موضع ، ولا منسوخ فيها .  
\*

**مطلع (١) يبدأ بالتسبيح للظفر السهل:** « سبح لله ما في السماوات وما في الأرض » !

**(١) الإشادة بالغزوة المظفرة (١-١٠):**

الله أخرجهم من حصونهم لأول الحشر، لأنهم شاقوا الله والرسول (٢-٤).

رد على مقالة اليهود في الحصار: يا محمد تنهى عن الفساد، فما بال تقطيع النخيل؟ -  
كان بإذن الله ليخزي الفاسقين! (٥)

تشريع جديد للغنائم (٦-١٠): إنها « فيء » بلا حرب.

فهي للنبي وفقراء المهاجرين<sup>٢</sup> (٨).

فلا يتحرّج الأنصار من ذلك، ولا يحفظ لهم المهاجرون غلاً في قلوبهم (٩-١٠)

**(٢) حملة على المنافقين حلفاء النضير (١١-١٧):**

يخادعون حلفاءهم! وأنتم أشد رهبة في صدورهم من الله (١١-١٣).

تحسب المنافقين واليهود معاً، وقلوبهم شتى! فأصاب بني النضير « ما أصاب الذين من قبلهم قريباً » أي بني قينقاع (١٤-١٥).

كان دور المنافقين معهم كدور الشيطان، فعاقبتهم واحدة (١٦-١٧).

(١) دروزة: سيرة الرسول ٢: ٢٨٢ و ١١٩ - ١٢٠ .

(٢) الآية ٧ « تذكر » (الفيء من أهل القرى) أي خيبر وفدك في وادي القرى وكان غزوهم سنة ٦٣٠ م ، فهي مقحمة على السورة وآية الفيء ( حشر ٨ ) المتأخرة في النسق ، منسوخة بآية الأنفال في الخمس ، وهي متقدمة في النسق ، على رأي من قال بالنسخ فيهما ( الإتقان ٢ : ٢٤ ) وقال النحاس ( ٢٣٢ ) : « اختلفوا في هل الفيء هو الغنيمة : من قال هو الغنيمة قال هي منسوخة بآية الأنفال » . وقال أبو جعفر: « الفيء خلاف الغنيمة أو الآية محكمة لا منسوخة فأموال المحاربين حلال للمسلمين » .

### (٣) عبرة للمسلمين من الحادثة (١٨- ١٢):

اتقوا الله ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم الله أنفسهم (١٨- ١٩).

لا يستوي أصحاب النار وأصحاب الجنة (٢٠).

ولو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً: تلك أمثال للتفكير! (٢١).

(٤) نشيد الحمد على الظفر السهل على بني النضير: تعداد أسماء الله الحسنى (٢٢) -

(٢٤).

**الخاتمة (٢٤):** مثل الفاتحة: (( يسبح له ما في السماوات والأرض )) !

\*

\* \*

السورة الخامسة: ( أو ٩٥ ) : النساء (٤) - تنظيم الأحوال الشخصية في الأمة الجديدة.

فذلكة: زمن نزول السورة . إنها تحوي سلسلة من الفتاوي للمؤمنين والحملات على اليهود والمنافقين . ولا يعقل ذلك بعد حملة الخندق التي تصفها سورة الأحزاب ، حيث قضى على بني قريظة آخر قبيلة يهودية في المدينة ، ولا تسبق هزيمة أجد ، لأنها تذكر مؤامرة اليهود مع قريش لتأليب المشركين عامة على المؤمنين ( ١ ) ( ٥٠ - ٥٢ ) ؛ وتذكر فرح المنافقين بمصيبة المسلمين ( ٧١ - ٧٦ ) ؛ وتذكر تأمر المنافقين واليهود على المسلمين ، مما يشعر بأن الطرفين كانا بعد في وضع يسمح لهم بذلك ، قبل تصفية اليهود في المدينة . وفي سورة الأحزاب ، الآية (( قد علمنا ما فرضنا عليهم في أزواجهم وما ملكت أيمنهم )) ( ٥٠ ) وفيها تحليل النبي من الحدود المفروضة على المسلمين في سورة النساء ( ٣ ) وغيرها . فسورة النساء إذن نزلت ما بين أجد والخندق ، ونستغرب أن يجعلها الترتيب المتواتر عند المسلمين ، بعد الأحزاب التي تنص على تصفية يهود المدينة .

وقد ورد اسم (( سورة النساء )) بحرفه ومعناه في التلمود ( مشنة : ثالثاً سدرنسيم ) .

قيل فيها من الناسخ ثمانية مواضع ، ومن المنسوخ اثنان وعشرون ، صح منها ثلاثة عشر .

\*

الفصل الأول من سورة النساء: استفتاءات في الأحوال الشخصية (١- ٣٤).

**مطلع (٢) يا أيها الناس اتقوا ربكم - آية مستقلة<sup>٢</sup>.**

**أولاً: أحكام اليتامى (٢- ٥)**

(١) وأتوا اليتامى أموالهم ولا تضموا أموالهم إلى أموالكم في الإنفاق (٢)

(١) قابل دروزة : سيرة الرسول ٢ : ١٠٨ .

(٢) الآية ( ١ ) قال الجلالان : (( يا أيها الناس أي يا أهل مكة )) ، فالخطاب من مكة والآية مقحمة مستقلة .

- (٢) وإن خفتم ألا تقسطوا في نكاح اليتيمة، فانكحوا غيرها من النساء إلى أربع معاً .  
 (٣) ثم أمرهم أن يؤتوا النساء صدقاتهن ( أي مهورهن ) (٣).  
 (٤) ونهاهم أن يؤتوا السفهاء من اليتامى وغيرهم أموالهم التي هم عليها قيمون (٣).  
 (٥) ثم أمرهم أن يبتلوا اليتامى عند البلوغ فإن كانوا غير سفهاء دفعوا إليهم أموالهم (٤).  
 (٦) أخيراً أمر الغني أن يستعفف في مال اليتامى، وأباح للفقير أن يأكل منها بالمعروف<sup>٢</sup>  
 (٥).

\*

### ثانياً: أحكام الميراث (٦-٤٤)

- (١) للنساء نصيب مفروض مما ترك الوالدان والأقربون، وللرجال نصيب مفروض<sup>٣</sup>  
 (٦)

(١) الآية (٣) يرد فيها تشريع عدد الزوجات المباح بمناسبة أحكام اليتامى . قال ابن أبي الاصبع في ( بديع القرآن ١٧٤ ) : « وظاهر الآية يتوجه عليه إشكالات : منها لِمَ عدل عن العدد الصحيح إلى المعدول ( مثني وثلاث ورباع ) ولم يقل ( اثنتين وثلاث وأربع ) ؟ ولِمَ عطف جملها ( بالواو ) المقتضية للجمع حتى التيس الأمر فيها ، فجاء ظاهرها يدل على إباحة الجمع بين تسع نسوة ؟ ولم نزل عن الأربع لِمَن يخاف ألا يعدل ، إلى الواحدة ؟ ولم لم يأت لفظ الواحدة معدولاً ليناسب ما قبله من العدد المعدول ؟ يجيب « بأن ذلك من باب الاختصار والإيجاز » . ولكن الإيجاز الذي يضر بالبيان يضر بالإعجاز . ولم قال ( ما طاب لكم من النساء ) حتى أنزلهن منزلة غير العاقل ، أو المملوك مثل الأشياء ؟ وظاهر التعميم ( من النساء ) يدخل فيه الأمهات والأخوات ، فاقتضى الإيضاح : « حرمت عليكم أمهاتكم » ( ٢٢ ) .

وتحديد عدد النساء بأربع من تحريضات التلمود، بعد انتشار الإنجيل ؛ وذكر ابن ميمون أنها كانت مشورة شائعة عندهم - فاعتمدها القرآن، مع ميل ظاهر إلى شريعة الإنجيل : « فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة (٣) ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم » ( ١٢٨ ) . فجاء تشريعه وسطاً بين التوراة والإنجيل، كما يليق « بالأمة الوسط » .

(٢) الآية (٥) قال النحاس : « اختلفوا فيها . فمنهم من قال إنها منسوخة ، نسخ الظلم في الأكل بقوله ( إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون في بطونهم النار ) . واقترق الذين قالوا إنها محكمة فرقاً ، وأكثرهم على تفسير ( من كان فقيراً فليأكل بالمعروف ) أي بما سدّ الجوعة ووارى العورة » .  
 (٣) الآية (٦) كانوا في الجاهلية يورثون الرجال من دون النساء فنقض تلك العادة . قال النحاس : إن هذه الآية (٦) نسختها آية المواريث « يوصيكم الله في أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين » ( ١٠ ) .



(٢) فريضة إلهية لمن يحضر القسمة ممّن لا يرث، من أولي القربى واليتامى والمساكين<sup>١</sup> (٧).

(٣) والصغار يرثون كما يرث الكبار؛ وحذر من أكل نصيبهم من الميراث<sup>٢</sup> (٨).

- استدرّك أول على الآية الخامسة في أكل أموال اليتامى ظلماً (٩)

- استدرّك ثان على شريعة الارث الأولى (٦ و٨): توزيع أسهم الميراث (١٠-١٣) )) للذكر مثل حظّ الانثيين<sup>٣</sup> .

\*

### ثالثاً: أحكام الزنى واللواط (١٥-١٨)

(١) قيّد حكم الزنى بأربعة شهود، وحده على الزاني بالأذى، والزانية بالحبس حتى الموت<sup>٤</sup> (١٤)

(٢) جعل حدّ اللواط الأذى: (( واللذان يأتيانها منكم فأذوهما ))<sup>٥</sup> (١٥).

(١) الآية (٧) كانت الهبة من الميراث عادة مستحبة عندهم فجعلها فريضة . قال النحاس : (( اختلف العلماء فيها فقال بعضهم هي منسوخة بأية الموارث ، وقيل هي محكمة : إما واجبة على ما طابت به أنفسهم ، وإما على الندب والترغيب )) .

(٢) الآية (٨) كانوا في الجاهلية لا يرثون الصغار لضعفهم . قال النحاس : نسخها قوله (( فمن خاف من موصلٍ جُنفاً أو إثماً فأصلح ... ))

(٣) الآية (١٠) آية الموارث الشهيرة . جاء في الإتيان (٢ : ١٦) : (( استثنوا من الميراث بالسنة القاتل والمخالف في الدين! واستثنوا بالإجماع ، الرقيق فلا يرث . ذكره مكّي )) . وتشريع القرآن في الميراث )) للذكر مثل حظّ الانثيين )) قضى على المساواة الاجتماعية بين الرجل والمرأة .

(٤) الآية (١٤) حدّ الزنى على الرجل الأذى وعلى الزانية الحبس حتى الموت : وهذه التفرقة في حدود الدين تفرقة المساواة بين الرجل والمرأة ، مع العلم أن الرجل قد يكون السبب في الأكبر في الفحشاء . وقد نسخ هذا الحد بالجلد مائة جلدة (سورة النور) . وكان حدّ الزنى في التوراة الرجم حتى الموت (أخبار ٢٠ : ١٠) . وكتب الأديب الروماني اميانس مرشليونس الذي عاش بين العرب سنة ٥٣٣ عن شيوخ الفاحشة بينهم :

(XIV, 4) (( incredibile est ardore in venerum uterque solvitur sexus )) .

(٥) الآية (١٥) (( فأذوهما )) . قال النحاس : (( والصحيح في الآيتين (١٤ و١٥) أن آية الأذى (١٥) نسخت آية الحبس حتى الموت (١٤) . وجاءت آية النور (٢) فنسخت الآيتين بالجلد . وقالوا : فإن كانا محصنين رُجما في سنة الرسول : فثبت الجلد بالقرآن والرجم بالسنة )) . وهناك رأى آخر أن الآية (١٥) فيها حكم اللواط بين رجلين ، وعليه الجلالان : (( وهذا الأذى منسوخ بالحدّ إن أريد بها الزنا، وكذا إن أريد بها اللواط عند الشافعي لكن المفعول به لا يُرجم عنده وأن كان محصناً بل يُجلد ويُغرب . وإرادة اللواط أظهر بدليل تنبيه الضمير )) . وقالوا (نور ٢) : (( أمر بذلك (أي الحبس حتى الموت) أول الإسلام ثم جعل لهن سبيلاً بجلد البكر مائة أو تغريبها عاماً ، ورجم المحصنة )) .

(٣) تعقيب: التوبة العاجلة مقبولة، والتوبة المؤجلة حتى الموت غير مرضية<sup>١</sup> (١٦- ١٧)

\*

رابعاً: أحكام الزواج (١٨- ٣٤) تنمّة أحكام سورة البقرة.

(١) « لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرهماً؛ ولا تعضلوهن لتذهبوا ببعض ما آتیتموهن<sup>٢</sup> » (١٨).

(٢) « وعاشروهن بالمعروف » أي بالإجمال في القول والنفقة والمبيت (١٨).

(٣) وفي حال استبدالكم زوجاً بزوجة فلا تأخذوا من صداقهن شيئاً (١٩- ٢٠)<sup>٣</sup>.

(٤) ولا تنكحوا ما نكح آبؤكم من النساء (٢١).

(٥) محرّمات النكاح إلى الدرجة الثالثة « ثم أحلّ لكم ما وراء ذلك من النساء: كتاب الله عليكم<sup>٤</sup> » (٢٢)

« وحرّمّت عليكم المحصنات - ذوات الأزواج - من النساء إلا ما ملكت أيما نكح (٢٣)<sup>٥</sup> »

\*

(١) الآية (١٧) توبة الفاسق عند الموت غير مقبولة مثل توبة الكافر . وقيل هي منسوخة في أهل الشرك بأخر الآية . قابل على الاثنین توبة اللص على الصليب قبل موته وقبولها في إنجيل ( لوقا ٢٣ : ٤٠ - ٤٣ ) .  
(٢) الآية (١٨) قال الجلالان : « كانوا في الجاهلية يرثون نساء أقربائهم مكرهين ، فإن شاؤوا تزوجوهن بلا صداق أو زوجهن وأخذوا صداقهن أو عضلوهن ( منعوهن ) حتى يفتردين أنفسهم بما ورتته أو يمتن فيرثوهن : فنهوا عن ذلك . ( ولا أن تعضلوهن ) أي أن تمنعوا أزواجكم عن نكاح غيركم بإمساكنهن ، ولا رغبة لكم فيهن سوى المهر » .

(٣) الآية (١٩) : « فلا تأخذوا منه شيئاً » وفي موضع آخر « ولا جناح عليهما فيما اقتدت به نفسها » .  
(٤) الآية (٢٢) محرّمات النكاح : امرأة الأب ، والأم ، والبنت ، والأخت ، والعمّة ، والخالة ، وبنات الأخ ، وبنات الأخت ، وأمّ الرضاع ، وأخت الرضاع ، وأمّ الزوجة ( الحماة ) وبنات الزوجة المدخول بها ، وأخت الزوجة ما دامت في العصمة ، وذات البعل إلا السيّبة إذا ملّكت ولها بعل ، ثم أحلّ ما وراء ذلك أي ما بعد الثالثة الدموية أو الأهلية . وهذه المحرمات شريعة تورانية شاعت بين العرب فجاء القرآن وأخذ بها ( أحبار ٢٠ : ١٨ تثنية ١٠ : ١٤ ) كذلك الجمع بين الأختين أو الأم وابنتها ( أحبار ٢٠ : ١٤ ) . وقابل في التشريع النسائي كله ( سفر الأحبار ف ١٨ و ٢٠ ) .

(٥) الآية (٢٣) قال الجلالان : « وحرّمّت عليكم المحصنات ( أي ذوات الأزواج ) من النساء ، أن

- ٦) نكاح المملوكات بإذن أهلهن، وبدون زنا. نكاح المتعة<sup>١</sup> (٢٣- ٢٤).  
 - استطراد (٢٥- ٢٧) طريقة التشريع القرآني: أتباع الكتاب مع تخفيف<sup>٢</sup>.  
 - إقحام (٢٨- ٣٢): تحريم التعدي على المال والنفس<sup>٣</sup>.

تتكوهن ، قيل مفارقة أزواجهن ، حرائر ، مسلمات كنّ أولاً - إلا ما ملكت أيمانكم )) . واستملاك النساء يصير بالمال أو بالسبي . وفي أسباب النزول عن أبي سعيد : (( أصبنا سبايا من سبي أوطاس لهن أزواج فكرهنا أن نفع عليهن ولهن أزواج ، فسألنا النبي فنزلت ( والمحصنات من النساء إلا ما ملكت أيمانكم ) أي ( إلا ما أفاه الله عليكم ) فاستحللنا بها فزوجهن )) .

(١) الآية ( ٢٣ ) نكاح المملوكات شريعة توراثية أيضاً ( خروج ٢١ : ٧ - ١١ ) . وحدّ زنا الأمة نصف حدّ الحرّة ، وفي التوراة ( أحبار ١٩ : ٢٠ ) يسقط عنها الرجم حتى الموت لأنها أمة .

- وفي الآية ( ٢٣ ) آية المتعة أيضاً : (( فما استمتعتم به منهن فاتوهن أجورهن ، ولا جناح عليكم فيما تراضيتن به مع الفريضة )) . قال البيضاوي : (( قيل نزلت الآية ٢٤ في المتعة التي كانت ثلاثة أيام حتى فتحت مكة ، ثم نسخت لما روي أنه عليه الصلاة والسلام أباحها ثم أصبح يقول : ( أيها الناس أني أمرتكم بالاستمتاع من هذه النساء إلا أن الله حرّم ذلك إلى يوم القيامة ) . والمتعة هي النكاح الموقت بوقت معلوم سمّي بها ( نكاح المتعة ) إذ الغرض منه مجرد الاستمتاع بالمرأة ، وتمتعها بما تُعطى . وجوّزها ابن عباس ر . ثم رجع عنها )) . والمتعة المذكورة ليست نكاحاً صحيحاً ولا ملكاً صحيحاً لتعبيرين : الصداق أو المهر يدفع قبل الزواج ، وهنا يدفع بعد المتعة ؛ وهذا الذي يُعطى لها هو (( أجر )) لا صداق ، وهو أجر كامل لا بعض الصداق المؤخر . قال السيد زهدي يكن ، رئيس محكمة التمييز ببلنجان في ( مجلة العربي ، حزيران ١٩٦٠ ص ١٠٦ ) : (( زواج المتعة ليس أساس الخلاف فيه التردد في أن الرسول ص . شرعه ، ولا أن من الصحابة من عمل به على عهده ، ولا أن بعضهم استمرّ يرى بقاء هذه المشروعية بعد وفاة الرسول ، إنما الخلاف في أن هذا الحكم نُسخ أم لم يُنسخ ، فثبت النسخ عند فريق ( السنة ) ولم يثبت عند الفريق الآخر ( الشيعة ) . وعن الحكم : أمسنوخة هي ؟ - قل : لا ! وزاد الحكم : قال علي ر . لولا أن عمر ر . نهى عن المتعة ما زنى إلا شقي )) .

(٢) الآيات ( ٢٥ - ٢٧ ) تنص سورة البقرة ( ١٤٣ ) على الدين الوسط (( للأمة الوسط )) ، وتنص سورة النساء على الشريعة الوسط للأمة الوسط ( ٢٥ - ٢٧ ) : فالقرآن يهدي لسُنن أهل الكتاب ( ٢٥ ) مع تخفيف لها بسبب ضعفهم ( ٢٧ ) ؛ وبهذا التخفيف يأتي تشريع القرآن وسطاً بين (( كتاب الله )) ( ٢٣ ) وعوائد العرب ( ٢٦ ) . ولاحظ أنه يجعل مصدر تشريعه (( كتاب الله )) ( ٢٣ ) الذي فيه (( سنن النبيين من قبلكم )) ( ٢٥ ) .

(٣) الآية ٣١ (( للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن )) نزلت لما قالت أم سلمة : ليتنا كنا رجالاً فجاهدنا وكان لنا مثل أجر الرجال ( الجالان ) . قال النحاس : (( اختلف العلماء فيها : منهم من قال هي منسوخة : كانوا يتوارثون في الجاهلية بالتبني ، وتوارثوا في الإسلام بالإخاء ، ثم نسخ هذا كله بفريضة الارث لأولي الأرحام . ومنهم من قال هي ناسخة للتوارث بالإخاء دون الرحم . ومنهم من قال هي محكمة )) .

(٧) شريعة قوامه الرجال على النساء: بما فضّل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا<sup>١</sup> (٣٣).

- (( واللاتي تخافون نشوزهن فعظوهن واهجروهن في المضاجع واضربوهن<sup>٢</sup> )) (٣٣).  
 - (( وإن خفتن شقاق بينهما فابعثوا حكماً من أهله وحكماً من أهلها<sup>٣</sup> )) (٣٤).

\*

\* \*

(١) الآية ٣٣ (( الرجال قوامون على النساء )): هذه الآية تقضي بفضل الرجل على المرأة ، وتقضي على المساواة بين الرجل والمرأة ، أولاً في الطبيعة (( بما فضّل الله بعضهم على بعض )) أي (( بتفضيله لهم عليهن بالعلم والعقل والولاية وغير ذلك )) ( الجلالان ) : ثانياً في الإنفاق بالمهر والمعيشة . قال البيضاوي أيضاً : (( يقومون عليهن قيام الولاية على الرعية ؛ وعلل ذلك بأمرين وهبي وكسبي : الوهبي : فقد نسب تفضيله تعالى الرجال على النساء بكمال العقل وحسن التدبير ومزيد القوة في الأعمال والطاعات ، ولذلك خُصّوا بالنبوة والامامة والولاية وإقامة الشعائر والشهادة في مجامع القضاء ووجوب الجهاد والجمعة ونحوها ، والتعصيب ، وزيادة السهم في الميراث والاستبداد بالفراق . والكسبي ( بما أنفقوا من أموالهم ) في نكاحهن كالمهر والنفقة )) . وقال الزمخشري : (( يقومون عليهن أمرين ناهين كما يقوم الولاية على الرعايا ، وسمّوا ( قواماً ) لذلك . وقد ذكروا في فضل الرجال : العقل والحزم والعزم والقوة والكتابة في الغالب ، والفروسية والرمي ؛ وإن منهم الأنبياء والعلماء ، وفيهم الإمامة الكبرى والصغرى ، والجهاد والأذان والخطبة والاعتكاف ، وتكبيرات التشريق عند أبي حنيفة والشهادة في الحدود ، والقصاص وزيادة السهم في الميراث ، والتعصيب ، والجملة والقسامة ، والولاية في النكاح والطلاق والرجعة وعدد الأزواج وإليه الانتساب ؛ وهم أصحاب العمائم واللحي )) .

(٢) في حال نشوز الزوجة ، قال الزمخشري : (( أمر بوعظهن أولاً ثم هجرانهن في المضاجع ( هذه القرينة تدل على أنه الجماع ) ثم بالضرب إن لم ينجع فيهن الوعظ والهجران . ( وفي الحاشية : بعضهم يقول بأن هذه الأنواع الثلاثة على الجمع لا على الترتيب ) . وعن الحسن : إن رجلاً لطم وجه امرأته فأنت النبي ص. فشكت إليه ، فقال : القصاص ! فنزلت ، فرفع القصاص - وقيل : لا قصاص بين الرجل وامرأته فيما دون النفس ولو شجّها ، ولكن يجب العقل . وقيل : لا قصاص إلا في الجرح والقتل ، وأما اللطمة ونحوها فلا . وقالوا يجب أن يكون ضرباً غير مبرح لا يجرحها ولا يكسر لها عظماً ويجتنب الوجه . وعن النبي : عَلَّقَ سَوْطَكَ حَيْثُ يَرَاهُ أَهْلُكَ ! وعن أسماء بنت أبي بكر الصديق : كنتُ رابعة أربع نسوة عند الزبير بن العوام ، فإذا غضب على إحدانا ضربها يعود المشجب حتى يكسره عليها ؛ والمشجب الخشبة تُلقَى عليها الثياب )) . - وكل ذلك داخل في العشرة بالمعروف ( ١٨ ) . والشريعة البرهمية تستنكر ضرب المرأة ولو بزهرة !

(٣) الآية ٣٤ قال الزمخشري : (( شقاق بينهما ، أصله شقاقاً بينهما . ( إن يريدوا إصلاحاً يوفق الله بينهما ) الضمير الأول للحكمين ، والثاني للزوجين ؛ وقيل الضميران للحكمين ؛ وقيل الضميران للزوجين - فهل هذا الإيجاز من الإعجاز ؟ - فإن قلت : هل يلي الحكمان الجمع بينهما أو التفريق إن رأياً ذلك ؟ قلت : قد اختلف فيه ؛ فقيل ليس إليهما ذلك إلا بإذن الزوجين ؛ وقيل ذلك إليهما وما جُعلا حكمين إلا وإليهما بناء الأمر على ما يقتضيه اجتهادهما )) .

## الفصل الثاني<sup>١</sup> من سورة النساء: خطابات توجيهية للمسلمين (٣٥- ٥٧).

**خطاب أول للمسلمين (٣٥- ٤١)** وفيه تعريض باليهود والمنافقين:

- للمسلمين (٣٥): عبادة اله وحده، والإحسان بدون اختيال ولا تفاخر!
- لليهود (٧٦): يبخلون بالنفقة للجهاد ويأمرون الناس بالبخل، ويكتمون الكتاب!
- للمنافقين (٣٧- ٣٩): ينفقون رثاء الناس! وماذا عليهم لو آمنوا وأنفقوا؟
- ختام (٤٠- ٤١)** كل نبي شهيد على أمته، ومحمد شهيد على (( هؤلاء )) العرب.
- الآية (٤٢) مقحمة: تحريم الصلاة على السكارى وعلى الجُنُب<sup>٢</sup>.

\*

## **خطاب ثانٍ: حملة على اليهود (٤٤- ٥٧).**

- أهل الكتاب اليهود يشتركون الضلالة بالهدى، ويحرفون الكَلِم عن مواضعه<sup>٣</sup> (٤٣- ٤٥).

(١) الفصل الأول: صدر سورة النساء (١ - ٣٤) يعدد الخطايا (( الكبائر )) في الإسلام . واختلفوا في عددها من ثلاث إلى أربع إلى سبع إلى تسع . وعرفوا (( الكبيرة )) بقولهم : كل ما نهى الله عنه فهو كبيرة ؛ وقيل : كل موجبة ، وكل ما أوعد الله أهله عليه النار فهو كبيرة .

(٢) الآية ٤٠ (( لا تقربوا الصلوة )) أخذ القرآن كلمة ( الصلوة ) بحرفها ومعناها عن اللغة السريانية أي الصلاة وموضع الصلاة ، والقريظة أنه يقصد أيضاً موضع الصلاة في قوله ( إلا عابري سبيل ) . وقد عطف اسماً ( جنباً ) على جملة اسمية ( وأنتم سكارى ) . وتحريم الصلاة على الجنب بايلاج أو إنزال عادة مسيحية قديمة . وتحريم الصلاة على السكارى شريعة ثوراتية لبني هارون ( أحبار ١٠ : ٩ ) اقتدى بها النذيريون ( العدد ٦ : ٢ ) والركابيون ( أرميا ٣٥ : ٥ ) وانتقلت العادة إلى اتقياء النصارى بتحريض الرهبان . وجاء في ( المستطرف ، الباب ٧٤ ) أن بعض العرب الأتقياء ، حتى من قريش ، كانت تمتنع عن شرب الخمر . فنزل بها القرآن فريضة على المسلمين ؛ وقال النحاس : (( أكثر العلماء على أنها منسوخة ، والخلاف على الناسخ لها . ثم يعدد حالات الوضوء أو التيمم ؛ منها (( أو لمستم النساء )) فيها قراءتان ( لمستم أو لامستم ) ومعنيان : عن ابن عباس هو الجماع ، وعن ابن عمر وعليه الشافعي : اللمس هو الجسّ باليد ، والحق به الجس بباقي البشرة ( الجلالان ) . فجسّ المرأة باليد وسواها يوجب الوضوء قبل الصلاة وإذا حدث بعد الوضوء يفسده ، بينما جس الرجل لا يوجب ذلك : يُفهم الوضوء بعد الجماع ولكن هل المرأة نجس في ذاتها حتى يقتضي جسّ المرأة باليد ( مثل السلام ) الوضوء قبل الصلاة ؟ وفي هذا الاعتبار نقض دائم للمساواة بين الرجل والمرأة في الشرع الإسلامي . أخيراً التيمم بالتراب عند امتناع الماء تخفيف تلمودي نزل به القرآن .

(٣) الآية ٤٥ (( يحرفون الكَلِم عن مواضعه ، ويقولون : سمعنا وعصينا ! واسمع غير مُسمع !

- ويلي التهديد: آمنوا قبل أن نطمس وجوهكم مثل أدباركم! لأن الله لا يغفر أن يشرك به<sup>١</sup>! (٤٦- ٤٧).

- أهل الكتاب اليهود يزكون أنفسهم مفتريين على الله الكذب (٤٨- ٤٩).

- مؤامراتهم في مكة؛ يقولون للمشركين: إنهم أهدى من المسلمين<sup>٢</sup>. لعنة الله عليهم (٥٠- ٥١).

- أغنياء بخلاء، ويحسدون النبي على ملكه العظيم من النبوة والنساء<sup>٣</sup> (٥١- ٥٢).

**ختام** (٥٤- ٥٦) للكافرين بالنبي بالنار، وللمؤمنين جنات تجري من تحتها الأنهار<sup>٤</sup>.

وراعنا! لئلاً بألسنتهم وطعناً في الدين)) : تصف مغالطات اليهود واستهزاءهم بالنبي! فقولته ( يحرفون الكلم عن مواضعه ) يقصد تحريف القرآن أكثر من التوراة لقولهم : سمعنا ( قولك ) وعصينا ( أمرك ) ! ( الجلالان ) . وهذه السخرية ( سمعنا وعصينا ) منقولة عن التوراة : « شمعنو وعصيتو » أي ( سمعنا وأطعنا ) لا « وعصينا » . قال دروزة : « كانوا يلوون ألسنتهم بكلمة ( راعنا ) حتى تؤدي إلى نعت النبي بالرعونة » بالسريانية ( رعنا ) ( سيرة الرسول ٢: ٧٢ ) .

(١) الآية ٤٦ تهديد لليهود بضرورة الإيمان بالنبي قبل أن يمحو ما في وجوههم من عيون وأناف وحواجب فيجعلها كالأقفاء لوحاً واحداً . ولما نزلت أسلم عبد الله بن سلام)) . ( الجلالان ) - والآية ٤٧ مقحمة لتوحي بأن اليهود أشركوا لكفرهم بالنبي! وجاء في ( أسباب النزول ) : « جاء رجل إلى النبي ص . فقال : إن لي ابن أخ لا ينتهي عن الحرام . قال : وما دينه ؟ قال: يصلي ويوحده الله ! قال : استوهبه دينه ، فإن أبي فابتعه منه . فطلب الرجل ذلك منه فأبى عليه . فأتى الرجل النبي فأخبره ، فقال : وجدته شحيحاً على دينه فنزلت . إن الله لا يغفر أن يشرك به ، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء - وهذا الحديث يدل على أن الآية مقحمة على السياق . وكم يختلف هذا الحديث وهذه الآية عن آية التوبة ( ٣٠ ) في قتال الكافرين !

(٢) الآية ( ٥٠ ) تنقل مقالة زعماء بني النضير ، الذين أجلاهم محمد عن المدينة ، لكفار مكة : إنهم أهدى من المسلمين ! - لقد أعمى الاضطهاد والحقد وحب الانتقام بصيرتهم ! - وفي هذه الآية دليل على أن سورة النساء نزلت بعد أحد وقيل الخندق .

(٣) الآية ( ٥٣ ) قال الجلالان (( أم يحسدون الناس أي النبي ، على ما أتاه الله من فضله أي من النبوة وكثرة النساء ، يقولون : لو كان نبياً لاشتغل عن النساء : - فقد أتينا آل إبراهيم ، جده ، كموسى وداود وسليمان الكتاب والحكمة والنبوة وأتيناهم ملكاً عظيماً ، فكان لداود تسع وتسعون امرأة ، ولسليمان ألف بين حرة وسرية )) . - النبوة والملك العظيم أمسيا في المدينة غاية النبي ؛ ومثاله في ذلك الأنبياء الملوك من بني إسرائيل ، لا عيسى ابن مريم في زهده كما كانت الحال في مكة .

(٤) الآية ( ٥٦ ) تصف سعادة الجنة : فالسما جنات وأنهار ، وأزواج مطهرة ، في ظل ظليل .

الآية (٥٧): (( أتوا الأمانات إلى أهلها، مقحمة، وهي من يوم فتح مكة<sup>١</sup> .

\*

**خطاب ثالث:** حملة على المنافقين في طاعة الرسول (٥٨-٦٩).

- (( أطيعوا الله والرسول وأولي الأمر منكم؛ وإذا تنازعتم في أمر فردوه إلى الرسول (٥٨).

- المنافقون يتحاكمون إلى الطاغوت، ويصدون عن النبي، ويحلفون كذباً<sup>٢</sup> (٥٩-٦٢).

- (( فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكّمونك فيما شجر بينهم ولا يجدوا حرجاً ويسلموا تسليماً (٦٣-٦٤).

- قد تقتضي تلك الطاعة من المسلمين قتال المنافقين ونفيهم: وهو أجر عظيم (٦٥-٦٧).

**ختام (٦٨-٦٩):** الطائعون مع الأنبياء والصديقين والشهداء والصالحين!

\*

\* \*

**الفصل الثالث:** من سورة النساء (٧٠-٨٣) **تحريض على القتال**، مع بعض أحكامه.

**خطاب أول:** تحريض المسلمين على القتال<sup>٣</sup> (٧٠-٧٩).

- (( انفروا ثباتاً أو انفروا جميعاً! ولا تبالوا بالمبطين (٧٠-٧٢).

- قاتلوا أولياء الشيطان في سبيل الله والمؤمنين المستضعفين في مكة (٧٣-٧٥).

(١) الآية (٥٧) قال الجلالان: (( نزلت عام الفتح لما أخذ علي مفتاح الكعبة من سادنها فأمر رسول الله برده إليه )) .

(٢) الآية (٥٩) (( بئنا هم جلوداً غيرها )) ، من التعابير المسيحية الشائعة قبل القرآن ( Migne: Patr. 1. p. 348).

(٣) الآيات (٧١-٧٨) تدل على القلق الذي استحوذ على زعماء الصحابة والمسلمين بعد هزيمة أجد ، واستقتلوا في تجديد التحريض على قتال قريش . قال دروزة : (( وفيها صورة غير مستحبة لموقف بعض المسلمين - يُرجح أنهم من غير المنافقين - من الدعوة إلى الجهاد ، ولعلها تُلهم أن بعض المهاجرين اندمجوا فيه أيضاً. ولعل الذين اندمجوا في هذا الموقف من المخلصين ، كانوا يرون أن قوة المسلمين ما تزال ضعيفة لا تقوى على فتح باب لا يُغلق إذا فُتح )) ( سيرة الرسول ٢ : ٢٣٦ ) . وقد أكدت الأيام صدق فراسة النبي السياسية والحربية .

- طلب بعضكم القتال، فلما كُتِبَ خافوا وتخاذلوا (٧٦- ٧٨).

**ختم (٧٩):** « من يُطع الرسول فقد أطاع الله » !

\*

**خطاب ثانٍ: حملة على المنافقين لتقاعسهم عن القتال (٨٠- ٨٦).**

- يخادعون في طاعة الرسول (٨٠) - آية الاختلاف في القرآن<sup>١</sup> (٨١) مقممة.

- يذيعون أخبار المسلمين بدل أن يردّوها إلى الرسول وأولي الأمر (٨٢).

- يحجمون عن الخروج إلى العدو (٨٣).

**ختم (٨٣):** أيها النبي قاتل ولا تكلف إلا نفسك، وحرّض المؤمنين على رد بأس الكافرين<sup>٢</sup>.

\*

\* \*

**الفصل الرابع: (٨٤- ١٢٦): استفتاءات في بعض الحالات.**

(١) في الحياة الاجتماعية: الوساطة بين الناس، والتحية<sup>٣</sup> (٨٤- ٨٦).

(٢) انقسام بين المسلمين على وضع المترددين في مكة، والمنافقين في المدينة (٨٧- ٨٩).

- حال المتذبذبين من غيرهم: إن لم يعتزلوكم فقاتلوهم<sup>٤</sup> (٣٠).

(١) آية الاختلاف في القرآن ( ٨١ ) قابل عنها فصلاً قيماً في ( الإتيان ٢ : ٢٧ ).  
(٢) الآية ( ٨٣ ) تظهر بطولة النبي في وقوفه وحده ضد قريش بعد هزيمة أُحد ، واتكاله على الله في ردّ بأس الكافرين به .

(٣) آية التحية ( ٨٥ ) رائعة ، مطلقة لا قيد لها ، وأرادوا لها أن يقيّدوا القرآن بالسنة ؛ قال الجلالان « وخصّت السنة الكافر والمبتدع والفاسق ، والمسلم على قاضي الحاجة ، ومَن في الحمام ، والأكل : فلا يجب الرد عليهم ، بل يُكره في غير الأخير ؛ ويقال للكافر - عليك » . يمنع القرآن من موالاته المنافق وغير المسلم إذا كان فيها ضرر للمسلمين ، ولكنه يفرض رد التحية بمثلها أو بأحسن منها على الجميع دون استثناء .

(٤) الآيات ( ٨٧ - ٩٠ ) تصف أربع حالات : الآية ٨٧ نزلت لما رجع ناس من أُحد ، واختلف الناس فيهم، فقال فريق : نقتلهم ! وقال فريق : لا ( الجلالان ) والآية ( ٨٨ ) نزلت في المسلمين المتخلفين في مكة : من تولّ منهم عنكم فاقتلوه حيث وجدتموه . ومَن وصل منهم إلى المعاهدين معكم فلا سبيل عليه . ومَن اشترك مرغماً مع المشركين في غزو المسلمين ولكن اعتزل القتال فلا سبيل عليه ( ٨٩ ) . والآية ( ٩٠ ) تصف المتذبذبين من أسد



(٣) قتل المؤمن خطأً أو عمداً - حده في الحاليين<sup>١</sup> (٩١-٩٢).

(٤) حال من يعلن إسلامه في الغزو: لا سبيل عليه<sup>٢</sup> (٩٣).

(٥) حال القاعدين عن الجهاد والمجاهدين: فضل الله المجاهدين وكلاً وعد الحسنى (٩٤-٩٥).

(٦) مصير موتى المسلمين الذين لم يهاجروا: القادرون عليها جهنم، والمستضعفون عفو الله (٩٦-٩٨).

(٧) مصير من يموت وهو مهاجر: أجره على الله (٩٩).

(٨) تقصير الصلاة في السفر. وتقصير صلاة الخوف في حال الحرب<sup>٣</sup> (١٠٠-١٠٢).

وغطفان ( الجلالان ) يُسلمون مع المسلمين ويُشركون مع المشركين ، فإن اشتركوا في قتالهم فاقتلوهم حيث ثقتموهم . والآيتان ٨٩ و ٩٠ منسوختان بآية السيف ( الجلالان ) ، زاد النحاس ( ١١٠ ) : « فسيحوا في الأرض أربعة أشهر ، فليس بعد ذلك إلا الإسلام أو القتل لغير أهل الكتاب » .  
(١) الآية ( ٩١ ) شرعت التوراة « لوليّ الدم » الانتقام فالقاتل متعمداً يقتل ، ومنعت من قبول الدية من القاتل متعمداً ، أو خطأ إلى آخر مدة نفيه في مدن الملجأ ( عدد ٣٥ : ٣٠ - ٣٣ ) ؛ فخفف القرآن بقبول الدية من القاتل خطأ إلا أن يصدّق أهل المقتول . ( نساء ٩١ ) وبمنع الولي من الإسراف في القتل ( إسرائ ٣٥ ) : تشريع وسط .

- الآية ( ٩٢ ) القتل عمداً . قال النحاس ( ١١١ ) : « فيها خمسة أقوال : إنها ناسخة لآية الفرقان » والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر ... » . وقالوا : لا توبة للقاتل . وقالوا : للقاتل توبة إن تاب . ويقول أبو حنيفة والشافعي أن أمره إلى الله تاب أم لم يتب . وقيل إنها منسوخة بقوله ( إن الله لا يغفر أن يُشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ) . وعن ابن عباس وابن عمر أنها محكمة .

(٢) الآية ( ٩٣ ) جاء في أسباب النزول : « مرّ رجل من بني سليم بنفر من أصحاب النبي ص . وهو يسوق غنماً له فسلم عليهم فقالوا : ما سلم علينا إلا ليتعوذ منا ، فعمدوا إليه فقتلوه وأتوا بغنمه النبي ص . فنزلت . وقيل نزلت في المقداد قتل رجل له مال كثير بعد أن أسلم ، بسبب ماله . وقيل نزلت في أبي قتادة قتل عامر بن الأضبط الأشجعي في ماله ، أو في أسامة بن زيد قتل مرداس بن نهيك من أهل فدك في ماله وغنمه بعد أن أسلم فنزلت « تبتغون عرض الحياة الدنيا والله عنده مغانم كثيرة » . فالحديث والقرآن ينصّان على أن بعض الصحابة لم يكن يقاتل دائماً في سبيل الله والإسلام بل لأجل المغانم ، فاستغلوا شريعة الجهاد .

(٣) الآية ( ١٠٠ ) قال النحاس ( ١١٤ ) : « أكثر الفقهاء على أن صلاة لخوف ركعتين مقصورة من أربع ، وصلاة السفر ركعتان في سنة الرسول ، رخصة من الله وصدقة تصدّق بها الله على المسلمين . فصح قول من قال : قصر صلاة السفر بالسنة ، وقصر صلاة الخوف بالقرآن » . وتقصير صلاة الخوف تشريع تلمودي أيضاً

- (٩) لا تهنوا في ابتغاء القوم<sup>١</sup> (١٠٣).  
 (١٠) تحريم المحاباة في الحكم، في حادث سرقة<sup>٢</sup> (١٠٤- ١٢٥).  
 (١١) فتوى في يتامى النساء (١٢٦).  
 (١٢) حال المرأة التي تخاف من زوجها نشوزاً أو إعراضاً (١٢٧- ١٣٤).

\*

\* \*

### الفصل الخامس من سورة النساء: (١٣٥- ١٧٥) حملة على المنافقين واليهود.

**خطاب أول (١٣٥- ١٤٨) حملة عنيفة على المنافقين في خطاب للمسلمين:**

- (١) يتذبذبون في القرآن: « بشرهم بأن لهم عذاباً أليماً » (١٣٥- ١٣٨).  
 (٢) يتذبذبون بين المسلمين والكافرين ليصطادوا منهم الغنائم (١٣٩- ١٤١).  
 (٣) يتذبذبون في الصلاة: إن المنافقين في الدرك الأسفل (١٤١- ١٤٧).  
**ختام:** « فلا تتخذوهم أولياء » !

\*

### **خطاب ثانٍ (١٤١- ١٦١) حملة عنيفة على اليهود:**

- (١) يفرقون بين الرسل: يؤمنون ببعض، ويكفرون ببعض (المسيح)<sup>٣</sup> (١٤١- ١٥٢).

(١) الآية (١٠٣) « إن تكونوا تآلمون ، فإنهم يآلمون كما تآلمون » : إشارة إلى هزيمة أجد ، ونصر بدر . وهذا دليل آخر على أن سورة النساء نزلت بعد أجد .  
 (٢) الآية (١٠٤) نقل الجلالان : « سرق طعمة بن أبيرق درعاً وخبأها عند يهودي ، فوجدت عنده ، فرماه طعمة بها وحلف إنه ما سرقها . فسأل قومه النبي أن يجادل عنه ويبرئنه فنزلت » .  
 - والآية (١٢٢) : « ليس بأمانيكم ولا بأمانى أهل الكتاب ، من يعمل سوءاً يُجْزى به » جاء في أسباب نزولها : « إنه تفاخر النصارى وأهل الإسلام ، أو تفاخر أهل الأديان ، أو جلس ناس من اليهود ، وناس من النصارى ، وناس من المسلمين ، فقال كلٌّ منهم نحن أفضل فنزلت » . - وهذه الآية تتعارض مع كل الآيات التي تقول بتفضيل ملة إبراهيم .  
 (٣) الآيتان ١٤٩- ١٥٠ يكفّر القرآن فيهما اليهود على كفرهم بالمسيح « يؤمنون ببعض الرسل ويكفرون ببعض » وفي الآية (١٥٦) يأتي التكفير لليهود صراحة على تبجحهم بقتل المسيح . وهذا الموقف في الدفاع عن المسيح وأمه لا ينسجم مع مهاجمة النصارى في الآيات (١٧٠- ١٧٢) مما يوحي بأن الفصل مقحم على السورة .

(٢) يطلبون أن تنزل عليهم كتاباً من السماء كالألواح: لا غرو فهم عبدة العجل وقتلة الأنبياء (١٥٣- ١٥٤).

(٣) (( وبكفرهم وقولهم على مريم بهتاناً عظيماً ))<sup>١</sup> (١٥٥).

(٤) يتبجحون بقتل المسيح! - (( وما قتلوه يقيناً بل رفعه الله إليه ))<sup>٢</sup> (١٥٦- ١٥٧).

(١) الآية ١٥٥ القرآن يكفر اليهود في مقالاتهم (( على مريم بهتاناً عظيماً )) حيث رموها بالزنا ( الجلالان ) وفيه صدى لقلبه : (( يا مريم إن الله اصطفاك وطهرك ، واصطفاك على نساء العالمين )) ( آل عمران ) .  
(٢) الآياتان ( ١٥٦ - ١٥٧ ) تكفير اليهود على مقالاتهم وتبجحهم بقتل المسيح . وفيهما إشكالات لغوية ومعنوية

أولاً : الإشكالات اللغوية . قال الزمخشري : (( فإن قلت : كانوا كافرين بعيسى يسمونه ( الساحر ابن الساحرة ، والفاعل ابن الفاعلة ) فكيف قالوا ( المسيح عيسى ابن مريم رسول الله ) ؟ قلت : قالوه على وجه الاستهزاء ؛ ويجوز أن يضع الله الذكر الحسن مكان ذكرهم القبيح - وإن قلت ( شبه لهم ) مسنداً إلى ماذا ؟ إن جعلته مسنداً إلى المسيح فالمسيح مشبه به ، وليس بمشبه ! وإن أسندته إلى المقتول ، فالمقتول لم يجز له ذكر ! - قلتُ هو مسند إلى الجار والمجرور وهو ( لهم ) كقولك ( خبل إليهم ) كأنه قيل : وقع لهم التشبيه . ويجوز أن يسند إلى ضمير المقتول لأن قوله ( إنا قتلنا ) يدل عليه ، كأنه قيل : ولكن شبه لهم من قتلوه ... فإن قلت في قولهم ( لفي شك منه ، ما لهم به من علم إلا اتباع الظن ) وقد وصفوا بالشك ، والشك أن لا يترجح أحد الجانبين ؛ ثم وصفوا بالظن ، والظن أن يترجح أحدهما : كيف يكونون شاكين ظانين ؟ - قلت : أريد أنهم شاكون ، فإن لاحت لهم أمارة ظنوا )) .

ثانياً : الإشكالات المعنوية . قصة إلقاء شبه عيسى على المقتول مكانه مقالة مانوية ( قابل ابيفانس : كتاب الهرطقات ٢٤ : ٣ ) تسربت إلى الحنفاء العرب ، مع ما تسرب من المانوية إليهم . وقد وردت الأسطورة في كثير من كتب النصارى القديمة المنحولة . والرازي يرد رداً جميلاً على مقالة (( الشبه )) . بما لا يترك حاجة لمستزيد . بقي قضية قتل المسيح وصلبه : هل تنفي الآية قتل المسيح الجسدي ، أم القتل المعنوي الذي يتبجح به اليهود ؟ - أجمعوا على أن ظاهرها ينفي القتل الجسدي والصلب الحسي . فنقول : كيف تستقيم الآية مع ما قبلها في سورة مريم (( والسلام عليّ يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حياً )) (٣٣) وفي سورة آل عمران (( إني متوفيك ورافعك إليّ )) ( ٥٥ ) والوفاة ترد صراحة قبل الرفع ، وترد قول من قال إن الوفاة في ( مريم ) تعني الوفاة بعد نزوله في آخر الأزمان ، وفسرها ( الإتيان : في غريب القرآن ) بلفظ (( إني ممتيك )) ؛ ذلك تصريحاً ، وتلميحاً واضحاً في ( البقرة ٩٧ وآل عمران ١٨٣ ) ؛ وقد تنسخ آية النساء ما قبلها ولكن كيف تنسخ آخر آية نزلت عن آخرة المسيح في المائدة (( وكننّ عليهم شهيداً ما دمتُ فيهم ، فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم )) ( ١٢٠ ) حيث تعني الوفاة صراحة عكس الحياة ، وتعني الموت بعد ظهوره الأول ؟ قال المغالطون إن الوفاة تعني (( سنة الكرى )) أي الحال التي فيها رفعه الله إليه ؛ وهذا الزعم تنقضه صراحة آية المائدة حيث الوفاة عكس الحياة ؛ وينقضه استعمال القرآن الدائم للوفاة بمعنى الموت فقد وردت (( الوفاة )) في القرآن خمساً وعشرين مرة بمعنى الموت ، ومرتين بمعنى النوم ( أنعام ٦٠ زمر ٤٣ ) حيث تدل عليه القرائن اللفظية ( يتوفاكم في الليل ،

(( وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته )) (١٥٨).

(٥) حُرِّمَتْ عَلَيْهِمُ الطَّيِّبَاتُ لظلمهم وصددهم عن سبيل الله وأخذهم الربا (١٥٩- ١٦٠).

ويستثنى منهم بعض الراسخين في العلم<sup>٢</sup> (١٦١).

\*

والتي لم تمت في منامها ) . فأية النساء ( ١٥٦ ) تخلق تناقضاً مفضوحاً في القرآن لا سبيل إلى الخلاص منه إلا بفهم حملة القرآن على اليهود لتبجحهم بقتل المسيح على حقيقتها : فصدوا قتل المسيح الجسدي والمعنوي ، والقضاء عليه نهائياً . فرد القرآن عليهم بالتسليم بالقتل الجسدي ( وهو موقف القرآن العام ) وأنكر عليهم القتل المعنوي ، بقوله (( شبه لهم )) خيّل إليهم ذلك ، وخصوصاً بهذا الاستدراك (( وما قتلوه يقيناً )) لقوله (( وما قتلوه وما صلبوه )) : فالقرآن لا ينكر واقع القتل ، ولكن يستنكر معناه أي القضاء النهائي على المسيح وعلى رسالته ؛ ولذلك يصرح بأنه لا بد لكل كتابي أن يؤمن قبل موته بعيسى : فالاستدراك يوحي بأنه عنى في قوله (( وما قتلوه وما صلبوه )) القتل المعنوي الذي لا تقوم له قائمة بعده .

ينقل عبد الرحمان بدوي في كتابه ( من تاريخ الإلحاد في الإسلام ) فصلاً يردّ به صاحب ( المجالس المؤيدية ) على ابن الراوندي الملحد القائل : (( إن النبي دفع في وجه ملّتين عظيمتين متساويتين اتفقنا على صحة قتل المسيح وصلبه : فكذبهما )) ! حيث أجاب : (( وقوله سبحانه ( وما قتلوه وما صلبوه ) إخبار عن حقيقة حاله أنه عند الله سبحانه حي مرزوق ، ويوافق ذلك قوله ( ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون ) - آل عمران ١٦٩ - وهو كما قدمنا ذكره إخبار عن حقيقة حالهم دون مجازها ؛ والعلاء يطلقون القول على العالم الفاضل العاقل أنه حي وإن كان ميتاً ، وعلى البليد الجاهل أنه ميت وإن كان حياً )) . ويؤيد هذا التفسير ما نذهب إليه أن القرآن الذي يؤكد في كل المواضع تصريحاً أو تلميحاً موت المسيح ، لا ينكر في سورة النساء قتل المسيح الجسدي ، بل يستنكر تبجحهم بقتله المعنوي أيضاً .

(١) الآية ١٥٨ (( وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته )) قال الزمخشري : (( الضمير في ( به ) يرجع إلى عيسى والمعنى : وما من اليهود والنصارى أحد إلا ليؤمننّ قبل موته بعيسى ؛ وقوله ( قبل موته ) الضمير الكتابي وتدل عليه قراءة أبي (( إلا ليؤمننّ به قبل موته )) - وهذه القراءة ترفع الالتباس في الضمائر ( به ، موته ) - وعن الحجاج : (( آية ما قرأتها قط إلا تخالج في نفسي منها شيء ، وإني أوتي بالأسير من اليهود والنصارى فأضرب عنقه فلا أسمع منه ذلك )) . فأجيب : يتكلم بها في الهواء ، ولا تخرج روحه حتى يؤمن به . وقيل الضميران ( به ، موته ) لعيسى ، بمعنى ( وإن منهم أحد إلا ليؤمننّ قبل موت عيسى ) وهم أهل الكتاب الذين يكونون في زمان نزوله ؛ ويجوز أن يراد أنه لا يبقى أحد من جميع أهل الكتاب إلا ليؤمنن به ، على أن الله يحييهم في قبورهم لذلك في ذلك الزمان . - وقيل الضمير في ( به ) يرجع إلى الله تعالى ؛ وقيل إلى محمد ص )) . - وهذان القولان الأخيران يتعارضان مع سياق النص حيث الحديث كله عن عيسى .

وهكذا ترى أن الآيتين ١٥٦ - ١٥٧ من سورة النساء من (( متشابه القرآن )) كما تدل عليه كثرة الإشكالات اللغوية والمعنوية فيهما : لذلك يجب ردّهما إلى الآيات المحكمات في مريم ( ٣٣ ) وآل عمران ( ٥٥ ) والمائدة ( ١٢٠ ) .

(٢) الآية ١٦١ (( لكن الراسخون في العلم منهم ، والمؤمنون ، والمقيمون الصلاة ، والمؤتون الزكاة )) : لماذا نصب (( المقيمون الصلاة )) بين مرفوعين ( المؤمنون ، والمؤتون الزكاة ) ؟ - أجمعوا بأنه نصبها على

**خطاب ثالث عام (١٦٢- ١٧٤) القرآن منزل بعلم الله فأمنوا به.**

(١) إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى النبيين أجمعين<sup>١</sup> (١٦٢- ١٦٤).

(٢) الله يشهد بأنه نزل القرآن بعلمه: كفى به شهيداً (١٦٥- ١٦٨).

(٣) (( يا أيها الناس قد جاءكم الرسول بالحق: فأمنوا خيراً لكم )) (١٦٩).

**- فصل مقحم: دعوة النصارى للكف عن (( الغلو )) في المسيح، وعن مقالة (( الثلاثة ))<sup>٢</sup> (١٧٠- ١٧٢).**

المدح . - لماذا استثنى بالمدح ( المقيمين الصلاة ) وهل فضلهم أكبر من ( الراسخين في العلم ، والمؤمنين بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك ، والمؤتئين الزكاة والمؤمنين بالله واليوم الآخر ) وكلهم أفضل من كثير من المصلين (( الذين هم عن صلاتهم ساهون ويمنعون الماعون )) ؛ والإيمان أصل ، والصلاة فرع ، وصاحب الأصل أولى بالمدح . نظن أن الكاتب كتبها وهو ناعس ، فاللحن منه ؛ تؤيده قراءة مصحف عبد الله ( والمقيمون ) بالواو ، وهي أيضاً قراءة مالك بن دينار والجدرى وعيسى الثقفي .

(١) الآية ١٦٢ (( إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى إسماعيل والأسباط )) : لا تذكر التوراة إسماعيل بين الأنبياء والأسباط ، أولاد يعقوب ، محاولي قتل أخيه يوسف البار ، بظلم ، لا تعدّم التوراة من الأنبياء .

وقوله (( وأتينا داود زبوراً )) يجعل الزبور كله من داود ، وهو على التعليل ، إذ أكثر الزبور ليس من داود ؛ والقرآن يستعمل اللفظة الحبشية ، ويجهل التعبير العبراني (( مزمو )) . وفي الآية ( ١٦٢ ) لم يبق ذكر في المدينة ، تجاه علماء اليهود ، لأنبياء العرب هود وصالح وشعيب ، إلا لإسماعيل ، ( قابل أنعام ٨٤ ) .

(٢) الآيات ( ١٧٠ - ١٧٢ ) دعوة النصارى للكف عن الغلو في المسيح ، ومقالة (( الثلاثة )) وهي مقحمة على النص ، كما يدل عليه سياق الآيات ( ١٦٩ - ١٧٣ ) الذي يقطعه . وهذه الحملة على النصارى لا تفهم في سياق السورة العام أيضاً ، حيث يدافع القرآن عن المسيح والمسيحيين ضد اليهود . فلا شك أنها من عام الوفود ( سنة ٦٣١ ) حيث قام الجدل بين محمد ووفد نجران على بنوة المسيح من الله .

والآية ( ١٧٠ ) فيها تعريف بشخصية المسيح : إنه ( المسيح ، عيسى ، ابن مريم ، رسول الله ) وإنه ( كلمته ألقاها إلى مريم ، وروح منه تعالى ) وهو تعريف المسيح على الطريقة النسطورية التي كانت سائدة في شرق الجزيرة من نجران إلى الحيرة إلى العراق وفارس : المسيح شخصان ، عيسى بن مريم ، وكلمة الله ، اللذان اتحدا في ساعة الإلتقاء إلى مريم . وكلمة الله ليس مجرد أمر الله بخلقه ، بل هو شخص ملقى إلى مريم بدليل قوله إن كلمة الله (( روح منه )) أي صادر منه تعالى وهو (( يلقي إلى مريم )) لا يخلق فيها فهو كائن في الله قبل الإلقاء . وبحسب هذه النظرية ، لا يصح أن يقال لعيسى ابن مريم ، المولود منها أنه ابن الله ، وأن والدته هي أم الله ، لأن المولود منها هو غير الملقى إليها ، فهو اجتماع طارئ زائل . وكان القرآن في مكة أميل إلى الطريقة يعقوبية التي كانت سائدة في غرب الجزيرة من الحبشة إلى اليمن إلى أطراف الشام عند بني غسان ؛

(٤) « يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم؛ وأنزلنا إليكم نوراً مبيناً » (١٧٣- ١٧٤).

- ملحق: في الكلاله<sup>١</sup> (١٧٥).

\*

\* \*

السورة السادسة: (أو ٩٦) محمد (٤٧) (سورة محكمة في القتال) .

فذلكة: نزلت بين أهد والخندق: قبل أهد لذكر خوفهم من القتال أهد من الموت (٢٠)؛ وقبل الخندق لذكر المنافقين بشدة، وإفشائهم أسرار النبي إلى أهل الكتاب (١٦ - ١٨) .

قبل فيها من الناسخ موضع ومن المنسوخ موضعان (٤ و ١٥) .

**مطلع (١-٣):** أضلّ الله الكفار لأنهم اتبعوا الباطل، وأصلح بال المؤمنين لأنهم اتبعوا الحق.

(١) إعلان الحرب على أهل مكة من جديد (٤-١١).

- يجب ضرب رقاب المشركين حتى الأتخان، ثم الأسر، وبعد الأسر: من أو فداء<sup>٢</sup> (٤-٦).

وهذه الطريقة تجعل عيسى ابن مريم المولود منها وكلمة الله الملقى إليها شخصاً واحداً، كما يرشح من وصف سورة مريم (الفصل الأصيل ١٥ - ٣٣).

ونلاحظ أنها دعوة للنصارى لا عنف فيها، بل تحذير من ((الغلو))؛ وهذا الغلو في إكرام عيسى لا يمنعهم أن يكونوا موحدين مسلمين يدعوهم إلى ((كلمة سواء)) (ال عمران ٦٤) بعد جدال طويل توزع في سورة البقرة وآل عمران، والنساء والمائدة. ولا تذكر الإشارة كلها للنصارى سوى جدال أهل نجران الوحيد للنبي.

(١) في الإتيان (١ : ١١٦): ((الكلاله: من لم يترك والدأ ولا ولدأ)) قابل حكم الكلاله في التوراة (عدد ٢٧ : ١ - ١١).

(٢) الآيات (١ - ٧) ((احتوت حثاً قوي الأسلوب على الجهاد والشدة في القتال مع الكفار والأتخان فيهم. وتعبير (صدوا عن سبيل الله - إذا لقيتم) قرينتان حاسمتان على أن الحث ليس على قتال الكفار إطلاقاً بل على قتال الذين صدوا عن سبيل الله ومنعوا عن الإسلام، والذين كانت حالة الحرب قائمة بينهم وبين المسلمين. وقد احتوت تقريراً لمبدأ تشريعي للأسرى: إذ جعل أمر الأسر للنبي ص. بعد أن تنتهي المعركة فإما أن يسرحهم عفواً ومنأ بدون فداء، وأما أن يستوفي منهم الفدية ويسرحهم. ومما يلفت النظر أن ليس في هذا المبدأ استرقاق للأسرى، مع أن بعض الروايات ذكرت أن النبي ص. ذهب إلى استرقاق سبي هوازن، وأنه استرق سبي بني قريظة وباعه)) . (دروزة: سيرة الرسول ٢ : ٢٥٤).

وقال النحاس (ص ٢٢٠): ((في هذه الآية (فإما منأ بعد وإما فداء) خمسة أقوال: منها إنها منسوخة

- يعد القتلى من المؤمنين بالجنة، والأحياء منهم بالنصرة والثبات (٧).
- ويوعد الكفار بالهزيمة وضياع الأعمال: تلك عاقبة الكافرين (٨ - ١٠).
- الآية (١١) ختام الإعلان: الله مولى المؤمنين، والكافرون لا مولى لهم!
- (٢) تحريض على حرب الكفار (١٢ - ١٥): عاقبة المؤمنين والكافرين:

جزء المؤمنين جنة تجري من تحتها الأنهار؛ و عاقبة الكافرين تمتع وقتي بالكفر<sup>١</sup> ثم النار وذلك لأن المؤمنين على بينة من ربهم؛ والكافرين اتبعوا أهواءهم (١٢ - ١٤) - الآية (١٣) مقحمة<sup>٢</sup>.

- مثل الجنة التي وُعد المتقون: أنهار وأثمار وغفران<sup>٣</sup>! ومثل جهنم حميم في النار يقطع الأمعاء (١٥).

### (٣) حملة على المنافقين (١٦ - ٣٢).

- يفشون أسرار النبي (( لأهل العلم )) أي اليهود: ستأتيهم الساعة (١٦ - ١٨).
- الآية (١٩) مقحمة: استغفار النبي لذنبه، وللمؤمنين والمؤمنات.
- يتقاعسون عن القتال كلما نزلت سورة محكمة وذُكر فيها القتال<sup>٤</sup> (٢٠).

بقتل المشركين حيثما وجدتموهم (براءة) . أو ناسخة لقتل الأسير . ومنهم من قال إنها محكمة والإمام مخير في الأسارى : إن شأؤوا قتلوهم ، وإن شأؤوا استعبدوهم ، وإن شأؤوا فادوا بهم ، وإن شأؤوا منتوا عليهم)) : إذن تحوي الآية مبدأ استرقاق الأسرى ، وقد أيده النبي بمثله في أسرى اليهود ، ونواه في أسرى هوازن لولا إسلامهم للحال .

- (١) الآية ١٢ (( الذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام والنار مثوى لهم )) فكرة إنجيلية : قابل التمتع الوقتي بالخطيئة في الرسالة إلى العبرانيين ، والموقف ذاته من المترددين اليهود في الجهاد المسيحي .
- (٢) الآية ١٣ (( وكأين من قرية هي أشد من قرينك )) : في أسباب النزول أنها نزلت على طريق الهجرة .
- (٣) الآية ( ١٥ ) أنهار جنة القرآن من ماء ولبن وخمر وعسل لها مثلها في التلمود ( مدراش رابي يشوع ابن لاوي ، ويلكوت السمعاني على التوراة ٢٠ ) : (( لكل من الخالصين عرش تجري من تحته أنهار أربعة : من لبن وخمر وعسل وماء بلسمي . يحوط بكل ناج ستون ملاكاً يقولون له : (( خذ وذق )) ! . نقل التلمود أنهر جنة عدن الأرضية إلى السماء ، فجاراه القرآن .
- (٤) الآية ( ٢٠ ) تنص على أن في القرآن سورة محكمة ، كأنه فيه أيضاً سور غير محكمة . وفي آل عمران ( ٧ ) يذكر (( آيات محكمات وأخر متشابهات )) .

فأولى لهم طاعة وقول معروف لئلا يرجعوا إلى الحرب الأهلية؛ أولئك لعنهم الله! وأولى لهم أن يتدبروا القرآن (٢١- ٢٤).

- الشيطان هو الذي سؤل للمرتدين عن الهدى أن يتأمروا مع المشركين في بعض الأمر (٢٥- ٢٨).

والله يخرج أضغانهم، وقد يُعرّفهم بسيماهم (٢٩- ٣٠).

**ختام:** الجهاد بلاء للمؤمنين، وخسران للمنشقين عن الرسول (٣١- ٣٢).

(٤) **تحريض على الطاعة والشجاعة والإنفاق** (٣٣- ٣٧).

**ختام السورة ( آخر ٣٧ ):** (( إن تتولوا يستبدل قوماً غيركم! ثم لا يكونوا أمثالكم )) !

\*

\* \*

السورة السابعة: (أو ٩٧) الأحزاب (٣٣) حملة المشركين الثانية العامة على الإسلام.

فذلكة : كانت حملة الأحزاب المؤتلفة الثانية ، والعامة على المدينة للقضاء على الكيان الإسلامي في آذار سنة ٦٢٧م كان زحف الأحزاب نتيجة لتحريض وفد يهودي ( ٢ ) لزعماء مكة وقبائل غطفان وقيس وعيلان ، وتحالفهم معهم على القضاء على الإسلام في عرينه بالمدينة . وكان عدد الغزاة نحو عشرة آلاف ، وكان زحفهم في السنة الهجرية الخامسة ( ٣ ) . وما جرى في وقعة أُحد هو الذي حمل النبي والمسلمين على البقاء قرب المدينة . وتقرر بإشارة سلمان الفارسي ر. حفر خندق ( كلمة فارسية ) حول القسم المكشوف من المدينة ، وتم حفره قبل وصول الغزاة ، وعسكر المسلمون من ورائه ، وكان عددهم ثلاثة آلاف . وكان الخندق حائلاً دون التشابك . وظل الغزاة عشرين يوماً يحاصرون المدينة ، ولم يقع إلا حوادث قتال وبراز فردية ، وإلا تراشق بالنبال حيناً بعد آخر ، ولم يُصب إلا

(١) الآية ٣٣ في ( أسباب النزول ): (( كان أصحاب رسول الله ص. يرون أنه لا يضير مع ( لا إله إلا الله ) ذنب ، كما لا ينفع مع الشرك عمل فنزلت )) .

الآية ٣٥ (( فلا تنهوا وتدعوا إلى السلم وأنتم الأعلون )) قالوا إنها ناسخة لقوله ( وإن جنحوا للسلم فاجنح لها ) جاءت تمنع الجنوح إلى الصلح إذا لم يكن بالمسلمين حاجة عامة له .

(٢) في ( أسباب النزول ) للسيوطي : (( أخرج ابن إسحاق عن ابن عباس قال : كان الذين حزبوا الأحزاب من قريش وغطفان وقريظة حبي بن أخطب ، وسلام بن أبي الحقيق ، وأبو رافع ، والربيع بن أبي الحقيق ، في نفر من بني النضير ونفر من بني وائل )) . وكان قادة المؤامرة من بني النضير ، هربوا بعد جلاء بني قومهم : فمؤامرتهم عمل انتقامي لقومهم .

(٣) هناك اختلاف في الآثار على عام غزوة الخندق : فابن إسحاق يجعلها سنة خمس هجرية ( السيرة ٣ : ٢٢٤ ) وموسى بن عقبة في ( المغازي ) يضعها سنة أربع . والسيرة أقرب إلى منطق الحوادث وتتابعها .



أفراد من الطرفين . ثم أتى شخص من غطفان ، مسلم سراً ، فأمره النبي بالتخذيّل فسعى بين قريش واليهود حتى أوجد الشك والفتور بينهم . وثارت زوبعة شديدة أزجت الغزاة فارتحلوا ( ١ ) .

وللحال حاصر النبي بني قريظة خمساً وعشرين ليلة حتى سلموا بدون قيد ولا شرط : فقتل الرجال وسبى النساء والذراري والأملاك ووزعها على المسلمين مع الاحتفاظ بالخمس للنبي وبيت المال .

وكما زلزل المسلمون بغزوة الخندق زلزلاً شديداً زلزل النبي في بيته زلزلاً أشدّ بقصة زينب بنت جحش، زوجة ابنه المتنبّي زيد بن حارثة ، وما تبعها من شؤون وشجون في هذه السنة الخامسة الهجرية بين يدي غزوة الأحزاب ، حتى صدرّ السورة بقصتها قبل قصة الحملة على المدينة . وبحسب ترتيب السورة ، تبدأ القصة قبل غزوة الخندق ، بإبطال شريعة التبني ، وتتم بعد فشل الحملة بالزواج منها بأمر رباني ! تبعه ضمّ جويرية بنت الحارث القرظية إلى حريم النبي : فتمت الأزمة البيئية .

في سورة الأحزاب تتداخل الأقسام تداخلاً غريباً ، لعله من تشابك الأحداث فيها : فقصة غزوة الخندق وحصار بني قريظة ( ٩ - ٣٨ ) يقطع حديث زواج النبي من زينب بنت جحش ( ٤ - ٨ ثم ٣٨ - ٤١ ) . وهذه القصة يقطعها حديث البلية التي حدثت في بيت النبي بسبب هذا الزواج ( ٢٨ - ٣٥ ثم ٥٠ - ٦٢ ) ويعترض سياق الحوادث ثلاث آيات مستقلة : محمد خاتم الأنبياء ( ٤٠ ) الصلاة على النبي ( ٥٦ ) والسؤال عن الساعة ( ٦٣ ) .

وقيل فيها من المنسوخ موضعان ومن الناسخ موضع ( الآية ٥٠ ) .

**مطلع ( ١ - ٣ ):** يا أيها النبي اتق الله ولا تطع الكافرين والمنافقين<sup>٢</sup> .

أولاً : **إبطال التبني ( ٤ - ٨ )** - (( وهو عادة مستحكمة في العرب وفي سائر الشعوب<sup>٣</sup> )) .

- ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه، وما جعل أدياءكم أبناءكم.

- وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله من المؤمنين والمهاجرين<sup>٤</sup> .

- هذا ميثاق الله على النبي . عليه أن يصدق<sup>٥</sup> !

\*

(١) دروزة : سيرة الرسول ٢ : ٢٨٦ .  
 (٢) الآية ( ١ ) هذا المطلع يشعر بأن قصة إبطال شريعة التبني ، وقصة زينب قد سببا لغطاً كثيراً بين الكافرين والمنافقين ، رشح إلى المسلمين أنفسهم .  
 (٣) عبد المتعال الصعيدي : النظم الفني في القرآن ٢٤٥ .  
 (٤) الآية ٦ استطراد من إلغاء عادة التبني العامة إلى إلغاء شريعته الأولى في التوارث بمواخاة الهجرة (أنفال ٧٢) لما في إلغاء التبني من تعارض مع تشريع الإرث بالمواخاة الإسلامية .  
 (٥) الآيات ( ٤ - ٨ ) مهّد بإلغاء عادة التبني ، وإلغاء الإرث بالمواخاة الإسلامية ، إلى زواجه من زينب ، زوجة متبنتاه زيد بن حارثة .  
 الآية ٥ أخرج البخاري عن ابن عمر قال : ما كنا ندعو زيد بن حارثة إلا زيد بن محمد حتى نزل : (( ادعوهم لأبائهم هو أقسط عند الله )) ( أسباب النزول للسيوطي ) .

ثانياً : غزوة الخندق (٩- ٢٠)

- (١) زلزال المؤمنين الشديد وقت الغزوة والحصار (٩- ١١).
- (٢) موقف المنافقين أثناء الغزوة<sup>١</sup> (١٢- ٢٠): تشكيك (١٢) تخاذل (١٣) نقض للعهد (١٥) جبن (١٨) بخل وخوف وألسنة حداد (١٩).
- (٣) موقف المؤمنين الصادقين (٢٠- ٢٥): إيمان (٢٢) صدق العهد (٢٣) جزاؤهما نصر بلا قتال (٢٥).

\*

ثالثاً : القضاء على بني قريظة (٢٦- ٢٧)

- (( فريقاً تقتلون وتأسرون فريقاً )) (٣٦).
- (( وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأرضاً لم تطئوها )) (٢٧).

\*

رابعاً : أمر النبي بتخيير نساؤه (٢٨- ٣٥)

- (١) طلب من بعد غنائم بني قريظة زيادةً في النفقة ، غيراً منهن لزواج جديد، فخيرهن بين البقاء على حالهن أو الطلاق (٢٨- ٣١).
- (٢) تهذيب لنساء النبي يناسب مقامهن من النبوة: لا تخضعن فيطمع فيكن الذي في قلبه مرض (٣٢) وقرن في بيوتكن بلا تبرج (٣٣) أقمن الصلاة والزكاة وأطعن الرسول (٣٣) واذكرن ما يتلى في بيوتكن من آيات الله والحكمة (٣٤) - الآية ٣٥ مقحمة<sup>٢</sup>.

\*

(١) الآية ١٥ (( إذا انطلقتم إلى غنائم لتأخذوها )) : توحى بأنه لم تكن سرايا والغزوات لوجه الله والإسلام دائماً بل كانت أحياناً دوام حالة الجاهلية التي تعتبر الغزو باب معيشة مشروع .

(٢) الآية ٣٥ (( أخرج الترمذي عن أم عمارة الأنصاري أنها أتت النبي ص. فقالت : ما أرى كل شيء إلا للرجال ! وما أرى النساء يذكرن بشيء ! فنزلت : إن المسلمين والمسلمات )) ( أسباب النزول للسيوطي ) .

خامساً: (( تزويج النبي مطلقة زيد )) زينب بنت جحش (٣٦- ٤٨) خطاب أول

**المبدأ (٣٦):** (( ما كان لمؤمن ولا مؤمنة، إذا قضى الله ورسوله أمراً، أن يكون لهم الخيرة من أمرهم )) !

**العمل (٣٧):** ما بين التظاهر (( إذ تقول لزيد أمسك عليك زوجك واتق الله )) وبين الحقيقة والواقع. (( وتخفي في نفسك ما الله مبديه! وتخشى الناس! والله أحق أن تخشاه )) !

**الهدف (٣٧):** (( فلما قضى زيد منها وطراً زوجناكها لكي لا يكون على المؤمنين حرج في أزواج أدعيائهم )) .

**التعليل (٣٨- ٤٠) الديني:** (( ما كان على النبي من حرج فيما فرض الله له )) تلك سنة الله مع أنبيائه: لهم الميزة على غيرهم؛ والتعليل الواقعي: (( ما كان محمد أباً أحد من رجالكم! ولكن رسول الله وخاتم النبيين )) .

(١) الآية ٣٧ (( أخرج البخاري عن أنس أن هذه الآية نزلت في بنت جحش وزيد بن حارثة )) ( أسباب النزول السيوطي ) . وقال الجلالان : (( وتخفي في نفسك ما الله مبديه ، مظهره من محبتها ، وإن لو فارقتها زيد تزوجتها . وتخشى الناس أن يقولوا : تزوج زوجة ابنه ! والله أحق أن تخشاه في كل شيء وفي تزوجها )) . (( وأخرج مسلم وأحمد والنسائي قال : لما انقضت عدة زينب قال رسول الله ص. لزيد : اذهب فاذاكرها علي ( وهذا طلبهم للخطبة والزواج ) فانطلق فأخبرها فقالت : ما أنا بصانعه شيئاً حتى أوامر ربي فقامت إلى مسجدها . ونزل القرآن وجاء رسول الله ص. فدخل عليها بغير إذن ! قال : ولقد رأينا رسول الله ص. أطعنا عليها الخبز واللحم ! قيل (( وما أولم على امرأة من نسائه ما أولم عليها : ذبح شاة وأطعم الناس الخبز واللحم حتى امتدّ النهار )) ! وأخرج الترمذي عن عائشة قالت : لما تزوج النبي ص. زينب قالوا : تزوج حليمة ابنه ! فانزل الله : ما كان محمد أباً أحد من رجالكم ! ( أسباب النزول ) وصارت زينب منافسة عائشة في حرم النبي ، وكانت تفخر على نسائه : لقد أزوجني الله !

(٢) الآية ( ٤٠ ) (( ما كان محمد أباً أحد من رجالكم ولكن كان رسول الله وخاتم النبيين )) . قال الزمخشري: خاتم ( بفتح التاء ) بمعنى الطابع ، وبكسرهما بمعنى الطابع وفاعل الختم . وتقويه قراءة ابن مسعود ( ولكن نبياً ختم النبيين ) يعني أنه لو كان له ولد ، بالغ مبلغ الرجال لكان نبياً ، ولم يكن هو خاتم الأنبياء )) . قال الجلالان : (( خاتم ( بالكسر ) فلا يكون له ابن رجل بعده . وفي قراءة بالفتح كآلة الختم أي به ختموا . وإذا نزل السيد عيسى يحكم بشريعته )) . - وفاتهم جميعاً أن النبوة لا تورث ، أكان لمحمد ولد أم لم يكن له ولد . والقراءة بالفتح أم بالكسر بمعنى الطابع الذي يختم نبوة الأنبياء أن يصدقها . ومعنى أن محمداً خاتمة الأنبياء لا يرد في القرآن ؛ أما المتواتر في القرآن أن محمداً يصدق الأنبياء وأن القرآن تفصيل وتصديق للكتاب : فالختم هنا بمعنى التصديق للنبيين ، لا بمعنى خاتمتهم .

**توجيه للمسلمين (٤٤- ٤١)** أن يذكروا الله ويسبحوه على كل حال! (٤١- ٤٤). ))  
وبشر المؤمنين - إن فعلوا - بأن لهم من الله فضلاً كبيراً )) (٤٥- ٤٧).

**ختام (٤٨)** يختم قصة زينب كما بدأها (١): لا تطع الكافرين والمنافقين ودع أذاهم.

\*

سادساً : **خصائص النبي في أزواجه<sup>٢</sup> سنة الله في أنبيائه (٥٠- ٦٢)**

خطاب ثانٍ في الحادثة

تشريع مستقل (٤٩) الطلاق قبل المس لا عدة فيه.

**الميزة الأولى:** إحلال أزواجه له وإن زاد عددهن على أربع؛ مع العلم بحكم ))  
الأربع )) للمسلمين (( لكي لا يكون عليك حرج )) . (٥٠) مع إحلال الإماء بلا حد كما لسائر  
المسلمين.

**الميزة الثانية:** إحلال قريباته اللاتي هاجرن معه، له، زيادة على (( الأربع )) المفروضة  
على المسلمين<sup>٣</sup>.

**الميزة الثالثة:** إحلال النكاح له من كل (( امرأة مؤمنة )) بلفظ الهبة من غير صداق؛  
مع العلم بأن لا يتزوج المسلمون إلا بولي وشهود ومهرٍ (( لكي لا يكون عليك حرج )) .

(١) الآية ٤٣ (( لما نزلت ( إن الله وملائكته يصلون على النبي الآية ٥٦ ) قال أبو بكر : يا رسول الله ما أنزل  
الله عليك خيراً إلا أشركنا فيه ، فنزلت ( هو الذي يصلّي عليكم وملائكته ) )) ( أسباب النزول ) .  
(٢) قابل عبد المتعال الصعيدي : النظم الفني في القرآن : ٢٤٨ (( خصائص النبي في أزواجه )) وفي منطق  
التشريع أن النبي (( أسوة حسنة )) لأمته في تنفيذ شريعته ، لا في استثنائه منها .  
- لم تهدأ الضجة الكبرى التي أثارها زواجه من (( حليّة ابنة المتبنى )) بتعطيل عادة التبني وشريعته ،  
فالتجأ في هذا الفصل الثاني إلى إخماد الضجة والفتنة إلى خصائص النبي وميزات النبوة بحسب سنة الله في  
أنبيائه .

( ٣ و ٤ ) الآية ( ٥٠ ) الآية لا تبيح له الزواج من قريباته في الدرجة الرابعة ( قابل في التوراة سفر  
الأخبار ف ١٠ ) (( وامرأة مؤمنة إن وهبت نفسها للنبي )) قال الزمخشري : (( وأحللنا لك من وقع لها أن تهب  
لك نفسها ، ولا تطلب مهراً ، من النساء المؤمنات ، إن اتفق ذلك . ولذلك نكرها . واختلف في اتفاق ذلك :  
فعنى ابن عباس ر . ( لم يكن عند رسول الله ص . أحد منهنّ بالهبة ) . وقيل الموهوبات أربع : ميمونة بنت  
الحارث ، وزينب بنت خزيمة أم المساكين الأنصارية ، وأم شريك بنت جابر ، وخولة بنت حكيم - رضي الله  
عنهن . قرئ ( إن وهبت ) على الشرط - وقرأ الحسن ( أن ) بالفتح على التعليل بحذف اللام . وقرأ ابن مسعود  
بغير ( إن ) . وقوله ( خالصة ) بمعنى خلوصاً لك ؛ والدليل على أنها وردت في أثر الإحالات الأربع  
مخصوصة برسول الله ص . التوكيد لها قوله ( قد علمنا ما فرضنا ) وقوله ( لكيلا يكون عليك حرج )

(( وكان الله غفوراً فيما يعسر التحرز منه، رحيماً بالتوسعة في ذلك )) (٥٠).

**الميزة الرابعة:** التخيير في المضاجعة والطلاق: (( ترجى من تشاء وتؤوي إليك من تشاء )) فلا جناح عليك<sup>١</sup> (( (٥١)).

**الميزة الخامسة:** التخيير في القسمة وفي إرجاع المعزولة: (( ومن ابتغيت ممن عزلت، فلا جناح عليك<sup>٢</sup> )) (٥١).

حيث أحلنا لك أجناس المنكوحات ، وزدنا لك الواهبة نفسها )) . والتكثير دلالة الإطلاق والتعدد . قابل تفسير الآية ( ٥٠ ) في الجلالين والبيضاوي . وفي أسباب النزول (( أن أم شريك الدوسية عرضت نفسها على النبي ص . وكانت جميلة فقبلها ؛ فقال عائشة : ( ما في امرأة حين تهب نفسها لرجل خير ) ! فنزلت الآية ( وامرأة مؤمنة إن وهبت نفسها للنبي ) فلما نزلت هذه الآية قالت عائشة ( إن الله يُسرّع لك في هোক ) ! ( ١ و ٢ ) الآية ( ٥١ ) قال الجلالان : (( تؤخر من تشاء من أزواجك عن نوبتها، وتضم إليك من تشاء ممن فتأيتها )) . وقال الزمخشري : (( تؤخر وتضم ، يعني تترك مضاجعة من تشاء ممنهن ، وتضاجع من تشاء ؛ أو تطلق من تشاء وتُمسك من تشاء . أو لا تقسم لأيهن شئت ، وتقسم لمن شئت ؛ أو تترك تزوج من شئت من نساء أمتك ، وتتزوج من شئت . وعن الحسن ر . ( كان النبي إذا خطب امرأة لم يكن لأحد أن يخطبها حتى يدعها ) . وهذه قسمة جامعة لما هو الغرض : لأنه إما أن يطلق وإما أن يمسك . فإذا أمسك : ضاجع أو ترك ، قسم ( لها توبة ) أو لم يقسم . وإذا طلق أو عزل : فإما أن يخلي المعزولة لا يبتغيها أو يبتغيها . روي أنه أرجى ممنهن سودة وجويرية وصفية وميمونة وأم حبيبة ، فكان يقسم لهن ما شاء كما شاء . وكانت ممن أوى إليه : عائشة وحفصة وأم سلمة وزينب ر . أرجى خمساً وأوى أربعاً . وروي أنه كان يسوي مع ما أطلق له وخير فيه إلا سودة ، فإنها وهبت ليلتها لعائشة ، وقالت : لا تطلقني حتى أحشر في زمرة نساءك )) ! وزاد الجلالان : (( والله يعلم ما في قلوبكم من أمر النساء والميل إلى بعضهن ؛ وإنما خيرناك فيهن تيسيراً عليك في كل مما أردت )) !

الآية ٥١ (( أخرج الشيخان عن عائشة أنها كانت تقول ( أما تستحي المرأة أن تهب نفسها ) ؟ فأنزل الله ( ترجى من تشاء وتؤوي من تشاء ) فقالت عائشة أيضاً : (( أرى ربك يسارع لك في هোক )) ! ( أسباب النزول للسيوطي ) .

وهكذا فلا حرج على النبي في عدد الزوجات ، ولا حرج عليه في قريباته ، ولا حرج عليه في الهبة ، ولا حرج عليه في شروط العقد من ولي وشهود ، ولا حرج عليه في العدل بين نسائه في الفراش والنفقة ، ولا حرج عليه في العزل والطلاق . بل الحرج كل الحرج على أزواجه في الحجاب ، وفي معاطاة الناس ، وفي القناعة بما قسم لهن ، وفي الظهور والزينة ؛ والحرج كل الحرج على المسلمين في نكاح أزواجه بعده ، أو نكاح من خطبها لنفسه، أو نكاح من وهبت نفسها له ، وفي الاستئذان لدخول بيوته ، والاستئجال بالخروج متى قضيت حاجتهم ، وعدم إيدانه بأي حادث من حوادث حياته الزوجية : (( تلك سنة الله في الذين خلوا من قبل )) من الأنبياء ؛ فكرامة النبوة لا تقيّد بالقيود المفروضة على المؤمنين .

- الآية (٥٢) « لا يحل لك النساء من بعد! ولا أن تبذل بهن من أزواج ولو أعجبك حسنهن - إلا ما ملكت يمينك - وكان الله على كل شيء رقيباً » - فيها مشكل في الموضوع والنسق<sup>١</sup>.

(١) الآية (٥٢) « لا يحل لك النساء من بعد » تتعارض موضوعاً مع الآية (٥٠) « إنا أحلنا لك » النساء ، كما في حديث عائشة « ما مات رسول الله ص. حتى أحل له النساء » الذي أخرجه جميع أهل الحديث . قال الزمخشري « حديث عائشة يعني أن الآية (٥٢) قد نسخت ؛ ولا يخلو نسخها إما أن يكون بالسنة ، وإما بقوله تعالى ( إنا أحلنا لك أزواجك الخ ) وترتيب النزول ليس على ترتيب المصحف » . وجاء في الإتيان ( ٢ : ٢٤ ) « ليس في القرآن ناسخ إلا والمنسوخ قبله في الترتيب إلا في آيتين آية العدة في البقرة وقوله « لا تحل لك النساء من بعد » . فالناسخ سبق المنسوخ هنا ! وما ضرهم لو قالوا إنها مقحمة على السياق ، وهي الآية التي بها ختم الضجة الكبرى الأولى لما تزوج زينب زوجة متبناه زيد . ولما لم تهدأ الضجة بل تجددت وزادت نزلت آية التحليل الكبرى التي أحل له بها النساء ( ٥٠ ) « سنة الله في أنبيائه » قال أبو جعفر النحاس : « اختلفوا هل هي منسوخة بالقرآن أم بالسنة . وعن عائشة وأم سلمة : لم يمت رسول الله حتى أحل له أن يتزوج من النساء من شاء إلا ذات محرم . قال عمر بن عفرة : لما قالت اليهود ( ما لمحمد شغل إلا التزوج ) فحسدوه على ذلك ، فأنزل الله « أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله »؟! »

وأجمعوا « صح عندنا وثبت أن رسول الله ص. تزوج خديجة ، فلم يتزوج عليها حتى ماتت . ثم تزوج سودة بنت زمعة . ثم عائشة بنت أبي بكر . ثم أم سلمة بنت أبي أمية . ثم حفصة بنت عمر . ثم زينب بنت جحش . ثم جويرية بنت الحارث المصطلقية . ثم أم حبيبة بنت أبي سفيان . ثم صفية بنت حيي الخيرية . ثم ميمونة بنت الحارث الهلالية . ثم فاطمة بنت سريج . ثم زينب بنت خزيمة . ثم هند بنت يزيد . ثم أسماء بنت النعمان . ثم هبلة بنت قيس أخت الأشعث . ثم أسماء بنت سبأ » . وقال الواحدي : « والمجمع عليه أنه تزوج أربع عشرة : التسع التي مات عنهن ، وتزوج أيضاً خديجة وزينب بنت خزيمة وريحانة ومتن عنده ؛ وتزوج فاطمة بنت الضحاك وأسماء بنت النعمان ولم يدخل بهما » . وهذا كله سوى الإماء المعروف منهن مريم القبطية أم إبراهيم وجاء في ( السمط الثمين ٣٩ ) عن عائشة أنهن كن في بيت النبي حزبين : حزب عائشة وكان منه حفصة وسودة وصفية ؛ وحزب أم سلمة وزينب بنت جحش وسائر الأزواج .

وأسباب هذه الزيجات أسباب إنسانية أحياناً ، وأحياناً سياسية . ولكن القرآن ينص على أن قلب النبي ، وهو الرسول البشر « إنما أنا بشر مثلكم » كان يخفق أحياناً للحب والجمال ، كما يشهد في قوله « ولو أعجبك حسنهن » ؛ وقد فسره الزمخشري « وتقديره : مفروضاً إعجابك بهن » ! وكما يصف ذاته في حب زينب بنت جحش : « وتخفي في نفسك ما الله مبديه » وقد فسره الزمخشري : « فإن قلت ما الذي أخفى في نفسه ؟ قلت : تعلق قلبه بها . وعن عائشة : لو كتم رسول الله ص. شيئاً مما أوحى إليه لكتم هذه الآية ؛ و ( الواو ) في ( وتخفي وتخشى ) للحال أي تقول لزيد : امسك عليك زوجك ، مخفياً في نفسك إرادة أن لا يمسكها ، وتخفي خاشياً قاله الناس ؛ أو ( واو ) العطف كأنه قيل : وإذ تجمع بين قومك لأمسك ، وإخفاء خلافه ، وخشية الناس ؛ « والله أحق أن تخشاه حتى لا تفعل مثل ذلك » .

**الميزة السادسة:** الاستئذان قبل دخول بيوت النبي، وإلى طعام، ودون انتظار نضجه دون الاستئناس إلى حديث بعد الطعام (٥٣).

**الميزة السابعة:** (( وإذا سألتموهن متاعاً فاسألوهن من وراء حجاب، ذلكم أطهر لقلوبكم وقلوبهن )) .

**الميزة الثامنة:** (( وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله ولا تتكحوا أزواجه من بعده أبداً )) (٥٣-٥٥).

**خاتمة:** (٥٦-٦٢) يا أيها الذين آمنوا صلوا على النبي مثل الله وملائكته<sup>٤</sup> (٥٦).

ولا تؤذوه بقالتكم فيلعنكم الله (٥٧) لئن لم ينته المنافقون، والذين في قلوبهم مرض والمرجفون في المدينة ( بحديث زينب بنت جحش ) لنغرينك بهم، لعناً وتقتيلاً (٦٠-٦١): (( سنة الله في الذين خلوا من قبل ( من الأنبياء ) ولن تجد لسنة الله تبديلاً )) (٦٢).

\*

(١) الآية ٥٣ الحجاب : له أسباب نزول كثيرة : أخرج الطبراني بسند صحيح عن عائشة قالت : كنت أكل مع النبي ص. في قصب ، فمر عمر ، فدعاه ؛ فأكل فأصابته أصبعه فقال ( أوَاه لو أطاع فيكن ما رأتكن عین ) فنزلت آية الحجاب . وعن ابن عباس (( قال له عمر : يا رسول الله لو اتخذت حجاباً فإن نساءك لسن كسائر النساء ! وذلك أطهر لقلوبهن ! فنزلت آية الحجاب )) . وفرض الحجاب عادة الأميرات الشرقيات ، التي أراد النبي أن تكون أمهات المؤمنين أفضل منهن ؛ وذلك جرياً على عادة رهبان عيسى الذين كانوا يطالبون النساء في الحجاب في ذلك الزمان .

(٢) الآية ٥٣ نكاح أزواج النبي من بعده منعه كما منعه الشريعة التلمودية بحق نساء ملوكهم من بعدهم ... وفي أسباب النزول عن ابن عباس (( إن رجلاً أتى بعض أزواج النبي ص. فكلمها وهو ابن عمها . فقال النبي ص. ( لا تقومن هذا المقام بعد يومك هذا ) ! فقال : يا رسول الله إنها ابنة عمي ، والله ما قلت منكراً ولا قالت لي . قال النبي ص. ( قد عرفت ذلك أنه ليس أحد أغير من الله ! وأنه ليس أحد أغير مني ) ! فمضى وهو يقول : يمنعني من كلام ابنه عمي ! لأتزوجنّها من بعده فأنزّل الله الآية )) .

(٣) الآية ٥٩ (( يدنين عليهن من جلابيهن )) مقحمة على النص الذي يعدد ميزات النبي .  
(٤) الآية ٥٦ (( إن الله وملائكته يصلون على النبي )) قال الزمخشري : (( ومعناه الدعاء بأن يترحم عليه. وقوله ( صلوا عليه ) هل الصلاة واجبة أم مندوب إليها ؟ قلت : بل واجبة وقد اختلفوا في حال وجوبها : فمنهم

سؤال عن الساعة (٦٣- ٦٨) وهو مقحم من زمن آخر.

\*

سابعاً : **خطاب ثالث وأخير في حادثة زينب (٦٩- ٧٢).**

لا تكونوا كالذين آذوا موسى فتيراً الله مما قالوا (٦٩).

اتقوا الله وقولوا سديداً يصلح لكم أعمالكم ويغفر لكم ذنوبكم (٧٠- ٧١).

النبوة أمانة تعجز عنها السماوات والأرض، فقدرها حق قدرها (٧٢- ٧٣).



---

مَنْ أوجبها كلما جرى ذكره . ومنهم من قال تجب في كل مجلس مرة وإن تكرر ذكره . وكذلك في كل دعاء، في أوله وآخره . ومنهم من أوجبها في العمر مرة ، وكذا قال في إظهار الشهادتين )) .  
- ما بين صدر الآية ٥٦ (( إن الله وملائكته يصلون على النبي )) وآخرها (( يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليماً )) تعارض لفظي : الصلاة من العبد على النبي تكون إلى الله ، ومن الله على النبي تكون لمن ؟ السلام من العبد على النبي حق معروف ، ولكن السلام من الله عليه كيف يكون .



## البحث الثالث

### الانتقال من الدفاع إلى الهجوم - بعد تصفية يهود المدينة

(الخندق شوال ٥هـ (أذار ٦٢٧م) - الحديبية آخر السنة ٦هـ (أذار ٦٢٨م)

« وعد الله (المؤمنين) ليستخلفنهم في الأرض، ويمكنن لهم دينهم، وليبدلتهم من بعد خوفهم أمناً »  
(النور ٥٥)

\*

### تمهيد

#### أحداث الفترة من السيرة لابن هشام.

١- « يمكن أن يقال، استدلالاً من أحداث العهد المدني، وما كان من عدا وفضال مستمرين بين النبي والمسلمين من جهة، وأهل مكة من جهة أخرى، مما احتوى القرآن المدني إشارات عدة إليه، إن أهل مكة ومن ظل متأثراً بموقفهم الجودي والعدائي - وخاصة من كان في منطقتهم من قرى وقبائل - قد ظلت أكثريتهم الساحقة جاحدة منقبضة على الاستجابة إلى الدعوة، إلى أن فتحت مكة ودانت للإسلام أي إلى السنة الثامنة للهجرة ... ولم يتبدل الموقف إجمالاً بعد ارتداد الأحزاب عن المدينة بغيظهم ( في وقعة الخندق ) دون أن ينالوا خيراً ( الأحزاب ) لأن حالة الحرب والعداء ظلت قائمة إلى ما بعد سنتين تقريباً أي إلى أن انعقد صلح الحديبية في أواخر السنة السادسة. وهو الصلح الذي نزلت فيه سورة الفتح ...

« ويسوغ القول إن عرب المدينة قد دانوا بالإسلام جميعهم على تفاوت السرائر منذ عهد مبكر من الهجرة. ومما لا يمكن إغفاله أنه كان في المدينة فئة من المنافقين ( أي المعارضين ) وأنه كان مندمجاً فيها غير قليل من أهلها، بل زعمائها أيضاً. وان حركة النفاق كانت قوية مزعجة في مبادئ العهد. وظلت كذلك إلى أوائل النصف الثاني منه. وان القرآن كثيراً ما وصفهم بالكفر، وحكى مواقفهم الكيدية والساخرة والكافرة الخ.

« أما من حول المدينة من القبائل فإن عدم ذكر الروايات خبر اشتراك أحد منهم في الوقائع الحربية التي وقعت في السنوات الخمس الأولى من الهجرة النبوية، إلى جانب المسلمين، يدل على أنه لم يكن قد انضوى إلى الإسلام منهم أحد إلى السنة المذكورة. وإذا لاحظنا أن وقعة الخندق خاصة كانت زحفاً عظيماً متحالفاً، وان خبره قد وصل قبل قدومه بمدة تمكن المسلمون فيها من حفر الخندق حول المدينة، لم يعد ثمة محل لورود أي احتمال آخر لأنه لو كان هناك مسلمون بمقياس واسع في القبائل المجاورة لكان النبي ص. استنفرهم إلى شدّ أزر المدينة في دفع الكارثة التي كادت تعصف بها وبالإسلام - هذا إلى ما احتوته روايات السيرة من أخبار عدد غير يسير من غزوات النبي ص. وسراياه ضد قبائل العرب النازلة حول المدينة أو في منطقة حدودها، مما يدل على وقوف هذه القبائل موقف البغي والعداء من المسلمين والحركة الإسلامية. ولا ننفي الالتحاق الفردي به من القبائل والقرى المجاورة للمدينة. أما بعد وقعة الخندق فالقرآن ( الفتح ١١ - ١٦ ) يلهمنا أن الحال قد تبدّل. »

\*

٢- كانت حملة قريش وأحزابها على المدينة، تلك الحملة الفاشلة، نقطة انتهاء تهديدهم للنبي والمسلمين والمدينة، وبدء انطلاق الإسلام في السيطرة والهجوم، بعد تصفية يهود المدينة تصفية نهائية.

فقد أخذ محمد يعرض عضلات جماعته على إعراب منطقة المدينة ليفرض عليهم هيئته، ويحقق على الأقل حيادهم في حملة الانتقام التي بدأ يفكر بها ضد قريش ومكة. فخرج إلى غزوة بني لحيان « على رأس ستة أشهر من فتح قريظة، يطلب بأصحاب الرجيع. فوجدهم قد حذروا وتمنعوا في رؤوس الجبال وأخطأه من غرتهم ما أراد. فقال: لو أننا هبطنا غسفان لرأى أهل مكة أننا قد جننا مكة. فخرج في منّي راكب من أصحابه حتى نزل

غسبان ثم بعث فارسين من أصحابه حتى بلغا كراع الغميم ( وهو وادٍ أمام غسبان إلى جهة مكة على ثمانية أميال. وذكر ابن سعد أنه أُرِدْفهم بعشرة فوارس مع أبي بكر لتسمع بهم قريش فيذعرهم ) ثم كرَّ وراح رسول الله ص. قافلاً<sup>١</sup> .

ثم كانت للحال غارة عينية بن حصن الفزاري في خيل من غطفان على إبل للنبي حوامل ( اللقاح ) بالغابة قرب المدينة، وفيها رجل من بني غفار وامرأة له، فقتلوا الرجل واحتملوا المرأة في اللقاح. فاستصرخ النبي قومه ولحق بهم فأصاب بعض الإبل، ورجع قافلاً إلى المدينة. فقبل لها غزوة ذي قرد<sup>٢</sup> .

\*

### ٣- مقتل سلام بن أبي الحقيق اليهودي في خيبر.

((ولما انقضى شأن الخندق وأمر بني قريظة وكانت الأوس أصابت كعب بن الأشرف في عداوته للنبي قبل أحد؛ استأذنت الخزرج رسول الله ص. في قتل سلام بن أبي الحقيق، وهو بخيبر، فأذن لهم. وأمر على خمسة نفر منهم، عبد الله بن عتيك. فخرجوا حتى إذا قدموا خيبر، أتوا دار بن أبي الحقيق، ليلاً، فلم يدعوا بيتاً في الدار إلا أغلقوا على أهله، وصعدوا إليه إلى العلية، فصاحت امرأته. فابتدرناه وهو على فراشه بأسيافنا )) . وفروا إلى النبي يخبرونه بما فعلوا؛ فهلّل وكبّر<sup>٣</sup> .

\*

### ٤- غزوة بني المصطلق في شعبان سنة ست.

((فأقام رسول الله بالمدينة بعض جمادى الآخرة ورجباً ثم غزا بني المصطلق من خزاعة في شعبان سنة ست. فقد بلغ رسول الله أن بني المصطلق يجمعون له. فخرج إليهم حتى لقيهم على ماء لهم يقال له المُرَيْسِع. فتزاحف الناس واقتتلوا. فهزم الله بني المصطلق وقتل من قُتِل منهم، ونقل رسول الله ص. أبناءهم ونساءهم وأموالهم، فأفأهم عليه )) .

(١) السيرة لابن هشام ٣ : ٢٩٢ .

(٢) السيرة لابن هشام ٣ : ٢٩٧ .

(٣) السيرة لابن هشام ٣ : ٢٨٦ - ٢٨٨ .

(٤) قال السهيلي : (( وقد ثبت عنه عليه السلام الرخصة في النظر إلى المرأة عند إرادة نكاحها )) .

قتل المسلمون منهم عشرة، وأسروا الباقي مع النساء والذراري واستاقوا من الإبل ألفي بعير. ومن الشياه خمسة آلاف. وقد شجّع نجاح هذه الغزوة العملية على مكة إلى الحديبية، في ربيع السنة ذاتها.

وعند العودة تشاجر أجير عمر بن الخطاب مع أنصار من جماعة عبد الله بن أبي زعيم المعارضة للنبي في المدينة. فاستصرخ كل منهما قومه من المهاجرين والأنصار. فقال ابن أبي: « أوقد فعلوها؟ قد نافرنا وكاثرونا في بلادنا! سمّن كلبك يأكلك. أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعرز منها الأذلّ! » وذرت الفتنة قرنهما فأذن الرسول بالرحيل فارتحل. ثم مشى الرسول بالناس يومهم ذلك حتى أمسى، وليلتهم حتى أصبح، وصدر يومهم ذلك حتى أذنتهم الشمس، ثم نزل بالناس فوقعوا نياماً. وإنما فعل ذلك رسول الله ليشغل الناس عما كان من حديث عبد الله بن أبي.

ونزلت السورة التي ذكر الله فيها (( المنافقين<sup>١</sup> )) .

وكان رسول الله قد أصاب من بني المصطلق سبياً كثيراً فقسّمه بين المسلمين. وكان فمن أصيب يومئذ من السبايا جويرية بنت الحارث سيّد قومه. فاستخلصها محمد لنفسه. قالت عائشة: « وكانت امرأة حلوة ملاححة لا يراها أحد إلا أخذت بنفسه. فوالله ما هو إلا أن رأيتها على باب حجرتي فكرهتها وعرفت أن النبي ص. سيرى منها ما رأيت » . وكان ذلك<sup>٢</sup>. فعرّس بها النبي. وخرج الخبر إلى الناس فقالوا: أصهار رسول الله، وأرسلوا ما بأيديهم. وقالت عائشة: « فلقد أعتق بتزويجه إياها مئة أهل بيت من بني المصطلق، فما أعلم امرأة كانت أعظم على قدمها بركة منها<sup>٣</sup> » .

\*

## ٥- حديث الإفك وسورة النور.

« كان رسول الله إذا أراد سفراً أقرع بين نسائه، فأيتهنّ خرج سهمها خرج بها معه. فلما كانت غزوة بني المصطلق، أقرع بين نسائه كما كان يصنع، فخرج سهمي عليهن معه، فخرج بي رسول الله ص. معه » . وكانت غزوة بني المصطلق. فرجع الرسول إلى المدينة.

(١) عن السيرة لابن هشام ٣ : ٣٠٢ - ٣٠٨ .

(٢) قال السهيلي : « وقد ثبت عنه عليه السلام الرخصة في النظر إلى المرأة عند إرادة نكاحها » .

وعلى منزلة عنها تخلفت عن العسكر لحاجة. فمر بها صفوان بن المعطل السلمي الذي تخلف على ساقه العسكر يلتقط ما يسقط من متاع المسلمين حتى يأتيهم به؛ فطلع إلى المدينة يقود بها.

فثارت الشبهة، فقال أهل الإفك ما قالوا. (( وكان كبر ذلك عند عبد الله بن أبي بن سلول في رجال من الخزرج، مع الذين قال مسطح، وحمنة بنت جحش، وذلك أن أختها زينب بنت جحش كانت عند رسول الله ص. ولم تكن من نسائه امرأة تناصيني (تساويني) في المنزلة عنده غيرها. فأشاعت حمنة أختها من ذلك ما أشاعت، تضادني لأختها فشقيت بذلك )) .

وكادت تقع فتنة بين الأوس والخزرج. (( فدعا الرسول ص. علي بن أبي طالب، وأسامة بن زيد، فاستشارهما: فأما أسامة فأثنى عليّ خيراً وقاله. وأما علي فإنه قال: يا رسول الله إن النساء لكثير وإنك لقادر أن تستخلف؛ وسلّ الجارية فإنها ستصدقك )) .

واعترلت عائشة عند أهلها. فعادها الرسول. وهو عندهم نزلت عليه سورة النور ببراءة عائشة. (( ثم أمر بمسطح بن أثاثه، وحسان بن ثابت، وحمنة بنت جحش وكانوا ممن أفصح بالفاحشة فضربوا حدهم )) .

تألب على حديث الإفك حزب زينب في بيت الرسول، وحزب علي وفاطمة من أهله، وجماعة المعارضين المنافقين في الإسلام مع عبد الله بن أبي. وكانت تلك الحادثة السبب البعيد لحرب أهلية في الإسلام بين العلويين أهل البيت والمسلمين، قاتلت فيها عائشة علياً وهي على ظهر بعير في صفين. وكانت من أسباب الانقسام في الإسلام إلى شيعة وسنة.

\*

٦- وبدأت هيبة النبي تفرض على الأعراب حول المدينة؛ وبدأ بعضهم يعقد الأحلاف مع النبي على عدم الاعتداء، ومالت بعض القبائل إلى الإسلام. يظهر ذلك من دعوة النبي بعض القبائل إلى مرافقته إلى الحج في عام الحديبية (٦٢٨ م) فلم يستنسبوا ذلك، وبعد (( فتح الحديبية )) جاؤوا إلى النبي يستعذرون ويطلبون منه أن يستغفر لهم

(١) الروض الأنف .

(٢) عن السيرة لابن هشام ٣ : ٣٠٩ - ٣١٥ .

(فتح ١١ و ١٦). « ولا يمكن أن يُدعى إلى مثل هذا الموقف إلا مسلمون. ولقد روى الرواة والمفسرون أنّ هؤلاء الأعراب قبائل عدة كانت حول المدينة، ودانت بالإسلام. وهي قبائل غفار ومزينة وجهينة وأشجع وأسلم. وأن رحلة النبي ص. إلى زيارة الكعبة قد كانت في أواخر السنة الهجرية السادسة. ومعنى هذا أن هؤلاء الأعراب الذين ذكرتهم آيات الفتح (١١ و ١٦) قد دانوا بالإسلام قبل هذه الرحلة حتماً » .

\*

\* \*

### السورة الثامنة: (أو ٩٨) الطلاق (٦٥) حكم الطلاق والعدّة.

فذلكة : هذه السورة فتوى تشريعية عن أحوال العدّة والطلاق . ربما نزلت بمناسبة طلاق زيد لزينب بنت جحش ، وزواج النبي لها بعد تمام عدتها . وقيل : لا منسوخ فيها ، وفيها من الناسخ موضع .

#### (١) أحكام الطلاق والعدّة (١-٧):

طلقوهن لعدتهن، واحصوا العدّة. فإذا بلغن أجلهن فأمسكوهن بمعروف أو سرحوهن بمعروف. واشهدوا ذوي عدل منكم<sup>٢</sup> (١-٣).

واللائئى يؤسن من المحيض إن ارتبتم فعدتهن ثلاثة أشهر؛ واللائئى لم يحضن (الصغرن) فعدتهن أيضاً ثلاثة أشهر. وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن<sup>٣</sup> (٤-٥).

وأسكنوا المطلقات مساكنكم، ولا تضاروهن. وإن كن أولات حمل فأنفقوا عليهن. فإن أرضعن لكم فأتوهن أجورهن. والنفقة على قدر السعة (٦-٧).

#### (٢) تذكيرهم بالقرى السابقة التي محقها الله لعصيانها وأمره (٨-١٢).

ختام (١٢): الله ينزل أمره من السماء السابعة إلى الأرض السابعة<sup>٤</sup>.

\*

\* \*

(١) دروزة : سيرة الرسول ٢ : ١٩ .  
 (٢) قال الجلالان : « والمسئلتان في غير المتوفى عنهن أزواجهن ، أما هن فعدتهن » ( أن يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشراً » .  
 (٣) الآية ٤ : « وأولات الحمل أجلهن أن يضعن حملهن » قال النحاس ( ص ٢٥١ ) : « قال بعضهم هو ناسخ لحكم المتوفى عنها زوجها . وظاهر القرآن لم يفرّق بين المطلقة والمتوفى زوجها ؛ وكذا السنة » .  
 (٤) الآية ١٢ « خلق سبع سماوات ومن الأرض مثلهن » قال الجلالان : « يعني سبع أرضين » : هل يعلم العلم الحديث أين هي ؟

السورة التاسعة: (أو ٩٩) البينة (٩٨) اليهود شرّ البرية!

فذلكة : نزلت بعد القضاء على بني قريظة تقضي على اليهود بمساواة المشركين في الكفر: إنهم شرّ البرية . ولا ذكر للنصارى فيها ، بل (( للذين كفروا من أهل الكتاب )) . ونستغرب كيف يسلكها بعض المسلمين والمستشرقين في عداد السور المكية. والسورة محكمة.

(١) كانوا يطلبون البينة، رسولاً يتلو كتباً قيّمة منزلة: فجاءتهم البينة بالقرآن والهلاك لكفرهم<sup>١</sup> (١-٥).

(٢) المؤمنون بدين القيّمة هم خير البرية؛ والمشركون واليهود شرّ البرية<sup>٢</sup> (٦-٨).

\*

\* \*

السورة العاشرة: (أو ١٠٠) المنافقون (٦٣) مشاهد النفاق!

فذلكة : نزلت في الفتنة التي أشعلها زعيم المنافقين لحادث شجر عند العودة من غزوة بني المصطلق ، وتحدى فيها النبي والمهاجرين . والسورة فيها من الناسخ موضع ، ولا منسوخ فيها .

(١) اتخذوا أيمانهم بالإسلام جُنّة، أي حجة تستر نفاقهم (١-٣).

(٢) تعجبك أجسامهم كأنهم خشب مسندة؛ وهم جنّاء يفرقون لكل صيحة (٤)!

(٣) وإذا قيل لهم تعالوا يستغفر لكم رسول الله، لووا رؤوسهم وصدوا (٥-٦).

(٤) يقولون: لا تنفقوا على من من عند رسول الله حتى ينفضوا (٧).

(٥) يقولون: لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل! (٨).

**ختم** (٩-١١): عبرة الحادث: لا تلهكم أموالكم وأولادكم عن ذكر الله، وانفقوا على حياتكم<sup>٣</sup>!

\*

(١) الآية ٥ (( وذلك دين القيمة )) : هذه ترجمة حرفية (( للأرثوذكسية )) التي كان يتغنّى بها النصارى في ذلك العهد ، وقد جعلها يحيى الدمشقي عنوان قسم من موسوعته (( الدين الأرثوذكسي أي دين القيّمة )) .

(٢) صار اليهود شرّ البرية ، وكانوا منذ خمس سنوات خلت خير البرية (( وأني فضلتكم على العالمين )) .

(٣) الآية ٣ طلاق الظهار في الجاهلية كان بقولهم (( أنت عليّ كظهر أمي )) فتحرم عليه . قال النحاس : (( من العلماء من قال هي ناسخة العادة الظهار ؛ ومنهم من قال جعل فيه الكفارة )) .

الحادية عشرة : (أو ١٠١) المجادلة (٥٨) حزب الله وحزب الشيطان.

فذلكة : نزلت في ظَهَار خولة بنت ثعلبة من زوجها أوس بن الصامت : تحريم الظهار وبيان حكمه . وتطرّق بهذه المناسبة إلى الكلام على المنافقين الذين يتناجون بمعصية الرسول في أحكامه. والآية ٢٠ ترد على الآية ٨ من المنافقين .

والسورة فيها من الناسخ موضع ، ومن المنسوخ موضع .

(١) بيان حكم الظهار (١-٤): تحريمه وحدوده<sup>١</sup>.

(٢) حملة أولى على المنافقين بهذه المناسبة (٥-٨).

إن الذين يحادّون الله ورسوله كُتِبُوا كما كُتِبَ الذين من قبلهم<sup>٢</sup> (٥-٦).

نُهِوا عن النجوى وعادوا إليها: يتناجون بالإثم والعدوان ومعصية الرسول (٧-٨).

(٣) خطاب للمسلمين (٩-١٣).

تناجوا بالبر والتقوى، فالنجوى الخبيثة من الشيطان<sup>٣</sup> (٩-١٠).

إذا يقل لكم تفسّحوا في المجالس فأفسحوا: وقدموا بين يدي نجواكم للرسول صدقة<sup>٤</sup> (١١-١٣).

(٤) حملة ثانية على المنافقين، حزب الشيطان (١٤-٢١).

تولوا قوماً غضب الله عليهم، فما هم منكم (١٤-١٥).

(١) الآية ٣ طلاق الظهار في الجاهلية كان بقولهم « أنت عليّ كظهر أمي » فتحرّم عليه : قال النحاس : « من العلماء من قال هي ناسخة لعادة الظهار؛ ومنهم قال جعل فيه الكفارة » .

(٢) في الآية ٥ إشارة إلى كبت اليهود ، وتلميح إلى معاملة المنافقين بالمثل .

(٣) الآية ١٠ « لولا أخرتني إلى أجل قريب فأصدّق وأكن من الصالحين » أصلها بالنصب ( فاصدّق وأكون )

(٤) الآية ١٢ « قدموا بين يدي نجواكم صدقة » قال النحاس : « أول من عمل بها علي بن أبي طالب ، ثم

نسخت . قيل : سأل رسول الله : كم ؟ قال دينار . قلت لا يطيقونه ! قال : فكم ؟ قلت : حبة شعير ! قال : إنك

لزهد ، ونزلت الآية الناسخة : « أشفقتم أن تقدموا بين يدي نجواكم صدقات » ؟



اتخذوا أيمانهم بالسلام جنة! فقد استحوذ عليهم الشيطان، فهم حزب الشيطان (١٦-١٩).

إن الدين يحادون الله والرسول في الأذلين<sup>١</sup> (٢٠-٢١).

**ختام (٢٢)** حزب الله لا يوادون المنافقين المنشقين على الرسول ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم: ألا إن حزب الله هم المفلحون!

\*

\* \*

الثانية عشرة: (أو ١٠٢) النور (٢٤) تبرئة عائشة من حديث الإفك.

فذلكة : كانت غزوة بني المصطلق في شعبان سنة ست ، أي في أول العام ٦٢٨ . وفي العودة جرت حادثة عائشة مع صفوان بن المعطل السلمي : تخلفت عن العسكر في حاجة لها ، فلقبها صفوان ، فجاء بها إلى المدينة ، فاتهموها به ( ٢ ) . فنزلت سورة النور بمناسبة تبرئة عائشة من (( حديث الإفك )) .

قال الزمخشري : (( ولو فليت القرآن كله وفتشت عمّا أوعد به من العصاة لم تر الله تعالى قد غلظ في شيء تغليظه في إفك عائشة رضوان الله عليها ، ولا أنزل من الآيات القوارع ، المشحونة بالوعيد الشديد ، والعقاب البليغ والزجر العنيف ، واستعظام ما ركب من ذلك ، واستعظام ما أقدم

(١) الآية ٢٠ (( أولئك في الأذلين )) جواب على مقالة المنافقين في السورة السابقة : (( لنن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعزّ منها الأذل )) ( المنافقون ٨ ) .

(٢) كانت السيدة عائشة ، أم المؤمنين ، زوج الرسول ، وابنة أبي بكر الصديق ، فوق الشبهة . ولكن ظروف الحادثة جعلت للشبهات مأخذاً : زوجة في نحو الخامسة عشرة من سنّها ، يصدّمها في قلبها زواج النبي قبل الغزوة بمنافسة قوية لها زينب بنت جحش ، وبعد الغزوة بجويرية بنت الحارث سيّد بني المصطلق (( امرأة حلوة ملاحه لا يراها أحد إلا أخذت بنفسه )) . ثم كيف رحل الراحل بها ولم يشعر بغيابها ؟ كيف رحل النبي ولم يسأل عنها ، وهو الذي يفرع بين نسائه قبل الغزوة ليصطحب إحداهن معه ، وكانت غيرته على عائشة أكثر من الجميع ؟ وما مدة قضاء الحاجة حتى يرحل العسكر كله ، وهو مئات ، فلا يبقى من تستأنس به ، ويهدبها إلى هودجها ؟ وما بالها تقعد يائسة ، ولا تلحق بالعسكر ، الذي لا يبعده عنها قضاء حاجة ، مسافة يصعب معها اللحاق به ؟ كيف لا تدري بحديث الناس مدة عشرين يوماً ، وكيف تمرض فجأة بعد الحادث وتستمرض عند أهلها ؟ وما كانت حاجة صفوان في تخلفه لحاجة أو لعمل وراء العسكر ، لتدوم حتى الصباح ، فيغيب العسكر ، ولا يلحق به ويمشي على أثره . حاجة دقائق أو ساعة لا تبعد عائشة وصفوان عن العسكر الجرار الراحل حتى يضطرا إلى التخلف عنه إلى الصباح في أرض عدوة لا أمن فيها . وهل يجسر القوم أن يؤذوا رسول الله في أحب الخلق إلى قلبه لو لم يكن للشبهة مأخذ ؟ ... مع كل هذا على المؤمن أن يؤمن ببراءة عائشة أم المؤمنين لأنه نزل بها قرآن كريم .

عليه، ما أنزل فيه على طرق مختلفة وأساليب مفتتة ، كل واحد منها كاف في بابه ؛ ولو لم ينزل إلا هذه الثلاث ( ٢٣ - ٢٥ ) لكفى بها حيث جعل القذفة ملعونين في الدارين جميعاً ، وتوعدهم بالعذاب العظيم في الآخر ، وبأن ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم تشهد عليهم بما أفكوا وبهتوا ، وأنه يوفيهم جزاءهم الحق الواجب الذي هم أهلّه حتى يعلموا عند ذلك « إن الله هو الحق المبين » : فأوجز في ذلك وأشبع ، وفصل وأجمل ، وأكد وكرّر ، وجاء بما لم يقع في وعيد المشركين عبدة الأوثان إلا ما هو دونه في الفطاعة ؛ وما ذاك إلا لأمر ! لقد برأ الله تعالى أربعة بأربعة ، برأ يوسف بلسان الشاهد من أهلها ، وبرأ موسى من قول اليهود فيه بالحجر الذي ذهب بثوبه ، وبرأ مريم بانطاق ولدها حين نادى من حجرها ( إنني عبد الله ) وبرأ عائشة بهذه الآيات العظام في كتابه المعجز ، المتلو على وجه الدهر ، مثل هذه التبرئة بهذه المبالغات : فانظر كم بينها وبين تبرئة أولئك ؟ وما ذاك إلا لإظهار علو منزلة رسول الله ص . « إن الله لا يغفر أن يشرك به ، ولا أن تُمس عائشة ، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ؛ ولما نزلت تبرئتها قال الرسول : « حبك يا عائشة في قلبي كالعروة الوثقى » ! وكان عائشة تقول : « لقد سئل عن ابن المعطل ، فوجدوه رجلاً حصوراً ، ما يأتي النساء ، ثم قتل بعد ذلك شهيداً ( ١ ) » .

والسورة من ثلاث سور : حديث الإفك وما أحاط به من تشاريع ، وسورة النور المقحمة عليه ؛ وسورة استخلافهم في الأرض .

قيل فيها أحد عشر موضعاً ناسخاً ، ومن المنسوخ ثمانية مواضع ، صح منها ستة .

\*

السورة الأولى منها : سورة عائشة: حديث الإفك ( ١ - ٣٤ ) .

**مطلع (١):** سورة أنزلنا وفرضناها وأنزلنا فيها آيات بينات.

**(١) توطئة تشريعية في الزنى والقذف (٢ - ١٠) .**

- حكم الزنى (٢ - ٣) حده: مائة جلدة؛ حكمه: تحريم الزواج من زان أو زانية<sup>٢</sup> .

(١) السيرة لابن هشام ٣ : ٣١٩ .

(٢) الآية ٣ حد الزنى مائة جلدة ، وهو ناسخ لحد الحبس حتى الموت في سورة النساء ( ١٤ ) وقد نسخ بعض حكمها بقوله ( وانكحوا الأيامى منكم ) . واستثنوا بالقرآن حد الأمة الزانية على النصف ( عليهن نصف ما على المحصنات ) وبالقياص حد العبد على النصف ( الإتقان ٢ : ١٦ ) - وقد رفع الإنجيل هذه الحدود الزجرية واكتفى بحد الضمير .

- وفي الآية ( ٣ ) تحريم زواج الزانية بالمؤمن العفيف ، وفيه إشارة أولى نظيفة إلى احتمال براءة عائشة بسبب زواجها من نبي لا يعرف الزنى .

- حكم القذف (٤- ٩) حده: ثمانون جلدة؛ حكمه وشرطه: أربعة شهود؛ وفي حال تعذر وجود شهود الحال أربعة أقسام بالله؛ مع التلاعن<sup>١</sup>.

**ختام (١٠):** لازمة مرددة (( ولولا فضل الله ورحمته عليكم<sup>٢</sup> ...

**(٢) حديث الإفك (١١- ٢٦).**

- لولا جاؤوا عليه بأربعة شهود ( كما شرع )! وينتهي المقطع باللازمة (١١- ١٤).

- لولا قلتم: ما يكون لنا أن نتكلم بهذا، سبحانك، هذا بهتان عظيم - اللازمة (١٥- ٢٠).

- هذا الحديث من الشيطان: فلا تتبعوا خطوات الشيطان - اللازمة (٢١).

- لا تمنعوا الإحسان عن المحتاجين من أصحاب الحديث: يكفيهم غضب الله في الدارين<sup>٣</sup> (٢٢- ٢٥).

**ختام (٢٦):** كما أن الخبيثات للخبيثين، كذلك الطيبات للطيبين: هذه براءتهن<sup>٤</sup>.

**(٣) خاتمة تشريعية: العبرة من الحادثة الاجتماعية (٢٧- ٣٣).**

- حكم الدخول إلى البيوت: الاستئذان والسلام من قبل (٢٧- ٢٩).

---

(١) الآية ٤ شرط صحة الاتهام: أربعة شهود؛ وفيه إشارة أخرى لطيفة إلى براءة عائشة بسبب فقدان الشهود؛ وفيه فتوى في حال تعذر وجود شهود الحال؛ أقسام أربعة مع التلاعن؛ كانت التوراة فرضت تحقيقاً مع اليمين، بإعطاء الزانية ماءً يجلب لعنة الله على الفاعلة الكاذبة، تظهر آثاره للحال (سفر العدد ٥: ١١ - ٣١) وقد نفذ النبي حد القصاص على المقترين في حديث الإفك (السيرة ٣: ٣١٥): يأخذ التشريع هنا مفعولاً رجعياً. والآية (والذين يرمون المحصنات) نسخت بعض حكمها آية اللعان (والخامسة أن غضب الله عليها إن كان من الصادقين).

(٢) الآية ١٠ و ١٤ و ٢٠ سقط فيها جواب (لولا).

(٣) الآية ٢٤ (( يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم )): صورة مسيحية وتلمودية (قابل التلمود البابلي - نشر ونش ١: ٤٣٢).

(٤) الآية ٢٦ (( الطيبات للطيبين )) فيها إشارة ثالثة لطيفة إلى براءة عائشة: إنها بريئة لأنها زوج الطيب بين الطيبين! وفي قوله (( أولئك مبرئون مما يقولون: لهم مغفرة ورزق كريم )) نزلت البراءة!  
- والآية ٢٨ (( لا تدخلوا بيوتاً غير بيوتكم حتى تستأنسوا )) قيل هذا منسوخ بالاستئذان (ليس عليكم جناح أن تدخلوا بيوتاً غير مسكونة فيها متاع لكم)، والمتاع هنا المنفعة. وقيل الآيتان محكمتان وعليه أكثر أهل التأويل.

- حكم النظر: في المؤمن، غضّ النظر؛ في المؤمنة، غضّ النظر مع إخفاء الزينة إلا ما ظهر فيها<sup>١</sup> (٣٠-٣١).

- حكم ضرورة النكاح: (( وانكحوا الأيامي منكم (أحرار وحرائر) والصالحين من عبادكم وإمائكم! ويستعفف الذين لا يجدون نكاحاً حتى يغنيهم الله من فضله )) (٣٢-٣٣).

- الحكم في سبيل تحرير العبيد والإماء: عقد مكتوب على مال مشروط يؤدونه (٣٣).

- الحكم في البغاء: (( ولا تکرهوا فتیانکم علی البغاء إن أردن تحصناً )) (٣٣).

**خاتمة السورة (٣٤) مثل فاتحتها:** (( ولقد أنزلنا إليكم آيات مبینات ومثلاً من الذين خلوا من قبلكم<sup>٢</sup> )) .

\*

السورة الثانية منها: سورة النور (٣٤-٤٦) - مستقلة بذاتها<sup>٤</sup>.

**مطلع (٣٤):** (( الله نور السماوات والأرض )) .

(١) الآية ٣١ (( ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها ، وليضربن بخمرهن على جيوبهن )) قال الجلالان : (( ولا يبدين زينتهن الخفية ، وهي ما عدا الوجه والكفين )) . وقوله (( وليضربن بخمرهن (لباس الرأس) على جيوبهن )) تحدد ما يجب أن تستره المرأة ، وهو صدرها ، لا وجهها : لأن الصدر زينة المرأة الخفية ، والوجه الزينة الظاهرة طبيعياً : (( إلا ما ظهر منها )) . جاء في الإتيقان ( ١ : ١١٨ ) : (( لا يبدين زينتهن إلا لبعولهن : فلا تبدي خلايلها ومعصديها ونحرها وشعرها إلا لزوجها )) :

- وقوله (( وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن )) نسخ بعض حكمها باستثناء (( القواعد اللاتي لا يرجون نكاحاً )) . وقوله (( ولا يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن )) صورة كتابية ، قابل أشعيا النبي : (( اختالت بنات صهيون ! يمشين متلعات الأعناق ، غامزات بالعيون ، يقاربن الخطو في مشيتهن ، ويجلجلن بخلاخل أقدامهن )) ( ٣ : ١٦ ) .

(٢) الآية ٣٢ نكاح الإمام : شريعة توراتية ( خروج ٢١ : ٨ - ١١ ، أحبار ١٨ : ١٩ ) .

(٣) الآية ٣٣ (( فإن الله من بعد إكراههن غفور رحيم )) يذكر الغفران والرحمة حيث يجب ذكر الحساب والعقاب .

(٤) سورة (( النور )) مستقلة عن سورة النور ، يدل عليه تغيير الفاصلة ؛ والسورتان تنتهيان بخاتمة واحدة ( ٣٤ و٤٦ ) .

(١) مثل نور الإيمان كقنديل الزيت المنير في مساجد الرهبان<sup>١</sup> (٣٤- ٣٨).

(٢) ومثل الكفر كسراب في الفلاة، أو كظلمات في بحر لحي لا يكاد يرى المرء يده فيها (٣٩- ٤٠).

**ختام ( آخر الآية ٤٠ ):** (( ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور )) !

\*

**استطراد: نشيد: تسبيح الله القدير (٤١- ٤٥).**

**مطلع مزدوج: - يسبح الله من في السماوات والأرض! كلُّ قد علم صلاته وتسبيحه<sup>٢</sup>!** (٤١).

- لله ملك السماوات والأرض! وإلى الله المصير! (٤٢).

(١) قدرة الله في معجزة السحاب والمطر (٤٣).

(٢) يقلب الله الليل والنهار (٤٤).

(٣) والله خلق كل دابة من ماء: تفصيل (٤٥).

**ختام السورة كلها (٤٦):** لقد أنزلنا آيات مبيّنات<sup>٣</sup>.

\*

---

(١) الآية ٣٤ (( مثل نوره )) في النص العثماني الحالي يرجع الضمير إلى (( الله نور السماوات والأرض )) فيأتي التشبيه كنور المصباح في مشكاة أي كوة ، ضعيفاً ؛ ولذلك وجدت قراءات تجعل الضمير للمؤمن مثل قراءة أبي بن كعب ( مثل نور من آمن به ). وقوله (( من شجرة مباركة ، زيتونة لا شرقية ولا غربية )) أي شامية ؛ قابل استعارة الزيتون والكوكب الدرّي عند زكريا النبي : (( ورأيتُ فإذا بمنارة كلها ذهب . وعليها زيتونتان ، إحداهما عن يمين الكوكب والأخرى عن يساره ... )) ( راجع الفصل الرابع كله . ولفظة (( مشكاة )) حبشية .

مثل المصباح الزيتي كالكواكب الدرّي ، الذي ينيّر مساجد الرهبان ( ٣٦ ) كان على أصل الاستعارة القرآنية ؛ وكما استلقت منظره الكثيرين من شعراء الجاهلية قبل القرآن . والقرآن هنا يعطي تقوى الرهبان ( ٣٧ ) مثلاً للعبادة التوحيدية بالفضلى . وهذا بعد أن جعل اليهود (( شر البرية )) في سورة البينة .

(٢) هذا النشيد صدى للمزمور ( ١٨ : ١ - ٧ ) : (( السماوات تنطق لمجد الله والفلك يخبر بعمل يديه ... في كل الأرض ذاع منطقتهم )) !

(٣) الآية ٤٦ ختام سورة النور كختام سورة عائشة ، بالحرف الواحد .

السورة الثالثة منها: ملاحق متفرقة (٤٧- ٦٤).

**ملحق أول (٤٧- ٥٧) وعيد ووعد.**

- وعيد للمنافقين الذين يرفضون تحكيم النبي (٤٧- ٥٢) ويقسمون كذباً بالخروج للحرب (٥٣- ٥٤).

- وعد للمؤمنين باستخلافهم في الأرض مثل أهل الكتاب، وتبديلهم من بعد خوفهم أمنأً (٥٥- ٥٦).

**ملحق ثان (٥٨- ٦٤) فتاوي مستدركة لما ورد في صدر السورة.**

**ملحق ثالث (٥٨- ٦٤) فتاوي مستدركة لبعض الأحكام.**

(١) حكم دخول الغلمان والأطفال إلى البيوت: وجوب الاستئذان ثلاث مرات في ثلاثة أوقات<sup>١</sup>؛ وإباحة الدخول لهم بغير إذن في غير تلك الأوقات الثلاثة (٥٨- ٥٩).

(٢) حكم لباس الرأس في القواعد من النساء (الكبيرات): لا حرج أن يضعن ثيابهن، والتستر خير (٦٠).

(٣) حكم دخول البيت والأكل فيه بغياب الرجل: لا حرج في ذلك على الأعمى والأعرج والمريض، وعلى أنفسكم في بيوت الأقربين والصدیق<sup>٢</sup> (٦١).

---

(١) الآية ٥٥ «بدأ يأمل النبي باستخلاف جماعته في الأرض مثل أهل الكتاب، وتبديلهم من بعد خوفهم أمنأً: وهذه إشارة واضحة أن السورة نزلت بعد الخندق والأحزاب؛ وإن مركز النبي في الفترة بين الخندق والحديبية بدأ يتوطد.

(٢) الآية ٥٨ «يستأذنكم... ثلاث مرات من قبل صلاة الفجر وحين تضعون ثيابكم من الظهيرة ومن بعد صلاة العشاء» قال النحاس (ص ١٩٨): «فيها ستة أقوال: قيل هي منسوخة. وقيل هي على الندب، وغير واجبة. وأولها قوم أنها في النساء دون الرجال. وقيل هي محكمة والعمل بها واجب لأن القوم لم يكن لهم أغلاق ولا ستور. وقيل لابن عباس: لا يعمل أحد بهذه الآية! قال: الله رفيق حليم رحيم يبذل من حال إلى حال».

(٣) الآيات ٦١ «كان هذا السماح في أول الإسلام ونسخ» البيضاوي - وصدر الآية (٦١) من النور مثل الآية (١٧) من الفتح: في (الفتح) تردُّ لرفع الحرج عن الجهاد، وفي (النور) لرفع الحرج عن المأكلة.

٤) حكم السلام عند دخول بيت (( فسلموا على أنفسكم )) أي على أهلها أو على ذواتكم إن لم يكن بها أحد (٦١).

٥) حكم الاجتماع إلى الرسول في بيوت الندوة: وجوب استئذان النبي قبل الانصراف (٦٢).

٦) حكم نداء الرسول بصفته الكريمة لا باسمه (٦٣).

**ختام (٦٤):** إله السماء والأرض يعلم ما أنتم عليه، وينبئكم به في الآخرة.

